

نفس الطير

من كتابه

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

هَذِيهٌ وَحَقَّقَهُ وَصَبَّحَ نَصْبَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

الذَّكُورُ بِشَارِعُوادٍ مَعْرُوفٍ عَصَامُ فَارِسُ الْحَرَّشَانِي

والمجلد الثالث

للكاتبة إلى الأستاذ

مؤسسة الرسالة



نفس الطي
٢

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

• الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ

يعني جُلُّ ثَنَائِهِ بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا»، يا أيها الذين أقرؤا بوحدةانية الله، وأذعنوا له بالعبودية، وَسَلَّمُوا له الألوهة، وَصَدَّقُوا رسوله محمداً ﷺ في نبوته وفيما جاءهم به من عند ربهم من شرائع دينه. «أَوْفُوا بِالْعُقُودِ»، يعني: أوفوا بالعهود التي عاهدتموها رَبُّكُمْ، والعقود التي عاقدتموها لِيَاہ، وأوجبتم بها على أنفسكم حقوقاً، والزمتم أنفسكم بها لله فروضاً، فأتيموها بالوفاء والكمال والتمام منكم لله بما ألزمكم بها، ولمن عاقدتموه منكم، بما أوجبتموه له بها على أنفسكم، ولا تَنْكُثُوهَا فتتقضوها بعد توكيدها.

و«الإيفاء بالعهد»، إتمامه على ما عقد عليه من شروطه الجائزة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ

اختلف أهل التأويل في «بهيمة الأنعام» التي ذكر الله عَزَّ ذِكْرُهُ في هذه الآية أنه أحلها لنا.

فقال بعضهم: هي الأنعام كُلُّهَا.

وقال آخرون: بل عَنَى بقوله: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ»، أجنَّة الأنعام التي توجد في بطون أمهاتها - إذا نُحِرَتْ أو دُبِحَتْ - ميتة.

وأولى القولين بالصواب في ذلك، قول من قال: غنى بقوله: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةُ الْأَنْعَامِ»، الأنعام كلها: أجنتها وسخّالها^(١) وكبارها. لأن العرب لا تمتنع من تسمية جميع ذلك «بهيمة وبهائم»، ولم يُخصَّص الله منها شيئاً دون شيء. فذلك على عمومِهِ وظاهرِهِ، حتى تأتي حُجَّةٌ بخصوصه يجبُ التسليم لها.

وأما «النعم» فإنها عند العرب، اسمٌ للإبل والبقر والغنم خاصة، كما قال جَلُّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، ثم قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، ففصل جنس النعم من غيرها من أجناس الحيوان.

وأما «بهائمها»، فإنها أولادها. وإنما قلنا يلزم الكبار منها اسم «بهيمة»، كما يلزم الصغار، لأن معنى قول القائل: «بهيمة الأنعام»، نظير قوله: «ولد الأنعام». فلما كان لا يسقط معنى الولادة عنه بعد الكبير، فكذلك لا يسقط عنه اسمُ البهيمَةِ بعد الكبير.

وقد قال قوم: «بهيمة الأنعام»، وَحْشِيَّهَا، كالظباء وبقر الوحش والحُمُرُ^(٢).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ

غنى بذلك: إلا ما يُتلى عليكم من تحريم الله ما حَرَّمَ عليكم بقوله: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ» الآية. لأن الله عزَّ وجلَّ استثنى مما أباح لعباده من بهيمة الأنعام، ما حَرَّمَ عليهم منها. والذي حَرَّمَ عليهم منها، ما بَيَّنَّهُ في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَيْزِرِ﴾ [المائدة: ٣]. وإن كان حَرَّمَهُ الله

(١) السَّخْلَةُ: ولد الشاة، من المعز والضأن، ذكراً أو أنثى.

(٢) هذه مقالة الفراء في (معاني القرآن: ٢٨٩/١).

سورة المائدة: ١ - ٢

علينا، فليس من بهيمة الأنعام فيستثنى منها. فاستثناء ما حُرِّم علينا مما دخل في جملة ما قَبْلَ الاستثناء، أشبه من استثناء ما حُرِّم مما لم يدخل في جملة ما قبل الاستثناء.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ**

(يعني): يا أيها الذين آمنوا أوفوا بعقود الله التي عقد عليكم مما حُرِّم وأحلّ، لا مُحِلِّين الصَّيْدِ في حرمكم، ففيما أحلّ لكم من بهيمة الأنعام المذكاة دون ميتتها، مُتَّسَعٌ لكم ومُسْتَغْنَى عن الصيد في حال إحرامكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**

يعني بذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ: إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ، من تحليل ما أَرَادَ تحليلَهُ، وتحريم ما أَرَادَ تحريمَهُ، وإيجاب ما شاء إيجابَهُ عليهم، وغير ذلك من أحكامه وقضاياه، فأوفوا، أيها المؤمنون، لَهُ بما عَقَدَ عليكم من تحليل ما أحلّ لكم وتحريم ما حُرِّمَ عليكم، وغير ذلك من عقوده، فلا تَنكُثُوهَا ولا تنقضوها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ**

معنى الكلام: لا تَسْتَحِلُّوا، أيها الذين آمنوا، معالمَ الله، فيدخل في ذلك معالم الله كلها في مناسك الحج: من تحريم ما حُرِّمَ الله إصابته فيها على المحرم، وتضييع ما نهى عن تضييعه فيها، وفيما حُرِّمَ من استحلال حُرُمَاتِ حَرَمِهِ، وغير ذلك من حدوده وفرائضه، وحلاله وحرامه، لأنَّ كُلَّ ذَلِكَ

المائدة: ٢

من معالمه وشعائره التي جعلها أماراتٍ بين الحقِّ والباطل، يُعَلِّمُ بها حلاله وحرامه، وأمره ونهيهِ. لأنَّ الله نهى عن استحلالِ شعائره ومعالمِ حدوده وإحلالها نهياً عاماً، من غيرِ اختصاصِ شيءٍ من ذلك دون شيءٍ، فلم يُجْزَ لأحدٍ أن يوجِّهَ معنى ذلك إلى الخصوص إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها، ولا حُجَّةٌ بذلك كذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ

يعني جَلَّ ثَنَاهُ بقوله: «وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ»، ولا تستحلُّوا الشهرَ الحرامَ بقتالكم فيه أعداءكم من المشركين، وهو كقوله: «يَسْتَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ» [البقرة: ٢١٧].

وأما «الشَّهْرَ الْحَرَامَ» الذي عناه الله بقوله: «وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ»، فَرَجَبٌ مُضَرٌّ، وهو شهرٌ كانت مضرٌ تحرَّمُ فيه القتال.

وقد قيل: هو في هذا الموضع «ذو القعدة».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ

«أما الهدي»، فهو ما أهداهُ المرءُ من بَعِيرٍ أو بقرةٍ أو شاةٍ أو غير ذلك، إلى بيت الله، تَقَرُّباً به إلى الله، وطلبَ ثوابه.

يقول الله عزَّ وجلَّ: فلا تستحلُّوا ذلك، فتغصبوه أهله غلبَةً، ولا تحولُّوا بينهم وبين ما أهدوا من ذلك أن يبلِّغوا به المَحِلَّ الذي جعله الله جَلَّ وعزَّ مَحِلَّهُ من كعبته.

وأما قوله: «وَلَا أَفْلَاثِدَ»، فإنه يعني: ولا تحلوا أيضاً القلائد.

فإذ كان ذلك تأويله، فمعلوم أنه نهي من الله جلّ ذكره عن استحلال حرمة المقلد، هذياً كان ذلك أو إنساناً، دون حرمة القلادة، وإن الله عزّ ذكره، إنما دلّ بتحريمه حرمة القلادة، على ما ذكرنا من حرمة المقلد، فاجتزأ بذكره «القلائد» من ذكر «المقلد»، إذ كان مفهوماً عند المخاطبين بذلك معنى ما أريد به.

فمعنى الآية - إذ كان الأمر على ما وصفنا -: يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله، ولا الشهر الحرام، ولا الهدي، ولا المقلد نفسه بقلائد الحرم.

القول في تأويل قوله تعالى: «وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً»

يعني بقوله عزّ ذكره: «وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ»، ولا تحلوا قاصدي البيت الحرام العامديه.

«والبيت الحرام»، بيت الله الذي بمكة.

«يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ»، يعني: يلتمسون أرباحاً في تجاراتهم من الله.

«وَرِضْوَاناً»، يقول: وأن يرضى الله عنهم بنسكهم.

ثم اختلف أهل العلم فيما نسخ من هذه الآية، بعد إجماعهم على أن منها منسوخاً.

فقال بعضهم: نسخ جميعها.

وقال آخرون: الذي نسخ من هذه الآية قوله: «وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ آلَيْتَ الْحَرَامَ».

وقال آخرون: لم يُنسخ من ذلك شيء، إلا القلائد التي كانت في الجاهلية يتقلّدونها من لحاء الشجر.

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، قول مَنْ قَالَ: نسخ الله من هذه الآية قوله: «وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ آلَيْتَ الْحَرَامَ»، لإجماع الجميع على أن الله قد أحلّ قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة كلها. وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قُتل عُنقه أو ذراعاه لحاء جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أماناً من القتل، إذا لم يكن تَقَدَّمَ له عَقْدُ ذِمَّةٍ من المسلمين أو أمان، وقد بيّنا فيما مضى معنى «القلائد» في غير هذا الموضع.

وأما قوله: «وَلَا آمِينَ آلَيْتَ الْحَرَامَ»، فإنه محتمل ظاهره: ولا تُحلُّوا حرمة آمين البيت الحرام من أهل الشرك والإسلام لعمومه، جميع مَنْ أَمَّ البيت. وإذا احتمل ذلك، فكان أهل الشرك داخلين في جملتهم، فلا شك أن قوله: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»، ناسخ له. لأنه غير جائز اجتماع الأمر بقتلهم وترك قتلهم في حال واحدة ووقت واحد. وفي إجماع الجميع على أن حُكْمَ الله في أهل الحرب من المشركين قتلهم، أموا البيت الحرام أو البيت المقدس، في الأشهر الحرم وغيرها ما يُعلم أن المنع من قتلهم إذا أموا البيت الحرام منسوخ ومحتمل أيضاً: ولا آمين البيت الحرام من أهل الشرك.

وأكثر أهل التأويل على ذلك.

وإن كان غني بذلك المشركون من أهل الحرب، فهو أيضاً لا شك منسوخ.

وإذ كان ذلك كذلك وكان لا اختلاف في ذلك بينهم ظاهر، وكان ما كان مستفيضاً فيهم ظاهراً حجةً، فالواجب، وإن احتمل ذلك معنى غير الذي قالوا، التسليم لما استفاض بصحته نقلهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : يَلْبَغُونَ فَضُلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا

يعني بقوله : «يَلْبَغُونَ»، يطلبون ويلتمسون. و«الفضل» الأرباح في التجارة. و«الرضوان»، رضى الله عنهم، فلا يُحِلُّ بهم من العقوبة في الدنيا ما أحلَّ بغيرهم من الأمم في عاجل دنياهم، بحجهم بيته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا

يعني بذلك جَلُّ ثناؤه: وإذا حللتُم فاصطادوا الصيد الذي نهيتكم أن تُحِلُّوه وأنتم حرُّم. يقول: فلا حرج عليكم في اصطاده، واصطادوا إن شئتم حينئذٍ، لأن المعنى الذي من أجله كنتُ حرِّمته عليكم في حال إحرامكم قد زال.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ

يعني جَلُّ ثناؤه بقوله : «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ»، ولا يحيلَنَّكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : سَتَأْتِيَ قَوْمٌ

يعني جَلُّ ثناؤه: بَغْض قَوْم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا

(يعني): ولا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ قَوْمٍ، لَأَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أيها المؤمنون، أَنْ تَعْتَدُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، فتجاوزوه إلى ما نهاكم عنه، ولكن الزموا طاعة الله فيما أحببتم وكرهتم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالنَّفَقَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

معنى الكلام: ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا، ولكن لِيُعِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِالْأَمْرِ بِالْإِتِّهَاءِ إِلَى مَا حَدَّهَ اللَّهُ لَكُمْ فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَفِي غَيْرِهِمْ، وَالْإِتِّهَاءُ عَمَّا نَهَاكُمْ اللَّهُ أَنْ تَأْتُوا فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ، وَفِي سَائِرِ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ، وَلَا يُعِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

وهذا وعيدٌ من الله جَلَّ ثَنَاهُ وتهنيدٌ لمن اعتدى حَدَّهُ وتجاوز أمره. يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: «وَأَتَّقُوا اللَّهَ»، يعني: واحذروا الله، أيها المؤمنون، أَنْ تَلْفُوهُ فِي مَعَادِكُمْ وَقَدْ اعْتَدَيْتُمْ حَدَّهُ فِيمَا حَدَّ لَكُمْ، وَخَالَفْتُمْ أَمْرَهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُمْ فِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ، فَتَسْتَرْجِبُوا عِقَابَهُ، وَتَسْتَحِقُّوا أَلِيمَ عَذَابِهِ، ثُمَّ وَصَفَ عِقَابَهُ بِالشَّدَةِ فَقَالَ عَزَّ ذِكْرُهُ: إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ عِقَابِهِ لِمَنْ عَاقَبَهُ مِنْ خَلْقِهِ، لَأَنَّهَا نَارٌ لَا

يُطْفَأُ حَرُّهَا، وَلَا يَخْمَدُ جَمْرُهَا، وَلَا يَسْكُنُ لَهَا، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا وَمَنْ عَمِلَ يَقْرُبُنَا مِنْهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ.

يعني بذلك جَلُّ ثَنَائِهِ: حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، الْمَيْتَةَ. و«الْمَيْتَةُ»: كُلُّ مَا لَهْ نَفْسٌ سَائِلَةٌ مِنْ دَوَابِّ الْبَرِّ وَطَيْرِهِ، مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ أَكْلَهَا، أَهْلِيَّهَا وَوَحْشِيَّهَا، فَارْقَتْهَا رُوحُهَا بِغَيْرِ تَذْكِيَةٍ^(١).

وَأَمَّا «الدَّمُ»، فَإِنَّهُ الدَّمُ الْمَسْفُوحُ، دُونَ مَا كَانَ مِنْهُ غَيْرَ مَسْفُوحٍ، لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَائُهُ قَالَ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنَزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فَأَمَّا مَا كَانَ قَدْ صَارَ فِي مَعْنَى اللَّحْمِ، كَالْكَبِدِ وَالطَّحَالِ، وَمَا كَانَ فِي اللَّحْمِ غَيْرَ مَنْسُفَحٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ حَرَامٍ، لِإِجْمَاعِ الْجَمِيعِ عَلَى ذَلِكَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ»، فَإِنَّهُ يَعْنِي: وَحُرْمَ عَلَيْكُمْ لَحْمَ الْخَنَزِيرِ، أَهْلِيَّهً وَبَرِّيَّهً.

فَالْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ مَخْرَجُهُمَا فِي الظَّاهِرِ مَخْرَجُ عَمُومٍ، وَالْمَرَادُ مِنْهُمَا الْخُصُوصُ. وَأَمَّا لَحْمُ الْخَنَزِيرِ، فَإِنَّ ظَاهِرَهُ كِبَاطُنُهُ، وَبَاطِنُهُ كَظَاهِرِهِ، حَرَامٌ جَمِيعُهُ، لَمْ يَخْصُصْ مِنْهُ شَيْءٌ.

عَنِ بَقُولِهِ: «وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ»، وَمَا ذُبِحَ لِلْأَلْهَةِ وَالْأَوْتَانِ، يُسَمَّى عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِ اللَّهِ.

(١) التذكية: الذبح.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالْمَنْخِقَةُ

وهي التي تختنق، إما في وثاقها، وإما بإدخال رأسها في الموضع الذي لا تقدر على التخلص منه، فتختنق حتى تموت.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالْمَوْقُودَةُ

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «وَالْمَوْقُودَةُ»، والميتة وقيداً.

يقال منه: «وَقَدْهُ يَقْذُهُ وَقْذاً»، إذا ضَرَبَهُ حتى أشرف على الهلاك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالْمَرْدِيَّةُ

يعني بذلك جلّ ثناؤه: وَحُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الميتة تردّياً من جبلٍ أو في بئر، أو غير ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالنَّطِيحَةُ

يعني بقوله: «النَّطِيحَةُ»، الشاة التي تنطحها أخرى فتموت من النطاح بغير تذكية. فَحَرَّمَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ذلك على المؤمنين، إن لم يدركوا ذكاته قبل موته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ

يعني جلّ ثناؤه بقوله: «وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ»، وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ ما أكل السبع غير المعلم من الصوائد.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ

يعني جَلُّ ثَنَائِهِ بقوله: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ»، إلا ما طَهَّرْتُمُوهُ بالذبح الذي جعله الله طهوراً.

فتأويل الآية: وحرم عليكم ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ والمنخنقة وكذا وكذا وكذا، إلا ما ذَكَّيْتُمْ من ذلك.

وإِذْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا وَصَفْنَا، فَكُلُّ مَا أُذْرِكْتَ ذَكَاتُهُ مِنْ طَائِرٍ أَوْ بَهِيمَةٍ قَبْلَ خُرُوجِ نَفْسِهِ، وَمَفَارِقَةِ رُوحِهِ جَسَدَهُ، فَحَلَالٌ أَكَلُهُ، إِذَا كَانَ مِمَّا أَحَلَّهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ

يعني بقوله جَلُّ ثَنَائِهِ: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ»، وحرم عليكم أيضاً الذي ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ.

و«النُّصُبِ»، الأوثانُ مِنَ الْحِجَارَةِ، جَمَاعَةُ أَنْصَابٍ كَانَتْ تَجْمَعُ فِي الْمَوْضِعِ مِنَ الْأَرْضِ، فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُقَرَّبُونَ لَهَا، وَلَيْسَتْ بِأَصْنَامٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ

يعني بقوله: «وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ»، وَأَنْ تَطْلُبُوا عِلْمَ مَا قُسِمَ لَكُمْ أَوْ لَمْ يُقَسَمْ، بِالْأَزْلَمِ.

وهو «استفعلت» من «القَسَمِ» قَسَمَ الرِّزْقَ وَالْحَاجَاتِ. وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَوْ غَزْوًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، أَجَالَ الْقِدَاحَ وَهِيَ

«الأزلام» وكانت قِداحاً مكتوباً على بعضها: «نهاني ربي»، وعلى بعضها: «أمرني ربي» فإن خرج القدح الذي هو مكتوب عليه: «أمرني ربي»، مضى لما أراد من سفرٍ أو غزوٍ أو تزويجٍ وغير ذلك. وإن خرج الذي عليه مكتوب: «نهاني ربي»، كفَّ عن المضيِّ لذلك وأمسك، ف قيل: «وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ»، لأنهم يفعلهم ذلك كانوا كأنهم يسألون أزلامهم أن يَقْسِمَ لهم.

وأما «الأزلام»، فإن واحدها «رَلم»، ويقال: «رُلم»، وهي القِداح التي وصفنا أمرها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكُمْ فَسْقٌ

يعني جَلُّ ثناؤه بقوله: «ذَلِكُمْ»، هذه الأمور التي ذكرها، وذلك: أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وسائر ما ذكر في هذه الآية مما حرم أكله، والاستقسام بالأزلام، «فسقٌ»، يعني: خروجٌ عن أمر الله عَزَّ ذِكْرُهُ وطاعته، إلى ما نهى عنه وزجر، إلى معصيته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ

يعني بقوله جَلُّ ثناؤه: «أَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ»، الآن انقطع طَمَعُ الأحزاب وأهل الكفر والجحود، أيها المؤمنون. «مِن دِينِكُمْ»، يقول: من دينكم أن تتركوه فترتدوا عنه راجعين إلى الشرك.

فإن قال قائل: وأي يوم هذا اليوم الذي أخبر الله أن الذين كفروا يشوا فيه من دين المؤمنين؟

قيل: ذُكِرَ أن ذلك كان يوم عرفة، عام حج النبي ﷺ حجة الوداع، وذلك بعد دخول العرب في الإسلام.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَا تَحْسَبُوهُمْ وَآخِشُونَ^٤

يعني بذلك: فلا تَحْشَوْا، أيها المؤمنون، هؤلاء الذين قد يَشْسُوا من دينكم أَنْ تَرْجِعُوا عنه من الكفار، ولا تخافوهم أَنْ يَظْهَرُوا عليكم، فيقهروكم ويردُّوكم عن دينكم. «وَآخِشُونَ»، يقول: ولكن خَافُونَ، إِنَّ أَنْتُمْ خَالَفْتُمْ أَمْرِي واجترأتم على معصيتي، وَتَعَدَّيْتُمْ حُدُودِي، أَنْ أَجِلَّ بكم عقابي، وَأَنْزَلَ بكم عَذَابِي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: يعني جَلَّ ثَنَاهُ بقوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»، اليوم أكملت لكم، أيها المؤمنون، فرائضي عليكم وحدودي، وأمري إياكم ونهيي، وحلالي وحرامي، وتزيلي مِنْ ذَلِكَ ما أنزلت منه في كتابي، وتبياني ما بينت لكم منه بوحى على لسان رسولي، والأدلة التي نصبتها لكم على جميع ما بكم الحاجة إليه من أمر دينكم، فأتتممت لكم جميع ذلك، فلا زيادة فيه بعد هذا اليوم. قالوا: وكان ذلك في يوم عرفة، عام حج النبي ﷺ حجة الوداع. وقالوا: لم ينزل على النبي ﷺ بعد هذه الآية شيء من الفرائض، ولا تحليل شيء ولا تحريمه، وأن النبي ﷺ لم يَعِشْ بعد نزول هذه الآية إِلَّا إحدى وثمانين ليلة.

وقال آخرون: معنى ذلك: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»، حَجَّكُمْ، فأفردتم بالبلد الحرام تحجَّونه، أَنْتُمْ أيها المؤمنون، دون المشركين، لا يخالطُكُمْ في حَجَّكم مشرك.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله عز وجل أخبر نبيه ﷺ والمؤمنين به، أنه أكمل لهم - يوم أنزل هذه الآية على نبيه - دينهم، بإفرادهم البلد الحرام، وإجلالته عنه المشركين، حتى حَجَّه المسلمون دونهم لا يخالطهم المشركون.

ولا يَدْفَعُ ذُو عِلْمٍ أَنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَنْقَطِعْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَنْ قُبِضَ، بل كان الوحي قبل وفاته أكثر ما كان تناسلاً. فإذا كان ذلك كذلك وكان قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ آخرها نزولاً^(١)، وكان ذلك من الأحكام والفرائض كان معلوماً أن معنى قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»، على خلاف الوجه الذي تأوله مَنْ تأوله أعني: كمال العبادات والأحكام والفرائض.

فإن قال قائل: فما جعل قول مَنْ قال: «قد نزل بعد ذلك فرض»، أولى من قول مَنْ قال: «لم ينزل»؟

قيل: لأن الذي قال: «لم ينزل»، مخبر أنه لا يعلم نزول فرض، والنفي لا يكون شهادة قول مَنْ قال: «نزل». وغير جائز دفع خبر الصادق فيما أمكن أن يكون فيه صادقاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بذلك: وأتممت نعمتي، أيها المؤمنون، بإظهاركم على عدوِّي وعدوكم من المشركين، ونفسي إياهم عن بلادكم، وقطعي طمعهم من

(١) حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ الذي ساقه المؤلف (١٠٨٧٠-١٠٨٧٣) وهو في الصحيحين: البخاري (٤٣٦٤) و(٤٦٠٥) و(٤٦٥٤) و(٦٧٤٤)، ومسلم (١٦١٨).

رجوعكم وعودكم إلى ما كنتم عليه من الشرك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا

يعني بذلك جَلَّ ثَنَاهُ: ورضيتُ لكم الاستسلامَ لأمرِي، والانقيادَ لطاعتي، على ما شرعتُ لكم من حدودِهِ وفرائضِهِ ومعالمِهِ. «دِينًا»، يعني بذلك: طاعة منكم لي.

فإن قال قائل: أو ما كانَ الله راضيًا للإسلامَ لعبادِهِ إلا يوم أنزل هذه الآية؟

قيل: لم يَزَلِ الله راضيًا لخلقِهِ الإسلامَ دِينًا، ولكنه جَلَّ ثَنَاهُ لم يزل يُصَرِّفُ نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه في درجاتِ الإسلام ومراتبه درجةً بعد درجة، ومرتبَةً بعد مرتبة، وحالًا بعد حالٍ، حتى أكملَ لهم شرائعَهُ ومعالمَهُ، وبلغَ بهم أقصى درجاتِهِ ومراتبِهِ، ثم قال حين أنزل عليهم هذه الآية: «وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ» بالصفة التي هو بها اليوم، والحال التي أنتم عليها اليوم منه. «دِينًا» فالزموه ولا تفارقوه.

ونزلت هذه الآية بعرفة في حجة الوداع على رسول الله ﷺ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَنْ أَضْطَرَّنِي مَخْمَصَةً

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَمَنْ أَضْطَرَّنِي»، فَمَنْ أَصَابَهُ ضُرٌّ. «في مَخْمَصَةٍ»، يعني: في مجاعة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِأَتَائِهِ

يعني بذلك جَلُّ ثَنَائِهِ: فمن اضْطُرَّ في مَخْصَصَةٍ إلى أَكْلِ ما حَرَّمَ عليه منكم، أيها المؤمنون، من الميتة، والدم ولحم الخنزير وسائر ما حرمت عليه بهذه الآية. «غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ»، يقول: لا متجانفاً لإثم.

وأما «المتجانف للإثم»، فإنه المتمايل له، المنحرف إليه. وهو في هذا الموضع مُرَادٌ به المتعمد له، القاصد إليه، من «جَنَفَ الْقَوْمُ عَلَيَّ»، إذا مالوا. وكل أعوج فهو «أجنف»، عند العرب.

وأما تجانف أَكَلَ الميتة في أَكْلِهَا وفي غيرها مما حَرَّمَ الله أَكْلَهُ على المؤمنين بهذه الآية، للإثم في حال أَكْلِهِ، فهو: تَعَمُّدُهُ أَكْلَ ذلك لغير دفع الضرورة النازلة به، ولكن لمعصية الله، وخلاف أمره فيما أمره به من ترك أَكْلِ ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾

وفي هذا الكلام متروك، اكتفى بدلالة ما ذكر عليه منه. وذلك أن معنى الكلام: فمن اضطر في مخمصة إلى ما حرمت عليه مما ذكرت في هذه الآية، غير متجانف لإثم. فأكله، فإن الله له غفور رحيم فترك ذكر «فأكله»، وذكر «له»، لدلالة سائر ما ذكر من الكلام عليهما.

وأما قوله: «فإن الله غفور رحيم»، فإن معناه: فإن الله لمن أكل ما حرمت عليه بهذه الآية أكله، في مخمصة، غير متجانف لإثم. «غفور رحيم»، يقول: يستر له عن أَكْلِهِ ما أَكَلَ من ذلك، بعفوه عن مؤاخذته إياه، وصَفَحِهِ عنه وعن عقوبته عليه. «رحيم»، يقول: وهو به رفيق. ومن رحمته ورفقه به، أباح له أَكْلَ ما أباح له أَكْلُهُ من الميتة وسائر ما ذكر معها في هذه الآية، في حال خوفه على نفسه من كَلْبِ الجوع وضُرِّ الحاجة العارضة ببدنه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ
الطَّيْبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ

يعني بذلك جَلُّ ثَنَاؤُهُ: يسألك، يا محمد، أصحابك: ما الذي أحل لهم
أكله من المطاعم والمأكَل؟ فَقُلْ لهم: أَحَلَّ لكم منها. «الطَّيِّبَاتُ»، وهي
الحلال الذي أذن لكم رَبُّكُمْ في أكله من الذبائح، وأحل لكم أيضاً مع ذلك،
صيد ما عَلَّمْتُم من «الجوارح»، وهُنَّ الكواشب من سباعِ البهائم.

وترك من قوله: «وَمَا عَلَّمْتُم»، «وَصَيْدُ» ما عَلَّمْتُم من الجوارح، اكتفاءً
بدلالة ما ذكر من الكلام على ما تَرَكَ ذِكْرُهُ.

وذلك أَنَّ القَوْمَ، فيما بَلَّغْنَا، كانوا سألوا رسولَ الله ﷺ حين أمرهم بقتل
الكلاب، عما يحلُّ لهم اتخاذه منها وصَيْدُهُ، فأنزل الله عَزَّ ذِكْرُهُ فيما سألوا عنه
من ذلك هذه الآية. فاستثنى مما كان حَرَمَ اتخاذه منها، وأمر بِقُتْلِهِ^(١) كلابِ
الصيد، وكلابِ الماشية، وكلابِ الحَرْثِ، وَأَذِنَ لهم باتخاذ ذلك.

وَكُلُّ ما صَادَ من الطيرِ والسَّباعِ فمن الجوارح، وَأَنْ صَيْدَ جميع ذلك
حلالٌ إذا صَادَ بعد التعليم، لأنَّ الله جَلُّ ثَنَاؤُهُ عَمَّ بقوله: «وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ
الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ»، كُلَّ جارحةٍ، ولم يخص منها شيئاً. فكلُّ «جارحة»،
كانت بالصفة التي وصفَ الله من كُلِّ طائرٍ وسبع، فحلالٌ أَكُلَ صَيْدِهَا.

فإن ظَنَّ ظانٌّ أن في قوله: «مُكَلِّبِينَ»، دلالة على أَنَّ الجوارح التي ذكرت
في قوله: «وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ»، هي الكلابُ خاصة، فقد ظَنَّ غير
الصواب.

(١) يعني: اقتناء.

وذلك أن معنى الآية: قُلْ أَجَلُ لَكُمْ، أيها الناس، في حالِ مصيرِكُمْ أصحابِ كلابِ الطيِّيات، وصيدها ما عَلَّمْتُمُوهُ الصَّيْدَ من كواسِبِ السَّباعِ والطير. فقلوه: «مُكَلِّبِينَ»، صِفَةً للقانص، وإن صاد بغير الكلاب في بعض أحيانه. وهو نظيرُ قولِ القائلِ يخاطبُ قوماً: أَجَلُ لَكُمْ الطيِّياتُ وما علمتم من الجوارحِ مكليبين مؤمنين. فمعلومٌ أنه إنما عَنَى قائلُ ذلك، إخبارُ القومِ أن الله جَلَّ ذِكْرُهُ أَحَلَّ لَهُمْ، في حالِ كونهم أهلُ إيمان، الطيِّياتِ وصيد الجوارحِ التي أَعْلَمَهُمْ أنه لا يحلُّ لهم منه إلا ما صادوه به. فكذلك قوله: «أَجَلُ لَكُمْ الطيِّياتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مَنِ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ» لذلك نظيره، في أن التكلِّبَ للقانصِ بالكلابِ كان صيده أو غيرها، لَا أنه إعلَامٌ من الله عَزَّ ذِكْرُهُ أنه لا يحلُّ من الصيدِ إلا ما صادته الكلاب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تَعَلَّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: تَعَلَّمُونَهُنَّ، تَوَدَّبُونِ الْجَوَارِحَ فتعلمونهن طَلَبَ الصيدِ لكم. «مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ»، يعني بذلك: من التَّادِيبِ الذي أَدَبَكُمْ الله، والعلمِ الذي عَلَّمَكُمْ^(١).

وَأَنَّ «التَّعْلِيمَ» الذي ذكره الله في هذه الآية للجوارح، إنما هو أن يَعْلَمَ الرجلُ جَارِحَهُ الاستِثْلَاءَ إذا أَشْلَى على الصَّيْدِ^(٢)، وطلبه إياه إذا أُغْرِيَ، أو إمساكه عليه، إذا أَخَذَهُ من غير أن يَأْكُلَ منه شَيْئاً، وَأَنْ لا يَفْرُغَ منه إذا أَرَادَهُ، وَأَنْ يَجِيبَهُ إذا دَعَا. فذلك، هو تعلِيمُ جميعِ الجوارحِ، طيرها وبهائمها. فَإِنْ أَكَلَ من الصَّيْدِ جَارِحَةً صَائِدٌ. فَجَارِحَتُهُ حَيْثُذُ غَيْرِ مُعْلَمٍ. فَإِنْ أَدْرَكَ صَيْدَهُ صَاحِبُهُ حَيًّا فَذَكَاهُ، حَلَّ لَهُ أَكْلُهُ. وَإِنْ أَدْرَكَهُ مَيْتاً، لَمْ يَحِلَّ لَهُ أَكْلُهُ، لَأنه مما

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٣٠٢/١.

(٢) يعني: أُغْرِيَ بطلب الصيد.

أَكَلَهُ السَّبْعُ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ ، ولم يدرك ذكاته .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ

يعني بقوله : «فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ» ، فكلوا ، أيها الناس ، مما أمسكت عليكم جوارحكم .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ

يعني جل ثناؤه بقوله : «وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ» ، على ما أمسكت عليكم جوارحكم من الصيد .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥﴾

يعني جل ثناؤه : واتقوا الله ، أيها الناس ، فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه ، فاحذروه في ذلك أن تُقَدِّمُوا على خلافه ، وأن تأكلوا من صيد الجوارح غير المعلمة ، أو مما لم تُمسِكْ عليكم من صيدها وأمسكته على أنفسها ، أو تطعموا ما لم يُسَمِّ الله عليه من الصيد والذبائح مما صاده أهل الأوثان وعبدَةُ الأصنام . وَمَنْ لَمْ يُوحِدِ الله من خلقه ، أو ذبحوه ، فإنَّ الله قد حرَّم ذلك عليكم فاجتنبوه .

ثم خَوَّفَهُمْ إِنَّ هُمْ فَعَلُوا ما نهاهم عنه من ذلك ومن غيره . فقال : اعلموا أنَّ الله سَرِيعُ حِسَابِهِ لِمَنْ حَاسَبَهُ على نِعَمِهِ عليه منكم ، وشكر الشاكر منكم ربَّه على ما أنعم به عليه بطاعته إياه فيما أمر ونهى ، لأنه حافظٌ لجميع ذلك فيكم ، فيحيط به ، لا يخفى عليه منه شيء ، فيجازي المطيعَ منكم بطاعته ، والعاصيَ بمعصيته ، وقد بيَّن لكم جزاء الفريقين .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ»

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ»، اليوم أُحِلَّ لكم، أيها المؤمنون، الحلال من الذبائح والمطاعم دون الخبائث منها.

وقوله: «وَوَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ»، وذبائح أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهم الذين أُوتُوا التوراة والإنجيل وأنزل عليهم، فذَانُوا بهما أو بأحدهما. «حَلَلٌ لَكُمْ»، يقول: حلال لكم، أكله دون ذبائح سائر أهل الشرك الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب وَعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ. فَإِنَّ مَنْ لم يكن منهم مِمَّنْ أَقَرَّ بتوحيد الله عَزَّ ذِكْرُهُ ودان دين أهل الكتاب، فحرام عليكم ذبائحهم.

ثم اختلف فيمن عَنِ الله عَزَّ ذِكْرُهُ بقوله: «وَوَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»، من أهل الكتاب.

فقال بعضهم: عَنِ الله بذلك ذبيحة كل كتابي ممن أنزل عليه التوراة والإنجيل، أو ممن دخل في مِلَّتِهِمْ فدان دينهم، وَحَرَّمَ ما حَرَّمُوا، وَحَلَّلَ ما حَلَّلُوا، منهم ومن غيرهم من سائر أجناس الأمم.

وقال آخرون: إنما عَنِ بالذين أُوتُوا الكتاب في هذه الآية، الذين أنزل عليهم التوراة والإنجيل من بني إسرائيل وأبنائهم، فأما مَنْ كان دخيلاً فيهم من سائر الأمم ممن دانَ بدينهم وهم من غير بني إسرائيل، فلم يُعَنَّ بهذه الآية، وليس هو ممن يَحِلُّ أكل ذبائحه، لأنه ليس ممن أُوتِيَ الكتاب من قَبْلُ المسلمين. وهذا قول كان محمد بن إدريس الشافعي يقول: حدثنا بذلك عنه

الربيع، ويتأولُ في ذلك قولَ مَنْ كره ذبائحَ نصارى العرب من الصحابة والتابعين^(١).

قال عليّ رضوان الله عليه: لا تأكلوا ذبائحَ نصارى بني تغلب، فإنهم إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر^(٢).

وهذه الأخبار عن عليّ رضوان الله عليه، إنما تدل على أنه كان ينهى عن ذبائح نصارى بني تغلب، من أجل أنهم ليسوا على النصرانية، لتركيهم تحليل ما تحلل النصارى، وتحريم ما تحرم، غير الخمر. ومَنْ كان متحلاً ملةً هو غير متمسكٍ منها بشيء، فهو إلى البراءة منها أقرب منه إلى اللحاقِ بها وبأهلها. فلذلك نهى عليّ عن أكلِ ذبائحِ نصارى بني تغلب، لا مِنْ أجلِ أنهم ليسوا من بني إسرائيل.

فإذْ كان ذلك كذلك، وكان إجماعاً من الحُجَّةِ أَنْ لا بأسَ بذبيحةِ كُلِّ نصرانيٍّ ويهوديٍّ دانَ دينَ النصرانيِّ أو اليهودي، فأحلَّ ما أحلُّوا وحرمَ ما حرموا، من بني إسرائيل كان أو من غيرهم، فَبَيَّنَ خطأ ما قال الشافعي في ذلك، وتأويله الذي تأوله في قوله: «وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ»، أنه ذبائح الذين أُوتُوا الكتابَ التوراة والإنجيل من بني إسرائيل، وصواب ما خالف تأويله ذلك: وقول مَنْ قال: إِنَّ كُلَّ يهوديٍّ ونصرانيٍّ فحلَّالٌ ذبيحته، من أيِّ أجناس بني آدم كان.

وأما «الطعام» الذي قال الله: «وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»، فإنه الذبائح.

(١) راجع الام للشافعي: ١٩٦/٢.

(٢) ساقه الطبري بأسانيد عديدة (١١٢٣٠-١١٢٣٤) ورواه الشافعي في «الام»:

١٩٦/٢، وساق أثراً عن ابن عباس أيضاً بهذا المعنى (١١٢٣٥).

وأما قوله: «وَطَعَامُكُمْ جَلَّ لُتْهُم»، فإنه يعني: ذبائحكم، أيها المؤمنون، جَلَّ لأهل الكتاب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ

يعني جَلَّ ثناؤه بقوله: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ»، أهل لكم، أيها المؤمنون، المحصنات من المؤمنات وهُنَّ الحرائرُ مِنْهُنَّ أن تنكحوهن «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ»، يعني: والحرائر من الذين أعطوا الكتاب، وهم اليهود والنصارى الذين دَانُوا بما في التوراة والإنجيل من قبلكم، أيها المؤمنون بمحمد ﷺ من العرب وسائر الناس، أن تنكحوهن أيضاً. «إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ»، يعني: إذا أعطيتن من نكحتن من مُحْصَنَاتِكُمْ ومحْصَنَاتِهِنَّ. «أَجُورَهُنَّ»، وهي مُهورُهُنَّ.

واختلف أهل التأويل في المحصنات اللاتي عَنَاهُنَّ الله عَزَّ ذِكْرُهُ بقوله: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك الحرائر خاصة، فاجرة كانت أو عفيفة. وأجاز قائلو هذه المقالة نِكَاح الحرة، مؤمنة كانت أو كتابية من اليهود والنصارى، من أي أجناس الناس كانت، بعد أن تكون كتابية، فاجرة كانت أو عفيفة. وحرّموا إماء أهل الكتاب أن يُتَزَوَّجْنَ بكلِّ حالٍ، لأن الله جَلَّ ثناؤه شرط في نِكَاح الإماء الإيمان بقوله: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ نَفَائِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ» [النساء: ٢٥].

وقال آخرون: إنما عَنَى الله بقوله: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ»، العفاف من الفريقين، إماء

كُنْ أو حرائر. فأجاز قائلو هذه المقالة نكاح إماء أهل الكتاب الدائيات دينهم بهذه الآية، وحرّموا البغايا من المؤمنات وأهل الكتاب.

ثم اختلف أهل التأويل في حكم قوله عزّ ذكره: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ»، أعمّ أم خاصّ؟

فقال بعضهم: هو عامّ في العفائف منهن، لأنّ «المحصنات»، العفائف. وللمسلم أن يتزوج كلّ حرّة وأمة كتابية، حريّة كانت أو ذميّة.

واعتلوا في ذلك بظاهر قوله تعالى: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ»، وأن المعنيّ بهن العفائف، كائنة من كانت منهن. وهذا قول من قال: عني بـ «المحصنات» في هذا الموضع: العفائف.

وقال آخرون: بل اللواتي عني بقوله جلّ ثناؤه: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ»، الحرائر منهن، والآية عامة في جميعهن. فنكاح جميع الحرائر اليهود والنصارى جائز، حريّات كنّ أو ذميات، من أيّ أجناس اليهود والنصارى كنّ. وهذا قول جماعة من المتقدمين والمتأخرين.

وقال آخرون منهم: بل عني بذلك نكاح نساء بني إسرائيل الكتابيات منهن خاصة، دون سائر أجناس الأمم الذين دانوا باليهودية والنصرانية. وذلك قول الشافعي^(١) ومن قال بقوله.

وقال آخرون: بل ذلك معنيّ به نساء أهل الكتاب الذين لهم من المسلمين ذمّة وعهد. فأما أهل الحرب، فإنّ نساءهم حرام على المسلمين.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب، قول من قال: عني بقوله: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ»، حرائر المؤمنين وأهل

(١) الأم: ٦/٥، وسنن البيهقي: ١٧٣/٧.

الكتاب. لأن الله جلّ ثناؤه لم يأذن بنكاح الإماء الأحرار في الحال التي أباحهن لهم، إلا أن يكنّ مؤمنات، فقال عزّ ذكره: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ نَفَائِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، فلم يُبَحَّ منهن إلا المؤمنات. فلو كان مراداً بقوله: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»، العفاف، لدخل العفاف من إمائهم في الإباحة، وخرج منها غير العفاف من حرائرهم وحرائر أهل الإيمان. وقد أحلّ الله لنا حرائر المؤمنات، وإن كنّ قد أتين بفاحشة بقوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [التوبة: ٢٩].

فنكاح حرائر المسلمين وأهل الكتاب حلالاً للمؤمنين، كنّ قد أتين بفاحشة أو لم يأتين بفاحشة، ذميمة كانت أو حريّة، بعد أن تكون بموضع لا يخاف الناكح فيه على ولده أن يُجبرَ على الكفر، بظاهر قول الله جلّ وعزّ: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

فأما قول الذي قال: «عنى بذلك نساء بني إسرائيل، الكتابيات منهن خاصة»^(١) فقول لا يوجبُ التشاغل بالبيان عنه، لشذوذه والخروج عما عليه علماء الأمة، من تحليل نساء جميع اليهود والنصارى.

وأما قوله: «إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ»، فإنّ «الأجر»: العوض الذي يبذله الزوج للمرأة للاستمتاع بها، وهو المهر.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ

(١) يعني قول الشافعي.

يعني بذلك جَلُّ ثَنَائِهِ: أَجَلَ لَكُمْ المحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، وأنتم محصنون غير مسافحين ولا متخذي أخدان.

ويعني بقوله جَلُّ ثَنَائِهِ: «مُحْصِنِينَ»، أَعْفَاء. «غَيْرُ مُسَافِحِينَ»، يعني: لا معالنين بالسفاح بكل فاجرة، وهو الفجور. «وَلَا مُتَخِذِي أَخْدَانٍ»، يقول: ولا منفردين ببغية واحدة، قد خادنها وخادنته، واتخذها لنفسه صديقةً يفجر بها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾

يعني بقوله جَلُّ ثَنَائِهِ: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ» وَمَنْ يَجْحَدُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بالتصديق به، من توحيد الله ونبوة محمد ﷺ وما جاء به من عند الله، وهو «الإيمان»، الذي قال الله جَلُّ ثَنَائِهِ: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»، يقول: فقد بطل ثواب عمله الذي كان يعمل في الدنيا، يرجو أن يُدْرِكَ به منزلة عند الله. «وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ»، يقول: وهو في الآخرة من الهالكين، الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من ثواب الله بكفرهم بمحمد ﷺ، وعملهم بغير طاعة الله.

وقد ذكر أن قوله: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ»، عَنَى به أهل الكتاب، وأنه أنزل على رسول الله ﷺ من أجل قوم تَخَرَّجُوا نِكَاحَ نِسَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ لما قيل لهم: «أَجَلَ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

قيل: وجه تأويله ذلك كذلك، أَنَّ «الإيمان» هو التصديق بالله وبرسوله

وما ابتعنهم به من دينه. و«الكفر» جحود ذلك. قالوا: فمعنى «الكفر» بالإيمان، هو جحود الله وجحوده توحيده. ففَسَّرُوا معنى الكلمة بما أُريدَ بها، وأعرضوا عن تفسير الكلمة على حقيقة ألفاظها وظاهرها في التلاوة.

فإن قال قائل: فما تأويلها على ظاهرها وحقيقة ألفاظها؟

قيل: تأويلها: وَمَنْ يَأْبَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ، ويمتنع من توحيده والطاعة له فيما أمره به ونهاه عنه. فقد حَبِطَ عَمَلُهُ. وذلك أن «الكفر» هو الجحود في كلام العرب، و«الإيمان» التصديق والإقرار. وَمَنْ أْبَى التَّصَدِيقَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْإِقْرَارَ بِهِ، فهو من الكافرين. فلذلك تأويل الكلام على وجهه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى

الصَّلَاةِ

يعني بذلك جُلُّ ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا، إذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ، وأنتم على غير طهر الصلاة، فاغسلوا وجوهكم بالماء وأيديكم إلى المرافق.

ثم اختلف أهل التأويل في قوله: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ»، أمراد به كُلُّ حالٍ قام إليها، أو بعضها؟ وأي أحوال القيام إليها؟

فقال بعضهم في ذلك بنحو ما قلنا فيه، من أنه معنيٌّ به بعض أحوال القيام إليها دون كُلِّ الأحوال، وأن الحال التي عُني بها، حال القيام إليها على غير طهر.

وقال آخرون: معنى: ذلك: يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم من نومكم إلى

الصلاة.

وقال آخرون: بل ذلك معنيٌّ به كل حال قيام المرء إلى صلاته، أن يجتد لها طهراً.

وقال آخرون: بل كان هذا أمراً من الله عزَّ ذِكْرُه نبيُّه ﷺ والمؤمنين به: أن يتوضأ لكلِّ صلاةٍ، ثم تُسخ ذلك بالتحفيف.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب، قول مَنْ قال: إن الله عَنِ بقوله: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا»، جميع أحوال قيام القائم إلى الصلاة، غير أنه أمر فرض بغسل ما أمر الله بغسله القائم إلى صلاته، بعد حَدَثٍ كَانَ منه ناقض طهارته، وقبل إحداث الوضوء منه - وأمر نَذِبٍ لمن كان على طَهْرٍ قد تَقَدَّمَ منه، ولم يكن منه بعده حَدَثٌ يَنْقُضُ طهارته. ولذلك كان عليه السلام يتوضأ لكل صلاةٍ قبل فتح مكة، ثم صَلَّى يومئذ الصلوات كلها بوضوء واحد، ليعلم أمته أن ما كان يفعل عليه السلام من تجديد الطهر لكل صلاةٍ، إنما كان منه أخذاً بالفضل، وإيثاراً منه لأحِبِّ الأمرين إلى الله، ومسارعةً منه إلى ما ندبه إليه ربه - لا على أن ذلك كان عليه فرضاً واجباً.

فإن ظَنَّ ظانٌّ أن في الحديث الذي ذكرناه عن عبدالله بن حنظلة أن النبي ﷺ أمر بالوضوء عند كل صلاة^(١)، دلالةً على خلاف ما قلنا من أن ذلك كان ندباً للنبي عليه السلام وأصحابه - وخُيِّلَ إليه أن ذلك كان على الوجوب - فقد ظَنَّ غير الصواب.

وذلك أن قولَ القائل: «أمر الله نبيه ﷺ بكذا وكذا»، محتملٌ من وجوهٍ لأمر الإيجاب، والإرشاد والندب، والإباحة، والإطلاق. وإذا كان محتملاً ما ذكرنا من الأوجه، كان أولى وجوهه به ما على صحته الحجة مُجمعة، دون ما

(١) أخرجه الطبري (١١٣٢٨) و(١١٣٢٩)، وهو عند أبي داود (٤٨)، وصحح ابن كثير إسناده في تفسيره (٨٣/٣). وانظر فتح الباري: ٢٣٢/١.

لم يكن على صحته برهانٌ يوجب حقيقة مدَّعيه^(١). وقد أجمعت الحُجَّةُ على أن الله عزَّ وجلَّ لم يوجب على نبيه ﷺ ولا على عباده، فرضَّ الوضوء لكلِّ صلاةٍ، ثم نسخ ذلك. ففي إجماعها على ذلك، الدلالة الواضحة على صحَّة ما قلنا: مِنْ أَنْ فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ ما كان يفعل من ذلك، كان على ما وصَّفنا، من إثاره فِعْلَ ما نَدَبَهُ الله عزَّ ذِكْرُهُ إلى فِعْلِهِ وَنَدَبَ إليه عبادة المؤمنين بقوله: «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق» الآية، وأنَّ تَرْكَهُ في ذلك الحال الذي تركه، كان ترخيصاً لأُمَّته، وإعلاماً منه لهم أنَّ ذلك غير واجبٍ ولا لازمٍ له ولا لهم، إلَّا من حَدَثٍ يوجب نقضَ الطُّهْرِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَغْسِلُوا وَجُوهَكُمْ

اختلف أهل التأويل في حَدِّ «الوجه» الذي أمر الله بغسله القائم إلى الصلاة بقوله: «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم».

فقال بعضهم: هو ما ظهر من بَشَرَةِ الإنسان، من قُصَاصِ شعر رأسه^(٢)، منحدرًا إلى مُنْقَطَعِ دَقْنِهِ طَوِّلاً، وما بين الأذنين عرضاً. قالوا: فأما الأذنُ وما بطن من داخلِ القم والأنف والعين، فليس من الوجه. وغير واجب غسل ذلك ولا غسل شيء منه في الوضوء. قالوا: وأما ما غطاه الشعر منه، كالذقن الذي غطاه شعر اللحية، والصُّدْغَيْنِ اللَّذَيْنِ قد غطاهما عِذَارُ اللّٰحِيَةِ^(٣)، فإنَّ إمرارَ الماء على ما علا ذلك من الشعر، مجزئٌ من غسل ما بطن منه من بشرة

(١) يعني: حق مدَّعيه، والطبري يستعمل حقيقة بمعنى حق.

(٢) قصاص الشعر: نهاية منبته من مقدم الرأس.

(٣) عذار اللحية: جانبها اللحية.

الوجه، لأنَّ «الوجه» عندهم: هو ما عَنِ لَعِينِ الناظرِ من ذلك فقابلها، دون غيره.

وقال آخرون: «الوجه»، كُلُّ ما دونَ منابتِ شعرِ الرأسِ إلى منقطعِ الذَّقْنِ طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، ما ظهر من ذلك لَعِينِ الناظرِ وما بَطْنُ منه من منابتِ شعرِ اللحيةِ النابتِ على الذَّقْنِ وعلى العارضين، وما كان منه داخل الفم والأنف، وما أقبل من الأذنين على الوجه. كل ذلك عندهم من «الوجه» الذي أمر الله بغسله بقوله: «فاغسلوا وجوهكم». وقالوا: إن ترك شيئاً من ذلك المتوضئ فلم يغسله، لم تُجْزِهِ صَلَاتُهُ بوضوئه ذلك.

وأولى الأقوالِ بالصوابِ في ذلك عندنا، قولُ من قال: «الوجه» الذي أمر الله جَلَّ ذِكْرُهُ بغسله القائمُ إلى صَلَاتِهِ: كُلُّ ما انحدرَ عن منابتِ شعرِ الرأسِ إلى مُنْقَطَعِ الذَّقْنِ طولاً، وما بين الأذنين عرضاً، مما هو ظاهرٌ لَعِينِ الناظرِ، دونَ ما بطن من الفم والأنف والعين، ودون ما غَطَّاهُ شعرُ اللحيةِ والعارضين والشاربين فستره عن أبصارِ الناظرين، ودونَ الأذنين.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب - وإن كان ما تحت شعر اللحية والشاربين قد كان «وجهاً» يجب غسله قبل نباتِ الشعرِ الساترِ عن أعينِ الناظرين، على القائمِ إلى صَلَاتِهِ - لإجماعِ جميعِهِم على أَنَّ العينين من الوجه، ثم هم - مع إجماعِهِم على ذلك - مُجْمِعُونَ على أَنَّ غَسَلَ ما غَلَّاهما من أجفانهما دون إيصالِ الماءِ إلى ما تحت الأجفانِ منهما، مُعْجِزٌ.

فإذْ كان ذلك منهم إجماعاً بتوقيفِ الرسولِ ﷺ أَمَّتُهُ على ذلك، فنظير ذلك كل ما غَلَّاهُ شيءٌ من مواضعِ الوضوءِ من جَسَدِ ابنِ آدَمَ من نفسِ خَلْقِهِ ساتِرِهِ، لا يصلُ الماءُ إليه إلا بِكُلْفَةٍ ومُؤَنَةٍ وعلاجٍ، قياساً لما ذكرنا من حكم العينين في ذلك.

المائدة : ٦

فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أن مثل العينين في مؤونة إيصال الماء إليهما عند الوضوء، ما بطن من الأنف والفم وشعر اللحية والصدغين والشاربين، لأن كل ذلك لا يصل الماء إليه إلا بعلاج لإيصال الماء إليه، نحو كلفة علاج الحذقتين لإيصال الماء إليهما أو أشد.

وإذا كان ذلك كذلك، كان بيننا أن غسل من غسل من الصحابة والتابعين ما تحت منابت شعر اللحية والعارضين والشاربين، وما بطن من الأنف والفم، إنما كان إثارة منه لأشق الأمرين عليه: من غسل ذلك، وترك غسله، كما أثر ابن عمر غسل ما تحت أجفان العينين بالماء بصبه الماء في ذلك - لا على أن ذلك كان عليه عنده فرضاً واجباً.

فأما من ظن أن ذلك من فعلهم كان على وجه الإيجاب والفرض، فإنه خالف في ذلك بقوله منهاجهم، وأغفل سبيل القياس، لأن القياس هو ما وصفنا من تمثيل المختلف فيه من ذلك، بالأصل المجمع عليه من حكم العينين، وأن لا خبر عن واحد من أصحاب رسول الله ﷺ أوجب على تارك إيصال الماء في وضوئه إلى أصول شعر لحيته وعارضيه، وتارك المضمضة والاستنشاق، إعادة صلاته إذا صلى بطهره ذلك. ففي ذلك أوضح الدليل على صحة ما قلنا من أن فعلهم ما فعلوا من ذلك، كان إثارة منهم لأفضل الفعلين، من الترك والغسل.

فإن ظن ظان أن في الأخبار التي رويت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا توضأ أحدكم فليستثر»^(١)، دليلاً على وجوب الاستئثار: فإن في إجماع الحجة على أن ذلك غير فرض واجب، يجب على من تركه إعادة الصلاة التي

(١) هكذا رواه الطبري معلقاً، وهو قطعة من حديث أبي هريرة عند البخاري (١٦١) ومسلم (٢٣٧) و(٢٣٨).

صَلَّاهَا قَبْلَ غَسَلِهِ، مَا يُغْنِي عَنْ إِكْثَارِ الْقَوْلِ فِيهِ^(١).

وأما الأذنان، فإن في إجماع جميعهم على أن تَرَكَ غَسْلَهُمَا، أو غَسَلَ ما أقبل منهما مع الوجه، غير مُفْسِدٍ صَلَاةٍ مَنْ صَلَّى بَطْهَرِهِ الَّذِي تَرَكَ فِيهِ غَسْلَهُمَا - مع إجماعهم جميعاً على أنه لو تَرَكَ غَسْلَ شَيْءٍ مما يجب عليه غَسْلُهُ من وجهه في وضوئه، أن صَلَاتِهِ لَا تَجْزِيهِ بَطْهَرُهُ ذَلِكَ - مَا يُنْبِئُ عَنْ أَنَّهُمَا لَيْسَا مِنَ الْوَجْهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ

اختلف أهل التأويل في «المرافق»، هل هي من اليد الواجب غسلها، أم لا؟ بعد إجماع جميعهم على أن غَسَلَ الْيَدِ إِلَيْهَا واجب.

فقال مالك بن أنس - وسئل عن قول الله: «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق»، أترى أن يخلف المرفقين في الوضوء؟ - قال: الذي أمر به أن يُبْلَغَ «المرفقين»، قال تبارك وتعالى: «فاغسلوا وجوهكم»، فذهب هذا يغسل خلفه!!!^(٢). فقليل له: فإنما يغسل إلى المرفقين والكعبين لا يجاوزهما؟ فقال: لا أدري «ما لا يجاوزهما»، أما الذي أمر به أن يبلغ به فهذا: إلى المرفقين والكعبين.

وقال الشافعي: «لم أعلم مخالفاً في أن المرافق فيما يغسل»، كأنه يذهب إلى أن معناها: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى أن تُغْسَلَ المرافق.

وقال آخرون: إنما أوجب الله بقوله: «وأيديكم إلى المرافق»، غَسْلَ الْيَدَيْنِ إِلَى الْمَرْفَقَيْنِ، فالمرفقان غاية لما أوجب الله غَسْلَهُ من آخر اليد، والغاية

(١) وانظر فتح الباري (٢٦٢/١) ففيه تفصيل.

(٢) يعني: ففاه!

غيرُ داخلَةٍ في الحدِّ، كما غير داخل الليلُ فيما أوجبَ الله تعالى على عباده من الصوم بقوله: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. لأنَّ الليلَ غايةُ لصومِ الصائِم، إذا بلغه فقد قضى ما عليه. قالوا: فكذلك المرافق في قوله: «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق»، غاية لما أوجبَ الله غسلَهُ من اليد. وهذا قول زُفر بن الهذيل^(١).

والصوابُ من القول في ذلك عندنا: أنَّ غسلَ اليدين إلى المرفقين من الفرض الذي إن تركه أو شيئاً منه تاركٌ، لم تجزه الصلاة مع تركه غسلَهُ. فأما المرفقان وما وراءهما، فإنَّ غسل ذلك من الندب الذي نَدَبَ إليه ﷺ أمته بقوله: «أمتي الغُرُّ المحجلون من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّتَهُ فليفعل»^(٢).

فلا تفسد صلاة تاركٍ غسلِهما وغسل ما وراءهما، لما قد بيَّنا قَبْلُ فيما مضى: مِنْ أَنَّ كُلَّ غَايَةٍ حَدَّتْ بِـ «إِلَى»، فقد تحتل في كلام العرب دخول الغاية في الحدِّ وخروجها منه. وإذا احتمل الكلام ذلك، لم يجز لأحد القضاء بأنها داخله فيه، إلا لمن لا يجوز خلافه فيما بينَ وحكم - ولا حُكْمَ بأنَّ المرافق داخلَةٌ فيما يجب غسله عندنا - ممن يجب التسليمُ بحكمه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: «وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ»

اختلف أهل التأويل في صفة «المسح» الذي أمر الله به بقوله: «وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ».

-
- (١) زفر بن الهذيل العنبري، الفقيه المشهور من أجلاء أصحاب أبي حنيفة.
(٢) ذكره المؤلف معلقاً، وهو في الصحيحين: البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦) من حديث أبي هريرة.

فقال بعضهم: وامسحوا بما بَدَا لكم أنْ تمسحوا به من رؤوسكم بالماء، إذا قمتم إلى الصلاة.

وقال آخرون: معنى ذلك: فامسحوا بجميع رؤوسكم. قالوا: إن لم يمسح بجميع رأسه بالماء، لم تجزه الصلاة بوضوئه ذلك.

وقال آخرون: لا يجزئ مسح الرأس بأقل من ثلاث أصابع. وهذا قول أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد.

والصواب من القول في ذلك عندنا، أن الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أمرَ بالمسح برأسه القائم إلى صلاته، مع سائر ما أمره بغسله معه أو مسحه، ولم يحد ذلك بحد لا يجوز التقصير عنه ولا يجاوز. وإذا كان ذلك كذلك، فما مسح به المتوضىء من رأسه فاستحق بمسحه ذلك أن يقال: «مسح برأسه»، فقد أدى ما فرض الله عليه من مسح ذلك، لدخوله فيما لزمه اسم «ماسح برأسه» إذا قام إلى صلاته.

فإن قال لنا قائل: فإن الله قد قال في التيمم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: ٤٣]، أفيجزئ المسح ببعض الوجه واليدين في التيمم؟

قيل له: كل ما مسح من ذلك بالتراب، فيما تنازعت فيه العلماء - فقال بعضهم: يجزيه ذلك من التيمم، وقال بعضهم: «لا يجزيه» - فهو مُجْزِئُه، لدخوله في اسم «الماسحين به».

وما كان من ذلك مُجْمَعاً على أنه غير مُجْزِئِه، فمسلّم لما جاءت به الحجة نقلاً عن نبيها ﷺ. ولا حجة لأحدٍ علينا في ذلك، إذ كان من قولنا: إن ما جاء في آي الكتاب عاماً في معنى، فالواجب من الحكم أنه على عمومِهِ، حتى يَخْصُهُ ما يجب التسليم له. فإذا خُصَّ منه شيء كان ما خُصَّ منه خارجاً من ظاهره وحكم سائرهِ على العموم.

«الرأس» الذي أمر الله جلّ وعزّ بالمسح به بقوله: «وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ»، هو منابت شعر الرأس، دون ما جاوز ذلك إلى الفها مما استدير، ودون ما انحدر عن ذلك مما استقبل من قبل وجه إلى الجبهة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ

اختلفت القراءة في قراءة ذلك:

فقراه جماعة من قراء الحجاز والعراق: «وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ»، نصباً، فتأويله: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسكم. وإذا قرئ كذلك، كان من المؤخر الذي معناه التقديم، وتكون «الأرجل» منصوبة عطفاً على «الأيدي». وتأول قارئو ذلك كذلك، أن الله جلّ ثناؤه: إنما أمر عباده بغسل الأرجل دون المسح بها.

وقرأ ذلك آخرون من قراء الحجاز والعراق: «فَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ»، بخفض «الأرجل». وتأول قارئو ذلك كذلك: أن الله إنما أمر عباده بمسح الأرجل في الوضوء دون غسلها، وجعلوا «الأرجل» عطفاً على «الرأس»، فخفضوها لذلك.

والصواب من القول عندنا في ذلك. أن الله عزّ ذكره أمر بعموم مسح الرجلين بالماء في الوضوء، كما أمر بعموم مسح الوجه بالتراب في التيمم. وإذا فعل ذلك بهما المتوضئ، كان مستحقاً اسم «ماسح غاسل»، لأن «غسلهما»، إمرار الماء عليهما أو إصابتها بالماء، و«مسحهما»، إمرار اليد أو ما قام مقام اليد عليهما. فإذا فعل ذلك بهما فاعل فهو «غاسل ماسح».

ولذلك - من احتمال «المسح» المعنيين اللذين وصفت من العموم

والخصوص، اللذين أحدهما مسح ببعض، والآخر مسح بالجميع - اختلفت قراءة القُرْأَةِ في قوله: «وأرجلكم»، فَنَصَبُهَا بَعْضُهُمْ، تَوْجِيهًا مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْفَرْصَ فِيهِمَا الْغَسْلُ، وَإِنْكَارًا مِنْهُ الْمَسْحَ عَلَيْهِمَا، مَعَ تَظَاهُرِ الْأَخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِعُمُومِ مَسْحِهِمَا بِالْمَاءِ. وَخَفَضَهَا بَعْضُهُمْ، تَوْجِيهًا مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْفَرْصَ فِيهِمَا الْمَسْحُ.

ولما قلنا في تأويل ذلك - إنه معنيٌّ بِهِ عُمُومُ مَسْحِ الرَّجْلَيْنِ بِالْمَاءِ - كَرِهَ مَنْ كَرِهَ لِلْمُتَوَضِّئِ الْاجْتِزَاءَ بِإِدْخَالِ رَجْلَيْهِ فِي الْمَاءِ دُونَ مَسْحِهِمَا بِيَدِهِ أَوْ بِمَا قَامَ مَقَامَ الْيَدِ، تَوْجِيهًا مِنْ قَوْلِهِ: «وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ»، إِلَى مَسْحِ جَمِيعِهِمَا عَامًّا بِالْيَدِ، أَوْ بِمَا قَامَ مَقَامَ الْيَدِ، دُونَ بَعْضِهِمَا، مَعَ غَسْلِهِمَا بِالْمَاءِ.

فَإِذَا كَانَ «الْمَسْحُ» الْمَعْنَيَانِ اللَّذَانِ وَصَفْنَا: مِنْ عُمُومِ الرَّجْلَيْنِ بِالْمَاءِ، وَخُصُوصِ بَعْضِهِمَا بِهِ، وَكَانَ صَحِيحًا، أَنَّ مُرَادَ اللَّهِ مِنْ مَسْحِهِمَا الْعُمُومُ، وَكَانَ لِعُمُومِهِمَا بِذَلِكَ مَعْنَى «الْغَسْلِ» وَ«الْمَسْحِ»، فَبَيَّنَ صَوَابَ قُرْأَةِ الْقَرَاءَتَيْنِ جَمِيعًا، أَعْنَى النَّصَبَ فِي «الْأَرْجُلِ» وَالْخَفْضَ. لِأَنَّ فِي عُمُومِ الرَّجْلَيْنِ بِمَسْحِهِمَا بِالْمَاءِ غَسْلَهُمَا، وَفِي إِمْرَارِ الْيَدِ وَمَا قَامَ مَقَامَ الْيَدِ عَلَيْهِمَا مَسْحَهُمَا.

فَوَجْهُ صَوَابِ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ ذَلِكَ نَصْبًا، لَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مَعْنَى عُمُومِهَا بِإِمْرَارِ الْمَاءِ عَلَيْهِمَا.

وَوَجْهُ صَوَابِ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَهُ خَفْضًا، لَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ إِمْرَارِ الْيَدِ عَلَيْهِمَا، أَوْ مَا قَامَ مَقَامَ الْيَدِ، مَسْحًا بِهِمَا.

غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ، وَكَانَتِ الْقَرَاءَتَانِ كِلَاهُمَا حَسَنًا صَوَابًا، فَاعْجَبُ الْقَرَاءَتَيْنِ إِلَيَّ أَنْ أَقْرَأَهَا، قِرَاءَةً مَنْ قَرَأَ ذَلِكَ خَفْضًا، لَمَا وَصَفْتُ مِنْ جَمْعِ «الْمَسْحِ» الْمَعْنَيْنِ اللَّذَيْنِ وَصَفْتُ، وَلِأَنَّهُ بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَامْسَحُوا

برؤوسكم»، فالعطفُ به على «الرؤوس» مع قُرْبِهِ منه، أَوَّلِي من العطفِ به على «الأيدي»، وقد حِيلَ بينه وبينها بقوله: «وامسحوا برؤوسكم».

فإن قال قائل: وما الدليلُ على أن المرادَ بالمسح في الرجلين العموم، دون أن يكون خصوصاً، نظيرَ قولك في المسح بالرأس؟

قيل: الدليلُ على ذلك، تظاهرُ الأخبارِ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ويل للأعقابِ ويُطونِ الأقدامِ من النار»^(١). ولو كان مسحُ بعضِ القدمِ مجزئاً من عمومها بذلك، لما كان لها الويلُ بتركِ ما تركَ مسحُها بالماءِ بعد أن يُمسحَ بعضها، لأنَّ مَنْ أَدَّى قَرْضَ الله عليه فيما لزمه غُسْلُهُ منها، لم يستحقِ الويلَ، بل يجب أن يكونَ له الثوابُ الجزيل. وفي وجوب الويلِ لعقبِ تاركِ غسلِ عقبه في وضوئه، أوضحُ الدليلِ على وجوب فرضِ العمومِ بمسحِ جميعِ القدمِ بالماءِ، وصحةِ ما قلنا في ذلك، وفسادِ ما خالفه.

القولُ في تأويلِ قولِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: إِلَى الْكَعْبَيْنِ

واختلف أهلُ التأويلِ في «الكعب»:

والصوابُ من القولِ في ذلك، أنَّ «الكعبين»، هما العظامان اللذان في مفصلِ الساقِ والقدم، تُسمِّيهِما العربُ «المنجَمين». وكان بعضُ أهلِ العلمِ بكلامِ العربِ يقول: هما عظما الساقِ في طرفها.

(١) ساقه المؤلف من حديث أبي هريرة (١١٤٩٧-١١٥٠٤)، وعائشة (١١٥٠٥-١١٥١٠)، وجابر بن عبد الله الأنصاري (١١٥١١-١١٥١٨)، وعبد الله بن عمرو بن العاص (١١٥٢٠-١١٥٢٤)، وأبي أمامة (١١٥٢٥). وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة: البخاري: (١٦٥)، ومسلم (٢٤٢)، ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: البخاري (١٦٣)، ومسلم (٢٤١). وأخرجه مسلم (٢٤٠) من حديث عائشة.

واختلف أهل العلم في وجوب غسلهما في الوضوء، وفي الحَدِّ الذي ينبغي أن يبلغ بالغسل إليه من الرجلين، نحو اختلافهم في وجوب غسل المرفقين، وفي الحَدِّ الذي ينبغي أن يبلغ بالغسل إليه من اليدين. وقد ذكرنا ذلك، ودَلَّلنا على الصحيح من القول فيه بعلمه فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا

يعني بقوله جَلُّ ثَنَائُهُ: «وإن كنتم جنباً»، وإن كنتم أصابتكم جنباً قبل أن تقوموا إلى صلاتكم فقمتم إليها. «فاطهروا»، يقول: فَتَطَهَّرُوا بِالْإِغْتِسَالِ منها قبل دخولكم في صلاتكم التي قمتم إليها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ

يعني بقوله جَلُّ ثَنَائُهُ: «وإن كنتم مرضى أو مجذرين، وأنتم جنب. وأما قوله: «أو على سفر»، فإنه يقول: وإن كنتم مسافرين وأنتم جنب. «أو جاء أحد منكم من الغائط»، يقول: أو جاء أحدكم من الغائط وقد قضى حاجته فيه وهو مسافر. وإنما عني بذكر مجيئه منه، قضاء حاجته فيه. «أو لامستم النساء»، يقول أو جامعتم النساء وأنتم مسافرون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمْ يَحْذُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا
فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ

يعني جَلْ ثَنَاؤُهُ بقوله: «فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً»، فإن لم تجدوا أيها المؤمنون، إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم مَرْضَى مقيمون، أو على سفرٍ أصحاء، أو قد جاء أحدُ منكم من قضاء حاجته، أو جامعُ أهله في سفره. «ماء فتيمموا صعيداً طيباً»، يقول: فَتَعَمَّدُوا واقصدوا وجه الأرض. «طيباً»، يعني: طاهراً نظيفاً غير قذرٍ ولا نجسٍ، جائزاً لكم حلالاً. «فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه»، يقول: فاضربوا بأيديكم الصعيد الذي تَيَمَّمْتُمُوهُ وَتَعَمَّدْتُمُوهُ بأيديكم، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم مما عَلِقَ بأيديكم. «منه»، يعني: من الصعيد الذي ضربتموه بأيديكم، من ترابه وغباره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ

يعني جَلْ ثَنَاؤُهُ بقوله: «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج»، ما يريد الله بما فَرَضَ عليكم من الوضوء إذا قمتم إلى صلاتكم، والغسل من جنابتكم، والتيمم صعيداً طيباً عند عدمكم الماء. «ليجعل عليكم من حرج»، ليلزمكم في دينكم من ضيقٍ ولا ليعتثكم فيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُسَبِّحَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

يعني جَلْ ثَنَاؤُهُ بقوله: «ولكن يريد ليطهركم»، ولكن الله يريد أن يطهركم، بما فَرَضَ عليكم من الوضوء من الأحداث، والغسل من الجنابة، والتيمم عند عدم الماء، فَتَنْظِفُوا وَتُطَهِّرُوا بذلك أجسامكم من الذنوب.

وقوله: «وَلِيْتُمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ»، فإنه يقول: ويريدُ ربُّكم مع تطهيركم من ذنوبكم بطاعتكم إياه فيما فَرَضَ عليكم من الوضوء والغسل إذا قمتم إلى الصلاة، بالماء إن وجدتموه، وَتَيَمُّمُكُمْ إذا لم تَجِدُوهُ أَنْ يَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ بإباحته لكم التيمم، وَتَصْيِيرُهُ لَكُمْ الصعيذَ الطيبَ طهوراً، رخصةً منه لكم في ذلك، مع سائر نِعَمِهِ التي أنعم بها عليكم، أيها المؤمنون. «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، يقول: لكي تشكروا الله على نِعَمِهِ التي أنعمها عليكم، بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴿٧﴾

يعني جَلَّ ثَنَاهُ بذلك: واذكروا نعمة الله عليكم، أيها المؤمنون، بالعقود التي عقدتموها لله على أنفسكم، واذكروا نعمته عليكم في ذلك بأن هذاكم من العقود لما فيه الرضى، ووفقكم لما فيه نجاتكم من الضلالة والردى، في نعمٍ غيرها جَمَّةٌ.

وأما قوله: «وميثاقه الذي واثقكم به»، فإنه يعني: واذكروا أيضاً، أيها المؤمنون في نعم الله التي أنعم عليكم. «ميثاقه الذي واثقكم به»، وهو عهده الذي عاهدكم به.

وأما قوله: «واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور»، فإنه وعيدٌ من الله جَلَّ اسمه للمؤمنين كانوا برسوله ﷺ من أصحابه، وَتَهْدُداً لهم أَنْ يَنْقُضُوا مِيثَاقَ اللَّهِ الَّذِي وَاثَقَهُمْ بِهِ فِي رَسُولِهِ^(١)، وعهدهم الذي عاهدوه فيه - بأن يضمروا له

(١) قوله: «بأن يضمروا...» متعلق «أن ينقضوا ميثاق الله...» بأن يضمروا.

خِلَافَ مَا أَبَدُوا لَهُ بِالْأَسْتِثْمِ .

يقول لهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ: واتقوا الله، أيها المؤمنون، فخافوه أَنْ تُبَدِّلُوا عَهْدَهُ وَتَنْقُضُوا مِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ، أَوْ تَخَالِفُوا مَا ضَمِنْتُمْ لَهُ بِقَوْلِكُمْ: «سمعنا وأطعنا»، بَأَنْ تُضْمِرُوا لَهُ غَيْرَ الْوَفَاءِ بِذَلِكَ فِي أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى ضَمَائِرِ صُدُورِكُمْ، وَعَالِمٌ بِمَا تُخْفِيهِ نَفُوسُكُمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَيُحِلُّ بِكُمْ مِنْ عَقُوبَتِهِ مَا لَا قَبْلَ لَكُمْ بِهِ، كَالَّذِي حَلَّ بِمَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الْيَهُودِ مِنَ الْمَسْخِ وَصَنُوفِ النُّقَمِ، وَتَصِيرُوا فِي مَعَادِكُمْ إِلَى سَخَطِ اللَّهِ وَالْإِيمِ عِقَابِهِ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا

يعني بذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لِيَكُنْ مِنْ أَخْلَاقِكُمْ وَصِفَاتِكُمُ الْقِيَامُ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْعَدْلِ فِي أَوْلِيَائِكُمْ وَأَعْدَائِكُمْ، وَلَا تَجُورُوا فِي أَحْكَامِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ فَتُجَاوِزُوا مَا حَدَدْتُ لَكُمْ فِي أَعْدَائِكُمْ لِعَدَاوَتِهِمْ لَكُمْ، وَلَا تَقْصُرُوا فِيمَا حَدَدْتُ لَكُمْ مِنْ أَحْكَامِي وَحُدُودِي فِي أَوْلِيَائِكُمْ لَوْلَايَتِهِمْ لَكُمْ، وَلَكِنْ انْتَهَوْا فِي جَمِيعِهِمْ إِلَى حُدِّي، وَاعْمَلُوا فِيهِ بِأَمْرِي .

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا»، فَإِنَّهُ يَقُولُ: وَلَا تَحْمِلَنَّكُمْ عِدَاوَةُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا فِي حُكْمِكُمْ فِيهِمْ وَسِيرَتِكُمْ بَيْنَهُمْ، فَتُجَاوِرُوا عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْعِدَاوَةِ .

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ هَمَّتِ الْيَهُودُ بِقَتْلِهِ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «اعدلوا»، أيها المؤمنون، على كُلِّ أَحَدٍ من الناس، وَلِيًّا لَكُمْ كان أو عدوًّا، فاحملوهم على ما أمرتكم أَنْ تَحْمِلُوهُمْ عليه من أحكامي، ولا تجوروا بأحدٍ منهم عنه.

وأما قوله: «هو أقرب للتقوى»، فإنه يعني بقوله: «هو»، العدلُ عليهم أقرب لكم، أيها المؤمنون، إلى التقوى، يعني: إلى أَنْ تكونوا عند الله باستعمالكم إياه من أهلِ التقوى، وهم أهلُ الخوفِ والحذر من الله أَنْ يخالفوه في شيء من أمره، أو يأتوا شيئاً من معاصيه.

وإنما وصف جَلَّ ثَنَاؤُهُ «العدل» بما وصفه به من أنه «أقرب للتقوى» من الجور، لِأَنَّ مَنْ كان عادلاً، كان لله بعدله مطيعاً، وَمَنْ كان لله مطيعاً، كان لا شَكَّ من أهلِ التقوى، وَمَنْ كان جائراً كان لله عاصياً، وَمَنْ كان لله عاصياً، كان بعيداً من تقواه.

وأما قوله: «واتقوا الله إِنَّ الله خبير بما تعملون»، فإنه يعني: واحذروا، أيها المؤمنون، أَنْ تجوروا في عباده فتجاوزوا فيهم حُكْمَهُ وَقَضَاءَهُ الَّذِي بَيَّنَّ لَكُمْ، فَيَحِلَّ بِكُمْ عِقَابُهُ، وتستوجبوا منه أَلِيمَ نكالِهِ. «إِنَّ الله خبير بما تعملون»، يقول: إِنَّ الله ذُو خَبْرَةٍ وعلم بما تعملون، أيها المؤمنون، فيما أَمَرَكُمْ به وفيما نهاكم عنه، من عملٍ به أو خلافٍ له، مُخَصِّرٌ ذَلِكُمْ عَلَيْكُمْ كُلَّهُ، حتى يجازيكم به، جزاءكم، المحسنَ منكم بإحسانِهِ، والمسيءَ بإساءَتِهِ، فاتقوا أَنْ تُسِيئُوا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات»، وعد الله، أيها الناس، الذين صدّقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به من عند ربهم، وعملوا بما واثقهم الله به، ووفوا بالعقود التي عاقدهم عليها بقولهم: «لنسمعن ولنطيعن الله ورسوله»، فسمعوا أمر الله ونهيه وأطاعوه، فعملوا بما أمرهم الله به، وانتهوا عما نهاهم عنه.

ويعني بقوله: «لهم مغفرة»، لهؤلاء الذين وفوا بالعقود والميثاق الذي واثقهم به ربهم. «مغفرة»، وهي ستر ذنوبهم السالفة منهم عليهم وتغطيتهم، بعفوه لهم عنها، وتركه عقوبتهم عليها وفضيحتهم بها. «وأجر عظيم»، يقول: ولهم مع عفوه لهم عن ذنوبهم السالفة منهم، جزاء على أعمالهم التي عملوها، ووفائهم بالعقود التي عاقدوا ربهم عليها. «أجر عظيم». و«العظيم» من خيره غير محدود مبلّغه، ولا يعرف مُنتهاه غيره تعالى ذكره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

يعني بقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «والذين كفروا»، والذين جحدوا وحدانية الله ونقضوا ميثاقه وعقوده التي عاقدوها إياه. «وكذبوا بآياتنا»، يقول: وكذبوا بأدلة الله وحججه الدالة على وحدانيته التي جاءت بها الرسل وغيرها. «أولئك أصحاب الجحيم»، يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم أهل «الجحيم»، يعني: أهل النار الذين يخلّدون فيها ولا يخرجون منها أبداً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ مُّشْكُوتُونَ أَن يَّبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ
أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ

يعني بقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «يا أيها الذين آمنوا»، يا أيها الذين أقروا بتوحيد
الله ورسالةِ رسوله ﷺ وما جاءهم به من عند ربهم. «اذكروا نعمت الله عليكم»،
اذكروا النعمة التي أنعم الله بها عليكم، فاشكروه عليها بالوفاء له بميثاقه الذي
وآثَقَكُمْ به، والعقود التي عاقدْتُمْ بَيْنَكُمْ ﷺ عليها. ثم وصف نعمته التي أمرهم
جَلَّ ثَنَاؤُهُ بالشكرِ عليها مع سائر نعمه، فقال: هي كَفُّهُ عَنْكُمْ أَيْدِي الْقَوْمِ
الَّذِينَ هُمُوا بِالْبَطْشِ بِكُمْ، فَصَرَفَهُمْ عَنْكُمْ، وحال بينهم وبين ما أرادوه بكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ: واحذروا الله، أيها المؤمنون، أَنْ تُخَالِفُوهُ فيما أَمَرَكُمْ
ونهاكم، وَأَنْ تَنْقُضُوا المِيثَاقَ الَّذِي وَآثَقَكُمْ به، فتستوجبوا منه العقاب الذي لا
قَبْلَ لَكُمْ به. «وعلى الله فليتوكل المؤمنون»، يقول: وإلى الله فليُلْقِ أَرْزَمُهُ
أُمُورَهُمْ، ويستسلم لقضائه، وَيَتَّقِ بِنَصْرَتِهِ وَعَوْنِ الْمُقَرَّبُونَ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَرِسَالَةِ
رسوله، العاملون بأمره ونهيه، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ كَمَالِ دِينِهِمْ وَتَمَامِ إِيْمَانِهِمْ وَأَنَّهُمْ
إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ كَلَّاهُمْ وَرَعَاهُمْ، وحفظهم مِمَّنْ أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ، كما حفظكم
ودافع عنكم، أيها المؤمنون، اليهود الذين هُمُوا بِمَا هُمُوا به مِنْ بَسْطِ أَيْدِيهِمْ
إِلَيْكُمْ، كَلَاةٌ مِنْهُ لَكُمْ، إِذْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الإِيْمَانِ به وبرسوله، دُونَ غَيْرِهِ، فَإِنَّ
غَيْرَهُ لَا يَطِيقُ دَفْعَ سُوءِ أَرَادَ بِكُمْ رَبُّكُمْ، وَلَا اجْتِلَابَ نَفْعٍ لَكُمْ لَمْ يَقْضِهِ لَكُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا

وهذه الآية أنزلت إعلاماً من الله جلَّ ثناؤه نبيه ﷺ والمؤمنين به، أخلاق الذين هموا ببسط أيديهم إليهم من اليهود وأن الذي هموا به من الغدر ونقض العهد الذي بينهم وبينه، من صفاتهم وصفات أوائلهم وأخلاقهم وأخلاق أسلافهم قديماً واحتجاجاً لنبيه ﷺ على اليهود بإطلاعه إياه على ما كان علمه عندهم دون العرب، من خفي أمورهم ومكنون علومهم وتوبيخاً لليهود في تماديهم في الغي وإصرارهم على الكفر، مع علمهم بخطأ ما هم عليه مقيمون.

يقول الله لنبيه ﷺ: لا تستعظموا أمر الذين هموا ببسط أيديهم إليكم من هؤلاء اليهود بما هموا به لكم، ولا أمر الغدر الذي حاولوه وأرادوه بكم، فإن ذلك من أخلاق أوائلهم وأسلافهم، لا يعدون أن يكونوا على منهاج أولهم وطريق سلفهم.

ثم ابتدأ الخبر عَزَّ ذِكْرُهُ عن بعض غدراتهم وخياناتهم، وجراءتهم على ربهم، ونقضهم ميثاقهم الذي واثقهم عليه بآرائهم، مع نعمه التي خصهم بها، وكراماته التي طوقهم شكرها، فقال: ولقد أخذ الله ميثاق سلف من هم ببسط يده إليكم من يهود بني إسرائيل، يا معشر المؤمنين، بالوفاء له بعهوده، وطاعته فيما أمرهم ونهاهم.

«وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً» يعني بذلك: وبعثنا منهم اثني عشر كفيلاً، كفلاً عليهم بالوفاء لله بما واثقوه عليه من العهود فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

يقول تعالى ذكره: وقال الله لبني إسرائيل: «إني معكم»، يقول: إني ناصركم على عدوكم وعدوي الذين أمرتكم بقتالهم، إِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ وَوَفَيْتُمْ بعهدي وميثاقي الذي أخذته عليكم.

وفي الكلام محذوف، استغنى بما ظهر من الكلام عما حذف منه. وذلك أَنَّ معنى الكلام: وقال الله لَهُمْ إني معكم فترك ذكر «لهم»، استغناءً بقوله: «ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل»، إذ كان مُتَقَدِّمَ الخبر عن قومٍ مسمين بأعيانهم، فكان معلوماً أَنَّ ما في سياق الكلام من الخبر عنهم، إذ لم يكن الكلام مصروفاً عنهم إلى غيرهم.

ثم ابتدأ ربُّنا جَلَّ ثَنَاهُ القسم فقال: فَسَمَّا لَّئِنْ أَقَمْتُمْ، معشر بني إسرائيل، الصلاة. «وآتيتم الزكاة»، أي: أعطيتموها مَنْ أَمَرْتُمْ بإعطائها. «وآمنتكم برسلي»، يقول: وصَدَقْتُمْ بما أتاكم به رسلي من شرائع ديني.

وأما قوله: «وَعَزَّرْتُمُوهُمْ»، فإنه يقول: نَصَرْتُمُوهُمْ.

وأما قوله: «وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا»، فإنه يقول: وَأَنْفَقْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وذلك في جهادِ عَدُوِّهِ وعدوكم. «قرضاً حسناً»، يقول: وَأَنْفَقْتُمْ ما أنفقتم في سبيله، فأصبتم الحق في إنفاقكم ما أنفقتم في ذلك، ولم تَعُدُّوا فيه حُدُودَ اللَّهِ وما نَذَبَكُمْ إِلَيْهِ وَحُكْمَ عَلَيْهِ، إلى غيره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: «لَا تُكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا دَخَلْنَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بذلك بني إسرائيل، يقول لهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ: لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصلاةَ، أيها القوم الذين أعطوني ميثاقهم بالوفاء بطاعتي واتباع أمري، وآتيتكم الزكاة، وفعلتم سائر ما وعدتكم عليه جتني. «لَا تُكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ»، يقول: لَاُعْطَيْنُ بِعَفْوِي عَنْكُمْ - وصفحي عن عقوبتكم، على سالفِ أجرامكم التي أجرمتموها فيما بيني وبينكم - على ذنوبكم التي سَلَفَتْ مِنْكُمْ من عبادة العجل وغيرها من موبقاتِ ذُنُوبِكُمْ. «وَلَا دَخَلْنَكُمْ» مع تغطيتي على ذلك منكم بفضلي يوم القيامة. «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

فـ «الجنات»، البساتين.

ولأنما قلْتُ معنى قوله: «لَا تُكْفِرَنَّ»، لأعطين، لَأَنَّ «الكفر»، معناه الجحود، والتغطية، والستر.

وقوله: «تجري من تحتها الأنهار»، يقول: تجري من تحت أشجار هذه البساتين التي أَدْخَلْنُكُمْوهَا، الأنهارُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: «فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ»

يقول عز ذكره: «فَمَنْ جَحَدَ مِنْكُمْ، يا معشر بني إسرائيل، شيئاً مما أمرتُ به فتركه، أو ركَبَ ما نهيتُهُ عنه فعملهُ، بعد أخذِي الميثاقَ عَلَيْهِ بالوفاء لي بطاعتي واجتنابِ معصيتي». «فقد ضلَّ سواءَ السبيل»، يقول: فقد أخطأ قَصْدَ الطريق الواضح، وَزَلَّ عن منهجِ السبيلِ القاصد.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ

يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ لنبیه محمد ﷺ: يا محمد، لا تَعَجَبَنَّ من هؤلاء اليهود الذين هَمُّوا أَنْ يَسْطُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَيْكَ وَإِلَى أَصْحَابِكَ، وَنَكُتُوا الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، غَدْرًا مِنْهُمْ بِكَ وَبِأَصْحَابِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَادَاتِهِمْ وَعَادَاتِ سَلَفِهِمْ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنِّي أَخَذْتُ مِيثَاقَ سَلَفِهِمْ عَلَى عَهْدِ مُوسَى ﷺ عَلَى طَاعَتِي، وَبِعَثْتُ مِنْهُمْ اثْنِي عَشَرَ نَقِيبًا قَدْ تُخَيَّرُوا مِنْ جَمِيعِهِمْ لِيَتَحَسَّسُوا أَخْبَارَ الْجَبَابِرَةِ، وَوَعَدْتُهُمُ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ أُورِثَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، بَعْدَ مَا أُرِثْتُهُمْ مِنَ الْعِبَرِ وَالْآيَاتِ - بِإِهْلَاكِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ فِي الْبَحْرِ، وَفُلُقِ الْبَحْرِ لَهُمْ، وَسَائِرِ الْعِبَرِ - مَا أُرِثْتُهُمْ، فَنَقَضُوا مِيثَاقَهُمُ الَّذِي وَاقَفُونِي، وَنَكُتُوا عَهْدِي، فَلَعَنْتُهُمْ بِنَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ. فَإِذْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلٍ خِيَارِهِمْ، مَعَ أَيْدِيٍّ عِنْدَهُمْ، فَلَا تَسْتَنْكِرُوا مِثْلَهُ مِنْ فِعْلٍ أَرَادَلَهُمْ.

وفي الكلام محذوف، اكْتَفَيْ بِدَلَالَةِ الظَّاهِرِ عَلَيْهِ. وَذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: «فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» - فَنَقَضُوا الْمِيثَاقَ، فَلَعَنْتُهُمْ. «فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَاهُمْ»، فَاكْتَفَى بِقَوْلِهِ: «فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ» مِنْ ذِكْرِ «فَنَقَضُوا».

ويعني بقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ»، فَبِنَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً

اختلفت الْقَرَأَةُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ:

فقرأته عامة قَرَأَةً أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَبَعْضُ أَهْلِ مَكَّةَ وَالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ: «قَاسِيَةً» بِالْأَلْفِ عَلَى تَقْدِيرِ «فَاعِلَةٌ» مِنْ «قَسَوَ الْقَلْبَ»، مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ:

«قَسَا قَلْبُهُ، فَهُوَ يَقْسُو، وَهُوَ قَاسٍ»، وذلك إِذَا غَلُظَ وَاشْتَدَّ وَصَارَ يَابِسًا صَلْبًا.

فتأويلُ الكلام على هذه القراءة: فَلَعْنَا الَّذِينَ تَقَضُّوا عَهْدِي وَلَمْ يُقُوا بِمِيثَاقِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بِنَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمُ الَّذِي وَاتَّقُونِي. «وجعلنا قلوبهم قاسية»، غليظة يابسة عن الإيمانِ بي، والتوفيق لطاعتي، منزوعةً منها الرأفة والرحمة.

وقرأ ذلك عامة قُرَآةِ الكوفيين: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

ثم اختلف الذين قرأوا ذلك كذلك في تأويله.

فقال بعضهم: معنى ذلك «القسوة»، لأنَّ «فعيلة»، في الظم أبْلَغُ مِنْ «فاعلة»، فاخترنا قراءتها «قسيّة» على «قاسية»، لذلك.

وقال آخرون منهم: بل معنى «قسيّة» غير معنى «القسوة»، وإنما «القسيّة» في هذا الموضع: القلوبُ التي لم يَخْلُصْ إيمانُها بالله، ولكن يخالط إيمانُها كُفْرًا، كالدراهم «القسيّة»، وهي التي يخالط فِضَّتُها غِشٌّ مِنْ نحاسٍ أو رصاص وغير ذلك.

وأعجبُ القراءتين إلَيَّ في ذلك قراءة مَنْ قرأ: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ على «فعيلة»، لأنها أبْلَغُ في ذم القوم من «قاسية». وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويل مَنْ تأوله: «فعيلة» من «القسوة»، كما قيل «نفس زَكِيَّة» و«زَاكِيَّة»، و«امرأة شاهدة»، و«شهيدة»، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ وصف القومَ بِنَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وكفْرِهِمْ بِهِ، وَلَمْ يَصِفْهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الإيمانِ، فتكون قلوبهم موصوفة بأنَّ إيمانها يخالطُ كُفْرًا، كالدراهم القَسيّة التي يخالط فِضَّتُها غِشٌّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: وجعلنا قلوب هؤلاء الذين نقضوا عهدنا من بني إسرائيل قسبة، منزوعاً منها الخير، مرفوعاً منها التوفيق، فلا يؤمنون ولا يهتدون، فهم لنزع الله عز وجل التوفيق من قلوبهم والإيمان، يُحَرِّفُونَ كَلَامَ رَبِّهِمُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِمْ مُوسَى ﷺ، وهو التوراة، فيبدّلونه، ويكتبون بأيديهم غير الذي أنزله الله جل وعز على نبيهم، ثم يقولون لجهال الناس: «هذا هو كلام الله الذي أنزله على نبيه موسى ﷺ، والتوراة التي أوحاها إليه». وهذا من صفة القرون التي كانت بعد موسى من اليهود، ممن أدرك بعضهم عصر نبينا محمد ﷺ، ولكن الله عزَّ ذِكْرُهُ أدخلهم في عداد الذين ابتدأ الخبر عنهم ممن أدرك موسى منهم، إذ كانوا من أبنائهم، وعلى مناهجهم في الكذب على الله، والفرية عليه، ونقض المواثيق التي أخذها عليهم في التوراة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ.

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «ونسوا حظاً»، وتركوا نصيباً، وهو كقوله: «نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ» [التوبة: ٦٧]، أي: تركوا أمر الله فتركهم الله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ.

يقول تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ولا تزال يا محمد، تَطَّلِعُ من اليهود - الذين أنبأتك نبأهم، من نقضهم ميثاقي، ونكثهم عهدي، مع أيادي عندهم، ونعمتي عليهم - على مثل ذلك من الغدر والخيانة «إلا قليلاً منهم»، إلا قليلاً

منهم لم يخونوا.

و«الخائنة» في هذا الموضع: الخيانة، وُضع - وهواسم - مَوْضِع المصدر، كما قيل: «خاططة»، للخطيئة، و«قائلة»، للقبولة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

وهذا أمر من الله عَزَّ ذِكْرُهُ نبيه محمداً ﷺ بالعفو عن هؤلاء القوم الذين هُمُوا أن ييسطوا أيديهم إليه من اليهود. يقول الله جَلَّ وعَزَّ له: اعْفُ، يا محمد، عن هؤلاء اليهود الذين هُمُوا بما هُمُوا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل، واصفح لهم عن جُرمهم بترك التعرض لمكروهم، فإني أَحِبُّ مَنْ أَحْسَنَ الْعَفْوَ وَالصَّفْحَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ.

وكان قتادة يقول: هذه منسوخة. ويقول: نسختها آية «براءة»: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، الآية [التوبة: ٢٩].

والذي قاله قتادة غير مدفوع إمكانه، غير أن الناسخ الذي لا شك فيه من الأمر، هو ما كان نافياً كُلِّ معاني خلافه الذي كان قبله، فأما ما كان غير نافٍ جميعه، فلا سبيل إلى العلم بأنه ناسخ إلا بخبر من الله جَلَّ وعَزَّ أو من رسوله ﷺ. وليس في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، دلالة على الأمر بنفي معاني الصَّفْحِ وَالْعَفْوِ عن اليهود.

وإذ كان ذلك كذلك - وكان جائزاً، مع إقرارهم بالصغار وأدائهم الجزية بعد القتال، الأمر بالعفو عنهم في غَدْرَةِ هُمُوا بها، أو نكثَةِ عَزَمُوا عليها، ما لم يُنْصَبُوا حرباً دون أداء الجزية، ويمتنعوا من الأحكام اللَّازِمَتِهِمْ - لم يكن

واجباً أن يحكم لقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، بأنه ناسخ قوله: «فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرَيْكَ
أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ

يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: وأخذنا من النصارى الميثاق على طاعتي وأداء فرائضي، واتباع رسلي والتصديق بهم، فسلكوا في ميثاقهم الذي أخذته عليهم منهاج الأمة الضالة من اليهود، فَبَدَّلُوا كَذَلِكَ دِينَهُمْ، وَنَقَضُوا نَقَضَهُمْ، وتركوا حَظَّهُمْ من ميثاقي الذي أخذته عليهم بالوفاء بعهدي، وضيعوا أمري.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فأغرينا بينهم»، حَرَّشْنَا بَيْنَهُمْ وَالْقَيْنَا، كما تغري الشيء بالشيء.

يقول جُلُّ ثَنَائِهِ: لما ترك هؤلاء النصارى، الذين أخذت ميثاقهم بالوفاء بعهدي، حَظَّهُمْ مما عهدت إليهم من أمري ونهي، أغريت بينهم العداوة والبغضاء.

وأولى التأويلين في ذلك عندنا بالحق، تأويل مَنْ قَالَ: «أغرى بينهم بالأهواء التي حدثت بينهم»، كما قال إبراهيم النخعي، لأنَّ عداوة النصارى بينهم، إنما هي باختلافهم في قولهم في المسيح، وذلك أهواء، لا وحي من الله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا
كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: اعْفُ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمَا بَبِسطِ
أَيْدِيهِمْ إِلَيْكَ وَإِلَى أَصْحَابِكَ وَاصْفَحْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ وَرَاءِ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ،
وَسَيُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ عِنْدَ وَرُودِهِمْ عَلَيْهِ فِي مَعَادِهِمْ، بِمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَصْنَعُونَ، مِنْ
نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُ، وَنَكْثِهِمْ عَهْدَهُ، وَتَبْدِيلِهِمْ كِتَابَهُ، وَتَحْرِيفِهِمْ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، فَيُعَاقِبُهُمْ
عَلَى ذَلِكَ حَسَبَ اسْتِحْقَاقِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: يَكْأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ
رُسُلُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ

يقول عَزَّ ذِكْرُهُ لِمُجَامَعَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا فِي
عَصْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ» مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. «قَدْ جَاءَكُمْ
رُسُلُنَا»، يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ.

وقوله: «يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ»، يَقُولُ: يَبَيِّنُ لَكُمْ
مُحَمَّدٌ رُسُلُنَا، كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَهُ النَّاسَ وَلَا تُبَيِّنُونَهُ لَهُمْ مِمَّا فِي كِتَابِكُمْ.
وَكَانَ مِمَّا يُخْفُونَهُ مِنْ كِتَابِهِمْ فَبَيَّنَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنَّاسِ: رَجُمُ الزَّانِئِينَ
الْمُحْصَنِينَ.

وقيل: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي تَبْيِينِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ لِلنَّاسِ، مِنْ
إِخْفَائِهِمْ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِهِمْ.

وقوله: «ويعفو عن كثير»، يعني بقوله: «ويعفو»، ويترك أخذكم بكثير مما كنتم تُخفون من كتابكم الذي أنزلهُ الله إليكم، وهو التوراة، فلا تعملون به حتى يأمره الله بأخذكم به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ
وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾

يقول جَلَّ ثَنَاهُ لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب: «قد جاءكم»، يا أهل التوراة والإنجيل. «من الله نور»، يعني بالنور، محمداً ﷺ الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام، ومَحَقَّ به الشرك، فهو نورٌ لمن استنار به يَبِينُ الحق. ومن إنارته الحق، تبيينه لليهود كثيراً مما كانوا يُخفون من الكتاب.

وقوله: «وكتاب مبين»، يقول، جَلَّ ثَنَاهُ: قد جاءكم من الله تعالى النور الذي أنار لكم به معالم الحق. «وكتاب مبين»، يعني كتاباً فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم: من توحيد الله، وحلاله وحرامه، وشرائع دينه، وهو القرآن الذي أنزله على نبينا محمد ﷺ، يبين للناس جميعاً ما بهم الحاجةُ إليه من أمر دينهم، ويوضحه لهم، حتى يعرفوا حَقَّه من باطله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
سُبُلَ السَّلَامِ

يعني عَزَّ ذِكْرُهُ: يهدي بهذا الكتاب المبين الذي جاء من الله جل جلاله. ويعني بقوله: «يهدي به الله»، يرشد به الله ويسدد به، و«الهاء» في قوله: «به» عائدة على «الكتاب». «من اتبع رضوانه»، يقول: من اتبع رِضَى الله.

ويعني بقوله: «سُبِّلَ السلام»، طُرُقَ السلام. و«السلام»، هو الله عَزَّ ذِكْرُهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ

يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: يهدي الله بهذا الكتاب المبين، من اتبع رضوان الله إلى سُبُلِ السلام وشرائع دينه. «ويخرجهم»، يقول: ويخرج من اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ. و«الهاء والميم» في: «ويخرجهم» إلى من ذُكِر. «من الظلمات إلى النور»، يعني: من ظلمات الكفر والشرك، إلى نور الإسلام وضيائه. «بإذنه»، يعني: بإذن الله جلَّ وعزَّ. و«إذنه» في هذا الموضع: تحييه إياه الإيمان برفع طابع الكفر عن قلبه، وخاتم الشرك عنه، وتوفيقه لإبصار سُبُلِ السلام.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

يعني عَزَّ ذِكْرُهُ بقوله: «ويهديهم»، وَيُرْشِدُهُمْ وَيُسَدِّدُهُمْ. «إلى صراطٍ مستقيم»، يقول: إلى طريقٍ مستقيم، وهو دينُ الله القويم الذي لا اعوجاج فيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

هذا ذمٌ من الله عَزَّ ذِكْرُهُ للنصارى والنصرانية، الذين ضلُّوا عن سُبُلِ

السلام، واحتجاج منه لنبيه محمد ﷺ في فريتهم عليه بادعائهم له ولدًا.
يقول جَلْ ثَنَاؤُهُ: أقسم، لقد كَفَرَ الذين قالوا: إِنَّ الله هو المسيح بن مريم و«كفرهم» في ذلك، تغطيتهم الحق في تركهم نفْي الولد عن الله جَلْ وعزَّ، وادعائهم أَنَّ المسيح هو الله، فِرْيَةٌ وكذباً عليه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا

يقول جَلْ ثَنَاؤُهُ، لنبيه محمد ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ، للنصارى الذين افتروا عليَّ، وضَلُّوا عن سواءِ السبيلِ بِقِيلِهِمْ: إِنَّ الله هو المسيح بن مريم: «من يملك من الله شيئاً»، يقول: مَنْ الذي يُطِيقُ أَنْ يَدْفَعَ مِنْ أَمْرِ الله جَلْ وعزَّ شيئاً، فِيرُدُّه إِذَا قَضَاهُ.

وقوله: «إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا»، يقول: مَنْ ذَا الذي يَقْدِرُ أَنْ يَرُدَّ مِنْ أَمْرِ الله شيئاً، إِنْ شَاءَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ، بِإِعْدَامِهِ مِنَ الْأَرْضِ وإِعْدَامِ أُمِّهِ مَرْيَمَ، وإِعْدَامِ جَمِيعِ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْخَلْقِ جَمِيعًا.

يَقُولُ جَلْ ثَنَاؤُهُ لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء الجَهْلَةِ مِنَ النصارى: لو كان الْمَسِيحُ كما تَزْعُمُونَ - أَنَّهُ هُوَ اللهُ، وليس كذلك - لَقَدَرُ أَنْ يَرُدَّ أَمْرَ اللهِ إِذَا جَاءَهُ بِإِهْلَاكِهِ وَإِهْلَاكِ أُمِّهِ. وَقَدْ أَهْلَكَ أُمُّهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى دَفْعِ أَمْرِهِ فِيهَا إِذْ نَزَلَ ذَلِكَ. ففِي ذَلِكَ لَكُمْ مَعْتَبَرٌ إِنْ اعْتَبَرْتُمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْكُمْ إِنْ عَقَلْتُمْ: فِي أَنَّ الْمَسِيحَ، بَشَرٌ كَسَائِرِ بَنِي آدَمَ، وَأَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي لَا يُغْلَبُ وَلَا يُقْهَرُ وَلَا يُرَدُّ لَهُ أَمْرٌ، بَلْ هُوَ الْحَيُّ الدَّائِمُ الْقَيُّومُ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُنْشِئُ وَيُفْنِي، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

يعني تبارك وتعالى بذلك: والله له تصرف ما في السموات والأرض وما بينهما - يعني: وما بين السماء والأرض - يهلك مَنْ يشاء من ذلك ويبقي ما يشاء منه. ويوجد ما أراد ويعدم ما أحب، لا يمنعه من شيء أراد من ذلك مانع، ولا يدفعه عنه دافع، يُنفذ فيهم حكمه، ويُمضي فيهم قضاءه، لا المسيح الذي إن أراد إهلاكه رَبُّهُ وإهلاك أمه، لم يملك دفع ما أراد به رَبُّهُ من ذلك.

يقول جلَّ وعزَّ: كيف يكون إلهاً يُعبد مَنْ كان عاجزاً عن دفع ما أراد به غيره من السوء، وغير قادرٍ على صَرْفِ ما نزل به من الهلاك؟ بل الإله المعبود الذي له ملك كُلِّ شيء، وبيده تصرف كُلِّ مَنْ في السماء والأرض وما بينهما.

فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وما بينهما»، وقد ذكر «السموات» بلفظ الجمع، ولم يقل: «وما بينهما»، لأن المعنى: وما بين هذين النوعين من الأشياء.

وقوله: «يخلق ما يشاء»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ويُنشئ ما يشاء ويوجد، ويخرجه من حالِ العدم إلى حالِ الوجود، ولن يقدر على ذلك غيرُ الله الواحدِ القهار. وإنما يعني بذلك، أن له تدبيرَ السموات والأرض وما بينهما وتصريفه، وإفناءه وإعدامه، وإيجاد ما يشاء مما هو غير موجود ولا مُنشأ. يقول: فليس ذلك لأحدٍ سواي، فكيف زعمتم، أيها الكذبة، أن المسيح إله، وهو لا يطيق شيئاً من ذلك، بل لا يقدر على دفع الضرر عن نفسه ولا عن أمه، ولا اجتلاب نفع إليها إلا بإذني؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴿١٧﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: الله المعبود، هو القادر على كل شيء، والمالك كل شيء، الذي لا يعجزه شيء أرادته، ولا يغلبه شيء طلبه، المقتدر على هلاك المسيح وأمه ومن في الأرض جميعاً - لا العاجز الذي لا يقدر على منع نفسه من ضُرِّ نزل به من الله، ولا منع أمه من الهلاك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ**

يقول الله لنبية محمد ﷺ: «قُلْ» لهؤلاء الكَذِبَةِ الْمُفْتَرِينَ على رَبِّهِمْ. «فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ رَبُّكُمْ، يقول: فلاي شيء يعذبكم رَبُّكُمْ بِذُنُوبِكُمْ، إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَبْنَاءُ وَأَحِبَّاؤُهُ، فَإِنَّ الْحَبِيبَ لَا يُعَذِّبُ حَبِيبَهُ، وَأَنْتُمْ مُقْرُونَ أَنَّهُ مُعَذِّبُكُمْ؟ وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ مُعَذِّبُنَا أَرْبَعِينَ يَوْماً عَدَدَ الْأَيَّامِ الَّتِي عَبَدْنَا فِيهَا الْعَجَل، ثُمَّ يَخْرِجُنَا جَمِيعاً مِنْهَا، فَقَالَ اللَّهُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ لَهُمْ: إِنْ كُنْتُمْ، كَمَا تَقُولُونَ، أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ، فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟ يُعَلِّمُهُمْ عَزَّ ذِكْرُهُ أَنَّهُمْ أَهْلُ فِرْيَةٍ وَكَذِبٍ عَلَى اللَّهِ جَلٌّ وَعِزٌّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: **بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ**

يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ لنبية محمد ﷺ، قل لهم: ليس الأمر كما زعمتم أنكم أبناء الله وأحباؤه. «بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ»، يقول: خَلَقَ مِنْ بَنِي آدَمَ، خَلَقَكُمْ

الله مثل سائر بني آدم، إِنَّ أَحْسَنَ جُوزِيْتُمْ بِإِحْسَانِكُمْ، كما سائر بين آدم مَجْزِيُونَ بِإِحْسَانِهِمْ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ جُوزِيْتُمْ بِإِسَاءَتِكُمْ، كما غيركم مجزي بها، ليس لكم عند الله إِلَّا ما لغيركم من خَلْقِهِ، فَإِنَّهُ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِهِ ذُنُوبَهُ، فيصفح عنه بفضلِهِ، ويسترها عليه برحمته، فلا يعاقبه بها.

«ويعذب من يشاء»، يقول: ويعدل على مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ فيعاقبه على ذنوبِهِ، ويفضحه بها على رؤوسِ الأَشْهَادِ فلا يسترها عليه.

ولما هذا من الله عز وجل وعيدٌ لهؤلاء اليهود والنصارى الْمُتَكِلِينَ على منازلِ سَلَفِهِمُ الْخِيَارِ عِنْدَ اللَّهِ، الَّذِينَ فَضَّلَهُمُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ بِطَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ، واجتباهم لمسارعتهم إلى رِضَا، واصطبارهم على ما نابههم فيه. يقول لهم: لا تغتروا بمكانِ أولئك مني ومنازلهم عندي، فإنهم إِنَّمَا نَالُوا ما نَالُوا مِنِّي بِالطَّاعَةِ لِي، وإيثار رضاي على محابهم لا بالأمانِي، فجدُّوا في طاعتي، وانتهوا إلى أَمْرِي، وانزجروا عَمَّا نَهَيْتُهُمْ عَنْهُ، فَإِنِّي إِنَّمَا أَغْفِرُ ذُنُوبَ مَنْ أَشَاءُ أَنْ أَغْفِرَ ذُنُوبَهُ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِي، وَأَعَذِّبُ مَنْ أَشَاءُ تَعْذِيْبَهُ مِنْ أَهْلِ مَعْصِيَتِي لَا لِمَنْ قُرِبَتْ زُلْفَةُ آبَائِهِ مِنِّي، وهو لي عدوٌّ، ولأَمْرِي ونهْيِي مخالفٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

لله تدبيرُ ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وتصريفُهُ، ويده أمره، وله ملكُهُ، يُصَرِّفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، ويدبرُهُ كَيْفَ أَحَبَّ، لا شريكَ له في شيءٍ منه، ولا لأحدٍ معه فيه ملكٌ، فاعلموا أيها القائلون: «نحنُ أبناءُ الله وأحباؤه»، أَنَّهُ إِنْ عَذَّبَكُمْ بِذُنُوبِكُمْ، لم يكن لكم منه مانعٌ، ولا لكم عنه دافعٌ، لأنه لا نسبَ بين أحدٍ وبينه فيحاييه لسبب ذلك، ولا لأحدٍ في شيءٍ دونه ملكٌ، فيحول بينه

وبينه إن أرادَ تعذيبَهُ بذنوبِهِ، وإليه مصيرُ كُلِّ شيءٍ ومَرْجَعُهُ. فاتَّقُوا، أيها المفترُونَ، عقابَهُ، إياكم على ذنوبِكُمْ بعد مرجعكم إليه، ولا تغتروا بالآمانِي وفضائلِ الآباءِ والأسلافِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ**

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقول: «يا أهل الكتاب»، اليهودَ الذين كانوا بين ظهراني مُهَاجِرِ رسولِ الله ﷺ يوم نزلت هذه الآية. وذلك أنهم أو: بعضهم، فيما ذكر لما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان به وبما جاءهم به من عند الله، قالوا: ما بعث الله من نبي بعد موسى، ولا أنزل بعد التوراة كتاباً!

ويعني بقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «قد جاءكم رسولنا»، قد جاءكم محمد ﷺ رسولنا. «يُبَيِّنُ لَكُمْ»، يقول: يعرفكم الحقَّ، ويوضح لكم أعلامَ الهدى، ويرشدكم إلى دين الله المرتضى.

«على فترة من الرسل»، يقول: على انقطاع من الرسل. و«الفترة» في هذا الموضع الانقطاع. يقول: قد جاءكم رسولنا يبيِّن لكم الحقَّ والهدى، على انقطاع من الرسل.

ويعني بقوله: «أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ»، أَنْ لَا تَقُولُوا، وكَي لَا تَقُولُوا، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، بمعنى: أَنْ لَا تَضِلُّوا، وكَي لَا تَضِلُّوا.

فمعنى الكلام: قد جاءكم رسولنا يبيِّن لكم على فترة من الرسل، كَي لَا تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ. يعلمهم عَزَّ ذِكْرُهُ أنه قد قطعَ عُذْرَهُمْ برسوله ﷺ، وأبلغ إليهم في الحجة.

ويعني بـ «البشير»، المُبَشِّر مَنْ أطاعَ اللهَ وآمنَ به وبرسوله، وعملَ بما آتاهُ من عند الله، بعظيمِ ثوابِهِ في آخرته، وبـ «النذير»، المُنذِر مَنْ عصاه وكذَّبَ رسوله ﷺ، وعملَ بِغَيْرِ ما آتاهُ من عند الله من أمرِهِ ونهيهِ، بما لا قَبْلَ له به من أليمِ عقابِهِ في معادِهِ، وشديدِ عذابِهِ في قيامته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

يقول جَلَّ ثَنَاهُ لهؤلاء اليهود الذين وصفنا صِفَتَهُمْ: قد أَعْلَنَّا بِكُمْ، واحتججنا عليكم برسولنا محمدٍ ﷺ إليكم، وأرسلناه إليكم لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ما أَشْكَلَ عليكم من أمرِ دينِكُمْ، كيلا تقولوا: «لم يَأْتِنَا من عندك رسولٌ يَبَيِّنُ لنا ما نَحْنُ عليه من الضلالة»، فقد جاءكم من عندي رسولٌ يُبَشِّرُ مَنْ آمَنَ بي وعملَ بما أَمَرْتُهُ وانتهى عما نَهَيْتُهُ عنه، وينذر مَنْ عصاني وخالفَ أَمْرِي، وأنا القادر على كل شيء، أَقْدِرُ على عقابِ مَنْ عصاني، وثوابِ مَنْ أطاعني، فَاتَّقُوا عقابي على معصيتكم إِيَّاي وتكذيبكم رسولي، واطلبوا ثوابي على طاعتكم إِيَّاي وتصديقكم بشيري ونذيري، فَإِنِّي أنا الذي لا يعجزه شيءٌ أَرَادَهُ، ولا يفوته شيءٌ طَلَبَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

وهذا أيضاً تعريفٌ من الله لنبية محمدٍ ﷺ، قَدِيمَ تَمَادِي هؤلاء اليهود في الغيِّ، وُبُعْدِهِمْ عن الحقِّ، وسوءِ اختيارِهِمْ لأنفسِهِمْ، وشدةِ خلافِهِمْ لأنبيائِهِمْ، وبطءِ إِنْابَتِهِمْ إلى الرشادِ، مع كثرةِ نعمِ الله عندهم، وتتابعِ أَيْادِيهِ

وآلآئِهِ عَلَيْهِمْ، مُسْلِيًّا بِذَلِكَ نَبِيُّهُ مُحَمَّدًا ﷺ عما يحلُّ به من علاجهم، وينزل به من مقاساتهم في ذاتِ الله. يقولُ الله له ﷺ: لا تَأْسَ على ما أَصَابَكَ مِنْهُمْ، فَإِنَّ الزَّهَابَ عَنِ اللَّهِ، وَالْبُعْدَ مِنَ الْحَقِّ، وما فيه لهم البَحثُ في الدنيا والآخرة، من عاداتهم وعادات أسلافهم وأوائلهم وتَعَزُّبُ ما لا قَى مِنْهُمْ أَخُوكَ مُوسَى ﷺ، وإذْكَرْ إِذْ قَالَ مُوسَى لَهُمْ: «يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»، يقول: اذكروا آيادي الله عندكم، وآلاءه قبلكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا

يعني بذلك جَلُّ ثَنَائِهِ: أَنَّ مُوسَى ذَكَرَ قَوْمَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَيَّامِ اللَّهِ عِنْدَهُمْ، وبِآلَائِهِ قَبْلَهُمْ، مُحَرِّضَهُمْ بِذَلِكَ عَلَى اتِّبَاعِ أَمْرِ اللَّهِ فِي قِتَالِ الْجَبَّارِينَ، فَقَالَ لَهُمْ: اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَنَّ فَضْلَكُمْ، بَأَنَّ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ يَأْتُونَكُمْ بِوَحْيِهِ، وَيُخْبِرُونَكُمْ بِأَنْبَاءِ الْغَيْبِ، وَلَمْ يُعْطِ ذَلِكَ غَيْرَكُمْ فِي زَمَانِكُمْ هَذَا.

فَقِيلَ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ مُوسَى أَنَّهُمْ جُعِلُوا فِيهِمْ: هُمُ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ إِذْ صَارَ إِلَى الْجَبَلِ، وَهُمْ السَّبْعُونَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فَقَالَ: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٣].

«وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا»، سَخَّرَ لَكُمْ مِنْ غَيْرِكُمْ خَدَمًا يَخْدُمُونَكُمْ.

وَقِيلَ: إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لَهُمْ مُوسَى، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَحَدٌ سِوَاهُمْ يَخْدُمُهُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: كُلُّ مَنْ مَلَكَ بَيْتًا وَخَادِمًا وَامْرَأَةً، فَهُوَ «مَلِكٌ»، كَانَتْ مِنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ.

فَقَالَ قَائِلُو هَذِهِ الْمَقَالَةِ: إِنَّمَا قَالَ لَهُمْ مُوسَى ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَمْلِكُونَ الدُّورَ وَالْخَدَمَ، وَلَهُمْ نِسَاءٌ وَأَزْوَاجٌ.

وقال آخرون: إنما عَنَى بقوله: «وجعلكم ملوكاً»، أنهم يملكون أنفسهم وأهلهم وأموالهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَءَاتَاكُمْ مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾

اختلف فيمن عنوا بهذا الخطاب.

فقال بعضهم: عَنَى به أمة محمد ﷺ.

وقال آخرون: عَنَى به قوم موسى ﷺ.

وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب، قول مَنْ قال: «وآتاكم ما لم يوتِ أحدًا من العالمين»، في سياق قوله: «اذكروا نعمة الله عليكم»، ومعطوف عليه.

ولا دلالة في الكلام تدلُّ على أنَّ قوله: «وآتاكم ما لم يوتِ أحدًا من العالمين»، مصروفٌ عن خطاب الذين ابتدئَ بخطابهم في أولِ الآية. فإذا كان ذلك كذلك، فأنَّ يكون خطاباً لهم، أولى من أن يقال: هو مصروفٌ عنهم إلى غيرهم.

فإنَّ ظَنَّ ظَنَّ أنَّ قوله: «وآتاكم ما لم يوتِ أحدًا من العالمين»، لا يجوزُ أن يكون لهم خطاباً، إذ كانت أمة محمدٍ قد أُوتيت من كرامة الله جَلَّ وَعَزَّ بنبيها عليه السلام محمدٍ، ما لم يوتِ أحدٌ غيرهم - وهم من العالمين - فقد ظُنَّ غير الصواب. وذلك أنَّ قوله: «وآتاكم ما لم يوتِ أحدًا من العالمين»، خطابٌ من موسى ﷺ لقومه يومئذٍ، وعَنَى بذلك عالمي زمانه، لا عالمي كُلِّ زمان. ولم يكن أُوتِيَ في ذلك الزمان من نِعَمِ الله وكرامته، ما أُوتِيَ قومه ﷺ، أحد من العالمين، فخرج الكلام منه ﷺ على ذلك، لا على جميع عالم كُلِّ زمان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاهُ: يَتَقَوَّمُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي
اَكْتَبَ اللَّهُ لَكُمْ

وهذا خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُهُ عن قولِ موسى ﷺ لقومه من بني إسرائيل،
وأمره إياهم - عن أمر الله إياه - بأمرهم بدخولِ الأرضِ المقدسة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاهُ: وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ



وهذا خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُهُ عن قيلِ موسى عليه السلام لقومه من بني
إسرائيل، إذ أمرهم الله عَزَّ ذِكْرُهُ إِيَّاه بدخولِ الأرضِ المقدسة، أنه قال لهم:
امْضُوا، أَيُّهَا الْقَوْمُ، لِأَمْرِ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَكُم بِهِ مِنْ دُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ. «وَلَا
تَرْتَدُّوا»، يقول: لَا تَرْجِعُوا الْقَهْقَرَى مُرْتَدِّينَ. «عَلَى أَدْبَارِكُمْ»، يعني: إلى
ورائكم، ولكن امْضُوا قُدُّمًا لِأَمْرِ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَكُم بِهِ، مِنْ الدُّخُولِ عَلَى الْقَوْمِ
الَّذِينَ أَمَرَكُم اللَّهُ بِقِتَالِهِمْ وَالْهَجُومِ عَلَيْهِمْ فِي أَرْضِهِمْ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ ذِكْرُهُ قَدْ كَتَبَهَا
لَكُمْ مَسْكَنًا وَقَرَارًا.

ويعني بقوله: «فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ»، أي: تنصرفوا خائبين هُلكًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثَنَاهُ عن جوابِ قومِ موسى عليه السلام، إذ
أمرهم بدخولِ الأرضِ المقدسة: أَنَّهُمْ أَبَوْا عَلَيْهِ إِجَابَتَهُ إِلَى مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ
ذَلِكَ، وَاعْتَلَوْا عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ بِأَنَّهُ قَالُوا، إِنَّ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي تَأْمُرُنَا

بدخلوها، قوماً جبارين لا طاقةً لنا بحربهم، ولا قوةً لنا بهم. وسموهم «جبارين»، لأنهم كانوا لشدة بطشهم وعظيم خلقهم، فيما ذكر لنا، قد قهروا سائر الأمم غيرهم.

وأصل «الجبار»، المصلح أمر نفسه وأمر غيره، ثم استعمل في كل من اجتتر نفعاً إلى نفسه بحق أو باطل طلب الإصلاح لها، حتى قيل للمتعدّي إلى ما ليس له - بغياً على الناس، وقهراً لهم، وعُتوا على ربّه - «جبار».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَإِنَّا لَنَنذُرُكُمْ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾

وهذا خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُهُ عن قول قوم موسى لموسى، جواباً لقوله لهم: «ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم»، فقالوا: «إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها»، يعنون: حتى يخرج من الأرض المقدسة الجبارون الذين فيها، جُبناً منهم، وجرعاً من قتالهم. وقالوا له: إِنْ يَخْرُجْ مِنْهَا هَؤُلَاءِ الْجَبَارُونَ دَخَلْنَاهَا، وَإِلَّا فَإِنَّا لَا نُطِيقُ دَخْلَهَا وَهُمْ فِيهَا، لَأنه لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ وَلَا يَدَانِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاهُ: قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَمْرَ اللَّهِ عَلَيْهِمَا

وهذا خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُهُ عن الرجلين الصالحين من قوم موسى: «يوشع بن نون» و«كالب بن يوفنا»^(١)، أنهما وقيا لموسى بما عهد إليهما من ترك إعلام قومه بني إسرائيل الذين أمرهم بدخول الأرض المقدسة على الجبابرة

(١) هذان الرجلان مذكوران في سفر العدد من التوراة الحالية (الإصحاح الثالث عشر والرابع عشر).

من الكنعانيين. بما رأيا وعانينا من شِدَّةِ بَطْشِ الجبابرةِ وعِظَمِ خلقهم، ووصفهما الله عَزَّ وَجَلَّ بأنَّهُمَا مِمَّنْ يَخَافُ اللهَ ويرَاقِبُه في أمره ونهيهِ.

وأما قوله: «أَنعَمَ اللهُ عليهما»، فإنه يعني: أَنعَمَ اللهُ عليهما بطاعةِ الله في طاعةِ نبيِّه موسى ﷺ، وانتهائهم إلى أمرِهِ، والانزجارِ عما رَجَرَهُمَا عَنْهُ ﷺ، من إفساءٍ ما عانينا من عَجِيبِ أمرِ الجبارين إلى بني إسرائيل، الذي حَدَّثَ عَنْهُ أصحابهما الآخرون الذين كانوا معهما من النِّقَبَاءِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: اَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ

وهذا خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُهُ عن قولِ الرجلين اللذين يخافان الله لبني إسرائيل، إِذْ جَبَنُوا وَخَافُوا من الدخولِ على الجبارين، لَمَّا سَمِعُوا خبرهم، وأخبرهم النِّقَبَاءُ الذين أَفْشَوْا ما عَانَيْنَا من أمرِهِم فيهم، وقالوا: «إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جبارين وَإِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا»، فقالا لهم: ادخلوا عليهم، أيها القوم بَابَ مَدِينَتِهِمْ، فَإِنَّ اللهَ مَعَكُمْ، وهو ناصِرُكُمْ، وإِنكُمْ إِذَا دَخَلْتُمُ الْبَابَ غَلِبْتُمُوهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

وهذا أيضاً خبرٌ من الله جَلَّ وَعَزَّ عن قولِ الرجلين اللذين يخافان الله، أَنَّهُمَا قَالَا لِقَوْمِ موسى يُشْجَعَانِهِمْ بِذَلِكَ، وَيُرْغَبَانِهِمْ فِي الْمَضِيِّ لِأَمْرِ الله بالدخولِ على الجبارين في مَدِينَتِهِمْ - تَوَكَّلُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ، على الله في دخولكم عليهم، فيقولان لهم: ثِقُوا بالله، فإنه معكم إِنَّ أَطَعْتُمُوهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ مِنْ جِهَادٍ

عَدُوَّكُمْ. وَعِنْيَا بِقَوْلِهِمَا: «إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ»، إِنْ كُنتُمْ مُصَدِّقِي نَبِيِّكُمْ ﷺ فِيمَا أَنبَأَكُمْ عَنْ رَبِّكُمْ مِنَ النُّصْرَةِ وَالظَّفَرِ عَلَيْهِمْ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ إِخْبَارِهِ عَنْ رَبِّهِ - وَمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ رَبَّكُمْ قَادِرٌ عَلَى الْوَفَاءِ لَكُمْ بِمَا وَعَدَكُمْ مِنْ تَمْكِينِكُمْ فِي بِلَادِ عَدُوِّهِ وَعَدُوَّكُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَازْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٣﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ذِكْرُهُ عن قولِ الملأ من قومِ موسى لموسى، إِذْ رُغِبُوا فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَوَعَدُوا نَصَرَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ إِنْ هُمْ نَاهَضُوهُمْ وَدَخَلُوا عَلَيْهِمْ بَابَ مَدِينَتِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ: «إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا»، يَعْنُونَ: إِنَّا لَنَدْخُلُ مَدِينَتَهُمْ أَبَدًا.

و«الهاء والألف» فِي قَوْلِهِ: «إِنَّا لَنَدْخُلُهَا»، مِنْ ذِكْرِ «المدينة».

ويعنون بقولهم: «أبدًا»، أَيَّامَ حَيَاتِنَا. «مَا دَامُوا فِيهَا»، يَعْنُونَ: مَا كَانَ الْجَبَّارُونَ مُقِيمِينَ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُمْ وَأَمَرُوا بِدُخُولِهَا. «فَازْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ»، لَانْجِيءُ مَعَكَ يَا مُوسَى إِنْ ذَهَبَتْ إِلَيْهِمْ لِقَاتِلَهُمْ، وَلَكِنْ نَتْرَكَ تَذْهَبْ أَنْتَ وَحْدَكَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَانِاهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاهُ: قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ وَعَزَّ عَنْ قِيلِ قَوْمِ مُوسَى حِينَ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ مَا قَالُوا، مِنْ قَوْلِهِمْ: «إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَازْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ» - أَنَّهُ قَالَ عِنْدَ ذَلِكَ، وَغَضِبَ مِنْ قِيلِهِمْ لَهُ، دَاعِيًا: يَا رَبِّ

إني لا أملك إلا نفسي وأخي - يعني بذلك، لا أقدرُ على أحدٍ أن أحمله على ما أحبُّ وأريدُ من طاعتك وأتباعِ أمرِكَ ونهيكَ، إلا على نفسي وعلى أخي.

ويعني بقوله: «فأفرقُ بيننا وبين القومِ الفاسقين»، أفصلُ بيننا وبينهم بقضاءٍ منك تقضيه فينا وفيهم، فتبعدهم منا.

وعنى بقوله: «الفاسقين»، الخارجين عن الإيمان بالله وبه إلى الكفر بالله

وبه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ

قوله: «محرمه عليهم أربعين سنة»، معني به جميع قوم موسى، لا بعض دون بعضٍ منهم. لأنَّ الله عَزَّ ذِكْرُهُ عَمَّ بذلك القومَ ولم يخصَّ منهم بعضاً دون بعضٍ. وقد وثى الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ بما وعدَّهم به من العقوبة، فتيههم أربعين سنة، وحرَّم على جميعهم، في الأربعين سنة التي مكثوا فيها تائبين، دخول الأرض المقدَّسة، فلم يدخلها منهم أحدٌ، لا صغير ولا كبير، ولا صالح ولا طالح، حتى انقضت السنون التي حرَّم الله عَزَّ وجلَّ عليهم فيها دخولها. ثم أُذِنَ لمن بقي منهم وذرائعهم بدخولها مع نبيِّ الله موسى والرجلين اللذين أنعم الله عليهما، وافتتح قريةَ الجبارين، إن شاء الله، نبيُّ الله موسى ﷺ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ



يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «فلا تأس»، فلا تحزن.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنبيه محمد ﷺ: وأتل على هؤلاء اليهود الذين هموا أن يسطوا أيديهم إليكم، وعلى أصحابك معهم - وعرفهم مكروه عاقبة الظلم والمكر، وسوء مغبة الخثر^(١) ونقض العهد، وما جزاء الناكث وثواب الوافي - خبر ابني آدم، هابيل وقابيل، وما آل إليه أمر المطيع منهما ربُّه الوافي بعهده، وما إليه صار أمر العاصي منهما ربُّه الخائر الناقض عهده. فلتعرف بذلك اليهود وخامة غِبْ غَدْرهم ونقضهم ميثاقهم بينك وبينهم، وهمهم بما هموا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك، فإن لك ولهم - في حسن ثوابي وعظم جزائي على الوفاء بالعهد الذي جازيت المقتول الوافي بعهده من ابني آدم، وعاقبت به القاتل الناكث عهده - عزاء جميلاً.

ويعني بقوله: «من المتقين»، من الذين اتقوا الله وخافوه، بأداء ما كلفهم من فرائضه، واجتناب ما نهاهم عنه من معصيته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ^{٢٨} إِنْ أَحَافُ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾

وهذا خبر من الله تعالى ذِكْرُهُ عن المقتول من ابني آدم أنه قال لأخيه - لما قال له أخوه القاتل: لأقتلَنَّكَ -: والله، «لئن بسطت إليَّ يدك»، يقول:

(١) الخثر: أسوأ الغدر.

مددت إليّ يدك. «ولتقتلني ما أنا بباسطِ يديّ إليك»، يقول: ما أنا بمادّ يدي إليك. «ولاقتلك».

وقد اختلف في السبب الذي من أجله قال المقتول ذلك لأخيه، ولم يمانعه ما فعل به.

فقال بعضهم: قال ذلك، إعلاماً منه لأخيه أنه لا يستحلّ قتله ولا بسطَ يده إليه بما لم يأذن الله جلّ وعزّ له به.

وقال آخرون: : لم يَمْنَعُهُ مِمَّا أَرَادَ مِنْ قَتْلِهِ، وَقَالَ مَا قَالَ لَهُ مِمَّا قَصَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: إِلَّا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ ذِكْرَهُ فَرَضَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَمْتَنِعَ مَنْ أُرِيدَ قَتْلُهُ مِمَّنْ أَرَادَ ذَلِكَ مِنْهُ.

وأولى القولين في ذلك بالصواب أن يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ ذِكْرَهُ قَدْ كَانَ حَرِّمًا عَلَيْهِمْ قَتْلَ نَفْسٍ بغيرِ نَفْسٍ ظُلْمًا، وَأَنَّ المَقْتُولَ قَالَ لِأَخِيهِ: «مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ إِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ»، لِأَنَّهُ كَانَ حَرَامًا عَلَيْهِ مِنْ قَتْلِ أَخِيهِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ حَرَامًا عَلَى أَخِيهِ الْقَاتِلِ مِنْ قَتْلِهِ. فَأَمَّا الْامْتِنَاعُ مِنْ قَتْلِهِ حِينَ أَرَادَ قَتْلَهُ، فَلَا دَلَالَةَ عَلَى أَنَّ الْقَاتِلَ حِينَ أَرَادَ قَتْلَهُ وَعَزَمَ عَلَيْهِ، كَانَ المَقْتُولُ عَالِمًا بِمَا هُوَ عَلَيْهِ عَازِمٌ مِنْهُ وَمَحَاوِلٌ مِنْ قَتْلِهِ، فَتَرَكَ دَفْعَهُ عَنْ نَفْسِهِ. بَلْ قَدْ ذَكَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ قَتَلَهُ غِيْلَةً، اغْتَالَهُ وَهُوَ نَائِمٌ، فَشَدَخَ رَأْسَهُ بِصَخْرَةٍ. فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ مُمْكِنًا، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مَأْمُورًا بِتَرْكِ مَنَعِ أَخِيهِ مِنْ قَتْلِهِ، وَلَمْ يَكُنْ جَائِزًا ادْعَاءُ مَا لَيْسَ فِي الْآيَةِ، إِلَّا بِبِرْهَانٍ يَجِبُ تَسْلِيمُهُ.

وأما تأويل قوله: «إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ»، فَإِنَّهُ يَعْنِي: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ فِي بَسْطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ إِنْ بَسَطْتَهَا لِقَتْلِكَ. «رَبُّ الْعَالَمِينَ»، يَعْنِي: مَالِكُ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا، أَنَّ يَعَاقِبُنِي عَلَى بَسْطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِيَاثِمِي وَإِنَّمَا فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ» ﴿٢٩﴾

تأويله: «إني أريد أن تنصرف بخطيتك في قتلك إياي - وذلك هو معنى قوله: «إني أريد أن تبوء بيأثمي» - وأما معنى: «وإثمك»، فهو إثمه بغير قتله، وذلك معصيته الله جلَّ ثناؤه في أعمالٍ سواه، لإجماع أهل التأويل عليه، ولأنَّ الله عَزَّ ذِكْرُهُ قد أخبرنا أنَّ كُلَّ عاملٍ فجزاء عمله له أو عليه. وإذا كان ذلك حكمه في خلقه، فغير جائز أن يكون آثام المقتول مأخوذاً بها القاتل، وإنما يُؤْخَذُ القاتلُ بإثمه بالقتلِ المحرمِ وسائرِ آثامِ معاصيه التي ارتكبتها بنفسه، دون ما ركبهُ قتلُهُ.

فإن قال قائل: أو ليس قتلُ المقتول من بني آدم كان معصيةً لله من القاتل؟

قيل بلى: وأعظمُ بها معصية!

فإن قال: فإذا كان الله جلَّ وعزَّ معصيةً، فكيف جاز أن يُريد ذلك منه المقتول، ويقول: «إني أريد أن تبوء بيأثمي»، وقد ذكرت أن تأويل ذلك، «إني أريد أن تبوء بيأثم قتلتي»؟

قيل: معناه: «إني أريد أن تبوء بيأثم قتلتي إن قتلتي، لأنِّي لا أقتلك، فإن أنت قتلتني، فإني مريد أن تبوء بيأثم معصيتك الله في قتلك إياي. وهو إذا قتله، فهو لا محالة باء به في حُكْمِ الله، لإرادته ذلك غير موجبة له الدخول في الخطأ».

ويعني بقوله: «فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين»، يقول: فتكون بقتلك إياي من سكان الجحيم، ووقود النار المُخْلِدين فيها. «وذلك

جزاء الظالمين»، يقول: والنارُ ثوابُ التاركين طريقَ الحقِّ، الزائِلين عن قَصْدِ السبيل، الْمُتَعَدِّينَ ما جُعِلَ لهم إلى ما لم يُجْعَلْ لهم.

وهذا يدل على أَنَّ الله عَزَّ ذِكْرُهُ قد كان أمرَ ونهى آدمَ بعد أن أهبطَهُ إلى الأرض، ووعد وأوعِد. ولولا ذلك ما قَالَ المَقْتُولُ للقاتل: «فَتَكُونُ من أصحابِ النارِ بِقَتْلِكَ لِإِيَّاي، ولا أخبره أَنَّ ذلك جزاءُ الظالمين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ،

فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «فَطَوَّعَتْ»، فَاتَتْهُ وسَاعَدَتْهُ عليه.

وأما قوله: «فَأَصْبَحَ من الخاسرين»، فإن تأويله: فأصبح القاتلُ أخاهُ من ابْنِي آدمَ، من حزبِ الخاسرين، وهم الذين بَاْعُوا آخِرَتَهُمْ بِدُنْيَاهُمْ، بِيُثَارِهِمْ إِيَّاهَا عليها، فَوَكَّسُوا في بيعهم، وغبنوا فيه، وخابوا في صفقتهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُؤْتِلْنِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

تأويل الكلام: فأنارَ الله للقاتل - إذ لم يَذَرِ ما يصنع بأخيه المقتول. «غُرَابًا يَبْحَثُ في الأرض»، يقول: يحفر في الأرض فيُثِيرُ ترابها. «ليريه كيف يورِي سَوَاءَ أَخِي»، يقول: ليريه كيف يورِي جِيفَةَ أَخِي.

وفي ذلك محذوفٌ ترك ذكره، استغناءً بدلالة ما ذكر منه، وهو: «فأراه بأنَّ بَحَثَ في الأرض لغرابٍ آخَرَ مِيتٍ قَوَّارَاهُ فيها»، فقال القاتلُ أخاه حينئذٍ:

«يا ويلتى أعجزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغراب»، الذي وارى الغراب الآخر الميتَ. «فأوارى سواةً أخى»، فواراه حيثنذ. «فأصبح من النادمين»، على ما فرطَ منه، من معصيةِ الله عزَّ ذِكْرُه في قتلِه أخاه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا

فمعنى الكلام: من جنايةِ ابن آدم القاتل أخاه ظلماً، حَكَمْنَا على بني إسرائيل أنه مَنْ قَتَلَ مِنْهُمْ نَفْسًا ظُلْمًا، بغيرِ نفسٍ قُتِلَتْ، فقتل بها قصاصاً. «أو فسادٍ في الأرض»، يقول: أو قتل منهم نفساً بغيرِ فسادٍ كان منها في الأرض، فاستحققت بذلك قتلها. و«فسادها في الأرض»، إنما يكون بالحرب لله ولرسوله، وإخافة السبيل.

ثم اختلف أهل التأويل في تأويلِ قوله جَلَّ ثَنَاهُ: «وَمَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا».

وأولى الأقوال عندى بالصواب، قول مَنْ قال: تأويلُ ذلك: أنه مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُؤْمِنَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ قَتَلَهَا فَاسْتَحَقَّتِ الْقَوْدُ بِهَا وَالْقَتْلُ قِصَاصاً. أو بغيرِ فسادٍ في الأرض، بحربِ الله ورسوله وحربِ المؤمنين فيها، فكأنما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا فِيمَا اسْتَوْجِبَ مِنْ عَظِيمِ الْعُقُوبَةِ مِنْ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاهُ، كما أوعده ذلك من فعله ربُّه بقوله: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً» [النساء: ٩٣].

وأما قوله: «وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً»، فأقوى التاويلات به، قول مَنْ قَالَ: مَنْ حَرَّمَ قَتْلَ مَنْ حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ ذِكْرُهُ قَتْلَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فلم يتقدّم على قتله، فقد حَيَّيَ النَّاسَ مِنْهُ بِسَلَامَتِهِمْ مِنْهُ، وذلك إحياءه إياها. وذلك نظير خبر الله عَزَّ ذِكْرُهُ عَمَّنْ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ إِذْ قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: ﴿رَبِّیَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فكان معنى الكافر في قِيلِهِ: «أنا أحيي»، أنا أَتْرَكُ مَنْ قَدِرْتُ عَلَى قَتْلِهِ - وفي قوله: «وَأُمِيتُ»، قتله من قتله. فكَذَلِكَ معنى «الإحياء» في قوله: «وَمَنْ أَحْيَاهَا»، من سَلِمَ النَّاسُ مِنْ قَتْلِهِ إِيَّاهُمْ، إِلَّا فِيمَا أَذِنَ اللَّهُ فِي قَتْلِهِ مِنْهُمْ. «فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً».

وإنما قلنا ذلك أُولَى التاويلات بتاويل الآية، لأنه لا نفس يقوم قتلها في عاجل الضرّ مقام قتل جميع النفوس، ولا إحيائها مقام إحياء جميع النفوس في عاجل النفع. فكان معلوماً بذلك أَنَّ معنى: «الإحياء»: سلامة جميع النفوس منه، لأنه مَنْ لم يتقدم على نفس واحدة، فقد سَلِمَ مِنْهُ جَمِيعَ النفوس - وَأَنَّ الواحدة منها التي يقوم قتلها مقام جميعها إنما هو في الوزر. لأنه لا نفس من نفوس بني آدم يقوم فَقْدُهَا مقام فَقْدِ جميعها، وإن كان فَقْدُ بعضها أعمّ ضرراً من فَقْدِ بعض.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَلَقَدْ جَاءَ تَهُمُّ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

وهذا قسم من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَقْسَمَ بِهِ: أَنْ رُسُلَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ قَدْ أَتَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ قَصَّ اللَّهُ قَصَصَهُمْ وَذَكَرَ نَبَاهُمْ فِي الْآيَاتِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ، مِنْ قَوْلِهِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ» إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ. «بِالْبَيِّنَاتِ»، يَعْنِي: بِالْآيَاتِ الْوَاضِحَةِ

والحجج البينة على حقيقة ما أرسلوا به إليهم، وصحة ما دَعَوْهُمْ إليه من الإيمان بهم، وأداء فرائض الله عليهم.

يقول الله عَزَّ ذِكْرُهُ: «ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون»، يعني: أن كثيراً من بني إسرائيل.

«بعد ذلك»، يعني: بعد مجيء رُسُلِ الله بالبينات.

«في الأرض لمسرفون»، يعني: أنهم في الأرض لعاملون بمعاصي الله، ومخالفون أمر الله ونهيه، ومحادّو الله ورسله، باتباعهم أهواءهم. وخلافهم على أنبيائهم، وذلك كان إسرافهم في الأرض.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا

وهذا بيان من الله عَزَّ ذِكْرُهُ عن حُكْمِ «الفساد في الأرض»، الذي ذكره في قوله: «من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه مَنْ قَتَلَ نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض» أَعْلَمَ عِبَادَهُ: ما الذي يستحقُّ الْمُفْسِدُ في الأرض من العقوبة والنكال، فقال تبارك وتعالى: لا جزاء له في الدنيا إِلَّا الْقَتْلُ، والصلبُ، وقطعُ اليد والرجل من خلافٍ، أو النفي من الأرض، خزيًا لهم. وأما في الآخرة إن لم يَتُبْ في الدنيا، فعذابٌ عظيم.

و«المحاربُ لله ورسوله»، هو مَنْ حارب في سابلة المسلمين وذِمَّتِهِم، والمغير عليهم في أمصارهم وقراهم حِرَابَةً. لأنه لا خلاف بين الْحُجَّةِ أَنَّ مَنْ نَصَبَ حرباً للمسلمين على الظلم منه لهم، أنه لهم محاربٌ، ولا خلاف فيه. فالذي وصفنا صِفَتَهُ، لا شك فيه أنه لهم ناصِبٌ حرباً ظلماً. وإذ كان ذلك

كذلك، فسواء كان نَصَبُهُ الحربَ لهم في مَضَرِّهِمْ وَقَرَاهِم، أو في سُبُلِهِمْ وطَرِقِهِمْ: في أنه لله ولرسوله محاربٌ، بحربه مَنْ نَهَاهُ الله ورسوله عن حربه.

وأما قوله: «ويسعون في الأرض فساداً»، فإنه يعني: ويعملون في أرض الله بالمعاصي: من إخافة سُبُل عباده المؤمنين به، أو سُبُل ذمتهم، وقطع طُرُقِهِمْ، وأخذ أموالهم ظلماً وعدواناً، والتوُّبِ على حرمهم فجوراً وفُسُوقاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما لِلَّذِي حَارَبَ الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، من أهلِ مِلَّةِ الإسلام أو ذمتهم - إلا بعض هذه الخلال التي ذكرها جُلُّ ثَنَائِهِ.

ثم اختلف أهل التأويل في هذه الخلال، أُلْزِمَ المحاربُ باستحقاقه اسم «المحاربة»، أم يلزمه ما لَزِمَهُ من ذلكم على قَدَرِ جُرْمِهِ، مختلفاً باختلاف أجرامه؟

فقال بعضهم: تَجِبُ على المحارب العقوبة على قَدَرِ استحقاقه، ويلزمه ما لزمه من ذلك على قَدَرِ جُرْمِهِ، مختلفاً باختلاف أجرامه.

واعْتَلَّ قائلو هذه المقالة لقولهم هذا، بأن قالوا: إن الله أَوْجَبَ على القاتلِ الْقَوْدَ، وعلى السارقِ الْقَطْعَ. وقالوا: قال النبي ﷺ: «لا يحل دَمُ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاث خِلال: رجل قتل فقتل، ورجل زنى بعد إحصان فرُجِم، ورجل كفر بعد إسلامه»^(١). قالوا: فحظر النبي ﷺ قَتْلَ رجلٍ مسلمٍ.

(١) هكذا ساقه المؤلف معلقاً من غير إسناد، وهو في الصحيحين: البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بمعناه.

إلا بإحدى هذه الخلال الثلاث. فاما أن يُقتل من أجل إخافته السبيل من غير أن يقتل أو يأخذ مالا، فلذلك تقدّم على الله ورسوله بالخلاف عليهما في الحكم. قالوا: ومعنى قول مَنْ قال: «الإمام فيه بالخيار، إذا قُتل وأُخاف السبيل وأُخذ المال»، فهناك خيارُ الإمام في قولهم بين القتل، أو القتل والصلب، أو قطع اليد والرجل من خلاف. وأما صلبه باسم المحاربة، من غير أن يفعل شيئا من قتل أو أخذ مال، فذلك ما لم يَقُلْه عالم.

وقال آخرون: الإمام فيه بالخيار: أن يفعل أي هذه الأشياء التي ذكرها الله في كتابه.

واعتلّ قائلو هذه المقالة بأن قالوا: وجدنا العطف الذي بـ «أو» في القرآن بمعنى التخيير، في كل ما أوجب الله به فرضاً منها، وذلك كقوله في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، وكقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وكقوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً﴾ [المائدة: ٩٥]. قالوا: فإذا كانت العطف التي بـ «أو» في القرآن، في كل ما أوجب الله به فرضاً منها في سائر القرآن، بمعنى التخيير، فكذلك ذلك في آية المحاربين - الإمام مخير فيما رأى الحكم به على المحارب إذا قُدر عليه قبل التوبة.

وأولى التأويلين بالصواب في ذلك عندنا، تأويل مَنْ أوجب على المحارب من العقوبة على قُدر استحقاقه، وجعل الحكم على المحاربين مختلفاً باختلاف أفعالهم. فأوجب على مُخَيِّفِ السبيل منهم إذا قُدر عليه قبل التوبة، وقبل أخذ مال أو قتل - النفي من الأرض. وإذا قُدر عليه بعد أخذ المال وقتل

النفس المحرم قتلها - الصلب، لما ذكرت من العلة قَبْلَ لقائلي هذه المقالة .

فأما ما اعتلَّ به القائلون: إِنَّ الإمامَ فيه بالخيار، من أن «أو» في العطف تأتي بمعنى التخيير في الفرض، فقول لا معنى له، لأن «أو» في كلام العرب قد تأتي بضروبٍ من المعاني، لولا كراهة إطالة الكتابِ بِذِكْرِها لذكرُها، وقد بينتُ كثيراً من معانيها فيما مضى، وسنأتي على باقيها فيما يستقبل في أماكنها إِنَّ شاء الله .

فأما في هذا الموضوع، فَإِنَّ معناها التعقيب، وذلك نظير قولِ القائل: «إِنَّ جزاءَ المؤمنين عند الله يوم القيامة أَنْ يُدْخِلَهُم الجنةَ، أو يرفع منازلهم في عِلِّيِّينَ، أو يسكنهم مع الأنبياء والصديقين»، فمعلومٌ أَنَّ قائل ذلك غير قاصد بِقِيلِهِ إلى أَنَّ جزاءَ كُلِّ مؤمنٍ آمَنَ بالله ورسوله فهو في مرتبة واحدة من هذه المراتب، ومنزلة واحدة من هذه المنازل بإيمانه، بل المعقولُ عنه أَنَّ معناه: أَنَّ جزاءَ المؤمن لن يخلو عند الله عَزَّ ذِكْرُهُ من بعض هذه المنازل . فالمقتصدُ منزلته دون منزلة السابق بالخيرات، والسابق بالخيرات أعلى منه منزلةً، والظالم لنفسه دونهما، وكلُّ في الجنة كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣]. فكذلك معنى المعطوف بـ «أو» في قوله: «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله»، الآية، إنما هو التعقيب.

فتأويله: إِنَّ الذي يحاربُ الله ورسوله ويسعى في الأرض فساداً، لن يخلو من أَنْ يستحق الجزاءَ بإحدى هذه الخلال الأربع التي ذكرها الله عَزَّ ذِكْرُهُ - لا أن الإمام محكم فيه ومخيرٌ في أمره - كائناً ما كانت حالته، عظمت جريته أو خفَّتْ، لأنَّ ذلك لو كان كذلك، لكانَ للإمام قتل مَنْ شَهِر السلاح مخيفاً السبيلَ وصلبَهُ، وإن لم يأخذ مالا ولا قتلَ أحداً، وكان له نفيٌ مَنْ قَتَلَ وأخذَ المالَ وأخافَ السبيلَ . وذلك قولٌ إِنَّ قاله قائلٌ، خلافُ ما صَحَّتْ به

الأثار عن رسول الله ﷺ من قوله: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل قتل رجلاً فقتل به، أو زنى بعد إحصان فرجم، أو ارتد عن دينه»^(١)، وخلاف قوله: «القطع في ربع دينار فصاعداً»^(٢)، وغير المعروف من أحكامه^(٣).

فإن قال قائل: فإن هذه الأحكام التي ذكرت، كانت عن رسول الله ﷺ في غير المحارب، وللمحارب حكم غير ذلك منفرد به.

قيل له: فما الحكم الذي انفرد به المحارب في سنته؟

فإن ادعى عنه ﷺ حكماً خلاف الذي ذكرنا، أكذبهُ جميع أهل العلم، لأن ذلك غير موجود بنقل واحد ولا جماعة.

وإن زعم أن ذلك الحكم هو ما في ظاهر الكتاب، قيل له: فإن أحسن حالاتك إن سلم لك، أن ظاهر الآية قد يحتمل ما قلت وما قاله من خالفك فما برهائك على أن تأويلك أولى بتأويل الآية من تأويله؟

وبعد، فإذا كان الإمام مخيراً في الحكم على المحارب، من أجل أن «أو» بمعنى التخيير في هذا الموضع عندك، أفله أن يصلبه حياً، ويتركه على الخشبة مصلوباً حتى يموت من غير قتله.

فإن قال: «ذلك له»، خالف في ذلك الأمة.

وإن زعم أن ذلك ليس له، وإنما له قتله ثم صلبه، أو صلبه ثم قتله - ترك علته من أن الإمام إنما كان له الخيار في الحكم على المحارب من أجل أن «أو» تأتي بمعنى التخيير.

(١) تقدم تخريجه قبل قليل.

(٢) هكذا ساقه المؤلف معلقاً من غير إسناد وهو في الصحيحين: البخاري (٦٧٨٩) و (٦٧٩٠) و (٦٧٩١)، ومسلم (١٦٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) معطوف على قوله: خلاف ما صحّت به الآثار.

وقيل له: فكيف كان له الخيار في القتل أو النفي أو القطع، ولم يكن له الخيار في الصلب وحده، حتى تجمع إليه عقوبة أخرى؟

وقيل له: هل بينك وبين مَنْ جَعَلَ الخيارَ حيثُ أبيتَ، وأبى ذلك حيثُ جعلتهُ له - فرقٌ من أصلٍ أو قياسٍ؟ فلن يقول في أحدهما قولاً إلا ألزِمَ الآخر مثله.

وأما قوله: «أو تُقَطَّعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف»، فإنه يعني به جُلْ ثناؤُهُ: أنه تقطع أيديهم مخالفاً في قطعها أرجلهم. وذلك أن تقطع أيمن أيديهم، وأشمل أرجلهم. فذلك «الخلاف» بينهما في القطع.

واختلف أهل التأويل في معنى «النفي» الذي ذكر الله في هذا الموضع. فقال بعضهم: هو أن يُطْلَبَ حتى يُقَدَّرَ عليه، أو يهربَ من دار الإسلام.

وقال آخرون: معنى «النفي» في هذا الموضع: أن الإمام إذا قدر عليه نفاهُ من بلدته إلى بلدةٍ أخرى غيرها.

وقال آخرون: معنى: «النفي من الأرض»، في هذا الموضع: الحبس.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: معنى «النفي» من الأرض»، في هذا الموضع، هو نفيه من بلدٍ إلى بلدٍ غيره، وحَبْسه في السجن في البلد الذي نُفِيَ إليه، حتى تَظْهَرَ توبته من فسوقه، ونُزِوعه عن معصيته رَبَّهُ.

وإنما قلتُ ذلك أُولَى الأقوالِ بالصحة، لأنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في معنى ذلك على أحدِ الأوجه الثلاثة التي ذكرتُ. وإذا كان ذلك كذلك - وكان معلوماً أن الله جَلَّ ثناؤُهُ إنما جعل جزاءَ المحارب: القتل أو الصلب أو قطع اليد والرجل من خلافٍ، بعد القدرة عليه، لا في حال امتناعه - كان معلوماً أن النفي أيضاً إنما هو جزاؤه بعد القدرة عليه، لا قبلها. ولو كان هَرَبُهُ من

الطلب نفيًا له من الأرض، كان قطع يده ورجله من خلافٍ في حال امتناعه وحربه على وجه القتال، بمعنى إقامة الحد عليه بعد القدرة عليه. وفي إجماع الجميع أن ذلك لا يقوم مقام نفيه الذي جعله الله عز وجل حداً له بعد القدرة عليه، بطل أن يكون نفيه من الأرض، هربه من الطلب.

وإذ كان كذلك، فمعلوم أنه لم يتبق إلا الوجهان الآخران، وهو النفي من بلدة إلى أخرى غيرها، أو السجن. فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أنه إذا نُفي من بلدة غيرها، فلم ينف من الأرض، بل إنما نفي من أرض دون أرض. وإذا كان ذلك كذلك - وكان الله جل ثناؤه إنما أمر بنفيه من الأرض - كان معلوماً أنه لا سبيل إلى نفيه من الأرض إلا بحبسه في بقعة منها عن سائرهما، فيكون منفيًا حيثئذٍ عن جميعها، إلا مما لا سبيل إلى نفيه منه.

وأما معنى «النفي»، في كلام العرب، فهو الطرد.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «ذلك»، هذا الجزاء الذي جازيت به الذين حاربوا الله ورسوله، وسعوا في الأرض فساداً في الدنيا، من قتل أو صلب أو قطع يد ورجل من خلاف. «لهم»، يعني: لهؤلاء المحاربين. «خِزْيٌ في الدنيا»، يقول: هو لهم شرٌ وعارٌ وذلةٌ ونكالٌ وعقوبةٌ في عاجل الدنيا قبل الآخرة.

وقوله: «ولهم في الآخرة عذاب عظيم»، يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: لهؤلاء الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فساداً، فلم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا - في الآخرة، مع الخزي الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها - «عذاب عظيم»، يعني: عذاب جهنم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ** ﴿٣٤﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: معنى ذلك: إلا الذين تابوا من شركهم ومناصبتهم الحرب لله ولرسوله والسعي في الأرض بالفساد، بالإسلام والدخول في الإيمان، مِنْ قَبْلِ قُدْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، فإنه لا سبيل للمؤمنين عليهم بشيء من العقوبات التي جعلها الله جزاء لِمَنْ حَارَبَهُ وَرَسُولَهُ وَسَعَى فِي الْأَرْضِ فساداً، من قتل، أو صلب، أو قطع يد ورجل، من خلاف، أو نفي، من الأرض فلا تَبَاعَةَ قَبْلَهُ لِأَحَدٍ فِيمَا كَانَ أَصَابَ فِي حَالِ كَفَرِهِ وَحَرْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فِي مَالٍ وَلَا دَمٍ وَلَا حَرَمَةٍ. قالوا: فأما المسلم إذا حارب المسلمين أو المعاهدين، وأتى بعض ما يجب عليه العقوبة، فلن تَضَعُ تَوْبَتَهُ عَنْهُ عَقُوبَةُ ذَنْبِهِ، بَلْ تَوْبَتُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَعَلَى الْإِمَامِ إِقَامَةُ الْحَدِّ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَخْذُهُ بِحَقُوقِ النَّاسِ.

وقال آخرون: بل هذه الآية معني بالحكم بها، الْمُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ: الْحُرَابُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، مَنْ قَطَعَ مِنْهُمْ الطَّرِيقَ وَهُوَ مَقِيمٌ عَلَى إِسْلَامِهِ، ثُمَّ اسْتَأْمَنَ فَأُؤْمِنَ عَلَى جَنَائِيَّاتِهِ الَّتِي جَنَاهَا، وَهُوَ لِلْمُسْلِمِينَ حَرْبٌ - وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ مَرْتَدًّا عَنِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لَحِقَ بِدَارِ الْحَرْبِ، ثُمَّ اسْتَأْمَنَ فَأُؤْمِنَ. قالوا: فإذا أَمَّنَهُ الْإِمَامُ عَلَى جَنَائِيَّاتِهِ الَّتِي سَلَفَتْ، لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ لِأَحَدٍ تَبِعَةٌ فِي دَمٍ وَلَا مَالٍ أَصَابَهُ قَبْلَ تَوْبَتِهِ، وَقَبْلَ أَمَانِ الْإِمَامِ إِلَيْهِ.

وقال آخرون: معنى ذلك: كُلُّ مَنْ جَاءَ تَائِباً مِنَ الْحُرَابِ قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، اسْتَأْمَنَ الْإِمَامُ فَأَمَّنَهُ أَوْ لَمْ يَسْتَأْمَنِهِ، بَعْدَ أَنْ يَجِيءَ مُسْتَسْلِماً تَارِكاً لِلْحَرْبِ.

وقال آخرون: بل عَنَى بالاستثناء في ذلك، التائب من حربه الله ورسوله والسعي في الأرض فساداً بعد لحاقه في حربه بدار الكفر. فأما إذا كانت حِرَابَتُهُ وحِرْبُهُ وهو مقيم في دار الإسلام. وداخل في غمار الأمة، فليست توبته واصله عنه شيئاً من حدود الله جَلَّ وَعَزَّ، ولا من حقوق المسلمين والمعاهدين، بل يُؤَخَذُ بذلك.

وقال آخرون: إِنْ كانت حِرَابَتُهُ وحِرْبُهُ في دار الإسلام، وهو في غير مَنَعَةٍ من فئة يلجأ إليها، ثم جاء تائباً قَبْلَ القُدْرَةِ عليه، فَإِنَّ توبته لا تَضَعُ عنه شيئاً من العقوبة ولا من حقوق الناس، وَإِنْ كانت حِرَابَتُهُ وحِرْبُهُ في دار الإسلام، أو هو لاحق بدار الكفر، غير أنه في كُلِّ ذلك كان يلجأ إلى فئة تمنعه مِمَّنْ أرادَهُ من سلطان المسلمين، ثم جاء تائباً قَبْلَ القُدْرَةِ عليه، فَإِنَّ توبته تَضَعُ عنه كُلَّ ما كان من أحداثه في أيام حِرَابَتِهِ تلك، إلا أَنْ يكونَ أصَابَ حَدًّا، أو أَمَرَ الرُّفْقَةَ بما فيه عقوبة، أو غُرِمَ لمسلم أو معاهد وهو غير ملتجئ إلى فئة تمنعه، فإنه يُؤَخَذُ بما أصَابَ من ذلك وهو كذلك، ولا يَضَعُ ذلك عنه توبته.

وقال آخرون: تَضَعُ توبته عنه حَدَّ الله الذي وَجَبَ عليه بمحاربته، ولا يسقط عنه حقوق بني آدم.

وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب عندي، قول مَنْ قال: توبَةُ المحاربِ الممتنعِ بنفسه أو بجماعةٍ معه قَبْلَ القُدْرَةِ عليه، تَضَعُ عنه تَبَعَاتِ الدنيا التي كانت لزمته في أيام حربه وحِرَابَتِهِ، من حدود الله، وغُرْمٍ لازم، وقَوْدٍ وقصاص، إلا ما كان قائماً في يده من أموال المسلمين والمعاهدين بعينه. فیرد على أهله لإجماع الجميع على أَنَّ ذلك حكم الجماعة الممتنعة المحاربة لله ولرسوله، الساعية في الأرض فساداً على وجه الردة عن الإسلام. فكذلك حُكْمُ كُلِّ ممتنع سعى في الأرض فساداً، جماعة كانوا أو واحداً.

فَأَمَّا الْمُسْتَخْفِي بِسِرْقَتِهِ، وَالْمُتَلَصِّصُ عَلَى وَجْهِ اغْتِفَالٍ مِّنْ سِرْقَةٍ، وَالشَّاهِرُ السِّلَاحَ فِي خِلَاءٍ عَلَى بَعْضِ السَّابِلَةِ، وَهُوَ عِنْدَ الطَّلَبِ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ، فَإِنَّ حُكْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ تَابٌ أَوْ لَمْ يَتَّبِ مَاضٍ، وَيَحْقُوقُ مِنْ أَخْذِ مَالِهِ، أَوْ أَصَابَ وَلَيْهِ بَدَمٌ أَوْ خَتَلٌ، مَأْخُوذٌ، وَتَوْبَتُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ جَلٌّ وَعَزٌّ قِيَاسًا عَلَى إِجْمَاعِ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّهُ لَوْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ لِلْمُسْلِمِينَ سِلْمٌ، ثُمَّ صَارَ لَهُمْ حَرْبًا: أَنَّ حَرْبَهُ إِيَّاهُمْ لَنْ يَضَعَ عَنْهُ حَقًّا لِلَّهِ عَزَّ ذِكْرُهُ، وَلَا لِأَدَمِي. فَكَذَلِكَ حُكْمُهُ إِذَا أَصَابَ ذَلِكَ فِي خِلَاءٍ أَوْ بِاسْتِخْفَاءٍ، وَهُوَ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ مِنَ السُّلْطَانِ بِنَفْسِهِ إِنْ أَرَادَهُ، وَلَا لَهُ فِتْنَةٌ يَلْجَأُ إِلَيْهَا مَانِعَةٌ مِنْهُ.

وفي قوله: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ»، دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِمَنْ وَفَّقَ لِفَهْمِهِ، أَنَّ الْحُكْمَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ فِي الْمُحَارِبِينَ، يَجْرِي فِي الْمُسْلِمِينَ وَالْمُعَاهِدِينَ، دُونَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَدْ نَصَبُوا لِلْمُسْلِمِينَ حَرْبًا، وَذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ حُكْمًا فِي أَهْلِ الْحَرْبِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، دُونَ الْمُسْلِمِينَ وَدُونَ ذِمَّتِهِمْ، لَوَجَبَ أَنْ لَا يُسْقَطَ إِسْلَامُهُمْ عَنْهُمْ - إِذَا أَسْلَمُوا أَوْ تَابُوا بَعْدَ قُدْرَتِنَا عَلَيْهِمْ - مَا كَانَ لَهُمْ قَبْلَ إِسْلَامِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ مِنَ الْقَتْلِ، وَمَا لِلْمُسْلِمِينَ فِي أَهْلِ الْحَرْبِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَفِي إِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ إِسْلَامَ الْمُشْرِكِ الْحَرْبِيِّ يَضَعُ عَنْهُ، بَعْدَ قُدْرَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ، مَا كَانَ وَاضِعَهُ عَنْهُ إِسْلَامُهُ قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصَّحِيحَ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: «عَنَى بَايَةَ الْمُحَارِبِينَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، حُرَابُ أَهْلِ الْمِلَّةِ أَوْ الذِّمَّةِ، دُونَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ مُشْرِكِي أَهْلِ الْحَرْبِ».

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، فَإِنَّ مَعْنَاهُ: فَاعْلَمُوا، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، أَنَّ اللَّهَ غَيْرُ مُؤَاخِذٍ مِّنْ تَابٍ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، السَّاعِينَ فِي الْأَرْضِ فِسَادًا، وَغَيْرِهِمْ بِذُنُوبِهِ، وَلَكِنَّهُ يَعْفُو عَنْهُ فَيَسْتَرِهَا عَلَيْهِ، وَلَا يَفْضَحُهَا بِهَا بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ رَحِيمٌ بِهِ فِي عَفْوِهِ عَنْهُ، وَتَرَكَهُ عَقُوبَتُهُ عَلَيْهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ

يعني جُلُّ ثَنَائِهِ بِذَلِكَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا أَخْبَرَهُمْ
وَوَعَدَ مِنَ الثَّوَابِ وَأَوْعَدَ مِنَ الْعِقَابِ. «اتَّقُوا اللَّهَ»، يقول: أَجْبِئُوا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ
وَنَهَاكُمْ بِالطَّاعَةِ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَحَقَّقُوا إِيمَانَكُمْ وَتَصَدِّقْكُمْ رَبُّكُمْ وَنَبِيِّكُمْ بِالصَّالِحِ
مِنْ أَعْمَالِكُمْ. «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ»، يقول: واطلبوا الْقُرْبَةَ إِلَيْهِ بِالْعَمَلِ بِمَا
يَرْضَاهُ.

و«الوسيلة»: هي «الفعيلة» من قولِ القائل: «توسلتُ إلى فلان بكذا»،
بمعنى: تقرَّبتُ إليه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾

يقول جُلُّ ثَنَائِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ: وَجَاهِدُوا، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، أَعْدَائِي
وَأَعْدَاءَكُمْ فِي سَبِيلِي، يعني فِي دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ الَّتِي شَرَعَهَا لِعِبَادِهِ، وَهِيَ
الْإِسْلَامُ، يقول: أَتَّبِعُوا أَنْفُسَكُمْ فِي قِتَالِهِمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْحَنِيفِيَّةِ
الْمُسْلِمَةِ، «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»، يقول: كَيْمَا تَنْجَحُوا، فَتَدْرِكُوا الْبَقَاءَ الدَّائِمَ
وَالْخُلُودَ فِي جَنَّتِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَى لَهُم مَّا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ

مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: إِنَّ الَّذِينَ جَحَدُوا رَبَّهُمْ وَعَبَدُوا غَيْرَهُ، من بني إسرائيل الذين عبدوا العجل، ومن غيرهم الذين عبدوا الأوثان والأصنام، وهلكوا على ذلك قبل التوبة، لو أَنَّ لَهُمْ مَلِكٌ ما في الأرض كُلِّهَا وَضَعْفُهُ مَعَهُ، لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَلَى تَرْكِهِمْ أَمْرَهُ، وَعِبَادَتِهِمْ غَيْرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فافتدوا بذلك كُلِّهِ، ما تَقَبَّلَ اللَّهُ مِنْهُمْ ذَلِكَ فِدَاءً وَعِوَضاً مِنْ عَذَابِهِمْ وَعِقَابِهِمْ، بل هو مُعَذِّبُهُمْ فِي حَمِيمِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَذَاباً مُوجِعاً لَهُمْ.

وإنما هذا إعلَامٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ ظَهْرَانِي مُهَاجِرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهُمْ وَغَيْرُهُمْ مِنْ سَائِرِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ، سَوَاءٌ عِنْدَهُ فِيمَا لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَالْعِقَابِ الْعَظِيمِ. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: ﴿لَنْ تَمْسَسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾، اغتراراً بِاللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ وَكَذِباً عَلَيْهِ. فَكَذَّبَهُمُ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَبِالَّتِي بَعْدَهَا، وَحَسَمَ طَمَعَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ وَلِجَمِيعِ الْكَافِرَةِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقَبَّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ»، يَقُولُ لَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فَلَا تَطْمَعُوا أَيُّهَا الْكَافِرَةُ فِي قَبُولِ الْفَدْيَةِ مِنْكُمْ، وَلَا فِي خُرُوجِكُمْ مِنَ النَّارِ بِوَسَائِلِ آبَائِكُمْ عِنْدِي بَعْدَ دُخُولِكُمْوهَا، إِنَّ أَنْتُمْ مُتَمَّ عَلَى كُفْرِكُمْ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ

بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٧﴾

يعني جَلُّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «يريدون أن يخرجوا من النار»، يريد هؤلاء الذين كفروا برَّبِّهم يوم القيامة، أن يخرجوا من النار بعد دخولها، وما هم بخارجين منها. «ولهم عذابٌ مقيم»، يقول: لهم عذابٌ دائم ثابت لا يزول عنهم ولا ينتقل أبداً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾

يقول جَلُّ ثَنَاؤُهُ: وَمَنْ سَرَقَ مِنْ رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ، فاقطعوا، أيها الناس، يَدَهُ ولذلك رفع «السارق والسارقة»، لأنهما غير مُعَيَّنَيْنِ، ولو أُريدَ بذلك سارقٌ وسارقةٌ بأعيانِهما، لكان وجهُ الكلام النَّصْبَ.

وقال تعالى ذِكْرُهُ: «فاقطعوا أيديهما»، والمعنى: أيديهما اليمنى.

وقوله: «جزاء بما كسبا نكالا من الله»، يقول: مكافأةٌ لهما على سرقتهما وعملهما في التلصصِ بمعصيةِ الله. «نكالا من الله»، يقول: عقوبةٌ من الله على لُصُوصيتهما.

وقوله: «والله عزيز حكيم»، يقول جَلُّ ثَنَاؤُهُ: «والله عزيز»، في انتقامه من هذا السارق والسارقة وغيرهما من أهلِ معاصيه. «حكيم»، في حُكْمِهِ فِيهِمْ وقضائِهِ عَلَيْهِمْ.

يقول: فلا تُفَرِّطُوا أيها المؤمنون، في إقامةِ حكمي على السَّارِقِ وغيرهم من أهلِ الجرائم الذين أوجبْتُ عليهم حدوداً في الدنيا عقوبةً لهم، فإني بحكمتي قضيتُ ذلك عليهم، وعلمي بصلاحِ ذلك لهم ولكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: **فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴿٣٩﴾

يقول جَلَّ ثَنَاهُ: «فمن تاب»، من هؤلاء السراق، يقول: مَنْ رَجَعَ مِنْهُمْ عَمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ إِيَّاهُ، إِلَى مَا يَرْضَاهُ مِنْ طَاعَتِهِ. «من بعد ظُلمه»، و«ظلمه»، هو اعتدائه وعمله ما نهأه الله عنه من سرقة أموال الناس. و«أصلح»، يقول: وَأَصْلَحَ نَفْسُهُ بِحَمْلِهَا عَلَى مَكْرُوهِهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالتَّوْبَةُ إِلَيْهِ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ.

وقوله: «فإنَّ الله يتوب عليه»، يقول: فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ يَرْجِعُهُ إِلَى مَا يَحِبُّ وَيَرْضَى، عَمَّا يَكْرَهُ وَيَسْخَطُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ.

وقوله: «إنَّ الله غفور رحيم»، يقول: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ ذِكْرُهُ سَاتَرُ عَلَى مَنْ تَابَ وَأَنَابَ عَنْ مَعَاصِيهِ إِلَى طَاعَتِهِ ذُنُوبَهُ، بِالْعَفْوِ عَنْ عَقُوبَتِهِ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَرَكَهُ فَضِيحَتَهُ بِهَا عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ. «رحيم»، به وبعبادِهِ التَّائِبِينَ إِلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴿٤٠﴾

يقول جَلَّ ثَنَاهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: أَلَمْ يَعْلَمْ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي الْقَائِلِينَ: «لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً»، الزَّاعِمِينَ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ - أَنَّ اللَّهَ مُدَبِّرُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَمَصْرِفُهُ وَخَالِقُهُ، لَا يَمْتَنِعُ شَيْءٌ مِمَّا فِي وَاحِدَةٍ

منهما مما أَرَادَهُ، لَأَنْ كُلَّ ذَلِكَ مُلْكُهُ، وإليه أمره، ولا نَسَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا وَلَا مِثْمًا فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا، فَيَحْيِيهِ بِسَبَبِ قَرَابَتِهِ مِنْهُ، فَيُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِهِ، وَهُوَ بِهِ كَافِرٌ، وَلأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ مُخَالِفٌ أَوْ يَدْخُلُهُ النَّارُ وَهُوَ لَهُ مُطِيعٌ لِبُعْدِ قَرَابَتِهِ مِنْهُ، وَلَكِنَّهُ يَعْذَّبُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَعْصِيَتِهِ بِالْقَتْلِ وَالْخَسْفِ وَالْمَسْخِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صُنُوفِ عَذَابِهِ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالتَّوْبَةِ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرِهِ وَمَعْصِيَتِهِ، فَيُنْقِذُهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَيُنْجِيهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ. «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يَقُولُ: وَاللَّهُ جَلٌّ وَعَزٌّ عَلَى تَعْذِيبِ مَنْ أَرَادَ تَعْذِيبَهُ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، وَغَفْرَانِ مَا أَرَادَ غَفْرَانَهُ مِنْهُمْ بِاسْتِنْقَاذِهِ مِنَ الْهَلَكَةِ بِالتَّوْبَةِ عَلَيْهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ كُلِّهَا قَادِرٌ، لَأَنَّ الْخَلْقَ خَلَقَهُ، وَالْمَلِكُ مُلْكُهُ، وَالْعِبَادُ عِبَادُهُ.

وخرج قوله: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، خطاباً له ﷺ، والمعنيُّ به مَنْ ذَكَرْتُ مِنْ فِرْقِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا بِمَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَا حَوَالِيهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ

تأويل الآية: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي جُحُودِ نُبُوتِكَ، وَالتَّكْذِيبِ بِأَنَّكَ لِي نَبِيٌّ، مِنَ الَّذِينَ قَالُوا: صَدَّقْنَا بِكَ، يَا مُحَمَّدُ، أَنَّكَ اللَّهُ رَسُولٌ مَبْعُوثٌ، وَعَلِمْنَا بِذَلِكَ يَقِينًا، بِوُجُودِنَا صِفَتِكَ فِي كِتَابِنَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَسَمَّعُوا لِّلْكَذِبِ سَمْعُوكَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ

يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ تَسْرُعُ مَنْ

تسرع من هؤلاء المنافقين الذين يُظهرون بالستهم تصديقك، وهم مُعتقدون تكذيبك إلى الكفر بك، ولا تسرع إلى جحود بُبوتك. ثم وصف جل وعز له صفتهم، ونعتهم له بنعوتهم الذميمة وأفعالهم الرديئة، وأخبره مُعزياً له على ما يناله من الحزن بتكذيبهم إياه، مع علمهم بصدقه، أنهم أهل استحلال الحرام والمأكَل الرديئة والمطاعم الدنيئة من الرشى والشحت، وأنهم أهل إفك وكذب على الله، وتحريف لكتابه. ثم أعلّمه أنه مُجل بهم خزيه في عاجل الدنيا، وعقابه في آجل الآخرة، فقال: هم «سَمَاعُونَ للكذب»، يعني هؤلاء المنافقين من اليهود، يقول: هم يسمعون الكذب، و«سمعمهم الكذب»، سمعهم قول أجبارهم: أن حُكم الزاني المحصن في التوراة، التحميم والجلد. «سماعون لقوم آخرين لم يأتوك»، يقول: يسمعون لأهل الزاني الذين أرادوا الاحتكام إلى رسول الله ﷺ، وهم القوم الآخرون الذين لم يكونوا أتوا رسول الله ﷺ، وكانوا مُصيرين على أن يأتوه.

القول في تأويل قوله عز وجل: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يُحَرِّفُ هؤلاء السماعون للكذب، السماعون لقوم آخرين منهم لم يأتوك بعد من اليهود. «الكَلِم» وكان تحريفهم ذلك، تغييرهم حُكم الله تعالى ذِكْرُهُ الذي أنزله في التوراة في المحصنات والمحصنين من الزناة بالرجم إلى الجلد والتحميم. فقال تعالى ذِكْرُهُ: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِم»، يعني: هؤلاء اليهود، والمعنى حُكم الكَلِم، فاكتمى بِذِكْرِ الْخَبَرِ من «تحريف الكَلِم» عن ذِكْرِ «الحكم»، لمعرفة السامعين لمعناه. وكذلك قوله: «من بعد مواضعه»، والمعنى: من بعد وضع الله ذلك مواضعه، فاكتمى بالخبر من ذِكْرِ «مواضعه»، عن ذِكْرِ «وضع ذلك»، كما قال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ

بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ [البقرة: ١٧٧]، والمعنى: ولكن البرُّ برٌّ مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر.

وقد يحتمل أن يكون معناه: يحرفون الكلم عن مواضعه فتكون «بعد» وضعت موضع «عن»، كما يقال: «جئتكَ عن فراغي من الشغل»، يريد: بعد فراغي من الشغل.

وعني بقوله: «إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخْذُوهُ وَإِنْ لَمْ تَوْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا»، يقول هؤلاء الباغون السّماعون للكذب: إِنْ أَفْتَاكُمْ مُحَمَّدٌ بِالْجُلْدِ وَالتَّحْمِيمِ فِي صَاحِبِنَا، «فَخْذُوهُ»، يقول: فاقبلوه منه، وَإِنْ لَمْ يُفْتِكُمْ بِذَلِكَ وَأَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ، فَأَحْذَرُوا^(١).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ: وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُمْ أَلَّهُ شَيْئاً

وهذا تسلية من الله تعالى ذِكْرُهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ من حزنه على مسارعة الذين قَصَّ قصتهم من اليهود والمنافقين في هذه الآية. يقول له تعالى ذِكْرُهُ: لا يحزنك تسرّعهم إلى جحود نبوتك، فإني قد حَتَمْتُ عليهم أنهم لا يتوبون من ضلالتهم، ولا يرجعون عن كُفْرِهِمْ، للسابق من غضبي عليهم. وغير نافعهم حزنك على ما ترى من تسرّعهم إلى ما جعلته سبباً لهلاكهم واستحقاقهم وعيدي.

ومعنى «الفتنة» في هذا الموضع: الضلالة عن قَصْدِ السبيل.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ، يا محمد، مرّجه بضلالتِهِ عن سبيلِ

(١) انظر السيرة لابن هشام: ٢١٤/٢.

الهدى، فلن تملك له من الله استنقاذاً مما أراد الله به من الحيرة والضلالة، فلا تشعر نفسك الحزن على ما فاتك من اهتدائه للحق.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا حِرْزِيٌّ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنبيه محمدٍ ﷺ: لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من اليهود الذين وصفْتُ لك صِفَتَهُمْ. وإنَّ مسارعَتَهُمْ إلى ذلك، أنَّ الله قد أرادَ فتنَتَهُمْ، وطَبَعَ على قلوبِهِمْ، ولا يهتدون أبداً. «أولئك الذين لم يُرِدِ الله أن يُطَهِّرْ قلوبَهُمْ»، يقول: هؤلاء الذين لم يرد الله أن يطهر من دَنَسِ الكفر ووسخِ الشرك قلوبَهُمْ، بطهارة الإسلام ونظافة الإيمان، فيتوبوا، بل أراد بهم الحِرْزِيَّ في الدنيا وذلك الذل والهوان وفي الآخرة عذاب جهنم خالدين فيها أبداً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلْسَحْتِ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء اليهود الذين وصفْتُ لك، يا محمد، صِفَتَهُمْ، سَمَّاعُونَ لِقِيلِ الْبَاطِلِ وَالْكَذِبِ، من قِيلِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ: «محمدٌ كاذبٌ، ليس بنبيٍّ»، وقِيلَ بَعْضِهِمْ: «إنَّ حكمَ الزاني المحصن في التوراة الجلد والتحميم»، وغير ذلك من الأباطيل والإفك ويقبلون الرُشَى فيأكلونها على كَذِبِهِمْ على الله وفريتهم، عليه.

وأصل «السحت»: كَلْبُ الجوع، يقال منه: «فلان مسحوت المَعِدَةُ»، إذا كَانَ أَكُولًا لَا يُلْفَى أبداً إلا جائعاً، وإنما قيل للرشوة: «السحت»، تشبيهاً بذلك، كَانَ بالمسترشي من الشرِّ إلى أَخَذِ مَا يُعْطَاهُ من ذلك، مثل الذي

بالمسحوتِ المعدةِ من الشرِّ إلى الطعام.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضْرُوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «إِنْ جَاءُوكَ فاحكم بينهم أو أعرض عنهم»، إِنْ جَاءَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْآخَرُونَ الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بَعْدَ - وَهُمْ قَوْمُ الْمَرْأَةِ الْبَغِيَّةِ - مُحْتَكَمِينَ إِلَيْكَ، فاحكم بينهم إِنْ شِئْتَ بِالْحَقِّ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ حُكْمًا لَهُ فِيمَنْ فَعَلَ فِعْلَ الْمَرْأَةِ الْبَغِيَّةِ مِنْهُمْ - أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ فَدَعِ الْحُكْمَ بَيْنَهُمْ إِنْ شِئْتَ وَالْخِيَارُ إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ.

ثم اختلف أهل التأويل في حكم هذه الآية، هل هو ثابت اليوم؟ وهل للحكام من الخيار في الحكم والنظر بين أهل الذمة والعهد إذا احتكموا إليهم، مثل الذي جعل لنبيه ﷺ في هذه الآية، أم ذلك منسوخ؟

فقال بعضهم: ذلك ثابت اليوم، لم ينسخه شيء، وللحكام من الخيار في كُلِّ دَهِرٍ بهذه الآية، مثل ما جعله الله لرسوله ﷺ.

وقال آخرون: بل التخيير منسوخ، وعلى الحاكم إذا احتكم إليه أهل الذمة أن يحكم بينهم بالحق، وليس له ترك النظر بينهم.

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول مَنْ قَالَ: إِنْ حَكَمَ هَذِهِ الْآيَةُ ثَابِتٌ لَمْ يَنْسَخْ، وَأَنَّ لِلْحُكَّامِ مِنَ الْخِيَارِ فِي الْحَكْمِ بَيْنَ أَهْلِ الْعَهْدِ إِذَا ارْتَفَعُوا إِلَيْهِمْ فَاحْتَكَمُوا، وَتَرَكَ الْحَكْمَ بَيْنَهُمْ وَالنَّظَرَ، مِثْلَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

وإنما قلنا ذلك أولاهما بالصواب، لأنَّ القائلين إنَّ حكم هذه الآية منسوخ، زعموا أنه نسخ بقوله: ﴿وَأَن اٰحْكُمَ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّٰهُ﴾ [المائدة: ٤٩] وقد دَلَّلْنَا في كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام»: أنَّ النسخ لا يكون نسخاً، إلا ما كَانَ نَفِيًّا لحكمٍ غَيْرِهِ بكلِّ معانيه، حتى لا يجوز اجتماع الحكم بالأمرين جميعاً على صِحَّته بوجهٍ من الوجوه بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وإذْ كَانَ ذلك كذلك وكان غير مستحيل في الكلام أن يقال: «وإن احكم بينهم بما أنزل الله»، ومعناه: «وإن احكم بينهم بما أنزل الله إذا حكمت بينهم، باختيارك الحكم بينهم، إذا اخترت ذلك، ولم تختَر الإعراض عنهم، إذ كَانَ قد تقدَّم إعلامُ المَقُولِ لَهُ ذلك من قائله: إنَّ له الخيار في الحكم وترك الحكم. كَانَ معلوماً بذلك أن لا دَلَالَةَ في قوله: «وإن احكم بينهم بما أنزل الله»، أنه ناسخٌ قوله: «فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط»، لما وصفنا من احتمال ذلك ما بَيَّنَّا، بل هو دليلٌ على مثل الذي دُلَّ عليه قوله: «وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط».

وإذْ لم يكن في ظاهر التنزيل دليلٌ على نسخ إحدى الآيتين الأخرى، ولا نفي أحدِ الأمرين حُكْم الآخر ولم يكن عن رسولِ الله ﷺ خبرٌ يصحُّ بأنَّ أحدهما ناسخٌ صاحبه - ولا من المسلمين على ذلك إجماعٌ - صحَّ ما قلنا من أنَّ كِلَا الأمرين يؤيِّد أحدهما صاحبه، ويوافق حكمه حكمه، ولا نسخٌ في أحدهما للآخر.

وأما قوله: «وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً»، فإنَّ معناه: «وإن تعرض يا محمد، عن المحتكمين إليك من أهل الكتاب، فتدعَ النظرَ بينهم فيما

احتكموا فيه إليك، فلا تحكم فيه بينهم. «فلن يضروك شيئاً»، يقول: فلن يقدروا لك على ضرر في دين ولا دنيا، فدع النظر بينهم إذا اخترت ترك النظر بينهم.

وأما قوله: «وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط»، فإن معناه: وإن اخترت الحكم والنظر، يا محمد، بين أهل العهد إذا أتوك. «فاحكم بينهم بالقسط»، وهو العدل، وذلك هو الحكم بما جعله الله حكماً في مثله على جميع خلقه من أمة نبينا ﷺ.

وأما قوله: «إن الله يحب المقسطين»، فمعناه: إن الله يحب العادلين في حكمهم بين الناس، القاضين بينهم بحكم الله الذي أنزله في كتابه وأمره أنبياءه صلوات الله عليهم.

يقال منه: «أقسط الحاكم في حكمه»، إذا عدل وقضى بالحق، «يُقسط إقساطاً» وأما «القسطُ»، فمعناه: الجور، ومنه قول الله تعالى ذِكْرُهُ: «وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا» [الجن: ١٥]، يعني بذلك: الجائرين عن الحق.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ، يَأْمُرُكَ بِهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: وكيف يحكمك هؤلاء اليهود، يا محمد، بينهم، فيرضون بك حكماً بينهم. «وعندهم التوراة»، التي أنزلتها على موسى، التي يقرؤون بها أنها حق، وأنها كتابي الذي أنزلته إلى نبيي، وأن ما فيه من حكم فمن حكمي، يعلمون ذلك لا يتناكرونه ولا يتدافعونه، ويعلمون أن حكمي فيها على الزاني المحصن الرجم، وهم مع علمهم بذلك. «يتولون»، يقول:

يتركون الحكمَ به، بعد العلمِ بحكمي فيه، جراءةً عليَّ وعصياناً لي.

وهذا، وإن كان من الله تعالى ذِكْرُهُ خطاباً لنبيه ﷺ، فإنه تقريرٌ منه لليهود الذين نزلت فيهم هذه الآية. يقول لهم تعالى ذِكْرُهُ: كيف تُقَرُّونَ، أيها اليهود، بحكم نبيِّي محمد ﷺ، مع جحودكم نبوته وتكذيبكم إياه، وأنتم تتركون حُكْمِي الذي تُقَرُّونَ به أنه حَقٌّ عليكم واجبٌ، جاءكم به موسى من عند الله؟ يقول: فإذا كنتم تتركون حكمي الذي جاءكم به موسى الذي تقرّون بنبوته في كتابي، فأنتم بتركِ حكمي الذي يخبركم به نبيِّي محمدٌ أنه حُكْمِي - أخرى، مع جحودكم نبوته. . . .

ثم قال تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن حال هؤلاء اليهود الذين وصف صفتهم في هذه الآية عنده، وحال نظرائهم من الجاثرين عن حُكْمِهِ، الزائلين عن محبّة الحق. «وما أولئك بالمؤمنين»، يقول: ليس مَنْ فَعَلَ هذا الفعل - أي: مَنْ تَوَلَّى عن حكم الله، الذي حكم به في كتابه الذي أنزله على نبيه، في خلقه بالذي صدّق الله ورسوله فافترّ بتوحيده ونبوة نبيه ﷺ، لأن ذلك ليس من فِعْلِ أهل الإيمان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ

يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنا أنزلنا التوراة فيها بيانٌ ما سألَكَ هؤلاء اليهود عنه من حُكْمِ الزانيين المحصنين. «ونورٌ»، يقول: فيها جَلَاءٌ ما أظلمَ عليهم، وضياءٌ ما التبسَ من الحكم. «يحكمُ بها النبيون الذين أسلموا»، يقول: يحكمُ بحكم التوراة في ذلك، أي: فيما احتكموا إلى النبي ﷺ فيه من أمر الزانيين: «النبيون الذين أسلموا»، وهم الذين ادَّعَوا لحكم الله وأقرُّوا به.

وإنما غنى الله تعالى ذِكْرَهُ بذلك نبينا محمداً ﷺ، في حُكْمِهِ على الزانين المحصنين من اليهود بالرجم، وفي تسويته بين دم قَتلى النّضير وقرينة في القصاص والذّية، وَمَنْ قَبِلَ مُحَمَّدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَحْكُمُ بِمَا فِيهَا مِنْ حُكْمِ اللَّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويحكمُ بالتوراةِ وأحكامِها التي أنزل اللهُ فيها في كلِّ زمانٍ - على ما أمر بالحكم به فيها - مع النبيّين الذين أسلمُوا. «الربانيون والأحبار».

و«الربانيون» جمع «رَبَّانِيٍّ»، وهم العلماء الحكماء البُصراء بسياسة الناس، وتدبير أمورهم، والقيام بمصالحهم. و«الأحبار»، هم العلماء.

وأما «الأحبار»، فإنهم جمع «حَبْرٍ»، وهم العالمُ المحكم للشرع، ومنه قيل لِكَعْب: «كعب الأحبار».

وأما قوله: «بما اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ»، فإن معناه: يحكم النبيون الذين أسلموا بحكم التوراة، والربانيون والأحبار - يعني العلماء - بما اسْتُودِعُوا علمه من كتابِ الله الذي هو التوراة.

و«الباء» في قوله: «بما اسْتُحْفِظُوا»، من صلة «الأحبار».

وأما قوله: «وكانوا عليه شهداء»، فإنه يعني: أن الربانيين والأحبار بما اسْتُودِعُوا من كتابِ الله، يحكمون بالتوراة مع النبيين الذين أسلموا للذين هادوا، وكانوا على حُكْمِ النبيين الذين أسلموا للذين هادوا شهداء أنهم قَضَوْا عليهم بكتابِ الله الذي أنزله على نَبِيِّهِ موسى وقضائه عليهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشِينَ
وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا

يقول تعالى ذِكْرُهُ لعلماء اليهود وأخبارهم: لا تخشوا الناس في تنفيذ حكمي الذي حكمتُ به على عبادي، وإمضائه عليهم على ما أمرتُ، فإنهم لا يقدرون لكم على ضرر ولا نفع إلا بإذني، ولا تكتموا الرجم الذي جعلته حكماً في التوراة على الزانين المحصنين، ولكن اخشوني دون كل أحد من خلقي، فإن النفع والضرر بيدي، وخافوا عقابي في كتمانكم ما استحفِظتم من كتابي.

وأما قوله: «ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً»، يقول: ولا تأخذوا بترك الحكم بآيات كتابي الذي أنزلته على موسى، أيها الأخبار، عوضاً خسيساً وذلك هو «التمن القليل».

وإنما أراد تعالى ذِكْرُهُ، نَهْيُهُمْ عن أكل السُّخْتِ على تحريفهم كتاب الله، وتغييرهم حكمه عما حكم به في الزانين المحصنين، وغير ذلك من الأحكام التي بذلوا طلباً منهم للرشى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِهَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَمَنْ كَتَمَ حُكْمَ اللَّهِ الذي أنزله في كتابه وجعله حكماً بين عباده، فأخفاه وحكم بغيره، كحكم اليهود في الزانين المحصنين بالتجبية والتحميم، وكتمانهم الرجم، وكقضائهم في بعض قتلهم بدية كاملة وفي بعض بنصف الدية، وفي الأشراف بالقصاص، وفي الأدنياء بالدية، وقد سوى

الله بين جميعهم في الحكم عليهم في التوراة. «فأولئك هم الكافرون»، يقول: هؤلاء الذين لم يَحْكُمُوا بما أنزل الله في كتابه، ولكن بَدَّلُوا وَغَيَّرُوا حكمه، وكتبوا الحق الذي أنزله في كتابه. «هم الكافرون»، يقول: هم الذين سَتَرُوا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبيينه، وغطَّوه عن الناس، وأظهروا لهم غيره، وقضوا به، لسحت أخذوه منهم عليه.

وقد اختلف أهل التأويل في تأويل «الكفر» في هذا الموضع: فقال بعضهم بنحو ما قلنا في ذلك، من أنه عَنَى به اليهود الذين حَرَّفُوا كتاب الله وبَدَّلُوا حكمه.

وقال بعضهم: عَنَى بـ «الكافرين»، أهل الإسلام، وبـ «الظالمين» اليهود، وبـ «الفاستقين» النصارى.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: كفرٌ دون كفر، وظلمٌ دون ظلم، وفسقٌ دون فسق.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآيات في أهل الكتاب، وهي مرادٌ بها جميعُ الناس، مسلموهم وكُفَّارهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به. فأما «الظلم» و«الفسق»، فهو للمُقَرَّر به.

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قولٌ مَنْ قال: نزلت هذه الآيات في كفَّار أهل الكتاب، لأنَّ ما قَبْلَها وما بَعْدَها من الآياتِ ففيهم نزلت، وهم المعنيونُ بها، وهذه الآياتُ سياقُ الخبرِ عنهم، فكونُها خبراً عنهم أولى.

فإن قال قائل: فإنَّ الله تعالى ذَكَرَهُ قد عَمَّ بالخبرِ بذلك عن جميعٍ من لم يَحْكَمْ بما أنزل الله، فكيف جعلته خاصاً؟

قيل: إن الله تعالى عَمَّ بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين، فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم، على سبيل ما تركوه، كافرون. وكذلك القول في كُلِّ مَنْ لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به، هو بالله كافر، كما قال ابن عباس، لأنه بجحوده حُكِمَ الله بعدَ عِلْمِهِ أنه أنزله في كتابه، نظير جحوده نبوة نبيّه بعد عِلْمِهِ أنه نبيٌّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسِ
بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ
وَاللِّسَنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكتبنا على هؤلاء اليهود الذين يُحْكَمُونَكَ، يا محمد،
وعندهم التوراة فيها حكمُ الله.

وعني بقوله: «وكتبنا»، وفَرَضْنَا عليهم فيها أَنْ يحكموا في النفس إذا
قتلت نفساً بغير حق. «بالنفس»، يعني: أَنْ تُقْتَلَ النفسُ القاتلةُ بالنفسِ
المقتولة، «والعين بالعين»، يقول: وفرضنا عليهم فيها أَنْ يَفْقَؤَا العينَ التي فقأ
صاحبها مثلها من نفسٍ أُخْرَى بالعين المفقوءة - وَيُجَدِّعَ الأنفُ بالأنف - وَتُقَطَّعَ
الأذنُ بالأذن - وَتُقْلَعَ السنُّ بالسنِّ - وَيُقْتَصَّ من الجارح غيره ظمناً للمجروح.

وهذا إخبارٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمد ﷺ عن اليهود وتعزية منه له
عن كُفْرٍ مَنْ كَفَرَ منهم به بعد إقراره بنبوته، وإدباره عنه بعد إقباله - وتعريف
منه له جرائعهم قديماً وحديثاً على ربهم وعلى رُسُلِ ربهم، وتقديمهم على
كتاب الله بالتحريف والتبديل.

يقول تعالى ذِكْرُهُ له: وكيف يرضى هؤلاء اليهود، يا محمد، بحكمك،

إِذْ جَاؤُوا يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ الَّتِي يُقْرُونَ بِهَا أَنُهَا كِتَابِي وَوَحْيِي إِلَى رَسُولِي مُوسَى ﷺ، فِيهَا حُكْمِي بِالرَّجْمِ عَلَى الزَّانَةِ الْمُحْصَنِينَ، وَقَضَائِي بَيْنَهُمْ أَنْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا ظُلْمًا فَهُوَ بِهَا قَوْدٌ، وَمَنْ فَقَا عَيْنًا بِغَيْرِ حَقٍّ فَعَيْنُهُ بِهَا مَفْقُوءَةٌ قِصَاصًا، وَمَنْ جَدَعَ أَنْفًا فَانْفُهُ بِهِ مَجْدُوعٌ، وَمَنْ قَلَعَ سِنًا فَسِنُهُ بِهَا مَقْلُوعَةٌ، وَمَنْ جَرَحَ غَيْرَهُ جَرْحًا فَهُوَ مَقْتَصٌّ مِنْهُ مِثْلُ الْجَرْحِ الَّذِي جَرَحَهُ؟ - ثُمَّ هُمْ مَعَ الْحُكْمِ الَّذِي عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ مِنْ أَحْكَامِي، يَتَوَلَّوْنَ عَنْهُ وَيَتْرَكُونَ الْعَمَلَ بِهِ، يَقُولُ: فَهُمْ بِتَرْكِ حُكْمِكَ، وَيَسْخِطُ قَضَائِكَ بَيْنَهُمْ، أُخْرَى وَأَوْلَى.

فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم، رجالهم ونسائهم، إذا كان في النفس وما دون النفس، ويستوي فيه العبيد رجالهم ونسائهم فيما بينهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: «فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ» فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ.

اختلف أهل التأويل في المعنى به: «فمن تصدق به فهو كفارة له».

فقال بعضهم: عَنَى بِذَلِكَ الْمَجْرُوحَ وَوَلِيَّ الْقَتِيلِ.

وقال آخرون: عَنَى بِذَلِكَ الْجَارِحَ. وقالوا: معنى الآية: «فمن تصدَّقَ بما وَجَبَ لَهُ مِنْ قَوْدٍ أَوْ قِصَاصٍ عَلَى مَنْ وَجَبَ ذَلِكَ لَهُ عَلَيْهِ، فَعَفَا عَنْهُ، فَعَفُوهُ ذَلِكَ عَنِ الْجَانِي كَفَّارَةٌ لِلذَّنْبِ الْجَانِي الْمَجْرَمِ، كَمَا الْقِصَاصُ مِنْهُ كَفَّارَةٌ لَهُ. قالوا: فأما أَجْرُ الْعَافِي الْمُتَصَدِّقِ، فَعَلَى اللَّهِ.

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول مَنْ قَالَ: عَنَى بِقَوْلِهِ: «فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ»، الْمَجْرُوحَ فَلَا أَنْ تَكُونَ «الْهَاءُ» فِي قَوْلِهِ: «لَهُ» عَائِدَةً عَلَى «مَنْ»، أَوْلَى مِنْ أَنْ تَكُونَ مِنْ ذِكْرٍ مَنْ لَمْ يَجْرَ لَهُ ذِكْرٌ إِلَّا بِالْمَعْنَى دُونَ التَّصْرِيحِ، وَأُخْرَى، إِذِ الصَّدَقَةُ هِيَ الْمُكْفَرَةُ ذَنْبَ صَاحِبِهَا دُونَ الْمُتَصَدِّقِ عَلَيْهِ

في سائر الصدقات غير هذه، فالواجب أن يكون سبيلُ هذه سبيلَ غيرها من الصدقات.

فإن ظنَّ ظانُّ أن القصاصَ إذ كان يكفر ذنبَ صاحبه المقتص منه الذي أتاه في قتل مَنْ قتلَه ظلماً، لقولِ النبي ﷺ إذ أخذ البيعةَ على أصحابه: «أن لا تقتلوا ولا تزنوا ولا تسرقوا»، ثم قال: «فمن فعل من ذلك شيئاً فأقيم عليه حدُّه فهو كفَّارته»^(١) فالواجب أن يكونَ عفو العافي المجني عليه، أو ولي المقتول عنه نظيره، في أن ذلك له كفارة. فإن ذلك لو وجب أن يكون كذلك، لوجب أن يكون عفو المقذوف عن قاذفه بالزنا، وتركه أخذه بالواجب له من الحدِّ وقد قذفه قاذفه وهو عفيفٌ مسلمٌ مُحصنٌ، كفارةٌ للقاذف من ذنبه الذي ركبهُ، ومعصيته التي أتاها. وذلك ما لا نعلمُ قائلًا من أهل العلم يقوله.

فإذ كان غير جائز أن يكون المقذوف - الذي وصفنا أمره - أخذ قاذفه بالواجب له من الحدِّ كفارةٌ للقاذف من ذنبه الذي ركبهُ، كان كذلك غير جائز أن يكون تركُ المجروح أخذَ الجارح بحقه من القصاص، كفارةٌ للجارح من ذنبه الذي ركبهُ.

فإن قال قائل: أو ليس للمجروح عندك أخذُ جارحه بديةٍ جُرَّحه مكانَ القصاص؟

قيل له: بلى!

فإن قال: أفرايت لو اختار الديةَ ثم عفا عنها، أكانت له قبله في الآخرة تبعة؟

(١) قطعة من حديث رواه المؤلف معلقاً غير مستند، وهو في الصحيحين: البخاري (٦٧٨٤) ومسلم (١٧٠٩) من حديث عباد بن الصامت. وانظر طرقه الأخرى في فتح الباري: ٨٤/١٢.

قيل له: هذا كلامٌ عندنا محالٌ. وذلك أنه لا يكونُ عندنا مختاراً لدية إلا وهو لها آخذٌ. فأما العفوُ فإنما هو عَفْوٌ عن الدمِ - وقد دَلَّلنا على صحة ذلك في موضعٍ غيرِ هذا، بما أَعْنَى عن تكريره في هذا الموضع - إلا أن يكونَ مُراداً بذلك هِبَتُها لمن أُخِذَتْ منه بعد الأخذِ. مع أن عفوهُ عن الدية بعد اختيارهِ إياها لو صَحَّ، لم يكن في صحة ذلك ما يوجبُ أن يكونَ المعفوُّ له عنها بريئاً من عقوبة ذنبه عند الله، لأنَّ الله تعالى ذَكَرَهُ أَوْعَدَ قَاتِلَ الْمُؤْمِنِ بما أَوْعَدَهُ به إن لم يَتُبْ من ذنبه، والدية مأخوذةٌ منه، أَحَبُّ أم سَخَطُ. والتوبةُ من النَّائبِ إنما تكونُ توبةً إذا اختارها وأرادها وآثرها على الإصرار.

فإن ظَنَّ ظانٌّ أن ذلك وإن كان كذلك، فقد يجب أن يكون له كفارةٌ، كما كان القصاص له كفارةً، فإننا إنما جعلنا القصاصَ له كفارةً مع نَدَمِهِ وبَذَلِهِ نفسه لأخذِ الحق منها تَتَّصُلًا من ذنبه، بخبرِ النبي ﷺ. فأما الدية إذا اختارها المجروحُ ثم عفا عنها، فلم يُقْضَ عليه بحدِّ ذنبه، فيكون مِمَّنْ دَخَلَ في حكم النبي ﷺ وقوله: «فَمَنْ أَقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ فَهُوَ كَفَّارَتُهُ»^(١).

وقد يجوز أن يكون القائلون إنه عَنَى بذلك الجارحُ، أرادوا المعنى الذي ذُكِرَ عن عروة بن الزبير الذي أخبر به عبدالله بن كثير، عن مجاهد قال: إذا أَصَابَ رَجُلٌ رَجُلًا، ولا يعلم المُصَابُ مَنْ أَصَابَهُ، فاعترف له المصيبُ، فهو كفارةٌ للمُصِيبِ. قال: وكان مجاهد يقول عند هذا: أَصَابَ عروة بن الزبير عَيْنَ إنسانٍ عند الركن فيما يستلمون، فقال له: يا هذا، أنا عروة بن الزبير، فإن كان بعينك بأسٌ فأنا بها!

وإذا كان الأمرُ من الجارحِ على نحو ما كَانَ من عروة من خطأ فعلٍ على غيرِ عَمْدٍ، ثم اعترفَ للذي أَصَابَهُ بما أَصَابَهُ، فعفا له المصابُ بذلك عن

(١) تقدم تخريجه.

حَقُّهُ قَبْلَهُ، فلا تَبِعَهُ لَه حِينَئِذٍ قَبْلَ الْمُصِيبِ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ. لِأَنَّ الَّذِي كَانَ وَجِبَ لَه قَبْلَه مَالٌ لَا قِصَاصَ، وَقَدْ أَبْرَأَهُ مِنْهُ: فإِبْرَأُوهُ مِنْهُ، كَفَّارَةٌ لِلْمُجْرِمِ مَنْ حَقُّهُ الَّذِي كَانَ لَه أَخْذَه بِهِ، فَلَا طَلِبَةَ لَه بِسَبَبِ ذَلِكَ قَبْلَهُ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلَا عَقُوبَةَ تَلْزِمُهُ بِهَا بِمَا كَانَ مِنْهُ إِلَى مَنْ أَصَابَهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ إِصَابَتَهُ بِمَا أَصَابَهُ بِهِ، فَيَكُونُ بِفَعْلِهِ أَثْمًا يَسْتَحِقُّ بِهِ الْعَقُوبَةَ مِنْ رَبِّهِ. لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَضَعَ الْجُنَاحَ عَنْ عِبَادِهِ فِيمَا أَخْطَأُوا فِيهِ وَلَمْ يَتَعَمَّدُوهُ مِنْ أَفْعَالِهِمْ، فَقَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

و«التصدق»، فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، بِالْدَمِ، الْعَفْوُ عَنْهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ مِنْ قَوَدِ النَّفْسِ الْقَاتِلَةِ قِصَاصاً بِالنَّفْسِ الْمَقْتُولَةِ ظُلْماً، وَلَمْ يَفْقَأْ عَيْنَ الْفَاقِئِ بَعِينَ الْمَفْقُوءِ ظُلْماً، قِصَاصاً مِمَّنْ أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ، وَلَكِنْ أَقَادَ مِنْ بَعْضٍ وَلَمْ يُقَدِّمْ مِنْ بَعْضٍ، أَوْ قَتَلَ فِي بَعْضٍ اثْنَيْنِ بِوَاحِدٍ، فَإِنَّ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ «الظَّالِمِينَ». يَعْنِي: مِمَّنْ جَارَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ، وَوَضَعَ فِعْلَهُ مَا فَعَلَ مِنْ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُ مَوْضِعاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَقَفَيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم»، أتبعنا. يقول: أتبعنا عيسى بن مريم على آثار النبيين الذين أسلموا من قبلك، يا محمد، فبعثناه نبياً مُصَدِّقاً لكتابتنا الذي أنزلناه إلى موسى من قبله أَنَّهُ حَقٌّ، وَأَنَّ الْعَمَلَ بِمَا لَمْ يَنْسَخْهُ الْإِنْجِيلُ مِنْهُ فَرَضٌ وَاجِبٌ. «وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ»، يقول: وأنزلنا إليه كتابنا الذي اسمه «الإنجيل». «فيه هدى ونور»، يقول: في الإنجيل «هدى»، وهو بيانٌ ما جَهِلَهُ النَّاسُ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ فِي زَمَانِهِ. «ونور»، يقول: وضياءٌ مِنْ عَمَى الْجَهَالَةِ. «ومصدقاً لما بين يديه»، يقول: أوحينا إليه ذلك وأنزلناه إليه بتصديقي ما كَانَ قَبْلَهُ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ الَّتِي كَانَ أَنْزَلَهَا عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ أَنْزَلَ إِلَى نَبِيِّهَا كِتَابًا لِلْعَمَلِ بِمَا أَنْزَلَ إِلَى نَبِيِّهِمْ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ، مِنْ تَحْلِيلٍ مَا حُلِّلَ، وَتَحْرِيمٍ مَا حُرِّمَ. «وهدى وموعظة»، يقول: أنزلنا الإنجيلَ إِلَى عِيسَى مُصَدِّقاً لِلْكِتَابِ الَّتِي قَبْلَهُ، وَبَيَاناً لِحُكْمِ اللَّهِ الَّذِي ارْتِضَاهُ لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ فِي زَمَانِ عِيسَى. «وموعظة»، لهم يقول: وَزَجَرًا لَهُمْ عَمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ إِلَى مَا يَجِبُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَتَنْبِيهاً لَهُمْ عَلَيْهِ.

و«المتقون»، هم الذين خافوا الله وَحَذَرُوا عِقَابَهُ، فَاتَّقَوْهُ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ، وَحَذَرُوهُ بِتَرْكِ مَا نَهَاهُمْ عَنْ فِعْلِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

اختلفت القراءَةُ في قراءة قوله: «وليحكم أهل الإنجيل».

فقرأته قَرَأَةُ الْحِجَازِ وَالْبَصْرَةِ وَبَعْضُ الْكُوفِيِّينَ: «وَلِيَحْكُمَ» بِتَسْكِينِ «اللام»، عَلَى وَجْهِ الْأَمْرِ مِنَ اللَّهِ لِأَهْلِ الْإِنْجِيلِ: أَنْ يَحْكُمُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ أَحْكَامِهِ. وَكَأَنَّ مَنْ قَرَأَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، أَرَادَ: وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هَدًى وَنُورٌ

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ، وَأَمَرْنَا أَهْلَهُ أَنْ يَحْكُمُوا بِمَا أَنزَلْنَا فِيهِ فَيَكُونَ فِي الْكَلَامِ مَحذُوفٌ، تَرَكَ اسْتِغْنَاءً بِمَا ذَكَرَ عَمَّا حُذِفَ.

وقرأ ذلك جماعة من أهل الكوفة: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ﴾ بكسر «اللام»، من «ليحكم»، بمعنى: كي يحكم أهل الإنجيل. وكان معنى مَنْ قرأ ذلك كذلك: وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ، كي يَحْكُمَ أَهْلُهُ بِمَا فِيهِ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ.

والذي نقول به في ذلك، أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، فبأي ذلك قرأ قارئ فمصيب في الصواب.

وذلك أن الله تعالى لم ينزل كتاباً على نبيٍّ من أنبيائه إلا ليعمل بما فيه أَهْلُهُ الَّذِينَ أُمِرُوا بِالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ، ولم ينزله عليهم إلا وقد أمرهم بالعمل بما فيه، فللعمل بما فيه أنزله، وأمرًا بالعمل بما فيه أنزله^(١). فكذلك الإنجيل، إذ كان من كُتِبَ اللَّهُ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى أَنْبِيَائِهِ، فللعمل بما فيه أنزله على عيسى، وأمرًا بالعمل به أَهْلُهُ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ. فسواء قُرِئَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْأَمْرِ بِتَسْكِينٍ «اللام»، أَوْ قُرِئَ عَلَى وَجْهِ الْخَبَرِ بِكسرها، لاتفاق معنيهما.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ

وهذا خطاب من الله تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ. يقول تعالى ذِكْرُهُ: أنزلنا إليك، يا محمد، «الكتاب»، وهو القرآن الذي أنزله عليه ويعني بقوله: «بالحق»، بالصدق ولا كَذِبَ فِيهِ، ولا شَكَّ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ»، يقول: أنزلناه بتصديق ما قبله من كُتِبَ اللَّهُ الَّتِي أَنْزَلَهَا إِلَى

(١) ذكر ذلك لبيان تقارب معنى القراءتين.

أنبيائه. «ومهيماً عليه»، يقول: أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك، يا محمد، مُصَدِّقاً للكتبِ قبله، وشهيداً عليها أنها حقٌّ من عند الله، أميناً عليها، حافظاً لها.

وأصل «الهيمنة»، الحفظ والارتقاب. يقال، إذا رَقَبَ الرجلُ الشيءَ وحفظه وشهده: «قد هَيَّمَنَ فلانٌ عليه، فهو يُهَيِّمُنْ هيمنةً، وهو عليه مهيمٌ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ

وهذا أمرٌ من الله تعالى ذكَّره لنبيه محمد ﷺ، أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهل الملل بكتابه الذي أنزله إليه، وهو القرآن الذي خصه بشريعته. يقول تعالى ذكَّره: احكم، يا محمد، بين أهل الكتاب والمشركين بما أنزل إليك من كتابي وأحكامي في كُلِّ ما احتكموا فيه إليك، من الحدود والجروح والقَوَدِ والنفوس، فأرْجُمِ الزاني المحصن، واقتل النفسَ القاتلةَ بالنفسِ المقتولةَ ظُلماً، وافقاً العينَ بالعين، واجدع الأنفَ بالأنفِ، فإني أنزلتُ إليك القرآنَ مُصَدِّقاً في ذلك ما بين يديه من الكتبِ، ومهيماً عليه رقيباً، يقضي على ما قبله من سائر الكتبِ قبله، ولا تَتَّبِعْ أهواءَ هؤلاء اليهود - الذين يقولون: إن أوتيتم الجلدَ في الزاني المحصن دونَ الرجم، وقتلَ الوضيعِ بالشريفِ إذا قتله، وتركَ قتلَ الشريفِ بالوضيعِ إذا قتله، فَخَذُّوهُ، وإن لم تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا^(١) - عن الذي جاءك من عند الله من الحقِّ، وهو كتابُ الله الذي أنزله إليك. يقول له: اعملْ بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاخترتَ

(١) قطعة من حديث البراء بن عازب الذي أخرجه مسلم في تغيير اليهود لحكم الزاني وتلاعيبهم فيه (١٧٠٠).

الْحُكْمَ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَتْرَكُنَّ الْعَمَلَ بِذَلِكَ اتِّبَاعاً مِنْكَ أَهْوَاءَهُمْ، وَإِثَاراً لَهَا عَلَى الْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلْتَهُ إِلَيْكَ فِي كِتَابِي .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لِكُلِّ قَوْمٍ جَعَلْنَا شِرْعَةً .

و«الشريعة» هي «الشرعة» بعينها، تُجْمَعُ «الشَّرْعَةُ» «شِرْعًا»، «والشريعة» «شرائع». ولو جمعت «الشريعة» «شرائع»، كان صواباً، لأنَّ معناها ومعنى «الشريعة» واحدٌ، فبرَدَّها عند الجمع إلى لفظٍ نظيرها. وكُلُّ ما شرعت فيه من شيء فهو «شريعة». ومن ذلك قيل: لشريعة الماء «شريعة»، لأنه يُشْرَعُ منها إلى الماء. ومنه سُمِّيَتْ شرائع الإسلام «شرائع»، لشرع أهلها فيه. ومنه قيل للقوم إذا تساوا في الشيء: «هم شَرَعٌ»، سواءً.

وأما «المنهاج»، فإنَّ أصله: الطريقُ البَيِّنُ الواضحُ، يقال منه: «هو طريق نَهْجٍ، ومنهَجٌ»، بَيِّنٌ.

فمعنى الكلام: لِكُلِّ قَوْمٍ جَعَلْنَا طريقاً إلى الْحَقِّ يُؤْمَهُ، وسبيلاً واضحاً يعمل به.

ثم اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ» .

فقال بعضهم: عَنَى بِذَلِكَ أَهْلَ الْمِلَلِ الْمُخْتَلِفَةِ، أَي: أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِكُلِّ مِلَّةٍ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا.

وقال آخرون: بَلْ عَنَى بِذَلِكَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ. وقالوا: إِنَّمَا مَعْنَى الْكَلَامِ:

قَدْ جَعَلْنَا الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، أَيُّهَا النَّاسُ، لِكُلِّكُمْ - أَي لِكُلِّ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ وَأَقَرَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ - أَنَّهُ لِي نَبِيٌّ - شِرْعَةٌ وَمِنْهَاجًا.

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول مَنْ قال: معناه: لِكُلِّ أَهْلِ
ملة منكم أيها الأمم، جعلنا شريعةً ومنهاجاً.

وانما قلنا ذلك أولى بالصواب، لقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً
وَاحِدَةً﴾، ولو كان عَنِ بقوله: «لكل جعلنا منكم»، أمة محمد، وهم أمة
واحدة، لم يكن لقوله: «ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة»، وقد فعل ذلك
فجعلهم أمةً واحدة - معنى مفهوم. ولكن معنى ذلك، على ما جَرَى به الخطابُ
من الله لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: أنه ذكر ما كتب على بني إسرائيل في التوراة، وتقدم
إليهم بالعمل بما فيها، ثم ذكر أنه قَفِيَ بعيسى بن مريمَ على آثارِ الأنبياء قَبْلَهُ،
وأنزل عليه الإنجيل، وأمر مَنْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ بالعمل بما فيه. ثم ذكر نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا
ﷺ، وأخبره أنه أنزلَ إليه الكتابَ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، وأمره
بالعمل بما فيه، والحكم بما أنزل إليه فيه دونَ ما في سائر الكتب غيره -
وأعلمه أنه قد جعل له ولأمرته شريعةً غيرَ شرائعِ الأنبياء والأمم قَبْلَهُ الذين قَصَّ
عليه قصصَهُمْ، وإنْ كان دِينُهُ ودِينُهُمْ - في توحيدِ الله، والإقرارِ بما جاءهم به
من عنده، والانتهاى إلى أمرِهِ ونهيهِ - واحداً، فهم مختلفو الأحوالِ فيما شرع
لكم واحد منهم ولأمرته، فيما أحلَّ لهم وحرَّم عليهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَلَكِنْ لَسَبَلُوكُمْ فِي مَاءِ اتِّسَافِكُمْ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو شاء ربكم لجعل شرائعكم واحدة، ولم يجعل
لكل أمة شريعةً ومنهاجاً غيرَ شرائعِ الأمم الأخر ومنهاجهم، فكنتم تكونون أمةً
واحدة لا تختلفُ شرائعكم ومنهاجكم، ولكنه تعالى ذِكْرُهُ يعلمُ ذلك، فخالَفَ
بين شرائعكم ليختبرَكُمْ، فيعرف المطيعَ منكم من العاصي، والعاملُ بما أمرُهُ
في الكتاب الذي أنزله إلى نبيِّهِ ﷺ من المخالفِ.

و«الابتلاء»، هو الاختبار.

وقوله: «فيما آتاكم»، يعني: فيما أنزل عليكم من الكتب.

فإن قال قائل: وكيف قال: «ليلوكم فيما آتاكم»، ومن المخاطب بذلك؟ وقد ذكرت أن المعنى بقوله: «لِكُلِّ جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجاً»، نبينا مع الأنبياء الذين مضوا قبله وأممهم، والذين قبل نبينا ﷺ على حدة؟

قيل: إن الخطاب وإن كان لنبينا ﷺ: فإنه قد أريد به الخبر عن الأنبياء قبله وأممهم. ولكن العرب من شأنها إذا خاطبت إنساناً وضمت إليه غائباً، فأرادت الخبر عنه، أن تغلب المخاطب، فيخرج الخبر عنهما على وجه الخطاب، فلذلك قال تعالى ذكره: «لِكُلِّ جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجاً».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: فَاسْتَقِمْ إِلَى الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ

مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنْزِلْكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذكره: فبادروا، أيها الناس، إلى الصالحات من الأعمال، والقرب إلى ربكم، بإدمان العمل بما في كتابكم الذي أنزله إلى نبيكم، فإنه إنما أنزله امتحاناً لكم وابتلاءً، ليتبين المحسن منكم من المسيء، فيجازي جميعكم على عمله جزاءه عند مصيركم إليه، فإن إليه مصيركم جميعاً، فيخبر كل فريق منكم بما كان يخالف فيه الفرق الأخرى، فيفصل بينهم بفصل القضاء، وتبين المحق مجازاته إياه بجنته، من المسيء بعقابه إياه بالنار، فيتبين حينئذ كل حزب عياناً، المحق منهم من المبطل.

فإن قال قائل: أو لم ينبثنا ربنا في الدنيا قبل مرجعنا إليه ما نحن فيه

مختلفون؟

قيل: إنه بين ذلك في الدنيا بالرُّسل والأدلة والحجج، دون الثواب والعقاب عياناً، فمُصَدِّقٌ بذلك ومُكَذِّبٌ. وأما عند المرجع إليه، فإنه ينبئهم بذلك بالمجازاة التي لا يَشْكُونَ معها في معرفة المُحَقِّ والمبطل، ولا يقدرون على إدخال اللبس معها على أنفسهم. فكَذَلِكَ خَبَرَهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ أَنَّهُ يَنْبِئُنَا عِنْدَ الْمَرْجَعِ إِلَيْهِ بِمَا كُنَّا فِيهِ نَخْتَلِفُ فِي الدُّنْيَا. وإنما معنى ذلك: إلى الله مرجعكم جميعاً، فتعرفون المحق حينئذٍ من المبطل منكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: «وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَدْعُو اللَّهَ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٨﴾»

يعني تعالى ذكره بقوله: «وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ»، وأنزلنا إليك، يا محمد، الكتاب مُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتاب، وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ. فـ«أَنَّ» في موضع نصب بـ«التنزيل».

ويعني بقوله: «بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ»، بحكم الله الذي أنزلهُ إِلَيْكَ في كتابه.

وأما قوله: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ»، فإنه نهي من الله نبيهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الْيَهُودِ الَّذِينَ احْتَكَمُوا إِلَيْهِ فِي قَتْلِهِمْ وَفَاجِرَتِهِمْ، وَأَمْرٌ مِنْهُ لَهُ بِلُزُومِ الْعَمَلِ بِكِتَابِهِ الَّذِي أَنزَلَهُ إِلَيْهِ.

وقوله: «وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَاحْذَرْ، يَا مُحَمَّدُ، هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ جَاؤُوكَ مُحْتَكَمِينَ إِلَيْكَ. «أَن يَفْتِنُوكَ»، فيصدُّوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ مِنْ حُكْمِ كِتَابِهِ، فيحملوكَ عَلَى تَرْكِ الْعَمَلِ بِهِ وَاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ.

وقوله: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ»، يقول تعالى ذكره: فَإِنْ تَوَلَّوْا هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ الَّذِينَ اخْتَصَمُوا إِلَيْكَ عَنْكَ، فَتَرَكُوا الْعَمَلَ بِمَا حَكَمْتَ بِهِ عَلَيْهِمْ وَقَضَيْتَ فِيهِمْ. «فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ»، يقول: فاعلم أنهم لم يتولوا عن الرضى بحكمك وقد قضيت بالحق، إِلَّا مِنْ أَجْلِ أَنْ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَجَّلَ عِقَابَهُمْ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا بِبَعْضِ مَا قَدْ سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ. «وإن كثيراً من الناس لفاسقون»، يقول: وإن كثيراً من اليهود. «لفاسقون»، يقول: لتأركو العمل بكتاب الله، ولخارجون عن طاعته إلى معصيته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَيَبْغِي هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ الَّذِينَ احْتَكَمُوا إِلَيْكَ، فَلَمْ يَرْضُوا بِحُكْمِكَ، إِذْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِالْقِسْطِ. «حكم الجاهلية»، يعني: أحكام عبدة الأوثان من أهل الشرك، وعندهم كتاب الله فيه بيان حقيقة الحكم الذي حَكَمْتَ بِهِ فِيهِمْ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَجُوزُ خِلَافُهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ مَوْخِئًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَبَوْا قَبُولَ حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ، وَمُسْتَجْهِلاً فَعَلَهُمْ ذَلِكَ مِنْهُمْ -: وَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ حُكْمًا، أَيُّهَا الْيَهُودُ، مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ عِنْدَ مَنْ كَانَ يُوقِنُ بَوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ، وَيَقْرَأُ بِرَبِّيَّتِهِ؟ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: أَيُّ حُكْمٍ أَحْسَنُ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ أَنَّ لَكُمْ رَبًّا، وَكُنْتُمْ أَهْلَ تَوْحِيدٍ وَإِقْرَارٍ بِهِ؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ نَهَى الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعاً أَنْ يَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
أَنْصَاراً وَحُلَفَاءَ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَغَيْرِهِمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَنْ اتَّخَذَهُمْ
نَصِيراً وَحَلِيفاً وَوَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ فِي الْحَزْبِ عَلَى
اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْهُ بَرِثَانٌ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَنْافِقِ كَانَ يُوَالِي يَهُوداً أَوْ نَصَارَى خَوْفاً عَلَى
نَفْسِهِ مِنْ دَوَائِرِ الدَّهْرِ، لِأَنَّ الْآيَةَ الَّتِي بَعْدَ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ:
﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾
الْآيَةُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ»، فَإِنَّهُ عَنَى بِذَلِكَ: أَنَّ بَعْضَ الْيَهُودِ
أَنْصَارُ بَعْضِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَيَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى جَمِيعِهِمْ وَأَنَّ النَّصَارَى كَذَلِكَ،
بَعْضُهُمْ أَنْصَارُ بَعْضٍ عَلَى مَنْ خَالَفَ دِينَهُمْ وَمِلَّتَهُمْ مُعْرِفاً بِذَلِكَ عِبَادَةَ
الْمُؤْمِنِينَ: أَنَّ مَنْ كَانَ لَهُمْ أَوْ لِبَعْضِهِمْ وَلِيّاً، فَإِنَّمَا هُوَ وَلِيُّهُمْ عَلَى مَنْ خَالَفَ
مِلَّتَهُمْ وَدِينَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى لَهُمْ حَرْبٌ. فَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ
لِلْمُؤْمِنِينَ: فَكُونُوا أَنْتُمْ أَيْضاً بَعْضُكُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَلِلْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ حَرْباً
كَمَا هُمْ لَكُمْ حَرْبٌ، وَبَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَوْلِيَاءُ، لِأَنَّ مَنْ وَالَاهُمْ فَقَدْ أَظْهَرَ لِأَهْلِ
الْإِيمَانِ الْحَرْبَ، وَمِنْهُمْ الْبَرَاءَةُ، وَأَبَانَ قَطْعَ وَلَايَتِهِمْ^(١).

(١) كتب الشيخ سليمان حفيد الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رسالة نفيسة في حكم
موالاة أهل الإشراك، نشرتها دار عمار للنشر والتوزيع في عمان (سنة ١٩٩٠).
راجعها تجد فائدة كبيرة إن شاء الله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ

يعني تعالى ذكره بقوله: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ»، وَمَنْ يَتَوَلَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى دُونَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ مِنْهُمْ. يقول: فَإِنَّ مَنْ تَوَلَّاهُمْ وَنَصَرَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ دِينِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ، فَإِنَّهُ لَا يَتَوَلَّى مَتَوَلٍّ أَحَدًا إِلَّا وَهُوَ بِهِ وَيَدِينُهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ رَاضٍ. وَإِذَا رَضِيَهُ وَرَضِيَ دِينَهُ، فَقَدْ عَادَى مَا خَالَفَهُ وَسَخِطَهُ، وَصَارَ حُكْمُهُ حُكْمَهُ، وَلِذَلِكَ حَكَمَ مَنْ حَكَمَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ لِلنَّصَارَى بَنِي تَغْلِبَ فِي ذُبَائِحِهِمْ وَنِكَاحِ نِسَائِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِهِمْ، بِأَحْكَامِ نَصَارَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِمَوَالَاتِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَرِضَاِهِمْ بِمِلَّتِهِمْ، وَنَصَرَتِهِمْ لَهُمْ عَلَيْهَا، وَإِنْ كَانَتْ أُنْسَابُهُمْ لِأُنْسَابِهِمْ مُخَالَفَةً، وَأَصْلُ دِينِهِمْ لِأَصْلِ دِينِهِمْ مَفَارِقًا.

وفي ذلك الدلالة الواضحة على صحة ما نقول، من أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ يَدِينُ بدينِ فله حكمُ أَهْلِ ذَلِكَ الدِّينِ، كَانَتْ دِينُونَتُهُ بِهِ قَبْلَ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ أَوْ بَعْدَهُ. إِلَّا أَنَّ يَكُونَ مُسْلِمًا مِنْ أَهْلِ دِينِنَا انْتَقَلَ إِلَى مِلَّةٍ غَيْرِهَا، فَإِنَّهُ لَا يُقَرَّرُ عَلَى مَا دَانَ بِهِ فَانْتَقَلَ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ يُقْتَلُ لِرُدَّتِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَمَفَارِقَتِهِ دِينَ الْحَقِّ، إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ قَبْلَ الْقَتْلِ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ وَفَسَادِ مَا خَالَفَهُ مِنْ قَوْلٍ مَنْ زَعَمَ: أَنَّهُ لَا يَحْكُمُ بِحُكْمِ أَهْلِ الْكِتَابِينَ لِمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ، إِلَّا أَنَّ يَكُونَ إِسْرَائِيلِيًّا أَوْ مُنْتَقِلًا إِلَى دِينِهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ قَبْلَ نَزُولِ الْفُرْقَانِ. فَأَمَّا مَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ بَعْدَ نَزُولِ الْفُرْقَانِ، مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ، مِمَّنْ خَالَفَ نَسَبُهُ نَسَبَهُمْ وَجِنْسُهُ جِنْسَهُمْ، فَإِنَّ حُكْمَهُ لِحُكْمِهِمْ مُخَالَفٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: إِنَّ اللَّهَ لَا يُوَفِّقُ مَنْ وَضَعَ الْوَلَايَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، فَوَالِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى - مَعَ عَدَوَاتِهِمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ - عَلَى

المؤمنين، وكان لهم ظهيراً ونصيراً، لأنَّ مَنْ تَوَلَّاهُمْ فهو لله ولرسوله وللمؤمنين حربٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ

إنَّ ذلك من الله خَبَرٌ عن ناسٍ من المنافقين كانوا يوالون اليهود والنصارى ويغشون المؤمنين، ويقولون: نَخْشَى أَنْ تَدُورَ دَوَائِرُ - إما لليهود والنصارى، وإما لأهل الشرك من عبدة الأوثان، أو غيرهم - على أهل الإسلام، أو تنزل بهؤلاء المنافقين نازلةً، فيكون بنا إليهم حاجةٌ.

فتأويل الكلام إذاً: فتري، يا محمد، الذين في قلوبهم شكٌ، ومرضٌ إيمانٍ بنبوَّتِكَ وتصديق ما جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ. «يسارعون فيهم»، يعني في اليهود والنصارى ويعني بمسارعتهم فيهم: مسارعتهم في مولاتهم ومصانعتهم. «يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة»، يقول هؤلاء المنافقون: إنما نسارعُ في مولاة هؤلاء اليهود والنصارى، خوفاً من دائرة تدور علينا من عدونا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِمِينَ

يعني تعالى ذِكْرَهُ بقوله: «فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده»، فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ.

ثم اختلفوا في تأويل «الفتح» في هذا الموضع.

فقال بعضهم: عني به ههنا، القضاء.

وقال آخرون: عُني به فَتْحُ مكة.

«والفتح» في، كلام العرب، هو القضاء، ومنه قول الله تعالى ذكره: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقد يجوز أن يكون ذلك القضاء الذي وعد الله نبيه محمداً ﷺ بقوله: «فعسى الله أن يأتي بالفتح» فتح مكة، لأن ذلك كان من عظيم قضاء الله، وفصل حكمه بين أهل الإيمان والكفر، ومقرراً عند أهل الكفر والنفاق، أن الله مُعْلِي كَلِمَتِهِ وَمُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ.

وقد يحتمل أن يكون «الأمر» الذي وعد الله نبيه محمداً ﷺ أن يأتي به هو الجزية، ويحتمل أن يكون غيرها. غير أنه أي ذلك كان، فهو مما فيه إدالة المؤمنين على أهل الكفر بالله وبرسوله، ومما يسوء المنافقين ولا يسرهم. وذلك أن الله تعالى ذكره قد أخبر عنهم أن ذلك الأمر إذا جاء، أصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين.

وأما قوله: «فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين»، فإنه يعني هؤلاء المنافقين الذين كانوا يوالون اليهود والنصارى. يقول تعالى ذكره: لعل الله أن يأتي بأمر من عنده يُدِيلُ به المؤمنين على الكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر، فيصبح هؤلاء المنافقون على ما أسروا في أنفسهم من مخالفة اليهود والنصارى ومودتهم، ويُبْغِضَ المؤمنين ومُحَادَثَهُمْ، «نادمين».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَعَمْرُكُم حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ ﴿٥٢﴾

(يعني): فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين، ويقول المؤمنون:

أهؤلاء الذين حَلَفُوا لنا بالله جهد أيمانهم كَذِباً إِنَّهُمْ لَمَعَنَّا؟

يقول الله تعالى ذكره، مُخْبِراً عن حالهم عنده بنفاقهم وَخُبثِ أعمالهم. «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ»، يقول: ذهبت أعمالهم التي عملوها في الدنيا باطلاً لا ثوابَ لها ولا أجر، لأنهم عملوها على غيرِ يقينٍ منهم بأنها عليهم الله فرض واجب، ولا على صِحَّةِ إيمانٍ بالله ورسوله، وإنما كانوا يعملونها ليدفعوا المؤمنينَ بها عن أنفسهم وأموالهم وذرائعهم، فأحبط الله أجرها، إذ لم تكن له. «فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ»، يقول: فأصبح هؤلاء المنافقون، عند مجيء أمر الله بإدالة المؤمنين على أهل الكفر، قد وكُسُوا في شرائهم الدنيا بالآخرة، ونُخِيبَتْ صَفَقَتُهُمْ، وهَلَكُوا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَكَايُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ
فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ

يقول تعالى ذِكْرُهُ الْمُؤْمِنِينَ بالله وبرسوله: «يا أيها الذين آمنوا»، أي: صَدَقُوا الله ورسوله، وَأَقْرَبُوا بما جاءهم به نبيُّهم محمد ﷺ. «مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِ»، يقول: مَنْ يَرْجِعْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ، فَيَبْدُلْهُ وَيَغْيِرْهُ بِدُخُولِهِ فِي الْكُفْرِ، إما فِي الْيَهُودِيَّةِ أَوْ النَّصْرَانِيَّةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صُنُوفِ الْكُفْرِ، فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً، رِسَايَتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، يقول: فسوف يجيءُ الله بدلاً منهم، المؤمنين الذين لم يُبَدِّلُوا ولم يُغَيِّرُوا ولم يرتدوا، بقومٍ خَيْرٍ مِنَ الَّذِينَ ارْتَدُّوا وَبَدَّلُوا دِينَهُمْ، يُحِبُّهُمْ اللَّهُ وَيُحِبُّونَ اللَّهَ.

وكان هذا الوعيدُ من الله لِمَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ سَيَرْتَدُّ بَعْدَ وَفَاةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وكذلك وعده مَنْ وَعَدَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَا وَعَدَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، لِمَنْ سَبَقَ لَهُ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ لَا يَبْدُلُ وَلَا يَغْيِرُ دِينَهُ، وَلَا يَرْتَدُّ. فَلَمَّا قَبِضَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ،

ارتد أقوامٌ من أهل الوَرِّ، وبعضُ أهل المَدَرِ، فأبدلَ اللهُ المؤمنينَ بخيرِ منهم كما قال تعالى ذِكْرَهُ، ووفى للمؤمنينَ بوعده، وأنفذَ فيمن ارتدَّ منهم وعيده.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَذْلَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ

يعني تعالى ذكره بقوله: «أذلة على المؤمنين»، أرقاء عليهم، رحمة بهم.

ويعني بقوله: «أعزة على الكافرين»، أشداء عليهم، غلظة بهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «يجاهدون في سبيل الله»، هؤلاء المؤمنون الذين وَعَدَ اللهُ المؤمنينَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِهِمْ إِنْ ارتدَّ منهم مرتدٌ، بدلاً منهم، يجاهدون في قتالِ أعداءِ الله على النحو الذي أمر الله بقتالهم، والوجه الذي أَذِنَ لَهُمْ به، ويجاهدون عدوهم. فذلك مجاهدتهم في سبيل الله. «ولا يخافون لومة لائم»، يقول: ولا يخافون في ذاتِ الله أحداً، ولا يصدُّهم عن العملِ بما أمرهم اللهُ به من قتالِ عدوهم، لومةٌ لائم لهم في ذلك.

وأما قوله: «ذلك فضل الله»، فإنه يعني هذا النعت الذي نعتهم به تعالى ذكره - من أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيلِ الله ولا يخافون في الله لومة لائم - فضلُ الله الذي تَفَضَّلَ به عليهم، والله يُؤْتِي فضله مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ مَنَّةً عَلَيْهِ وَتَطَوُّلاً. «والله واسع»، يقول: والله جواد بفضلِهِ على مَنْ جَادَ به عليه. لا يخاف نَفَادَ خَزَائِنِهِ فَتَتَلَفَ في عطائه. «عليم»،

بموضع جُودِهِ وعَطَائِهِ، فلا يبذله إلا لمن استحقَّه، ولا يبذل لمن استحقه إلا على قَدْرِ المصلحة، لعلَّه بموضع صلاحه له من موضع ضرره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ٥٥

يعني تعالى ذكره بقوله: «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا»، ليس لكم، أيها المؤمنون، ناصر إلا الله ورسوله، والمؤمنون الذين صِفَتْهُمْ مَا ذَكَرَ تعالى ذِكْرَهُ. فأما اليهود والنصارى الذين أمركم الله أَنْ تَبْرَأُوا مِنْ وَلَايَتِهِمْ، ونهاكم أَنْ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ، فليسوا لكم أَوْلِيَاءَ وَلَا نَصْرَاءَ، بَلْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمْ الْغَالِبُونَ** ٥٦

وهذا إعلَامٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عِبَادَهُ جَمِيعًا الَّذِينَ تَبَرَّأُوا مِنْ حَلْفِ الْيَهُودِ وَخَلَعُوهُمْ رَضَى بِوَلَايَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَالَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِحَلْفِهِمْ وَخَافُوا دَوَائِرَ السُّوءِ تَدَوَّرَ عَلَيْهِمْ، فَسَارِعُوا إِلَى مَوَالِيَتِهِمْ - أَنْ مَنْ وَثَّقَ بِاللَّهِ وَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لَهُمُ الْغَلْبَةُ وَالِدَوَائِرُ وَالِدَوْلَةُ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ وَحَادَّهُمْ، لَأَنَّهُمْ حَزَبُ اللَّهِ، وَحَزَبُ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ، دُونَ حَزَبِ الشَّيْطَانِ:

ويعني بقوله: «فإن حزب الله»، فإن أنصار الله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : يَكَايَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَّا نَتَّخِذُوا الَّذِينَ ءَاتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ ءُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ ءَوَّلِيَاءُ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ



يقول تعالى ذِكْرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ به ورسوله محمد ﷺ : «يا أيها الذين آمنوا»، أي : صَدِّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ . «لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ ءُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ» ، يعني اليهود والنصارى الذين جاءتهم الرسل والأنبياء، وأنزلت عليهم الكتب من قبل بَعَثَ نَبِيْنَا ﷺ ، ومن قَبْلِ نَزُولِ كِتَابِنَا . «أولياء»، يقول : لا تتخذوهم ، أيها المؤمنون ، أنصاراً أو إخواناً أو حلفاء ، فإنهم لا يألونكم خَبَالًا ، وَإِنْ أَظْهَرُوا لَكُمْ مَوَدَّةً وَصَدَاقَةً .

وكان اتِّخَاذُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا بِالْدينِ عَلَى مَا وَصَفَهُمْ بِهِ رَبَّنَا تَعَالَى ذِكْرَهُ ، أن أحدهم كان يظهر للمؤمنين الإيمان وهو على كُفْرِهِ مَقِيمٌ ، ثم يراجع الكفر بعد سير من المدة بإظهار ذلك بلسانه قولاً ، بعد أن كان يُبْدِي بلسانه الإيمان قولاً وهو للكفر مستبطنٌ تَلْعَبُ بِالدينِ واستهزاءً به ، كما أخبر تعالى ذِكْرَهُ عن فِعْلٍ بَعْضُهُمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة : ١٤ ، ١٥] .

وَأَمَّا «الْكَفَّارُ» الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ فِي قَوْلِهِ : «مِنَ الَّذِينَ ءُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ ءَوَّلِيَاءُ» ، فإنهم المشركون من عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ . نَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَسَائِرِ أَهْلِ الْكُفْرِ ، أَوْلِيَاءَ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ .

واختلفت القُرْأَةُ في قراءة ذلك .

فقرأته جماعةٌ من أهلِ الحجاز والبصرة والكوفة : ﴿وَالْكَفَّارِ أَوْلِيَاءُ﴾ ،
بخفض «الكفار» ، بمعنى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم
هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الكفار ، أولياء .

وكذلك ذلك في قراءة أبي بن كعب فيما بلغنا : ﴿مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الْكَفَّارِ أَوْلِيَاءُ﴾ .

وقرأ ذلك عامةُ قُرْأَةِ أهلِ المدينة والكوفة : ﴿وَالْكَفَّارِ أَوْلِيَاءُ﴾ ، بالنصب ،
بمعنى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً والكفار
عطفاً بـ «الكفار» على «الذين اتخذوا» .

والصواب من القول في ذلك أن يقال : إنهما قراءتان متفقتا المعنى ،
صحيحتا المخرج ، قد قرأ بكل واحدٍ منهما علماء من القُرْأَةِ ، فبأي ذلك قرأ
القارئ فقد أصاب . لأنَّ النهيَّ عن اتخاذ وليٍّ من الكفار ، نهى عن اتخاذ
جميعهم أولياء . والنهي عن اتخاذ جميعهم أولياء ، نهى عن اتخاذ بعضهم ولياً .
وذلك أنه غير مشكل على أحدٍ من أهل الإسلام أنَّ الله تعالى ذكَّره إذا حرَّم
اتخاذ وليٍّ من المشركين على المؤمنين ، أنه لم يُبَحَّ لهم اتخاذ جميعهم أولياء -
ولا إذا حرَّم اتخاذ جميعهم أولياء ، أنه لم يخص إباحة اتخاذ بعضهم ولياً ،
فيجب من أجل إشكال ذلك عليهم ، طلبُ الدليل على أولى القراءتين في
ذلك بالصواب . وإذا كان ذلك كذلك ، فسواء قرأ القارئ بالخفض أو بالنصب ،
لما ذَكَّرْنَا من العلة .

وأما قوله : «واتقوا الله إن كنتم مؤمنين» ، فإنه يعني : وخافوا الله ، أيها
المؤمنون ، في هؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب ومن
الكفار ، أن تتخذوهم أولياء ونُصْرَاء ، وارهبوا عقوبته في فعل ذلك إن فعلتموه

بعد تقدّمه إليكم بالنهي عنه، إن كنتم تؤمنون بالله وتصدقونه على وعيده على معصيته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلِغَبًا^{٥٧} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ^{٥٨}

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا أذن مؤذنكم، أيها المؤمنون، بالصلاة، سَخِرَ من دعوتكم إليها هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمشرّكين، ولعبوا من ذلك. «ذلك بأنهم قوم لا يعقلون»، يعني تعالى ذكره بقوله: «ذلك»، فعلمهم الذي يفعلونه، وهو هزؤهم ولعبهم من الدعاء إلى الصلاة، وإنما يفعلونه بجهلهم برّبهم، وأنهم لا يعقلون ما لهم في إجابتهم إن أجابوا إلى الصلاة، وما عليهم في استهزائهم ولعبهم بالدعوة إليها، ولو عَقَلُوا مَا لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عند الله من العقاب، ما فعلوه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِفُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا^{٥٩} بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ^{٦٠}

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنبيه ﷺ: قُلْ، يا محمد، لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: يا أهل الكتاب، هل تكفرون منا أو تجدون علينا في شيء إذ تستهزئون بديننا، وإذا أنتم إذا نادينا إلى الصلاة اتخذتُم نِدَاءَنَا ذلك هُزُؤًا وَلِغَبًا. «إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللّٰهِ»، يقول: إِلَّا أَنْ صَدَّقْنَا وَأَقْرَرْنَا بِاللّٰهِ فَوَحَّدْنَاهُ، وبما أنزل إلينا من عند الله من الكتاب، وما أنزل إلى أنبياء الله من الكُتُبِ من قبل كتابنا. «وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ»، يقول: وإلا أَنْ أَكْثَرَكُمْ مخالفون أمر الله، خارجون عن طاعته، تكذبون عليه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَكَرَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: «قل»، يا محمد، لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هُزُوءاً ولعباً من الذين أُوتُوا الكتاب من قبلكم والكفار. «هل أنبئكم، يامعشر أهل الكتاب، بِشَرِّ من ثوابٍ ماتنقمون منا من إيماننا بالله وما أنزل إلينا من كتاب الله، وما أنزل من قبلنا من كتبه؟

وأما معنى قوله: «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ»، فإنه يعني: مَنْ أبعده الله وأسحقه من رحمته. «وغضب عليه وجعل منهم الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ»، يقول: وغضب عليه، وجعل منهم المَسُوحَ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ، غضباً منه عليهم وسخطاً، فعَجَّلَ لهم الخزي والنكال في الدنيا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ

(يعني): قُلْ هل أنبئكم بشرٍ من ذلك مثوبةً عند الله، مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير، وَمَنْ عبد الطَّاغُوتَ.

وأما قوله: «أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ»، فإنه يعني بقوله: «أُولَئِكَ»، هؤلاء الذين ذكرهم تعالى ذِكْرَهُ، وهم الذين وصفَ صفتهم فقال: «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وغضبَ عليه وجعلَ منهم الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ»، وكل ذلك من صفة اليهود من بني إسرائيل.

يقول تعالى ذِكْرَهُ: هؤلاء الذين هذه صفتهم. «شَرٌّ مَكَانًا»، في عاجل

الدنيا والآخرة عند الله ممن نَقَمْتُمْ عليهم، يامعشر اليهود، إيمانهم بالله، وبما أنزل إليهم من عند الله من الكتاب، وبما أنزل إلى مَنْ قبلهم من الأنبياء. «وَأُضِلُّ عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَأَنْتُمْ مَعَ ذَلِكَ، أَيُّهَا الْيَهُودُ، أَشَدُّ اخْتِذَاً عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ، وَأَجُورُ عَنْ سَبِيلِ الرُّشْدِ وَالْقَصْدِ مِنْهُمْ».

وهذا من لَحْنِ الكلام^(١). وذلك أَنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ إنما قصد بهذا الخبر إخبارَ اليهود الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ فِي الآيَاتِ قَبْلَ هَذِهِ، بِقُبْحِ فِعَالِهِمْ وَذَمِيمِ أَخْلَاقِهِمْ، وَاسْتِجَابِهِمْ سَخَطَهُ بِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، حَتَّى مُسِّخَ بَعْضُهُمْ قَرْدَةً وَيَعْصُهُمْ خَنَازِيرَ، خَطَاباً مِنْهُمْ لَهُمْ بِذَلِكَ، تَعْرِضُ بِالْجَمِيلِ مِنَ الْخُطَابِ، وَلَحْنُ لَهُمْ بِمَا عَرَفُوا مَعْنَاهُ مِنَ الْكَلَامِ بِأَحْسَنِ اللَّحْنِ، وَعَلَّمَ نَبِيُّ ﷺ مِنَ الْأَدَبِ أَحْسَنَهُ فَقَالَ لَهُ: قُلْ لَهُمْ، يَا مُحَمَّدُ، أَهْؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَيَكْتُبُهُ الَّذِينَ تَسْتَهْزِئُونَ مِنْهُمْ، شَرٌّ أَمْ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ؟ وَهُوَ يَعْنِي الْمَقُولَ ذَلِكَ لَهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا جَاءَكُمْ وَقَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَإِذَا جَاءَكُمْ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْيَهُودِ قَالُوا لَكُمْ: «آمَنَّا»، أَيَّ صَدَقْنَا بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى دِينِهِ، وَهُمْ مُقِيمُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ، قَدْ دَخَلُوا عَلَيْكُمْ بِكُفْرِهِمْ الَّذِي يَعْتَقِدُونَهُ بِقُلُوبِهِمْ وَيُضْمِرُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، وَهُمْ يُبَيِّنُونَ كَذِباً التَّصْدِيقَ لَكُمْ بِالْإِسْتِثْمِ. «وَقَدْ خَرَجُوا بِهِ»، يَقُولُ: وَقَدْ خَرَجُوا بِالْكَفْرِ مِنْ عِنْدِكُمْ كَمَا دَخَلُوا بِهِ عَلَيْكُمْ، لَمْ يَرْجِعُوا بِمَجِيئِهِمْ إِلَيْكُمْ عَنْ كُفْرِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ، يظنون أن ذلك مِنْ فِعْلِهِمْ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ، جَهلاً مِنْهُمْ بِاللَّهِ. «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ»،

(١) اللحن هنا بمعنى التعريض والإيماء، عدولاً عن تصريح القول، وللحن معان مختلفة كما هو معروف.

يقول: والله أعلم بما كانوا - عند قولهم لكم بالاستهم: «آمنا بالله وبمحمد وصدقنا بما جاء به» - يكتُمون منهم، بما يُضْمِرُونَهُ من الكفر، بأنفسهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَرَأَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لِيَتَّسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾

تأويل ذلك: أَنَّ هؤلاء اليهود الذين وَصَفَهُم في هذه الآيات بما وصفهم به تعالى ذِكْرُهُ، يسارع كثير منهم في معاصي الله وخلاف أمره، ويتعدون حدوده التي حدَّ لهم فيما أحلَّ لهم وحرَّم عليهم، في أكلهم «الشَّحْتَ»، وذلك الرشوة التي يأخذونها من الناس على الحكم بخلاف حُكْمِ الله فيهم.

يقول الله تعالى ذكره: «لنَّس ما كانوا يعملون»، يقول: أقسم لنَّس العمل ما كان هؤلاء اليهود يعملون، في مسارعتهم في الإثم والعدوان، وأكلهم الشَّحْتَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتَ لِيَتَّسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هَلَّا يَنْهَى هؤلاء الذين يُسارعون في الإثم والعدوان وأكل الرشى في الحكم، من اليهود من بني إسرائيل، ربانيوهم وهم أئمتهم المؤمنون، وساستهم العلماء بسياستهم وأحبارهم، وهم علماؤهم وقوادهم. «عن قولهم الإثم» يعني: عن قول الكذب والزور، وذلك أنهم كانوا يحكمون فيهم بغير حكم الله، ويكتبون كتباً بأيديهم ثم يقولون: «هذا من حُكْمِ الله، وهذا من كتبه». يقول الله: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

وأما قوله: «وأكلهم السحت»، فإنه يعني به الرشوة التي كانوا يأخذونها على حُكْمِهِم بغير كتابِ الله لمن حَكَمُوا له به.

«لبس ما كانوا يصنعون»، وهذا قَسَمٌ من الله أقَسَمَ به، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أقسم: لبس الصنيع كان يصنع هؤلاء الربايون والأخبار، في تركهم نهْي الذين يُسارعون منهم في الإثم والعدوان وأكل السحت، عما كانوا يفعلون من ذلك.

وكان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشدّ توبيخاً للعلماء من هذه الآية ولا أخوف عليهم منها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا إِمَّا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن جرأة اليهود على رَبِّهِمْ، ووصفهم إياه بما ليس من صفته، توبيخاً لهم بذلك، وتعريفاً منه نبيه ﷺ قديم جَهْلِهِمْ واغترابهم به، وإنكارهم جميع جميل أياديه عندهم، وكثرة صَفْحِهِ عنهم وعفوه عن عظيم إجرامهم. واحتجاجاً لنبيه محمد ﷺ بأنه له نبيٌّ مبعوثٌ ورسولٌ مُرْسَلٌ: أن كانت هذه الأنبياء التي أنبأهم بها كانت من خفي علومهم ومكنونها التي لا يعلمها إلا أخبارهم وعلماؤهم دون غيرهم من اليهود، فضلاً عن الأمة الأمية من العرب الذين لم يقرأوا كتاباً، ولا وَعَوْا من علوم أهل الكتاب علماء، فأطلع الله على ذلك نبيه محمداً ﷺ، ليقرّر عندهم صدقه، ويقطع بذلك حجتهم.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وقالت اليهود»، من بني إسرائيل. «يد الله مغلولة»، يعنون: أن خير الله مُمَسَّكٌ وعطاءه محبوسٌ عن الاتساع عليهم، كما قال تعالى

ذَكَرَهُ فِي تَأْدِيبِ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

ولأنما وصف تعالى ذِكْرَهُ «اليد» بذلك، والمعنى العطاء، لأنَّ عطاء الناس وبذل معروفهم الغالب بأيديهم. فجرى استعمال الناس في وصف بعضهم بعضاً، إذا وصفوه بـجودٍ وكرمٍ، أو ببخلٍ وشحٍّ وضيقٍ، بإضافة ما كان من ذلك من صفة الموصوف إلى يديه، ومثل ذلك من كلام العرب في أشعارها وأمثالها أكثر من أن يُحصى. فخطبهم الله بما يتعارفونه ويتحاورونه بينهم في كلامهم فقال: «وقالت اليهود يدُ الله مغلولة»، يعني بذلك: أنهم قالوا: إنَّ الله يبخلُ علينا، ويمنعنا فضله فلا يُفضل، كالمغلولة يده الذي لا يقدر أن يبسطها بعطاءٍ ولا بذلٍ معروف، تعالى الله عما قالوا، أعداء الله! فقال الله مكذبهم ومخبرهم بسخطه عليهم: «غُلَّتْ أيديهم»، يقول: أمسكت أيديهم عن الخيرات، وقُبِضَتْ عن الانبساط بالعطيات. «ولُعِنُوا بما قالوا»، وأبعدوا من رحمة الله وفضله بالذي قالوا من الكفر، وافتروا على الله ووصفوه به من الكذب والإفك. «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ»، يقول: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ بالبذل والإعطاء وأرزاق عباده وأقوات خلقه، غير مغلولتين ولا مقبوضتين. «ينفقُ كيف يشاء»، يقول: يعطي هذا، ويمنع هذا فيقتَر عليه.

وأما قوله: «ينفقُ كيف يشاء»، يقول: يرزق كيف يشاء.

واختلف أهل الجدل^(١) في تأويل قوله: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ.

فقال بعضهم: عَنَى بذلك: نِعْمَتَاهُ. وقال: ذلك بمعنى: «يَدُ الله على خلقه»، وذلك نِعْمَتُهُ عليهم. وقال: إِنَّ الْعَرَبَ تقول: «لك عندي يدٌ»، يعنون بذلك: نعمة.

(١) يعني: علماء الكلام.

وقال آخرون منهم: عَنَى بِذَلِكَ الْقُوَّةَ. وقالوا: ذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي﴾ [ص: ٤٥].

وقال آخرون منهم: بَلْ «يَدُهُ»، مُلْكُهُ. وقال: معنى قوله: «وقالت اليهود يد الله مغلولة»، مُلْكُهُ وَخَزَائِنُهُ.

وقالوا: وذلك كقول العرب للمملوك: «هُوَ مُلْكُ يَمِينِهِ»، و«فُلَانٌ بِيَدِهِ عُقْدَةُ نِكَاحٍ فُلَانَةٍ»، أي يملك ذلك، وكقول الله تعالى ذَكَرَهُ: ﴿فَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾، [المجادلة: ١٢].

وقال آخرون منهم: بَلْ «يَدِ اللَّهِ» صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، هِيَ يَدٌ، غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِجَارِحَةٍ كَجَوَارِحِ بَنِي آدَمَ.

قالوا: وذلك أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ أَخْبَرَ عَنْ خُصُوصِهِ آدَمَ بِمَا خَصَّهُ بِهِ مِنْ خَلْقِهِ إِيَّاهُ بِيَدِهِ.

قالوا: ولو كان معنى «اليد»، النعمة، أو القوة، أو الملك، ما كان لخصوصه آدَمَ بِذَلِكَ وَجْهٌ مَفْهُومٌ، إِذْ كَانَ جَمِيعُ خَلْقِهِ مَخْلُوقِينَ بِقُدْرَتِهِ، وَمَشِيتُهُ فِي خَلْقِهِ نِعْمَةٌ، وَهُوَ لَجَمِيعِهِمْ مَالِكٌ.

قالوا: وَإِذْ كَانَ تَعَالَى ذَكَرَهُ قَدْ خَصَّ آدَمَ بِذِكْرِهِ خَلْقَهُ إِيَّاهُ بِيَدِهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ عِبَادِهِ، كَانَ مَعْلُومًا أَنَّهُ إِنَّمَا خَصَّهُ بِذَلِكَ لِمَعْنَى بِهِ فَارَقَ غَيْرَهُ مِنْ سَائِرِ الْخَلْقِ.

قالوا: وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، بَطَلَ قَوْلُ مَنْ قَالَ: معنى «اليد» مِنْ اللَّهِ، الْقُوَّةُ وَالنِّعْمَةُ أَوْ الْمَلِكُ، فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

قالوا: وَأُخْرَى أَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ قَالِ الزَّاعِمُونَ أَنَّ: «يَدِ اللَّهِ» فِي قَوْلِهِ: «وقالت اليهود يد الله مغلولة»، هِيَ نِعْمَتُهُ، لَقِيلَ: «بَلْ يَدُهُ مَبْسُوطَةٌ»، وَلَمْ يَقُلْ: «بَلْ يَدَاهُ»، لِأَنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَى كَثْرَةً. وَبِذَلِكَ جَاءَ التَّنْزِيلُ، يَقُولُ اللَّهُ

تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤ / والنحل: ١٨].

قالوا: ولو كانت نعمتين، كانتا محصاتين.

قالوا: فَإِنْ ظَنَّ ظَانٌّ أَنَّ النعمتين بمعنى النعمِ الكثيرة، فذلك منه خطأ، وذلك أَنَّ العربَ قد تخرج الجميعَ بلفظِ الواحد لأداء الواحد عن جميعِ جنسه، وذلك كقول الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢] وكقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾، [الحجر: ٢٦] وقوله: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]، قال: فلم يُرَدِّ بـ «الإنسان» و«الكافر» في هذه الأماكن إنسانَ بعينه، ولا كافرٌ مُشارٌ إليه حاضر، بل عَنَى به جميعُ الإنسِ وجميعُ الكفارِ، ولكن الواحد أدَّى عن جنسه، كما تقولُ العربُ: «ما أَكْثَرَ الدِّرْهَمَ في أيدي الناس»، وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ﴾، معناه: وكان الذين كفروا.

قالوا: فاما إذا ثُنِيَ الاسمُ، فلا يؤدي عن الجنس، ولا يؤدي إلا عن اثنين بأعيانهما دونَ الجميعِ ودونَ غيرهما.

قالوا: وخطأ في كلام العرب أن يقال: «ما أَكْثَرَ الدرهمين في أيدي الناس»، بمعنى: ما أَكْثَرَ الدراهم في أيديهم.

قالوا: وذلك أن الدرهم إذا ثُنِيَ لا يؤدي في كلامها إلا عن اثنين بأعيانهما.

قالوا: وغيرُ محالٍ: «ما أَكْثَرَ الدرهمَ في أيدي الناس»، و«ما أَكْثَرَ الدراهم في أيديهم»، لأن الواحد يؤدي عن الجميع.

قالوا: ففي قول الله تعالى: «بل يدها مبسوطتان»، مع إعلامه عباده أَنَّ نِعْمَتَهُ لَا تُحْصَى، مع ما وصفنا من أنه غيرُ معقولٍ في كلام العرب أن اثنين يُؤَدِّيَانِ عن الجميع - ما ينبئُ عن خطأ قول مَنْ قال: معنى «اليد»، في هذا

الموضع، النعمة، وصحة قول مَنْ قال: إن «يد الله»، هي له صفة.
قالوا: وبذلك تظاهرت الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ، وقال به العلماء وأهل التأويل.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
طُغْيَانًا وَكُفْرًا

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنبيه محمدٍ ﷺ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَطْلَعْنَاكَ عَلَيْهِ مِنْ خَفِيِّ
أُمُورِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ، مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا عُلَمَاؤُهُمْ وَأَحْبَارُهُمْ، احتجاجاً عليهم
لصحة نبوتك، وقطعاً لِعُدْرِ قَائِلٍ مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ: «ما جاءنا من بشير ولا نذير»:
«وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكُفراً». يعني بـ «الطغيان»:
الغلو في إنكار ما قد عَلِمُوا صحته من نبوة محمدٍ ﷺ والتماذي في ذلك.
«وكُفراً»، يقول: ويزيدهم مع غُلُوِّهم في إنكار ذلك، جحودهم عظمة الله
وصفهم إياه بغير صفته، بَأَنْ يَنْسُبُوهُ إِلَى الْبُخْلِ، ويقولوا: «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ».
وإنما أَعْلَمَ تَعَالَى ذِكْرُهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنَّهُمْ أَهْلُ عُتُوٍّ وَتَمَرُّدٍ عَلَى رَبِّهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا
يُذْعِنُونَ لِحَقٍّ وَإِنْ عَلِمُوا صحته، ولكنهم يعاندونه، يُسَلِّي بِذَلِكَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ
عن الموجدة بهم في ذهابهم عن الله، وتكذيبهم إياه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»،
بين اليهود والنصارى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَاَهَا اللَّهُ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: كلما جمع أمرهم على شيء فاستقام واستوى، فأرادوا مناهضة مَنْ نَاوَاهُمْ، شَتَّهَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وأفسده، لسوءِ فِعَالِهِمْ وَخُبَّتِ نِيَاتِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: ويعمل هؤلاء اليهود والنصارى بمعصية الله، فيكفرون بآياته، ويكذبون رُسُلَهُ، ويخالقون أَمْرَهُ ونهيه، وذلك سَعِيُهُمْ فيها بالفساد. «والله لا يحب المفسدين»، يقول: والله لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ عَامِلًا بِمَعَاصِيهِ فِي أَرْضِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا

لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «ولو أن أهل الكتاب»، وهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى. «آمنوا بالله وبرسوله محمد ﷺ، فصَدَّقُوهُ وَاتَّبَعُوهُ وما أنزل عليه. «واتقوا» مَانَهَاكُمْ اللَّهُ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ. «لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ»، يقول: مَحَوْنَا عَنْهُمْ ذُنُوبَهُمْ فَقَطَّعْنَا عَنْهَا، وَلَمْ نَقْضَحْهُمْ بِهَا. «ولأدخلناهم جنات النعيم»، يقول: ولأدخلناهم بسَاتِينَ يَنْعَمُونَ فِيهَا فِي الْآخِرَةِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ

إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ

يعني تعالى ذكّره بقوله: «ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل»، ولو أنهم عملوا بما في التوراة والإنجيل «وما أنزل إليهم من ربهم»، يقول: وعملوا بما أنزل إليهم من ربهم من الفرقان الذي جاءهم به محمد ﷺ.

فإن قال قائل: وكيف يُقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إلى محمد ﷺ، مع اختلاف هذه الكتب، ونسخ بعضها بعضاً؟

قيل: إنها وإن كانت كذلك في بعض أحكامها وشرائعها، فهي متفقة في الأمر بالإيمان برُسل الله، والتصديق بما جاءت به من عند الله. فمعنى إقامتهم التوراة والإنجيل وما أنزل إلى محمد ﷺ: تصديقهم بما فيها، والعمل بما هي متفقة فيه، وبكل واحد منها في الحين الذي فرض العمل به.

وأما معنى قوله: «لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم»، فإنه يعني: لأنزل الله عليهم من السماء قُطُرًا، فأنبت لهم به الأرض حَبًّا ونباتًا، فأخرج ثمارها.

وأما قوله: «ومن تحت أرجلهم»، فإنه يعني تعالى ذكّره: لأكلوا من بركة ماتحت أقدامهم من الأرض، وذلك ما تُخرجه الأرض من حَبِّها ونباتها وثمارها وسائر ما يؤكل مما تخرجه الأرض.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا

يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

يعني تعالى ذكّره بقوله: «منهم أمة»، منهم جماعة. «مقتصدة»، يقول: مقتصدة في القول في عيسى بن مريم، قائلة فيه الحق أنه رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه، لا غالبية قائلة: إنه ابن الله، تعالى الله عما قالوا

من ذلك، ولا مقصرة قائلة: هو لغير رِشْدَةٍ. «وكثير منهم»، يعني: من بني إسرائيل من أهل الكتاب اليهود والنصارى. «ساء ما يعملون»، يقول: كثير منهم سيء عملهم، وذلك أنهم يكفرون بالله، فتكذب النصارى بمحمد ﷺ، وتزعم أن المسيح ابن الله وتكذب اليهود بيسى وبمحمد صلى الله عليه وسلم. فقال الله تعالى فيهم دائماً لهم: «ساء ما يعملون»، في ذلك من فعلهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْغِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾

وهذا أمر من الله تعالى ذكَّره نبيه محمداً ﷺ، بإبلاغ هؤلاء اليهود والنصارى من أهل الكتابين الذين قَصَّ تعالى ذكَّره قصصهم في هذه السورة، وذكر فيها معانيهم وخُبَّتْ أديانهم، واجترأهم على ربهم، وتوَّبههم على أنبيائهم، وتبديلهم كتابه، وتحريفهم إياه، ورداءة مطاعهم ومآكلهم - وسائر المشركين غيرهم، ما أنزل عليه فيهم من معانيهم، والإزراء عليهم، والتقصير بهم، والتهجين لهم، وما أمرهم به ونهاهم عنه، وأن لا يُشعر نفسه خذراً منهم أن يصيبوه في نفسه بمكروه ما قام فيهم بأمر الله، ولا جزعاً من كثرة عددهم وقلة عَدَدِ مَنْ معه، وأن لا يتقي أحداً في ذات الله، فإن الله تعالى ذكَّره كافيهِ كُلِّ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، ودافع عنه مكروه كل مَنْ يبغي مكروهه. وأعلمه تعالى ذكَّره أنه إن قصُرَ عن إبلاغ شيء مما أنزل إليه إليهم، فهو في تركه تبليغ ذلك - وإن قلَّ ما لم يبلغ منه - فهو في عظيم ما ركب بذلك من الذَّنْبِ بمزلة لو لم يبلغ من تنزيله شيئاً.

ويعني بقوله: «والله يعصمك من الناس»، يَمْنَعُكَ من أن ينالوك بسوء.

وأما قوله: «إن الله لا يهدي القوم الكافرين»، فإنه يعني: إن الله لا يوفق للبرشد مَنْ حاد عن سبيل الحق، وجارَ عن قصد السبيل، وجَحَدَ ما جتته به من عند الله، ولم يَنْتِه إلى أمر الله وطاعته فيما فَرَضَ عليه وأوجبه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَقٌّ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ

وهذا أمر من الله تعالى ذَكَرَهُ نَبِيُّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بإبلاغ اليهود والنصارى الذين كانوا بين ظهرائي مُهاجِرِهِ. يقول تعالى ذَكَرَهُ لَهُ: «قل»، يا محمد، لهؤلاء اليهود والنصارى. «يا أَهْلَ الْكِتَابِ»، التوراة والإنجيل. «لستم على شيء»، مما تَدْعُونَ أنكم عليه مما جاءكم به موسى ﷺ، معشر اليهود، ولا مما جاءكم به عيسى، معشر النصارى. «حتى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ»، مما جاءكم به محمد ﷺ من الفرقان، فتعملوا بذلك كله، وتؤمنوا بما فيه من الإيمان بمحمد ﷺ وتصدق به، وتقرؤا بأن كل ذلك من عند الله، فلا تكذبوا بشيء منه، ولا تُفَرِّقُوا بين رسل الله فتؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض، فإن الكفر بواحدٍ من ذلك كفرٌ بجميعه، لأن كُتِبَ اللهُ يُصَدِّقُ بعضها بعضاً، فمن كَذَبَ ببعضها فقد كَذَبَ بجميعها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

يعني تعالى ذَكَرَهُ بقوله: «وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكُفْراً»، وأقسم: لَيَزِيدَنَّ كثيراً من هؤلاء اليهود والنصارى الذين قَصَصَ قَصَصَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، الْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَتْهُ إِلَيْكَ، يا محمد. «وطغياناً»،

يقول: تجاوزاً وغلواً في التكذيب لك، على ماكانوا عليه لك من ذلك قبل نزول الفرقان «وكفراً»، يقول: وجحوداً لنبوتك.

وأما قوله: «فلا تأس على القوم الكافرين»، يعني بقوله: «فلا تأس»، فلا تحزن.

يقول تعالى ذكره لنبيه: لا تحزن، يا محمد، على تكذيب هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى من بني إسرائيل لك، فإن مثل ذلك منهم عادة وخلق في أنبيائهم، فكيف فيك؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى ذكره: إن الذين صدقوا الله ورسوله، وهم أهل الإسلام. «والذين هادوا»، وهم اليهود. «والصابغون»، وقد بينا أمرهم. «والنصارى من آمن منهم بالله واليوم الآخر»، فصدق بالبعث بعد الممات. «وعمل»، من العمل. «صالحاً»، لمعاده. «فلا خوف عليهم»، فيما قدموا عليه من أهوال القيامة. «ولا هم يحزنون»، على ماخلفوا وراءهم من الدنيا وعيشها، بعد معاينتهم ما أكرمهم الله به من جزيل ثوابه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ
وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَالِ إِنَّكُمْ رُسُلُ اللَّهِ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا
كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أقسم: لقد أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ على الإخلاصِ في توحيدنا، والعملِ بما أمرناهم به، والانتهاءِ عما نهيناهم عنه - وأرسلنا إليهم بذلك رُسُلًا، ووعدناهم على السِّنِّ رُسُلَنَا إليهم على العملِ بطاعتنا الجزيلِ من الثواب، وأوعدناهم على العملِ بمعصيتنا الشديدَ من العقابِ كلما جاءهم رسولٌ لنا بما لا تشتهيهِ نفوسهم ولا يوافقُ محبتهم، كَذَبُوا منهم فريقاً، ويقتلون منهم فريقاً، نقضاً لميثاقنا الذي أخذناه عليهم، وجرأةً علينا وعلى خلافِ أمرنا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَحَسِبُوا أَنَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

يقول تعالى: وَظَنَّ هَؤُلَاءِ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ الَّذِينَ وَصَفَ تَعَالَى ذِكْرُهُ صِفَتَهُمْ: أنه أخذ ميثاقهم: وأنه أرسل إليهم رسلًا، وأنهم كانوا كلما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم كَذَبُوا فريقاً وقتلوا فريقاً - أَنْ لَا يَكُونَ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ ابْتِلَاءٌ وَاختِبَارٌ بالشَّدَائِدِ مِنَ الْعُقُوبَاتِ بما كانوا يفعلون. «فَعَمُوا وَصَمُوا»، يقول: فَعَمُوا عَنِ الْحَقِّ وَالْوَفَاءِ بِالْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذْتُهُ عَلَيْهِمْ، مِنْ إِخْلَاصِ عِبَادَتِي، وَالْإِنْتِهَاءِ إِلَى أَمْرِي وَنَهْيِي، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِي، بِحَسْبَانِهِمْ ذَلِكَ وَظَنُّهُمْ. «وصموا» عنه ثُمَّ تَبَتْ عَلَيْهِمْ. يقول: ثُمَّ هَدَيْتُهُمْ بِلُطْفٍ مِنِّي لَهُمْ حَتَّى أَتَابُوا وَرَجَعُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ مَعَاصِيٍّ وَخِلَافِ أَمْرِي وَالْعَمَلِ بِمَا أَكْرَهُهُ مِنْهُمْ، إِلَى الْعَمَلِ بِمَا أَحَبُّهُ، وَالْإِنْتِهَاءِ إِلَى طَاعَتِي وَأَمْرِي وَنَهْيِي. «ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ»، يقول: ثُمَّ عَمُوا أَيْضاً عَنِ الْحَقِّ وَالْوَفَاءِ بِمِيثَاقِي الَّذِي أَخَذْتُهُ عَلَيْهِمْ: مِنَ الْعَمَلِ بِطَاعَتِي، وَالْإِنْتِهَاءِ إِلَى أَمْرِي، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيٍّ. «وصموا كَثِيرٌ مِنْهُمْ»، يقول: عَمِيَ كَثِيرٌ مِنَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كُنْتُ أَخَذْتُ مِيثَاقَهُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بِاتِّبَاعِ رُسُلِي وَالْعَمَلِ بِمَا أُنْزِلْتُ إِلَيْهِمْ مِنْ كِتَابِي عَنِ الْحَقِّ وَصَمُوا، بَعْدَ تَوْبَتِي عَلَيْهِمْ، وَاسْتِقْذَازِي

لِيَاھِم مِّنَ ھَلَكَةِ . «واللّٰھ بصیرٌ بما يعملون»، یقول «بصیر»، فیری أعمالھم خیرھا وشرھا، فیجازیھم یومَ القیامة بجمیعھا، إن خیراً فخیراً، وإن شراً فشرّاً .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِيْ اِسْرَءِيْلَ اَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّيْ وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكّره عن بعضٍ مافتن به الإسرائيليين الذين أخبر عنهم أنهم حسبوا أن لا تكون فتنة. يقول تعالى ذكّره: فكان مما ابتليتهم واختبرتهم به، فنقضوا فيه ميثاقى، وغيروا عهدي الذي كنت أخذته عليهم بأن لا يعبدوا سواى، ولا يتخذوا ربّاً غيرى، وأن يؤحدوني، ويتهوا إلى طاعتي - عبدي عيسى بن مريم، فإني خلقتّه، وأجريت على يده نحو الذي أنجيت على يد كثير من رسلي، فقالوا كفراً منهم: «هو الله» .

وهذا قول اليعقوبية من النصارى عليهم غضب الله .

يقول الله تعالى ذكّره: فلما اختبرتهم وابتليتهم بما ابتليتهم به، أشركوا بي، وقالوا لخلقى من خلقى، وعبد مثلهم من عبيدى، وبشرنحوهم معروف نسبه وأصله، مولود من البشر، يدعوهم إلى توحيدى، ويأمرهم بعبادتي وطاعتي، ويقرّ لهم بأنى ربه وربهم، وينهاهم عن أن يشركوا بى شيئاً: «هو إلههم»، جهلاً منهم بالله وكفراً به، ولا ينبغي لله أن يكون والداً ولا مولوداً .

وعني بقوله: «وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم»، يقول: اجعلوا العبادة والتذلل للذي له يذل كل شيء، وله يخضع كل موجود. «ربى وربكم»، يقول: مالكي ومالككم، وسيدي وسيدكم، الذي خلقتى

وإياكم. «إِنَّ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، أَنْ يَسْكُنَهَا فِي الْآخِرَةِ. «وَمَا لَهُ النَّارُ»، يقول: ومرجعه ومكانه - الذي يأوي إليه ويصير في معاده، مَنْ جَعَلَ لِلَّهِ شَرِيكاً فِي عِبَادَتِهِ - نَارُ جَهَنَّمَ. «وَمَا لِلظَّالِمِينَ»، يقول: وليس لِمَنْ فَعَلَ غيرَ مَا أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ، وَعَبَدَ غَيْرَ الَّذِي لَهُ عِبَادَةُ الْخَلْقِ. «مَنْ أَنْصَارُ»، ينصرونه يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ اللَّهِ، فينقذونه منه إِذَا أوردَهُ جَهَنَّمَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

وهذا أيضاً خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن فريقٍ آخرٍ من الإسرائيليين الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ فِي الْآيَاتِ قَبْلَ: أَنَّهُ لَمَّا ابْتَلَاهُمْ بَعْدَ حِسْبَانِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُبْتَلُونَ وَلَا يُفْتَنُونَ، قَالُوا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَشَرَكُوا: «اللَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ».

وهذا قولٌ كَانَ عَلَيْهِ جَمَاهِيرُ النَّصَارَى قَبْلَ افْتِرَاقِ الْبَعْقَوِيَّةِ وَالْمَلِكِيَّةِ وَالنَّسْطُورِيَّةِ. كَانُوا فِيهَا بَلَغْنَا يَقُولُونَ: «الْإِلَهُ الْقَدِيمُ جَوْهَرٌ وَاحِدٌ يَعْمُ ثَلَاثَةٌ أَقَانِيمَ: أَباً وَالِداً غَيْرَ مَوْلُودٍ، وَابْناً مَوْلُوداً غَيْرَ وَالِدٍ، وَزَوْجاً مُتَّبَعَةً بَيْنَهُمَا».

يقول الله تعالى ذِكْرُهُ، مُكَذِّباً لَهُمْ فِيمَا قَالُوا مِنْ ذَلِكَ: «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ»، يقول: مَا لَكُمْ مَعْبُودٌ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِلَّا مَعْبُودٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ بِوَالِدٍ لَشَيْءٍ وَلَا مَوْلُودٌ، بَلْ هُوَ خَالِقُ كُلِّ وَالِدٍ وَمَوْلُودٍ. «وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ»، يقول: إِنْ لَمْ يَنْتَهُ قَائِلُو هَذِهِ الْمَقَالَةِ عَمَّا يَقُولُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ: «اللَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ». «لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، يقول: لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ الْمَقَالَةَ الْآخَرَى: «هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ»، لِأَنَّ الْفَرِيقَيْنِ كِلَاهُمَا كَفَرَةٌ مُشْرِكُونَ، فَلِذَلِكَ رَجَعَ فِي الْوَعِيدِ بِالْعَذَابِ إِلَى

العموم، ولم يقل: «ليمسئهم عذاب أليم»، لأن ذلك لو قيل كذلك، صار الوعيد من الله تعالى ذِكْرُهُ خاصًا لقائل القول الثاني، وهم القائلون: «والله ثالث ثلاثة»، ولم يدخل فيهم القائلون: «المسيح هو الله». فَعَمَّ بالوعيد تعالى ذِكْرُهُ كُلَّ كافرٍ، ليعلم المخاطبون بهذه الآيات أن وعيد الله قد شمل كلا الفريقين من بني إسرائيل، وَمَنْ كان من الكفار على مِثْلِ الذي هُم عليه.

فإن قال قائل: وإن كان الأمر على ما وصفت، فعلى مَنْ عادت «الهاء والميم» اللتان في قوله: «منهم»؟

قيل: على بني إسرائيل.

فتأويل الكلام، إذ كان الأمر على ما وصفنا: وإن لم يتنه هؤلاء الإسرائيليون عما يقولون في الله من عظيم القول، ليمسئ الذين يقولون منهم: «إن المسيح هو الله»، والذين يقولون: «إن الله ثالث ثلاثة»، وكل كافر سَلَكَ سبيلهم - عذاب أليم، بكفرهم بالله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أفلا يرجع هذان الفريقان الكافران القائل أحدهما: «إن الله هو المسيح بن مريم»، والآخر القائل: «إن الله ثالث ثلاثة» عما قالوا من ذلك؛ ويتوبان مما قالوا ونطقا به من كفرهما، ويسألان رَبَّهُما المغفرة مما قالوا «والله غفور»، لذنوب التائبين من خَلْقِهِ، المنيين إلى طاعته بعد معصيتهم. «رحيم» بهم، في قبوله توبتهم ومراجعتهم إلى ما يحب مِمَّا يكره، فيصفح بذلك من فعلهم عما سَلَفَ من أجرامهم قبل ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : مَا أَلْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَّانِ الطَّعَامِ

وهذا خَبَرٌ من الله تعالى ذَكَرَهُ، احتجاجاً لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ على فَرْقِ النصارى في قولهم في المسيح .

يقول : مَكْذُوباً لِلْعَقُوبِيَّةِ فِي قِيلِهِمْ : «هو الله» والآخرين في قِيلِهِمْ : «هو ابن الله» : ليس القول كما قال هؤلاء الكفرة في المسيح، ولكنه ابنُ مَرْيَمَ ولَدته ولادةُ الأمهاتِ أبناءهن، وذلك من صِفَةِ البشر لا مِنْ صِفَةِ خَالِقِ البشر، وإنما هو الله رسولٌ كسائرِ رُسُلِهِ الذين كانوا قَبْلَهُ فمضوا وَخَلَوْا، أَجْرَى عَلَى يَدِهِ مَا شَاءَ أَنْ يَجْزِيَهُ عَلَيْهَا مِنَ الْآيَاتِ وَالْعِبرِ، حُجَّةٌ لَهُ عَلَى صِدْقِهِ، وَعَلَى أَنَّهُ اللَّهُ رَسُولٌ إِلَى مَنْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، كما أَجْرَى عَلَى أَيْدِي مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْعِبرِ، حُجَّةٌ لَهُمْ عَلَى حَقِيقَةِ صِدْقِهِمْ فِي أَنَّهُمْ لَهِمُ اللَّهُ رَسُلٌ . «وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرَهُ وَأُمُّ الْمَسِيحِ صِدِّيقَةٌ.

وقوله : «كأنا يأكلان الطعام»، خَبَرٌ من الله تعالى ذَكَرَهُ عَنِ الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ : أَنَّهُمَا كَانَا أَهْلَ حَاجَةٍ إِلَى مَا يَغْذُوهُمَا وَتَقُومُ بِهِ أَبْدَانُهُمَا مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ كسائرِ البشرِ من بني آدم، فَإِنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَغَيْرُ كَائِنٍ إِلَهًا، لِأَنَّ الْمُحْتَاجَ إِلَى الْغِذَاءِ قَوَامُهُ بغيرِهِ . وفي قَوَامِهِ بغيرِهِ وَحَاجَتُهُ إِلَى مَايَقِيمُهُ، دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى عَجْزِهِ . والعاجزُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَرْبُوبًا لَا رَبًّا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : أَنْظِرْ كَيْفَ بُنِيتُ لَهُمُ الْآيَاتِ

ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤَفِّكُونَ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : انظر، يا محمد، كيف نبينُ لهؤلاء

الْكُفْرَةَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. «الآيات»، وهي الأدلة، والأعلام والحجج على بُطُولِ مَا يَقُولُونَ فِي أَنْبَاءِ اللَّهِ، وَفِي فِرْيَتِهِمْ عَلَى اللَّهِ، وَأَدْعَائِهِمْ لَهُ وَلِدًا، وَشَهَادَتِهِمْ لِبَعْضِ خَلْقِهِ بِأَنَّهُ لَهُمْ رَبٌّ وَإِلَهٌ، ثُمَّ لَا يَرْتَدِعُونَ عَنْ كَذِبِهِمْ وَبَاطِلِ قِيلِهِمْ، وَلَا يَنْزَجِرُونَ عَنْ فِرْيَتِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ وَعَظِيمِ جَهْلِهِمْ، مَعَ وَرُودِ الْحَجَجِ الْقَاطِعَةِ عَذْرَهُمْ عَلَيْهِمْ. يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: «ثُمَّ انْظُرْ، يَا مُحَمَّدُ! أَنِّي يُؤْفَكُونَ»، يَقُولُ: ثُمَّ انْظُرْ، مَعَ تَبَيُّنِنَا لَهُمْ آيَاتِنَا عَلَى بُطُولِ قَوْلِهِمْ، أَيْ وَجْهِ يُصَرِّفُونَ عَنْ بَيَانِنَا الَّذِي نَبَيَّنُهُ لَهُمْ؟ وَكَيْفَ عَنِ الْهَدْيِ الَّذِي نَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ يَضِلُّونَ؟

وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِكُلِّ مُصْرُوفٍ عَنْ شَيْءٍ: «هُوَ مَأْفُوكٌ عَنْهُ». يَقَالُ: «وَقَدْ أَفَكْتُ فَلَانًا عَنْ كَذَا»، أَيْ: صَرَفْتُهُ عَنْهُ، «فَأَنَا أَفَكُهُ أَفْكَاءً»، وَهُوَ مَأْفُوكٌ. وَوَقَدْ أَفَكْتُ الْأَرْضَ، إِذَا صُرِفَ عَنْهَا الْمَطَرُ^(١).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا

يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

وَهَذَا أَيْضًا احْتِجَاجٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ عَلَى النَّصَارَى الْقَائِلِينَ فِي الْمَسِيحِ مَا وَصَفَ مِنْ قِيلِهِمْ فِيهِ قَبْلُ.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: «قُلْ»، يَا مُحَمَّدُ، لَهُؤُلَاءِ الْكُفْرَةُ مِنَ النَّصَارَى، الزَّاعِمِينَ أَنَّ الْمَسِيحَ رَبَّهُمْ، وَالْقَائِلِينَ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ - أَتَعْبُدُونَ سِوَى اللَّهِ الَّذِي يَمْلِكُ ضَرْكُمْ وَنَفْعَكُمْ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، وَهُوَ يَحْيِيكُمْ وَيَمِيتُكُمْ شَيْئًا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا؟ يُخْبِرُهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَنَّ الْمَسِيحَ الَّذِي زَعَمَ مَنْ زَعَمَ مِنَ النَّصَارَى أَنَّهُ إِلَهٌ، وَالَّذِي زَعَمَ مِنْ زَعَمٍ مِنْهُمْ

(١) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: ١٧٤/١ - ١٧٥.

أنه الله ابن، لا يملك لهم ضرراً يدفعه عنهم إن أحلّه الله بهم، ولا نفعاً يجلبه إليهم إن لم يقضيه الله لهم. يقول تعالى ذكره: فكيف يكون رباً وإلهاً من كانت هذه صفتة؟ بل الرب المعبود: الذي بيده كل شيء، والقادر على كل شيء. فليأه فاعبدوا وأخلصوا له العبادة، دون غيره من العجزة الذين لا ينفعونكم ولا يضرون.

وأما قوله: «والله هو السميع العليم»، فإنه يعني تعالى ذكره بذلك: «والله هو السميع»، لاستغفارهم لو استغفروهم من قبلهم ما أخبر عنهم أنهم يقولونه في المسيح، ولغير ذلك من منطقهم ومنطق خلقه. «العليم»، بتوبتهم لو تابوا منه، وبغير ذلك من أمورهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٦﴾

وهذا خطاب من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ. يقول تعالى ذكره: «قُلْ»، يا محمد، لهؤلاء الغالية من النصارى في المسيح «يا أهل الكتاب»، يعني بـ «الكتاب»، الإنجيل «لا تغلوا في دينكم»، يقول: لا تفرطوا في القول فيما تدبون به من أمر المسيح، فتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل، فتقولوا فيه: «هو الله»، أو: «هو ابنه»، ولكن قولوا: «هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه». «ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً»، يقول: ولا تتبعوا أيضاً في المسيح أهواء اليهود الذين قد ضلوا قبلكم عن سبيل الهدى في القول فيه، فتقولون فيه كما قالوا: «هو لغير رشفة»، وتبهتوا أمه كما بهتوها بالفرية وهي صديقة، «وأضلوا كثيراً»، يقول تعالى ذكره: «وأضل هؤلاء اليهود

كثيراً من الناس، فحادوا بهم عن طريق الحق، وحملوهم على الكفر بالله والتكذيب بالمسيح. «وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ»، يقول: وَضَلُّ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ عَنْ قَصْدِ الطَّرِيقِ، وركبوا غير محجة الحق.

ولنما يعني تعالى ذِكْرَهُ بِذَلِكَ، كُفِّرَهُم بِاللَّهِ، وتكذَّبَهُم رُسُلُهُ: عيسى ومحمداً ﷺ، وذهابهم عن الإيمانِ وَيُعَذِّبُهُمْ مِنْهُ. وذلك كان ضلالهم الذي وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ



يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، قُلْ لِهَؤُلَاءِ النَّصَارَى الَّذِينَ وَصَفَ تَعَالَى ذِكْرَهُ صِفَتَهُمْ: لَا تَغْلُوا فَتَقُولُوا فِي الْمَسِيحِ غَيْرَ الْحَقِّ، وَلَا تَقُولُوا فِيهِ مَا قَالَتِ الْيَهُودُ الَّذِينَ قَدْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ، دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ.

فتأويل الكلام إِذَا: لَعَنَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا - مِنَ الْيَهُودِ - بِاللَّهِ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، وَلَعِنَ وَاللَّهُ آبَاؤَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، بِمَا عَصَوْا اللَّهَ فَخَالَفُوا أَمْرَهُ. «وَكَانُوا يَعْتَدُونَ»، يقول: وَكَانُوا يَتَجَاوَزُونَ حَدُودَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٨﴾

تأويل الكلام: كَانُوا لَا يَتَنَهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ أَنْتَوُ. «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ».

وهذا قَسَمَ من الله تعالى ذِكْرَهُ يقول: أقسم: لِبُئْسِ الْفَعْلُ كانوا يفعلون، في تركهم الانتهاء عن معاصي الله تعالى ذِكْرَهُ، وركوب محارمه، وقتل أنبياء الله ورسله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي
الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «ترى»، يامحمد، كثيراً من بني إسرائيل. «يتولّون»
الذين كفروا»، يقول: يتولّون المشركين من عبدة الأوثان، ويعادون أولياء الله
ورسله. «لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: أقسم: لبئس الشيء
الذي قدّمت لهم أنفسهم أمامهم إلى معادهم في الآخرة. «أَنْ سَخِطَ اللَّهُ
عليهم»، يقول: قدّمت لهم أنفسهم سَخِطَ اللَّهُ عليهم بما فعلوا.

«وفي العذاب هم خالدون»، يقول: وفي عذاب الله يوم القيامة. «هم
خالدون»، دائم مقامهم ومكثهم فيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا
أُنزِلَ إِلَيْهِمَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَدَسِقُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: ولو كان هؤلاء الذين يتولّون الذين كفروا من بني
إسرائيل «يؤمنون بالله والنبي»، يقول: يُصَدِّقُونَ الله وَيُقِرُّونَ به وَيُوحِّدُونَهُ،
ويصدقون نبيه محمداً ﷺ بأنه الله نبي مبعوث، ورسول مرسل. «وما أنزل إليه»،
يقول: وَيُقِرُّونَ بما أنزل إلى محمد ﷺ من عند الله من آي القرآن. «ما
اتخذوهم أولياء»، يقول: ما اتَّخَذُوهُمْ أَصْحَابًا وَأَنْصَارًا من دون المؤمنين.

«ولكن كثيراً منهم فاسقون»، يقول: ولكن كثيراً منهم أهل خروج عن طاعة الله إلى معصيته، وأهل استحلال لما حرم الله عليهم من القول والفعل.

القول في تأويل قوله تعالى: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهَبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لَتَجِدَنَّ، يا محمد، أشدَّ الناسِ عداوةً للذين صدَّقوك وأتبعوك وصدَّقوا بما جئتكم به من أهل الإسلام. «اليهود والذين أشركوا»، يعني: عبدة الأوثان الذين اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله. «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا»، يقول: وتجدن أقرب الناس مودةً ومحبةً.

«وللذين آمنوا» يقول: للذين صدَّقوا الله ورسوله محمدًا ﷺ «الذين قالوا: إِنَّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون»، عن قبول الحق واتباعه والإذعان به.

وأما قوله: تعالى: «ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً»، فإنه يقول: قربت مودة هؤلاء الذين وصف الله صفتهم للمؤمنين، من أجل أن منهم قسيسين ورهباناً.

و«القسيسون» جمع «قسيس». وقد يجمع «القسيس»، «قسوساً»، لأن «القس» و«القسيس»، بمعنى واحد.

وأما «الرهبان»، فإنه يكون واحداً وجمعاً. فأما إذا كان جمعاً، فإن واحدهم يكون «راهباً»، ويكون «الراهب»، حينئذٍ «فاعلاً» من قول القائل:

«رَهَبَ الله فلان»، بمعنى خَافَهُ، «يرهبه رَهْباً وَرَهْباً»، ثم يجمع «الراهب»، «رهبان» مثل «راكب» و«ركبان» و«فارس» و«فرسان».

(وتأويل ذلك): إِنَّ الله تعالى ذَكَرَهُ أَخْبَرَ عن النفر الذين أثنى عليهم من النصارى بقرب مَوَدَّتِهِمْ لأهل الإيمان بالله ورسوله، أَنَّ ذلك إنما كان منهم لأنَّ منهم أهل اجتهاد في العبادة، وترهب في الديارات والصوامع، وَأَنَّ منهم علماء يكتبهم وأهل تلاوة لها، فهم لا يعدون من المؤمنين لتواضعهم للحقِّ إذا عَرَفُوهُ، ولا يستكبرون عن قَبُولِهِ إذا تَبَيَّنُوهُ، لأنهم أهل دين واجتهاد فيه، ونصيحة لأنفسهم في ذاتِ الله، وليسوا كاليهود الذين قد دَرَبُوا بقتل الأنبياء والرسول، ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذَكَرَهُ: وإذا سمع هؤلاء الذين قالوا: «إنا نصارى» الذين وصفتُ لك، يامحمدُ، صِفَتَهُمْ أنك تجدهم أقرب الناس مودةً للذين آمنوا ما أنزل إليك من الكتابِ يُتلى «ترى أعينهم تفيض من الدمع».

«وفيض العين من الدمع»، امتلاؤها منه، ثم سِيلَانُهُ منها، كفيضِ النهر من الماء، وفيضِ الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه.

وقوله: «مما عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ»، يقول: فيض دموعهم، لمعرفةهم بأنَّ الذي يُتلى عليهم من كتابِ الله الذي أنزله إلى رسول الله حقٌّ.

ويعني بقوله تعالى ذَكَرَهُ: «يقولون ربنا آمنا»، أنهم يقولون: ياربنا، صَدَّقْنَا لما سمعنا ما أنزلته إلى نَبِيِّكَ محمدٍ ﷺ من كتابك، وأقرَرْنَا به أنه من

عندك، وأنه الحق لا شك فيه.

وأما قوله: «فاكتبنا مع الشاهدين»، يقول: فاجعلنا مع الشاهدين، وأثبتنا معهم في عذابهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكَّره عن هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، أنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى رسوله محمد ﷺ من كتابه، آمنوا به وصدَّقوا كتاب الله، وقالوا: «ما لنا لا نُؤْمِنُ بالله»، يقول: لا نُقِرُّ بوحدانية الله. «وما جاءنا من الحق»، يقول: وما جاءنا من عند الله من كتابه وآيٍ تنزيله، ونحن نطمعُ بإيماننا بذلك أن يُدْخِلَنَا ربُّنا مع القوم الصالحين.

يعني بـ «القوم الصالحين»، المؤمنين بالله، المطيعين له، الذين استحقوا من الله الجنة بطاعتهم إياه.

وإنما معنى ذلك: ونحن نطمعُ أن يُدْخِلَنَا ربُّنا مع أهل طاعته مداخلهم من جنته يوم القيامة، ويلحق منازلنا بمنزلهم، ودرجاتنا بدرجاتهم في جناته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَنْبِئُهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾

يقول تعالى ذكَّره: فجزاهم الله بقولهم: «رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مع الشاهدين. وما لنا لا نُؤْمِنُ بالله وما جاءنا من الحقِّ ونطمعُ أن يُدْخِلَنَا ربُّنا مع القوم الصالحين». «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ»، يعني: بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار. «خَالِدِينَ فِيهَا»، يقول: دائماً فيها مُكْتَبُهُم، لا يخرجون منها

وَلَا يُخَوِّلُونَ عَنْهَا. «وذلك جزاء المحسنين»، يقول: وهذا الذي جَزِيَتْ هؤلاء القائلين بما وصفتُ عنهم من قيلهم على ما قالوا، من الجنات التي هم فيها خالدون، جزاء كل محسنٍ في قيله وفعله.

و«إحسان المحسن». في ذلك، أَنْ يُوَحِّدَ اللهُ توحيداً خالصاً محضاً لا شِرْكَ فيه، ويقرَّ بأنبياءِ الله وما جاءت به من عندِ الله من الكتب، ويؤدِّي فرائضه، ويجتنب معاصيه. فذلك كمالُ إحسانِ المحسنين الذين قالَ اللهُ تعالى ذِكْرَهُ: «جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى ذكره: وأما الذين جَحَدُوا توحيدَ الله، وأنكروا نبوةَ محمدٍ ﷺ، وكذبوا بآياتِ كتابه، فإنَّ أولئك «أصحابُ الجحيم». يقول: هم سُكَّانُهَا واللابثون فيها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وأقروا بما جاءهم به نبيهم ﷺ أَنَّهُ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ. «لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ»، يعني: بـ«الطيبات»، اللذيات التي تشتهيها النفوس، وتميلُ إليها القلوب، فتمنعوها إياها، كالذي فعله القسيسون والرهبان، فحَرَمُوا على أنفسهم النساءَ والمطاعمَ الطيبة، والمشاربَ اللذيذة، وحَبَسَ في الصوامع بعضهم أنفسهم، وسأَحَ في الأرض بعضهم. يقول تعالى ذِكْرَهُ: فلا تفعلوا أيُّها المؤمنون، كما فعل أولئك،

ولا تعتدوا حُدَّ الله الذي حُدَّ لكم فيما أحلَّ لكم وفيما حرَّم عليكم، فتجاوزوا حُدَّه الذي حُدَّه، فتخالفوا بذلك طاعته، فإنَّ الله لا يحبُّ من اعتدى حُدَّه الذي حُدَّه لِخَلْقِه، فيما أحلَّ لهم وحرَّم عليهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، لهؤلاء المؤمنين الذين نهاهم أَنْ يُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ: كُلُوا، أيها المؤمنون، مِنْ رِزْقِ اللَّهِ الذي رَزَقَكُمْ وأحلَّه لكم، حَلَالًا طَيِّبًا.

وأما قوله: «واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون»، فإنه يقول: وخافوا، أيها المؤمنون، أَنْ تعتدوا في حدودِه، فَتُحِلُّوا مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، وَتُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّ لَكُمْ، واحذروه في ذلك أَنْ تُخَالِفُوهُ، فينزل بكم سَخَطُه، أو تستوجبوا به عقوبته. «الذي أنتم به مؤمنون»، يقول: الذي أنتم بوحْدَانِيَّتِهِ مُقَرُّونَ، وبرُبُوبِيَّتِهِ مصدِّقون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ

يقول تعالى ذِكْرُه، للذين كانوا حرِّموا على أنفسهم الطَيِّبَاتِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وكانوا حرِّموا ذلك بِأَيْمَانٍ حَلَفُوا بِهَا، فنهاهم عَنْ تَحْرِيمِهَا وَقَالَ لَهُمْ: لَا يُؤَاخِذُكُمْ رَبُّكُمْ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ. واختلفت الْقِرَاءَةُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ.

فقرآته عامة قَرَأَ الحجاز وبعض البصريين: ﴿وَلَكِنْ يُوَاحِدُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْإِيمَانَ﴾، بتشديد «القاف»، بمعنى: وَكَذَّبْتُمْ الْإِيمَانَ وَرَدَّدْتُمُوهَا.

وقراه قَرَأَ الكوفيين: ﴿بِمَا عَقَّدْتُمُ الْإِيمَانَ﴾، بتخفيف «القاف»، بمعنى: أَوْجَبْتُمُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَعَزَمْتُ عَلَيْهَا قُلُوبَكُمْ.

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك، قراءة مَنْ قرأ بتخفيف «القاف».

وذلك أَنَّ الْعَرَبَ لَا تَكَادُ تَسْتَعْمَلُ «فَعَلْتُ» فِي الْكَلَامِ، إِلَّا فِيمَا يَكُونُ فِيهِ تَرَدُّدٌ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، مِثْلَ قَوْلِهِمْ: «شَدَّدْتُ عَلَى فُلَانٍ فِي كَذَا»، إِذَا كُرِّرَ عَلَيْهِ الشَّدَّةُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى. فَإِذَا أَرَادُوا الْخَبَرَ عَنْ فِعْلٍ مَرَّةً وَاحِدَةً قِيلَ: «شَدَّدْتُ عَلَيْهِ»، بِالتَّخْفِيفِ.

وقد أجمع الجميع لا خِلافَ بينهم: أَنَّ الْيَمِينَ الَّتِي تَجِبُ بِالْحِنْثِ فِيهَا الْكُفَّارَةُ، تَلْزَمُ بِالْحِنْثِ فِي حَلْفِ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنْ لَمْ يَكْررها الْحَالِفُ مَرَاتٍ. وَكَانَ مَعْلُومًا بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ مُؤَاخِذُ الْحَالِفِ الْعَاقِدِ قَلْبَهُ عَلَى حَلْفِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكْررها وَلَمْ يَرُدِّدْهُ.

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ لِتَشْدِيدِ «القاف» مِنْ «عَقَّدْتُمْ» وَجْهُ مَفْهُومٌ.

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ إِذَا: لَا يُوَاحِدُكُمْ اللَّهُ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، مِنْ أَيْمَانِكُمْ بِمَا لَعَنْتُمْ فِيهِ، وَلَكِنْ يُوَاحِدُكُمْ بِمَا أَوْجَبْتُمُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مِنْهَا، وَعَقَّدْتُمْ عَلَيْهِ قُلُوبَكُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ

اختلف أهل التأويل في «الهاء» التي في قوله: «فكفارت»، على ما هي عائدة، ومن ذكر ما؟

فقال بعضهم: هي عائدة على «ما» التي في قوله: «بما عقدتم الأيمان».

فمعنى الكلام على هذا التأويل: «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان»، فكفارة ما عقدتم منها إطعام عشرة مساكين.

وقال آخرون: «الهاء» في قوله: «فكفارت»، عائدة على «اللغو»، وهي كناية عنه. قالوا: وإنما معنى الكلام: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم إذا كفرتموه، ولكن يؤاخذكم إذا عقدتم الأيمان، فأقمتهم على المضي عليه بترك الحث والكفارة فيه. والإقامة على المضي عليه، غير جائزة لكم. فكفارة اللغو منها إذا حثتكم فيه، إطعام عشرة مساكين.

والذي هو أولى عندي بالصواب في ذلك، أن تكون «الهاء» في قوله: «فكفارت» عائدة على «ما» التي في قوله: «بما عقدتم الأيمان»، لما قدمنا فيما مضى قبل: أن من لزمته في يمينه كفارة وأخذ بها، غير جائز أن يقال لمن قد أخذ: «لا يؤاخذ الله باللغو». وفي قوله تعالى: «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم»، دليل واضح أنه لا يكون مؤاخذاً بوجه من الوجوه، من أخبرنا تعالى ذكره أنه غير مؤاخذه.

فإن ظن ظأن أنه إنما عني تعالى ذكره بقوله: «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم»، بالعقوبة عليها في الآخرة إذا حثتكم وكفرتم - إلا أنه لا يؤاخذكم بها في الدنيا بتكفير - فإن إخبار الله تعالى ذكره وأمره ونهيه في كتابه، على الظاهر العام عندنا، بما قد دللنا على صحة القول به في غير هذا الموضع، فأغنى

عن إعادته - دونَ الباطنِ العامِّ الذي لا دلالةَ على خصوصه في عقلٍ ولا خبر. ولا دلالةَ من عقلٍ ولا خبرٍ أنه عَنِ تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم»، بعضُ معاني المؤاخذهِ دونَ جَمِيعِها.

وإذ كان ذلك كذلك، وكان مَنْ لَزِمَتْهُ كَفَّارَةٌ في يَمِينٍ حنث فيها مؤاخِذٌ بها بعقوبةٍ في ماله عاجلة، كان معلوماً أنه غيرُ الذي أخبرنا تعالى ذِكْرُهُ أنه لا يؤاخذه بها.

وإذ كان الصحيح من التأويل في ذلك ما قلنا بالذي عليه دللنا، فمعنى الكلام إذاً: لا يؤاخذُكم اللهُ، أيها الناسُ، بلغو من القولِ والأيمان، إذا لم تَتَّعَمِدُوا بها معصيةَ الله تعالى ذِكْرُهُ ولا خِلافَ أمره، ولم تقصدوا بها إثمًا، ولكن يؤاخذكم بما تعدتم به الإثمَ، وأوجبتموه على أنفسكم، وعزمت عليه قلوبكم، ويكفر ذلك عنكم، فيغُطِّي على سيِّء ما كانَ منكم من كذبٍ وزورٍ قولٍ، ويمحوه عنكم فلا يتبعكم به ربكم. «إطعامُ عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «من أوسط ماتطعمون أهليكم»، من أَغْدَلِهِ.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: «من أوسط ماتطعمون أهليكم».

فقال بعضهم: معناه: من أَوْسَطِ مَا يُطْعَم من أجناسِ الطعامِ الذي يقتاتُه أهلُ بلدِ المُكْفَرِ، أهاليهم.

ثم اختلف قائلو ذلك في مبلغه.

فقال بعضهم: مبلغ ذلك، نصف صاعٍ من حنطة، أو صاعٍ من سائر الحبوب غيرها.

وقال آخرون: بل مبلغ ذلك من كُلِّ شيءٍ من الحبوب، مُدٌّ واحد.

وقال آخرون: بل ذلك غداء وعشاء.

وقال آخرون: إنما عَنَى بقوله: «من أوسطٍ ماتطعمون أهليكم»، من أوسطٍ مايطعم المكفّر أهله. قال: إن كان ممن يشيع أهله، أشيع المساكين العشرة. وإن كان ممن لا يُشيعهم لعجزه عن ذلك، أطعم المساكين على قدر ما يفعل من ذلك بأهله في عسره ويسره.

وأولى الأقوال في تأويل قوله: «من أوسطٍ ماتطعمون أهليكم» عندنا، قول مَنْ قال: «من أوسطٍ ماتطعمون أهليكم في القلّة والكثرة». وذلك أن أحكام رسول الله ﷺ في الكفارات كلّها بذلك وردت. وذلك كحُكْمِهِ ﷺ في كفارة الحلق من الأذى بفرقٍ^(١) من طعامٍ بين ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع^(٢)، وكحُكْمِهِ في كفارة الوطء في شهر رمضان بخمسة عشر صاعاً بين ستين مسكيناً، لكل مسكين ربع صاع^(٣). ولا يُعرف له ﷺ شيء من الكفارات، أمرٌ بإطعام خبز وإدام، ولا بغداء وعشاء.

فإذ كان ذلك كذلك، وكانت كفارة اليمين إحدى الكفارات التي تلزم مَنْ لَزِمَتْهُ، كان سبيلها سبيل ماتولى الحكم فيه ﷺ: من أن الواجب على مكفّرها من الطعام، مقدراً للمساكين العشرة محدوداً بكيل، دون جمعهم على غداء أو عشاء مخبوزٍ مأدوم، إذ كانت سنته ﷺ في سائر الكفارات كذلك.

(١) الفرق: مكيال معروف بالمدينة، وهو ستة عشر رطلاً.

(٢) البخاري (١٨١٥) و(١٨١٦).

(٣) انظر البيهقي: ٢١/٤ - ٢٢٨.

فَإِذَا كَانَ صَاحِبُهَا مَا قَلْنَا بِمَا بِهِ اسْتَشْهَدْنَا، فَبَيَّنَّ أَنْ تَأْوِيلَ الْكَلَامِ: وَلَكِنْ يُوَافِقُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْإِيمَانَ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَعْدَلِ إِطْعَامِكُمْ أَهْلِيكُمْ، وَأَنْ «مَا» الَّتِي فِي قَوْلِهِ: «مَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ»، بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ، لَا بِمَعْنَى الْأَسْمَاءِ.

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَأَعْدَلُ أَقْوَاتِ الْمَوْسَعِ عَلَى أَهْلِهِ مُدَّانٍ، وَذَلِكَ نِصْفُ صَاعٍ فِي رُبْعِهِ إِدَامَةٌ، وَذَلِكَ أَعْلَى مَا حَكَمَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي كَفَّارَةِ إِطْعَامِ مَسَاكِينَ. وَأَعْدَلُ أَقْوَاتِ الْمُقْتَرِّ عَلَى أَهْلِهِ، مُدٌّ، وَذَلِكَ رِبْعُ صَاعٍ، وَهُوَ أَدْنَى مَا حَكَمَ بِهِ فِي كَفَّارَةِ إِطْعَامِ مَسَاكِينَ.

وَأَمَّا الَّذِينَ رَأَوْا إِطْعَامَ الْمَسَاكِينَ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ، الْخَبْزَ وَاللَّحْمَ وَمَا ذَكَرْنَا عَنْهُمْ قَبْلُ، وَالَّذِينَ رَأَوْا أَنْ يَغْدُوا أَوْ يَعْشُوا، فَإِنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: «مَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ»، مِنْ أَوْسَطِ الطَّعَامِ الَّذِي تَطْعَمُونَهُ أَهْلِيكُمْ، فَجَعَلُوا «مَا» الَّتِي فِي قَوْلِهِ: «مَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ»، اسْمًا لَا مَصْدَرًا، فَأَوْجَبُوا عَلَى الْمَكْفُورِ إِطْعَامَ الْمَسَاكِينَ مِنْ أَعْدَلِ مَا يُطْعَمُ أَهْلَهُ مِنَ الْأَغْذِيَةِ. وَذَلِكَ مَذْهَبٌ، لَوْلَا مَا ذَكَرْنَا مِنْ سُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْكَفَّارَاتِ غَيْرِهَا، الَّتِي يَجِبُ إلْحَاقُ أَشْكَالِهَا بِهَا، وَأَنَّ كَفَّارَةَ الْيَمِينِ لَهَا نَظِيرَةٌ وَشَبِيهَةٌ يَجِبُ إلْحَاقُهَا بِهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ كَسَوْتُهُمْ

يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ: فَكَفَّارَةُ مَا عَقَّدْتُمْ مِنَ الْإِيمَانِ: إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ، أَوْ كَسَوْتُهُمْ. يَقُولُ: إِمَّا أَنْ تَطْعَمُوهُمْ أَوْ تَكْسُوهُمْ. وَالْخِيَارُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْمَكْفُورِ.

واختلف أهل التأويل في «الكسوة» التي عَنِ الله تعالى ذِكْرَهُ بقوله: «أو كسوتهم».

فقال بعضهم: عَنِ بذلك: كسوة ثوب واحد.

وقال بعضهم: عَنِ بذلك: الكسوة، ثوبين ثوبين.

وقال آخرون: بل عَنِ بذلك كسوتهم «ثوب جامع»، كالملحفة والكساء، والشيء الذي يصلح للبس والنوم.

وقال آخرون: عَنِ بذلك: كسوة إزار ورداء وقميص.

وقال آخرون: كل ما كسا فيجزىء، والآية على عمومها.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصحة وأشبهها بتأويل القرآن، قول مَنْ قال: عَنِ بقوله: «أو كسوتهم»، ما وقع عليه اسم كسوة، مما يكون ثوباً فصاعداً لأن مادون الثوب، لا خلاف بين جميع الحجة أنه ليس مما دخل في حكم الآية، فكان مادون قدر ذلك، خارجاً من أن يكون الله تعالى عَنْهُ، بالنقل المستفيض. والثوب وما فوقه داخل في حكم الآية، إذ لم يأت من الله تعالى ذِكْرَهُ وحى، ولا من رسوله ﷺ خبر، ولم يكن من الأمة إجماع بأنه غير داخل في حكمها. وغير جائز إخراج ما كان ظاهر الآية محتمله من حكم الآية، إلا بحجة يجب التسليم لها. ولا حجة بذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

يعني تعالى ذِكْرَهُ بذلك: أو فكَّ عبدٍ من أسر العبودية وذُلِّها.

فإن قال قائل: أفكَّل الرقاب معني بذلك أو بعضه؟

قيل: بل معنيُّ بذلك كل رقبة كانت سليمةً من الإقعاد^(١)، والعمى والخرس، وقَطَعَ اليدين أو شَلَّلهما، والجنون المطبق، ونظائر ذلك. فإنَّ مَنْ كان به ذلك أو شيء منه من الرقاب، فلا خلاف بين الجميع من الحُجَّةِ أنه لا يجرىء في كفارة اليمين. فكان معلوماً بذلك أنَّ الله تعالى ذكَّره لم يهتبه بالتحريم في هذه الآية. فاما الصغير والكبير والمسلم والكافر، فإنهم معنيون به.

والمكفِّر مخيَّر في تكفير يمينه التي حنث فيها بإحدى هذه الحالات الثلاث التي سماها الله في كتابه، وذلك: إطعام عشرة مساكين من أوسط مايطعم أهلَه، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة - بإجماعٍ من الجميع، لا خلاف بينهم في ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ

يقول تعالى ذكَّره: «فمن لم يجد»، لكفارة يمينه التي لزمه تكفيرها من الطعام والكسوة والرقاب ما يَكْفُرُهَا به على ما فرضنا عليه وأوجبناه في كتابنا وعلى لسانِ رسولنا محمد ﷺ. «فصيامُ ثلاثة أيام»، يقول: فعليه صيامُ ثلاثة أيام.

ثم اختلف أهل العلم في معنى قوله: «فمن لم يجد»، ومتى يستحق الحانث في يمينه الذي قد لزمته الكفارة، اسم «غير واجد»، حتى يكون ممن له الصيام في ذلك.

فقال بعضهم: إذا لم يكن للحانث في وقت تكفيره عن يمينه إلا قدر

(١) الإقعاد: الداء الذي يُقْعِد فيحيل بينه وبين المشي.

قُوْتِهِ وقوت عياله يومه وليلته، فَإِنَّ له أَنْ يكفر بالصيام . فَإِنْ كان عنده في ذلك الوقت قوته وقوت عياله يومه وليلته، وَمَنْ الفضل مايطعمُ عشرةً مساكين أو مايكْسُوهم، لَزِمَهُ التكفيرُ بالإطعامِ أو الكسوة، ولم يجزه الصيامُ حينئذٍ . وممن قال ذلك الشافعي .

وقال آخرون : جائزٌ لمن لم يَكُنْ عنده مائتا درهم أن يصومَ، وهو ممن لا يجد .

وقال آخرون : جائزٌ لمن لم يَكُنْ عنده فَضْلٌ عن رأسِ ماله يتصرفُ به لمعاشِهِ مايكْفُرُ به بالإطعامِ ، أَنْ يصومَ إِلَّا أن يكون له كفاية، ومن المال مايتصرفُ به لمعاشِهِ، ومن الفضلِ عن ذلك مايكْفُرُ به عن يمينه . وهذا قولٌ كان يقوله بعضُ متأخري المُتَفَقِّهَةِ .

والصوابُ من القولِ في ذلك عندنا، أَنَّ مَنْ لم يَكُنْ عنده في حالِ حَنْتِهِ في يمينه إلا قَدْرُ قُوْتِهِ وقوت عياله يومه وليلته، لا فَضْلٌ له عن ذلك، يصوم ثلاثة أيام، وهو ممن دخلَ في جملة مَنْ لا يجد مايطعم أو يكسو أو يعتق . وإن كان عنده في ذلك الوقت من الفضلِ عن قُوْتِهِ وقوتِ عياله يومه وليلته، ما يطعمُ أو يكسو عشرةً مساكين، أو يعتق رقبة، فلا يجزيه حينئذٍ الصوم، لأنَّ إحدى الحالاتِ الثلاثِ حينئذٍ من إطعامٍ أو كسوةٍ أو عتقٍ، حَقٌّ قد أوجبه الله تعالى ذِكرُهُ في ماله وجوبُ الدين . وقد قامتِ الحُجَّةُ بأنَّ المفلسَ إذا فَرَّقَ ماله بين غرمائه : أنه لا يترك ذلك اليومَ إِلَّا ما لا بُدَّ له من قُوْتِهِ وقوتِ عياله يومه وليلته . فكذلك حُكْمُ المُعْدَمِ بالدَّيْنِ الذي أوجبه الله تعالى ذِكرُهُ في ماله بسببِ الكفارةِ التي لَزِمَتْ ماله .

واختلف أهلُ العلم في صفة الصوم الذي أوجبه الله في كفارة اليمين . فقال بعضهم : صفته أن يكون مواسلاً بين الأيامِ الثلاثة غير مُفَرَّقِها .

وقال آخرون: جائز لمن صامهنَّ أن يصومهنَّ كيف شاء، مجتمعاتٍ ومفترقات .

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكَّره أوجب على مَنْ لَزِمَتْهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ، إذا لم يجد إلى تكفيرها بالإطعام أو الكسوة أو العتق سبيلاً، أَنْ يُكْفِّرَهَا بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، ولم يشرط في ذلك متتابعة. فكيفما صامهنَّ المكفِّرُ مفرقةً ومتتابعةً، أجزأه. لأنَّ الله تعالى ذكَّره إنما أوجب عليه صِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فكيفما أتى بصومهنَّ أجزأ.

فأما ما روي عن أبيّ وابن مسعود من قراءتهما: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ﴾، فذلك خلافٌ ما في مصاحفنا. وغيرُ جائزٍ لنا أن نشهدَ لشيءٍ ليس في مصاحفنا من الكلام أنه من كتابِ الله. غيرَ أني أختارُ للصائم في كفارة اليمين أن يتابع بين الأيام الثلاثة، ولا يفرق. لأنه لا خلاف بين الجميع أنه إذا فعل ذلك فقد أجزأ ذلك عنه من كفارته، وهم في غير ذلك مختلفون. ففعلُ ما لا يُختلفُ في جوازه، أحبُّ إليَّ، وإن كان الآخرُ جائزاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ
وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

يعني تعالى ذكَّره بقوله: «ذلك»، هذا الذي ذكرتُ لكم أنه كفارة أيمانكم، من إطعامِ العشرة المساكين، أو كِسْوَتِهِمْ، أو تحريرِ الرقبة، وصيامِ الثلاثة الأيام إذا لم تجدوا من ذلك شيئاً - هو كفارة أيمانكم التي عقدتموها إذا حلفتُمْ - واحفظوا، أيها الذين آمنوا أيمانكم أن تحثوا فيها، ثم تضيِعُوا الكفارة فيها بما وصفته لكم. «كذلك يبينُ الله لكم آياته»، كما بيَّن لكم كفارة

أيما نكم، كذلك يبينُ الله لكم جميعَ آياته - يعني أعلامَ دينِهِ فيوضُحها لكم -
لثلاثِ أقوالٍ المضِيعِ المفرطِ فيما ألزَمه الله: «لم أعلمَ حُكْمَ الله في ذلك!» .
«لعلكم تشكرون»، يقول: لتشكروا الله على هدايته إياكم وتوفيقه لكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ

وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٨٩﴾

وهذا بيانٌ من الله تعالى ذِكرُهُ للذين حرَّموا على أنفسهم النساء والنوم
واللحم من أصحاب النبي ﷺ، تشبهاً منهم بالقسيسين والرهبان، فأنزل الله
فيهم على نبيه ﷺ كتابه ينهاهم عن ذلك فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا
طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾، [المائدة: ٨٧]. فنهاهم بذلك عن تحريم ما أحلَّ
الله لهم من الطيبات. ثم قال: ولا تعتدوا أيضاً في حدودي، فَتَجَلَّوْا ما حرَّمتُ
عليكم، فإنَّ ذلك لكم غير جائز، كما غيرُ جائزٍ لكم تحريم ما حلَّلتُ، وإنِّي
لا أحبُّ المعتدين. ثم أخبرهم عن الذي حرَّم عليهم مما إذا استحلَّوه وتقدَّموا
عليه، كانوا من المعتدين في حدودِهِ - فقال لهم: يا أيُّها الذين صدَّقوا الله
ورسولَهُ، إنَّ الخمرَ التي تشربونها، والميسرَ الذي تتيأسرونه، والأنصابُ التي
تذبحون عندها، والأزلامُ التي تَسْتَقْسِمُونَ بها. «رجسٌ»، يقول: إنَّه ونَتْنٌ
سَخِطَهُ الله وكرهَهُ لكم. «من عملِ الشيطان»، يقول: شربُكم الخمرَ، وقماركم
على الجُزْرِ، وذبحكم للأنصابِ، واستقسامُكم بالأزلام، من تزيينِ الشيطانِ
لكم، ودعايهِ إياكم إليه، وتحسينه لكم، لا من الأعمال التي نَدَبُكم إليها
رَبُّكم، ولا مما يرضاهُ لكم، بل هو مما يسخطه لكم. «فاجتنبوه»، يقول:
فاتركوه وارفُضوه ولا تعملوه. «لعلكم تفلحون»، يقول: لكي تنجحوا فتدركوا
الفلاحَ عند ربكم بترككم ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّمَا يُرِيدُ لَكُمْ الشَّيْطَانُ شَرْبَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرَةِ بِالْقِدَاحِ، وَيَحْسُنُ ذَلِكَ لَكُمْ، إِرَادَةٌ مِنْهُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي شَرْبِكُمُ الْخَمْرِ وَمَيْسِرَتِكُمْ بِالْقِدَاحِ، لِيُعَادِيَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَيَبْغِضَ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَيَشْتَتِ أَمْرُكُمْ بَعْدَ تَأْلِيْفِ اللَّهِ بَيْنَكُمْ بِالْإِيمَانِ، وَجَمْعِهِ بَيْنَكُمْ بِأُخُوَّةِ الْإِسْلَامِ. «وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ»، يَقُولُ: وَيَصْرِفُكُمْ بَغْلَةً هَذِهِ الْخَمْرِ بِسُكْرِهَا إِيَّاكُمْ عَلَيْكُمْ، وَيَاشْتَغَلُكُمْ بِهَذَا الْمَيْسِرِ، عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي بِهِ صَلَاحُ دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ. «وَعَنِ الصَّلَاةِ»، الَّتِي فَرَضَهَا عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ. «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ»، يَقُولُ: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ عَنْ شَرْبِ هَذِهِ، وَالْمَيْسِرَةِ بِهَذَا، وَعَامِلُونَ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ مِنْ آدَاءِ مَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنَ الصَّلَاةِ لِأَوْقَاتِهَا، وَلِزُومِ ذِكْرِهِ الَّذِي بِهِ نَجَحُ طَلِبَاتِكُمْ فِي عَاجِلِ دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْعُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ». وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، فِي اجْتِنَابِكُمْ ذَلِكَ، وَاتِّبَاعِكُمْ أَمْرَهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنَ الْإِنْجَارِ عَمَّا زَجَرَكُمْ عَنْهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي يَبْنِهَا لَكُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا، وَخَالِفُوا الشَّيْطَانَ فِي أَمْرِهِ إِيَّاكُمْ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ وَفِي غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَبْغِي لَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَيْنَكُمْ بِالْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ. «وَاحْذَرُوا»، يَقُولُ: وَاتَّقُوا اللَّهَ وَرَاقِبُوهُ أَنْ يَرَاكُمْ عِنْدَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ

هذه الأمور التي حَرَّمَهَا عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا ، أَوْ يَفْقِدَكُمْ عِنْدَ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ ، فَتُوبِقُوا أَنْفُسَكُمْ وَتَهْلِكُوهَا . «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» ، يَقُولُ : فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَعْمَلُوا بِمَا أَمَرْنَاكُمْ بِهِ ، وَتَنْتَهَوْا عَمَّا نَهَيْنَاكُمْ عَنْهُ ، وَرَجَعْتُمْ مُذْبِرِينَ عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ، وَاتَّبَعَ مَا جَاءَكُمْ بِهِ نَبِيِّكُمْ . «فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» ، يَقُولُ : فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى مَنْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ بِالنَّذَارَةِ غَيْرِ إِبْلَاغِكُمُ الرِّسَالَةَ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْكُمْ ، مَبِينَةً لَكُمْ بَيَانًا يُوضِّحُ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ ، وَالطَّرِيقَ الَّذِي أَمَرْتُمْ أَنْ تَسْلُكُوهُ . وَأَمَّا الْعِقَابُ عَلَى التَّوَلَّى وَالْإِنْتِقَامُ بِالْمَعْصِيَةِ ، فَعَلَى الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ دُونَ الرُّسُلِ .

وهذا من الله تعالى وعيدٌ لمن تَوَلَّى عَنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ . يَقُولُ لَهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ : فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ عَنْ أَمْرِي وَنَهْيِي ، فَتَوَقَّعُوا عِقَابِي ، وَاحْذَرُوا سَخَطِي .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلْقَوْمِ الَّذِينَ قَالُوا - إِذْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ بِقَوْلِهِ : «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ» : كَيْفَ بَمَنْ هَلَكَ مِنْ إِخْوَانِنَا وَهُمْ يَشْرِبُونَهَا؟ وَبَنَّا وَقَدْ كُنَّا نَشْرِبُهَا؟ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْكُمْ حَرَجٌ فِيمَا شَرَبُوا مِنْ ذَلِكَ ، فِي الْحَالِ الَّتِي لَمْ يَكُنِ اللَّهُ تَعَالَى حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ . «إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» ، يَقُولُ : إِذَا مَا اتَّقَى اللَّهُ الْأَحْيَاءُ مِنْهُمْ فَخَافُوهُ ، وَرَاقِبُوهُ فِي اجْتِنَابِهِمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنْهُ ، وَصَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ ، فَاطَاعُوهُمَا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ . «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» ، يَقُولُ : وَاکْتَسَبُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا يَرْضَاهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مِمَّا

من الصيد»، يقول: لِيُخْتَبَرَنَّكُمْ اللهُ. «بشيء من الصيد»، يعني: ببعض الصيد.

وإنما أخبرهم تعالى ذِكْرُهُ أَنَّهُ يَتْلُوهم بشيء، لأنه لم يَتْلُهُم بصيد البحر، وإنما ابتلاهم بصيد البر، فالابتلاء ببعض لا بجميع.

وقوله: «تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ»، فإنه يعني: إما باليد، كالبيض والفراخ - وإما بإصابة النبل والرمح، وذلك كالحُمُرِ والبقرِ والظباء، فيمتحنكم به في حال إحرامكم بعمرتكم أو بحجكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: لِيُخْتَبَرَنَّكُمْ اللهُ، أيها المؤمنون، ببعض الصيد في حال إحرامكم، كي يعلم أهل طاعة الله والإيمان به، والمنتهمين إلى حدوده وأمره ونهيه، وَمَنْ الذي يخاف الله فَيَتَّقِي مَآثِئَهُ عَنْهُ، ويجتنبه خوف عقابه «بالغيب»، بمعنى: في الدنيا، بحيث لا يراه.

فتأويل الكلام إذاً: ليعلم أولياء الله مَنْ يخافُ الله فيتقي محارمَهُ التي حَرَّمَها عليه من الصيد وغيره، بحيث لا يراه ولا يُعَاينَهُ.

وأما قوله: «فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ»، فإنه يعني: فَمَنْ تجاوزَ حَدَّ الله الذي حَدَّهُ له، بعد ابتلائهِ بتحريم الصيد عليه وهو حرام، فاستحلَّ ما حَرَّمَ اللهُ عليه منه بأخذه وقتله. «فله عذاب»، من الله. «اليم»، يعني: مؤلمٌ موجعٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْنَلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. «لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ»، الذي بَيْنَتْ لَكُمْ، وهو صيد البرِّ دُونَ صيد البحر. «وَأَنْتُمْ حُرْمٌ»، يقول: وَأَنْتُمْ مُحْرَمُونَ بِحَجٍّ أَوْ عَمْرَةٍ.

وقوله: «وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا»، فَإِنَّ هَذَا إِعْلَامٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ عِبَادَهُ حَكَمَ الْقَاتِلِ مِنَ الْمُحْرَمِينَ الصَّيْدَ الَّذِي نَهَا عَنْ قَتْلِهِ مُتَعَمِّدًا.

ثم اختلف أهل التأويل في صفة «العمد» الذي أوجب الله على صاحبه به الكفارة والجزاء في قتله الصيد.

فقال بعضهم: هو العمد لقتل الصيد، مع نسيان قاتله إحرامه في حال قتله. وقال: إِنَّ قَتْلَهُ وَهُوَ ذَاكِرٌ إِحْرَامِهِ مُتَعَمِّدًا قَتْلَهُ، فَلَا حُكْمَ عَلَيْهِ، وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ. قَالُوا: وَهَذَا أَجْلٌ أَمْرًا مِنْ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْهِ، أَوْ يَكُونَ لَهُ كَفَّارَةٌ.

وقال آخرون: بل ذلك هو العمد من المحرم لقتل الصيد، ذاكراً لِحُرْمِهِ.

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ حَرَّمَ قَتْلَ صَيْدِ الْبَرِّ عَلَى كُلِّ مُحْرِمٍ فِي حَالِ إِحْرَامِهِ مَا دَامَ حَرَاماً بِقَوْلِهِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ». ثُمَّ بَيَّنَّ حُكْمَ مَنْ قَتَلَ مَا قَتَلَ مِنْ ذَلِكَ فِي حَالِ إِحْرَامِهِ مُتَعَمِّدًا لِقَتْلِهِ، وَلَمْ يَخْصُصْ بِهِ الْمُتَعَمِّدَ قَتْلَهُ فِي حَالِ نِسْيَانِهِ إِحْرَامَهُ، وَلَا الْمَخْطِئَ فِي قَتْلِهِ فِي حَالِ ذِكْرِهِ إِحْرَامَهُ، بَلْ عَمَّ فِي التَّنْزِيلِ بِإِيجَابِ الْجَزَاءِ، كُلُّ قَاتِلٍ صَيْدٍ فِي حَالِ إِحْرَامِهِ مُتَعَمِّدًا. وَغَيْرُ جَائِزٍ إِحَالَةً ظَاهِرِ التَّنْزِيلِ إِلَى بَاطِنٍ مِنَ التَّأْوِيلِ لَا دَلَالَةَ عَلَيْهِ مِنْ نَصِّ كِتَابٍ، وَلَا خَبَرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا إِجْمَاعٍ مِنَ الْأُمَّةِ. وَلَا دَلَالَةَ مِنْ بَعْضِ هَذِهِ الْوُجُوهِ.

فإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَسَوَاءٌ كَانَ قَاتِلُ الصَّيْدِ مِنَ الْمُحْرَمِينَ عَامِداً قَتْلَهُ ذَاكراً لِإِحْرَامِهِ، أَوْ عَامِداً قَتْلَهُ نَاسِياً لِإِحْرَامِهِ، أَوْ قَاصِداً غَيْرَهُ فَقَتْلَهُ ذَاكراً لِإِحْرَامِهِ - فِي أَنْ عَلَى جَمِيعِهِمْ مِنَ الْجَزَاءِ مَا قَالَ رَبُّنَا تَعَالَى ذِكْرُهُ، وَهُوَ: مِثْلُ مَا قَتَلَ

من النِّعَمِ يحكمُ به ذوا عدلٍ من المسلمين، أو كفارةً طعامٍ مساكين، أو عَدْلُ ذلك صياماً.

وأما قوله: «فجزاءٌ مثلُ ما قتل من النعم»، فإنه يقول: وعليه كِفَاءٌ وَبَدَلٌ، يعني بذلك جزاء الصيد المقتول. يقول تعالى ذِكْرُهُ: فعلى قاتلِ الصيدِ جزاءُ الصيدِ المقتولِ، مثل ما قتل من النعم.

ثم اختلف أهل العلم في صفة «الجزاء»، وكيف يجزي قاتلُ الصيد من المحرمين ما قتلَ مثله من النِّعَمِ.

فقال بعضهم: ينظر إلى أشبه الأشياء به شَبْهاً من النعم، فيجزيه به، ويهديه إلى الكعبة.

وقال آخرون: بل يُقَوَّمُ الصيدُ المقتول قيمته من الدراهم، ثم يشتري القاتلُ بقيمته نَدْماً من النعم، ثم يهديه إلى الكعبة.

وأولى القولين في تأويل الآية قول من قال: إن المقتول من الصيد يُجْزَى بمثله من النِّعَمِ، كما قال الله تعالى ذِكْرُهُ: «فجزاءٌ مثلُ ما قتل من النعم». وغيرُ جائزٍ أَنْ يكونَ مثل الذي قتل من الصيد دراهم، وقد قال الله تعالى: «من النعم»، لأن الدراهم ليست من النعم في شيء.

فإن قال قائل: فإن الدراهم وإن لم تكن مثلاً للمقتول من الصيد، فإنه يشتري بها المثل من النعم، فيهديه القاتل، فيكون بفعله ذلك كذلك جازياً بما قتل من الصيد مثلاً من النعم!

قليل له: أفرأيت إن كان المقتول من الصيد صغيراً أو معيماً، ولا يُصاب بقيمته، من النِّعَمِ إلاً كبيراً، أو سليماً - أو كان المقتول من الصيد كبيراً أو سليماً، ولا يُصاب بقيمته من النعم إلا صغيراً أو معيماً - أيجوزُ له أَنْ يشتري

بقيته خلافه وخلاف صفته فيهديه، أم لا يجوز ذلك له، وهو لا يجد إلا خلافه؟

فإن زعم أنه لا يجوز له أن يشتري بقيته إلا مثله، ترك قوله في ذلك. لأن أهل هذه المقالة يزعمون أنه لا يجوز له أن يشتري بقيمة ذلك فيهديه، إلا ما يجوز في الضحايا. وإذا أجاز شراء مثل المقتول من الصيد بقيته وإهداءها وقد يكون المقتول صغيراً معيماً، أجاز في الهدى ما لا يجوز في الأضاحي.

وإن زعم أنه لا يجوز أن يشتري بقيته فيهديه إلا ما يجوز في الضحايا، أوضح بذلك من قوله الخلاف لظاهر التنزيل. وذلك أن الله تعالى ذكره، أوجب على قاتل الصيد من المُحَرَّمين عمداً، المثل من النعم إذا وجد. وقد زعم قائل هذه المقالة أنه لا يجب عليه المثل من النعم، وهو إلى ذلك واجد سبيلاً.

ويقال لقائل ذلك: رأيت إن قال قائل آخر: «ما على قاتل ما لا تبلغ من الصيد قيمته ما يصاب به من النعم ما يجوز في الأضاحي، من إطعام ولا صيام. لأن الله تعالى إنما خير قاتل الصيد من المحرمين في أحد الثلاثة الأشياء التي سماها في كتابه، فإذا لم يكن له إلى واحد من ذلك سبيل، سقط عنه فرض الآخرتين. لأن الخيار إنما كان له، وله إلى الثلاثة سبيل. فإذا لم يكن له إلى بعض ذلك سبيل، بطل فرض الجزاء عنه، لأنه ليس ممن عني بالآية - نظير الذي قلت أنت: «إنه إذا لم يكن المقتول من الصيد تبلغ قيمته ما يصاب من النعم مما يجوز في الضحايا، فقد سقط فرض الجزاء بالمثل من النعم عنه، وإنما عليه الجزاء بالإطعام أو الصيام»، هل بينك وبينه فرق من أصل أو نظير؟ فلن يقول في أحدهما قولاً إلا ألزم في الآخر مثله.

القول في تأويل قوله تعالى: يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَذَا يَبْلُغُ الْكَعْبَةَ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: يحكم بذلك الجزء الذي هو مِثْلُ المقتول من الصيد من النعم عَدْلَانِ منكم. يعني: فقيهان عالمان من أهل الدين والفضل. «هَذَا»، يقول: يقضي بالجزاء ذوا عدل، أي يُهْدَى فيبلغ الكعبة. و«الهاء» في قوله: «يحكم به»، عائدة على «الجزاء».

ووجه حُكْمِ الْعَدْلَيْنِ إذا أرادَا أَنْ يحكما بمثل المقتول من الصيد من النعم على القاتل: أَنْ يَنْظُرَا إِلَى المقتولِ وَيَسْتَوْصِفَاهُ، فَإِنْ ذُكِرَ أَنَّهُ أَصَابَ ظَبْيًا صَغِيرًا، حَكَمَا عَلَيْهِ مِنْ وَلَدِ الضَّأْنِ بِنَظِيرِ ذَلِكَ الَّذِي قَتَلَهُ فِي السِّنِّ وَالْجِسْمِ. فَإِنْ كَانَ الَّذِي أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ كَبِيرًا، حَكَمَا عَلَيْهِ مِنَ الضَّأْنِ بِكَبِيرٍ. وَإِنْ كَانَ الَّذِي أَصَابَ حِمَارًا وَخَشٍ، حَكَمَا عَلَيْهِ بِبَقْرَةٍ. إِنْ كَانَ الَّذِي أَصَابَ كَبِيرًا، فَكَبِيرًا مِنَ الْبَقَرِ، وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا فَصَغِيرًا. وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ ذَكَرًا فَمِثْلُهُ مِنْ ذَكَوْرِ الْبَقَرِ. وَإِنْ كَانَ أُنْثَى فَمِثْلُهُ مِنَ الْبَقَرِ أُنْثَى. ثُمَّ كَذَلِكَ ذَلِكَ، يَنْظُرَانِ إِلَى أَشْبَهِ الْأَشْيَاءِ بِالْمَقْتُولِ مِنَ الْصيدِ شَبَهَا مِنَ النعم، فَيَحْكُمَانِ عَلَيْهِ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ.

وقال آخرون: بل ينظر العَدْلَانِ إِلَى الصيدِ المقتولِ، فيَقْوَمَانِ قِيَمَتَهُ دِرَاهِمَ، ثُمَّ يَأْمُرَانِ الْقَاتِلَ أَنْ يَشْتَرِيَ بِذَلِكَ مِنَ النعم هَذْيًا. فَالْحَاكِمَانِ يَحْكُمَانِ، فِي قَوْلِ هَؤُلَاءِ، بِالْقِيَمَةِ. وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِمَا لَتَقْوِيمِ الْصيدِ قِيَمَتَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَصَابَهُ فِيهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ كَفَّرَهُ طَعَامُ مَسْكِينٍ

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: «أو كفارة طعام مساكين».

فقال بعضهم: معنى ذلك: أَنْ الْقَاتِلَ وَهُوَ مُخْرِمٌ صَيْدًا عَمْدًا، لَا يَخْلُو مِنْ وَجوبِ بعضِ هذه الأشياءِ الثلاثة التي ذكر الله تعالى ذِكْرَهُ: مِنْ مِثْلِ

المقتول هدياً بالغ الكعبة، أو طعامً مساكينَ كفارةً لما فعل، أو عدل ذلك صياماً - إلا أنه مخيرٌ في أيّ ذلك شاء فعل، وأنه بأيّها كان كفر فقد أدى الواجب عليه. وإنما ذلك إعلامٌ من الله تعالى ذكره عباده أن قاتل ذلك كما وصف، لن يخرج حكمه من إحدى الخلال الثلاثة. قالوا: فحكمه إن كان على المثل قادراً، أن يحكم عليه بمثل المقتول من النعم، لا يجزيه غير ذلك مادام للمثل واجداً. قالوا: فإن لم يكن له واجداً، أو لم يكن للمقتول مثل من النعم، فكفارته حيثنّ إطعام مساكين.

وقال آخرون: معنى ذلك: أن للقاتل صيداً عمداً وهو محرم، الخيار بين إحدى الكفارات الثلاث، وهي: الجزاء بمثله من النعم، والطعام، والصوم. قالوا: وإنما تأويلُ قوله: «فجزاء مثل ماقتل من النعم أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً»، فعليه أن يجزي بمثله من النعم، أو يكفر بإطعام مساكين، أو يعدل الطعام من الصيام.

واختلف القائلون بتخيير قاتل الصيد من المحرمين بين الأشياء الثلاثة، في صفة اللّازم له من التكفير بالإطعام والصوم، إذا اختار الكفارة بأحدهما دون الهدى.

فقال بعضهم: إذا اختار التكفير بذلك، فإن الواجب عليه أن يقوم المثل من النعم طعاماً، ثم يصوم مكان كلِّ مدٍّ يوماً.

وقال آخرون: بل الواجب عليه إذا أراد التكفير بالإطعام أو الصوم، أن يقوم الصيد المقتول طعاماً، ثم الصدقة بالطعام إن اختار الصدقة. وإن اختار الصوم صام.

ثم اختلفوا أيضاً في الصوم.

فقال بعضهم: يصوم لكلِّ مدٍّ يوماً.

وقال آخرون: يصوم مكان كل نصف صاع يوماً.

وقال آخرون: يصوم مكان كل صاع يوماً.

وقال آخرون: لا معنى لتكفير بالإطعام، لأن من وجد سبيلاً إلى التكفير بالإطعام، فهو واجد إلى الجزاء بالمثل من النعم سبيلاً. ومن وجد إلى الجزاء بالمثل من النعم سبيلاً، لم يجزه التكفير بغيره. قالوا: وإنما ذكر الله تعالى ذكره الكفارة بالإطعام في هذا الموضع، ليدل على صفة التكفير بالصوم لا أنه جعل التكفير بالإطعام إحدى الكفارات التي يكفر بها قتل الصيد. وقد ذكرنا تأويل ذلك فيما مضى قبل.

وأولى الأقوال بالصواب عندي في قول الله تعالى ذكره: «فجزاء مثل ماقتل من النعم»، أن يكون مراداً به: فعلى قاتله متعمداً مثل الذي قتل من النعم - لا القيمة، إن اختار أن يجزيه بالمثل من النعم. وذلك أن القيمة إنما هي من الدنانير أو الدراهم. والدراهم أو الدنانير ليست للصيد بمثل، والله تعالى ذكره إنما أوجب الجزاء مثلاً من النعم.

وأولى الأقوال بالصواب عندي في قوله: «أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً»، أن يكون تخييراً، وأن يكون للقاتل الخيار في تكفيره بقتله الصيد وهو محرم بأي هذه الكفارات الثلاث شاء. لأن الله تعالى ذكره، جعل ما أوجب في قتل الصيد من الجزاء والكفارة عقوبةً لفعله، وتكفيراً لذنبه، في إتلافه ما أتلف من الصيد الذي كان حراماً عليه إتلافه في حال إحرامه، وقد كان حلالاً له قبل حال إحرامه، كما جعل الفدية من صيام أو صدقة أو نسك في حلق الشعر الذي حلقه المحرم في حال إحرامه، وقد كان له حلالاً قبل حال إحرامه عقوبةً لفعله، وتكفيراً لذنبه، في حلق الشعر الذي حلقه المحرم في حال إحرامه، وقد كان له حلقه قبل حال إحرامه، ثم منع من حلقه في حال إحرامه، نظير الصيد. ثم جعل عليه إن حلقه جزاءً من حلقه إياه. فأجمع

الجميعُ على أنه في حلقه إياه إذا حلقه من أذاته، مخيرٌ في تكفيره فعَلَهُ ذلك بأيِّ الكفاراتِ الثلاثِ شاء، فمثله فيما ناله قاتلُ الصيدِ من المحرمين، وأنه مخيرٌ في تكفيره قتلَهُ الصيدَ بأيِّ الكفاراتِ الثلاثِ شاء، لا فرقَ بين ذلك.

ومَنْ أبى ما قلنا فيه، قيل له: حَكَمَ الله تعالى ذِكْرَهُ على قاتلِ الصيدِ بالمثلِ من النعم، أو كفارة طعامِ مساكين، أو عدله صياماً - كما حكم على الحالقِ بفديةٍ من صيامٍ أو صدقةٍ أو نُسْكِ، فزعمتُ أنَّ أحدهما مخيرٌ في تكفير ما جعل منه عَوْضٌ بأيِّ الثلاثِ شاء، وأنكرتُ أن يكونَ ذلك للآخر، فهل بينك وبين مَنْ عكس عليك الأمر في ذلك - فجعل الخيارَ فيه حيث أبيت، وأبى حيث جعلته له - فرقٌ من أصلٍ أو نظير؟ فلن يقول في أحدهما قولاً إلا ألزم في الآخر مثله.

ثم اختلفوا في صفة التقويم إذا أراد التكفيرَ بالإطعام.

فقال بعضهم: يَقُومُ الصيدُ قيمةَ الموضعِ الذي أصابه فيه.

وقال آخرون: بل يَقُومُ ذلك بسعرِ الأرضِ التي يكفَّرُ فيها.

والصواب من القول في ذلك عندنا، أنَّ قاتِلَ الصيدِ إذا جزاه بِمِثْلِهِ من النعم، فإنما يَجْزِيهِ بنظيره في خَلْقِهِ وَقَدْرِهِ في جسمه، من أقربِ الأشياءِ به شَبَهاً من الأنعام. فإنَّ جَزَاءَهُ بالإطعام، قَوْمُهُ قيمةُ بموضعه الذي أصابه فيه، لأنه هنالك وَجَبَ عليه التكفيرُ بالإطعام. ثم إنَّ شاء أطعم بالموضعِ الذي أصابه فيه، وإنَّ شاء بمكة وإنَّ شاء بغير ذلك من المواضعِ حيث شاء، لأنَّ الله تعالى ذَكَّرَهُ؛ إنما شَرَطَ بلوغَ الكعبةِ بالهدي في قتلِ الصيدِ دون غيره من جزائه، فللجَازي بغير الهدي أن يجزيه بالإطعام والصوم حيث شاء من الأرض.

فأما الهدي، فإنَّ مَنْ جَزَى به ما قتل من الصيد، فلن يُجْزِيَهُ من كفارة

ماقتل من ذلك إلا أن يبلغه الكعبة كما قال تعالى ذِكْرُهُ، وينحره أو يذبحه ويتصدق به على مساكينِ الْحَرَمِ - وَعَنَى بالكعبة في هذا الموضع، الْحَرَمَ كله. ولمن قَدَّمَ بهديه الواجب من جزاء الصيد، أن ينحره في كُلِّ وقتٍ شاء، قبل يوم النحر وبعده، ويطعمه. وكذلك إن كَفَّرَ بإطعام، فله أن يكفر به متى أَحَبَّ وحيثُ أَحَبَّ. وإن كَفَّرَ بالصوم فكذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْعَدَلْ ذَلِكَ صِيَامًا

يعني تعالى ذِكْرُهُ بذلك: أو على قاتل الصيد محرماً، عدل الصيدِ المقتول من الصيام. وذلك أن يقوم الصيد حياً غير مقتولٍ قيمته من الطعام بالموضع الذي قتله فيه المحرم، ثم يصوم مكان كُلِّ مُدٍّ يوماً. وذلك أن النبي ﷺ عدل المُدَّ من الطعام بصوم يومٍ في كفارة المَوَاقِعِ في شهر رَمَضَانَ^(١).

فإن قال قائل: فَهَلَّا جعلت مكان كُلِّ صاعٍ في جزاء الصيد، صوم يوم، قياساً على حكم النبي ﷺ في نظيره، وذلك حكمه على كَعْب بن عُجْرَةَ إذ أمره أن يطعم إن كَفَّرَ بالإطعام فَرَقاً^(٢) من طعام، وذلك ثلاثة أَصْعٍ^(٣) بين ستة مساكين^(٤). إن كفر بالصيام أن يصوم ثلاثة أيام، فجعل الأيام الثلاثة في الصوم عدلاً من إطعام ثلاثة أَصْعٍ، فإن ذلك بالكفارة في جزاء الصيد، أشبه من الكفارة في قتل الصيد بكفارة المَوَاقِعِ امرأته في شهر رمضان؟.

(١) تقدم تخريج ذلك، وانظر البيهقي: ٢٢١/٤.

(٢) في المطبوع: «فَرَقاً» بتسكين الراء، وهو جائز عند المحدثين، لكن كلام العرب بالفصح، وهو مكياال معروف بالمدينة، وهو ستة عشر رطلاً.

(٣) جمع صاع.

(٤) البخاري (١٨١٥) و(١٨١٦)، وقد تقدم ذكره.

قيل: إن «القياس»، إنما هو ردُّ الفروع المختلف فيها، إلى نظائرها من الأصول المُجمَع عليها. ولا خلاف بين الجميع من الحُجَّة أنه لا يجزىء مُكْفَرًا كَفَر في قتل الصيد بالصوم، أن يعدل صوم يوم بصاع طعام. فإذا كان ذلك كذلك، وكان غير جائز خلافها فيما حدثت به من الدين مجمعة عليه، صَحَّ بذلك أن حكم معادلة الصوم الطعام في قتل الصيد، مخالف حكم معادلته إياه في كفارة الحلق، إذ كان غير جائز ردُّ أصل على أصل قياساً. وإنما يجوز أن يقاس الفرع على الأصل.

وسواء قال قائل: «هلاً رددت حُكْم الصوم في كفارة قتل الصيد، على حكمه في حلق الأذى فيما يُعدل به من الطعام؟» - وآخر قال: «هلاً رددت حُكْم الصوم في الحلق، على حكمه في كفارة قتل الصيد فيما يُعدل به من الطعام، فتوجب عليه مكان كُلِّ مَدٍّ أو مكان كل نصف صاع صوم يوم؟» وقد بيّنا فيما مضى قَبْلُ أن «العَدْل» في كلام العرب بالفتح، هو قَدْرُ الشيء من غير جنسه، وأن «العَدْل»، هو قدره من جنسه.

وقد كان بعض أهل العلم بكلام العرب يقول: «العدل» مصدر من قول القائل: «عدلت هذا بهذا عدلاً حسناً». قال: «والعدل» أيضاً بالفتح المثل.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ

يقول: فالزمته الكفارة التي ألزمته إياها، لِإِذِيقَهُ عِقَابَهُ ذَنْبِهِ. ، بِالزَّامَةِ الْغَرَامَةَ وَالْعَمَلَ بِبَدَنِهِ مِمَّا يَتَعَبُهُ وَيَشْقَى عَلَيْهِ.

وقد بيّن تعالى ذِكْرَهُ بقوله: «ليذوق وبال أمره»، أن الكفارات اللازمة الأموال والأبدان، عقوبات منه لخلقِهِ، وإن كانت تمحيصاً لهم، وكفارة لذُنُوبِهِم التي كفروها بها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: عَفَاَ اللَّهُ عَنْمَا سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ

يقول جَلُّ مَنْ قَاتِلٍ لعباده المؤمنين به ویرسوله ﷺ: عفا الله، أيها المؤمنون، عما سَلَفَ منكم في جاهليتكم، من إصابتكم الصيد وأنتم حُرُم، وقتلكموه، فلا يؤاخذكم بما كَانَ منكم في ذلك قبل تحريمه إياه عليكم، ولا يلزمكم له كفارة في مالٍ ولا نفس. ولكن مَنْ عاد منكم لقتله وهو مُحَرَّم، بعد تحريمه بالمعنى الذي كَانَ يَقْتُلُهُ في حال كفره، وقبل تحريمه عليه، من استحلاله قتله، فينتقم الله منه.

وقد يحتمل أَنْ يكون معناه: مَنْ عاد لقتله بعد تحريمه في الإسلام، فينتقم الله منه في الآخرة. فأما في الدنيا، فَإِنَّ عليه من الجزاء والكفارة فيها ما بَيَّنْتُ.

فَإِنْ ظَنَّ ظَانٌّ أَنَّ الكفارة مزيلَةٌ العقاب، ولو كانت الكفارة لازمة له في الدنيا، لبطلَ العقابُ في الآخرة، فقد ظَنَّ خطأ. وذلك أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُخَالَفَ بين عقوباتٍ معاصيه بما شاءَ وَأَحَبَّ، فيزيد في عقوبته على بعض معاصيه مما ينقصُ من بعضٍ، وَيَنْقُصُ من بعضٍ مما يزيدُ في بعضٍ، كالذي فعل من ذلك في مخالفته بين عقوبته الزاني البكر والزاني الثيب المحصن، وبين سارق ربع دينار وبين سارق أَقْلَ من ذلك. فكذلك خالف بين عقوبته قاتل الصيد من المحرمين عمداً ابتداءً، وبين عقوبته عَوْدًا بعدَ بدئه. فأوجبَ على البداءِ المِثْلَ من النعم، أو الكفارة بالإطعامِ أو العدلَ من الصيام، وجعلَ ذلك عقوبةً جُرْمُهُ بقوله: «ليذوقَ وبَالَ أمره»، وجعل على العائد بعد البدء، وزاده من عقوبته ما أخبر عباده أَنَّهُ فاعِلٌ به من الانتقام، تغليظاً منه عَزَّ وَجَلَّ للعودِ بعد البدء. ولو كانت عقوباته على الأشياء متفقةً، لَوَجَبَ أَنْ لَا يكون حَدٌّ في شيءٍ، مخالفاً حداً في غيره، ولا عقابٌ في الآخرة، أغلظ من عقابِ.

وذلك خلاف ماجاء به مُحَكَّم الفرقان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

يقول عَزَّ وَجَلَّ: والله منيعٌ في سلطانه، لا يقهره قاهرٌ، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة مَنْ أراد عقوبته، مانعٌ. لَأَنَّ الْخَلْقَ خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة.

وأما قوله: «ذو انتقام»، فإنه يعني به معاقبته لِمَنْ عَصَاهُ على معصيته إياه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «أَجَلٌ لَكُمْ»، أيها المؤمنون، «صيد البحر» - وهو ماصيد طرياً.

وَعَنَى بـ «البحر»، في هذا الموضع، الأنهار كلها. والعرب تسمي الأنهار «بحاراً»، كما قال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

فتأويل الكلام: أَجَلٌ لَكُمْ، أيها المؤمنون، طري سمك الأنهار الذي صدتموه في حال حِلْيَتِكُمْ وحرَمِكُمْ، وما لم تصيدوه من طعامه الذي قتله ثم رمى به إلى ساحله.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: «وطعامه».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك: ما قذف به إلى ساحله ميتاً، نحو الذي قلنا في ذلك.

وقال آخرون: عَنَى بقوله: «وطعامه»، المليح من السمك، فيكون تأويلُ

الكلام على ذلك من تأويلهم: أحل لكم سمك البحر ومليحه في كُلِّ حالٍ، في حالٍ إحلالكم وإحرامكم.

وقال آخرون: «طعامه»، مافيه.

وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا، قول مَنْ قال: «طعامه»، ماقدفه البحر، أو حَسَرَ عنه فَوَجَدَ ميتاً على ساحله. وذلك أَنَّ الله تعالى ذَكَرَهُ ذَكَرَ قبله صَيْدَ الذي يصاد، فقال: «أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدَ البحرِ»، فالذي يَجِبُ أَنْ يعطَفَ عليه في المفهوم مالم يُصَدَّ منه، فقال: «أَحِلَّ لَكُمْ ما صَدْتُمُوهُ مِنَ البحرِ، وما لم تصيدوه منه.

وأما «المليح»، فإنه ما كان منه مُلْحَ بعد الاصطياد، فقد دخل في جملة قوله: «أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدَ البحرِ»، فلا وجه لتكريره، إذ لا فائدة فيه، وقد أعلم عباده تعالى ذَكَرَهُ: إحلاله ما صَيْدَ من البحر بقوله: «أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدَ البحرِ». فلا فائدة أَنْ يقالَ لهم بعد ذلك: «ومليحه الذي صَيْدَ حلالٌ لكم»، لأنَّ ما صَيْدَ منه فقد بَيَّنَّ تحليله، طرئاً كان أو مليحاً، بقوله: «أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدَ البحرِ» والله يتعالى عن أَنْ يخاطَبَ عباده بما لا يفيدهم به فائدة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَتَاعَ لَكُمْ وَلِلْسَيَّارَةِ

يعني تعالى ذَكَرَهُ بقوله: «متاعاً لكم»، منفعةً لمن كان منكم مقيماً أو حاضراً في بلده، يستمتعُ بأكله ويستمتع به. «وللسيارة»، يقول: ومنفعةً أيضاً ومنفعةً للسائرين من أرضٍ إلى أرضٍ، ومسافرين يتزوّدونَه في سفرهم مليحاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا

يعني تعالى ذَكَرَهُ: وَحَرَّمَ اللهُ عَلَيْكُمْ، أيها المؤمنونَ، صَيْدَ الْبَرِّ. «مادمتُم

حرماً»، يقول: ما كنتم مُحَرِّمِينَ، لم تَحِلُّوا من إحرامكم.

ثم اختلف أهل العلم في المعنى الذي عَنِى الله تعالى ذِكْرَهُ بقوله: «وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ».

فقال بعضهم: عَنِى بذلك أنه حَرَّمَ علينا كل معاني صيد البر: من اصطياد، وأكل، وقتل، وبيع، وشراء، وإمساك، وتملُّك.

وقال آخرون: إنما عَنِى الله تعالى ذِكْرَهُ بقوله: «وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ» مادمتُم حرماً، ما استحدثت المحرم صَيْدَهُ في حال إحرامه أو ذبحه، أو استحدثت له ذلك في تلك الحال. فأما ما ذَبَحَهُ حلالاً وللحلال، فلا بأس بأكله للمُحَرِّم. وكذلك ما كان في مَلِكِهِ قبل حال إحرامه، فغير مُحَرِّمٍ عليه إمساكه.

وقال آخرون: إنما عَنِى الله تعالى بقوله: «وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ» مادمتُم حرماً، وحرَمَ عليكم اصطياده. قالوا: فأما شراؤه من مالكٍ يملكه وذبحه وأكله، بعد أن يكون مِلْكُهُ إِيَّاهُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الاصْطِيَادِ لَهُ، وبيعه وشراؤه جائز. قالوا: والنهي من الله تعالى ذِكْرَهُ، عن صَيْدِهِ في حال الإحرامِ دُونَ سَائِرِ المعاني.

والصوابُ في ذلك من القولِ عندنا أنْ يَقَالَ: إِنَّ الله تعالى ذِكْرَهُ، عَمَّ تحريمَ كُلِّ معاني صيد البرِّ عَلَى المحرم في حال إحرامه، من غير أن يَخْصَّ من ذلك شيئاً دُونَ شيء. فكلُّ معاني الصيدِ حرامٌ عَلَى المُحَرِّمِ مادامَ حراماً، بيعه وشراؤه واصطياده وقتله، وغير ذلك من معانيه، إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَذْبُوحاً قَدْ ذَبَحَهُ حلالاً لحلال، فيحِلُّ لَهُ حَيْثُ ذُكِّلَ أَكَلُهُ.

واختلفوا في صفة الصيدِ الذي عَنِى الله تعالى بالتحريمِ في قوله: «وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ» مادمتُم حرماً.

فقال بعضهم: «صيد البرِّ»، كُلُّ ما كان يعيش في البرِّ والبحر، وإنما «صيد البحر»، ما كان يعيش في الماء دُونَ البرِّ ويَأْوِي إليه.

وقال بعضهم: صيد البر ما كان كونه في البر أكثر من كونه في البحر.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ
تَحْشُرُونَ ﴿٩٦﴾

وهذا تقدّم من الله تعالى ذكره إلى خَلْقِهِ بِالْحَذَرِ من عقابه على معاصيه.
يقول تعالى ذكره: واخشوا الله، أيها الناس، واحذروه بطاعته فيما أمركم
به من فرائضه، وفيما نهاكم عنه في هذه الآيات التي أنزلها على نبيكم ﷺ،
من النهي عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وعن إصابة صيد البر وقتله
في حال إحرامكم وفي غيرها، فإنّ الله مصيركم ومرجعكم، فيعاقبكم بمعصيتكم
إياه، ويجازيكم فيثيبكم على طاعتكم له.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا
لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْفَلَاحِ

يقول تعالى ذكره: صَيَّرَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ الَّذِينَ لَا
قِيَامَ لَهُمْ مِنْ رَّئِيسٍ يَحْجِزُ قَوِيَّتَهُمْ عَنْ ضَعِيفِهِمْ، وَمُسَيِّئُهُمْ عَنْ مُحْسِنِهِمْ،
وظالمهم عن مظلومهم. «والشهر الحرام والهدي والفلاند»، فحجز بكل واحد
من ذلك بعضهم عن بعض، إذ لم يكن لهم قِيَامٌ غَيْرُهُ، وجعلها معالمَ لدينهم،
ومصالحَ أمورهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

يعني تعالى ذكَّره بقوله: «ذلك»، تصييره الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد. يقول تعالى ذكَّره: صيرتُ لكم، أيها الناس، ذلك قياماً، كي تعلموا أن من أحدث لكم لمصالح دنياكم ما أحدث، مما به قوامكم، علماً منه بمنافعكم ومضاركم، أنه كذلك يعلم جميع ما في السموات وما في الأرض مما فيه صلاح عاجلكم وآجلكم، ولتعلموا أنه بكل شيء «عليم»، لا يخفى عليه شيء من أموركم وأعمالكم، وهو مُحْصِيها عليكم، حتى يجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء منكم بإساءته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾

يقول تعالى ذكَّره: اعلَمُوا، أيها الناس، أن ربكم الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، ولا يخفى عليه شيء من سرائر أعمالكم وعلاقيتها، وهو يُحْصِيها عليكم ليجازيكم بها، شديد عقابه [على] من عصاه وتمرد عليه، على معصيته إياه - وهو غفورٌ لذنوب من أطاعه وأتاب إليه، فساترٌ عليه، وتاركٌ فضيحته بها - رحيمٌ به أن يعاقبه على ما سَلَفَ من ذنوبه بعد إنابته وتوبته منها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

وهذا من الله تعالى ذكَّره تهديداً لعباده ووعيداً. يقول تعالى ذكَّره: ليس على رسولنا الذي أرسلناه إليكم، أيها الناس، بإنذاركم عقابنا بين يدي عذابٍ شديد، وإعذارنا إليكم بما فيه قطع حُجَجِكُمْ - إلا أن يؤدي إليكم رسالتنا، ثم إلينا الثواب على الطاعة، وعلينا العقاب على المعصية. «والله يعلم ما تبدون

وما تكتُمون»، يقول: وغيرُ خفيٍّ علينا المطيعُ منكم، القابلُ رسالتنا، العاملُ بما أمرته بالعمل به - من المُعاصي الأبي رسالتنا، التاركُ العملَ بما أمرته بالعمل به، لأننا نعلمُ ماعمله العاملُ منكم فأظهره بجوارحه ونطق به بلسانه. «وما تكتُمون»، يعني: وما تُخفُّونه في أنفسكم من إيمانٍ وكفرٍ، أو يقينٍ وشكٍ ونفاقٍ.

يقول تعالى ذِكْرُه: فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ضَمَائِرِ الصُّدُورِ، وظواهر أعمال النفوس، مما في السمواتِ وما في الأرض، ويديه الثواب والعقاب - فحقيق أن يُتَّقَى، وأن يَطَاعَ فلا يُعْصَى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ^١

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ، قُلْ يامحمدُ: لا يعتدلُ الرديُّ والجيدُ، والصالحُ والطالح، والمطيعُ والعاصي. «ولو أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ»، يقول: لا يعتدلُ العاصي والمطيعُ لله عند الله، ولو كثر أهل المعاصي فعجبت من كثرتهم، لأنَّ أهل طاعةِ الله هم المفلحون الفائزون بثوابِ الله يومَ القيامةِ وإنَّ قَلُوا، دونَ أهلِ معصيته - وإنَّ أهلَ معاصيه هم الأخسرون الخائبون وإنَّ كَثُرُوا.

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: فَلَا تَعْجَبَنَّ مِنْ كَثْرَةِ مَنْ يَعِصِي اللَّهَ فِيمِهُلَهُ وَلَا يَعاِجِلُهُ بِالْعُقُوبَةِ، فَإِنَّ الْعُقُوبَةَ الصَّالِحَةُ لِأَهْلِ طَاعَةِ اللَّهِ عِنْدَهُ دُونَهُمْ.

وهذا الكلام وإن كان مخرجه مخرج الخطابِ لرسولِ الله ﷺ، فالمراد به بعض أتباعه، يدلُّ على ذلك قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْوَلِي الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: واتقوا الله بطاعته فيما أمركم ونهاكم، واحذروا أن يستحوذَ عليكم الشيطانُ بإعجابكم كثرة الخبيث، فتصيروا منهم. «يأولي الأبواب»، يعني بذلك أهل العقول والحجى الذين عَقَلُوا عن الله آياته، وعرفوا مواقع حُجَجِهِ. «لعلكم تفلحون»، يقول: اتقوا الله لَتَفْلَحُوا، أي: كي تَنجَحُوا في طلبكم ماعنده.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَتَأْوَلِي الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ

ذِكْرُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أُنْزِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبَبِ مَسَائِلَ كَانَ يَسْأَلُهَا إِيَّاهُ أَقْوَامٌ، امْتِحَانًا لَهُ أحياناً، واستهزاءً أحياناً. فيقول له بعضهم: «مَنْ أَبِي؟» ويقول له بعضهم إذا ضَلَّتْ نَاقَتُهُ: «أَيْنَ نَاقَتِي؟» فقال لهم تعالى ذِكْرُهُ: لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ ذَلِكَ كَمَسْأَلَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ إِيَّاهُ مَنْ أَبُوهُ^(١) «إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ»، يقول: إِنْ أَبَدِينَا لَكُمْ حَقِيقَةً مَا تَسْأَلُونَ عَنْهُ، سَاءَ كَمْ إِبْدَاؤُهَا وإظهارها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

(١) انظر البخاري (٤٦٢١) و(٤٦٢٢)، ومسلم (٢٣٥٩)، وراجع تهذيب الكمال:

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِلَّذِينَ نَهَاوْهُم مِّنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ مَسْأَلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَمَّا نَهَاوْهُم عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ إِيَّاهُ عَنْهُ، مِّنْ فَرَائِضَ لَمْ يَفْرُضْهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَتَحْلِيلِ أُمُورٍ لَمْ يَحْلُلْهَا لَهُمْ، وَتَحْرِيمِ أَشْيَاءٍ لَمْ يَحْرُمْهَا عَلَيْهِمْ قَبْلَ نَزُولِ الْقُرْآنِ بِذَلِكَ: أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ السَّائِلُونَ عَمَّا سَأَلُوا عَنْهُ رَسُولِي مِمَّا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ كِتَابًا وَلَا وَحْيًا، لَا تَسْأَلُوا عَنْهُ، فَإِنَّكُمْ إِنِّ أَظْهَرَ ذَلِكَ لَكُمْ تَبْيَانٌ بُوْحِي وَتَنْزِيلٍ سَاءَكُمْ لِأَنَّ التَّنْزِيلَ بِذَلِكَ إِذَا جَاءَكُمْ إِنَّمَا يَجِئُكُمْ بِمَا فِيهِ امْتَحَانُكُمْ وَابْتِحَارُكُمْ، إِمَّا بِإِجَابِ عَمَلٍ عَلَيْكُمْ وَلِزُومِ فَرْضٍ لَّكُمْ، وَفِي ذَلِكَ عَلَيْكُمْ مَشَقَّةٌ وَلِزُومِ مَوْثِقَةٍ وَكَلْفَةٍ - وَإِمَّا بِتَحْرِيمِ مَا لَوْلَمْ يَأْتِكُمْ بِتَحْرِيمِهِ وَحْيٍ، كُنْتُمْ مِّنَ التَّقَدُّمِ عَلَيْهِ فِي فُسْحَةٍ وَسَعَةٍ - وَإِمَّا بِتَحْلِيلِ مَا تَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَهُ، وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ مَسَاءَةٌ لَّنَقْلَكُمْ عَمَّا كُنْتُمْ تَرَوْنَهُ حَقًّا إِلَى مَا كُنْتُمْ تَرَوْنَهُ بَاطِلًا، وَلَكِنْكُمْ إِنِّ سَأَلْتُمْ عَنْهَا بَعْدَ نَزُولِ الْقُرْآنِ بِهَا، وَبَعْدَ ابْتِدَائِكُمْ بَيَانَ أَمْرٍ فِي كِتَابِي إِلَى رَسُولِي إِلَيْكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ مَا أَنْزَلْتُهُ إِلَيْهِ مِّنْ بَيَانِ كِتَابِي، وَتَأْوِيلِ تَنْزِيلِي وَوَحْيِي.

وأما قوله: «عفا الله عنها»، فإنه يعني به: عفا الله لكم عن مسألتكم عن الأشياء التي سألتكم عنها رسول الله ﷺ، الذي كره الله لكم مسألتكم إياه عنها إِنْ يُوَافِقُكُمْ بِهَا، أَوْ يَعَاقِبُكُمْ عَلَيْهَا، إِذْ عَرَفَ مِنْهَا تَوْبَتَكُمْ وَإِنَابَتَكُمْ. «والله غفور»، يقول: والله سائر ذنوب مَنْ تَابَ مِنْهَا، فَتَارَكَ أَنْ يَفْضَحَهُ فِي الْآخِرَةِ. «حليم» ذُو أُنَاسَةٍ عَنْ أَنْ يَعَاقِبَهُ بِهَا، لِتَغْمُذِهِ النَّاسَ بِهَا بِرَحْمَتِهِ، وَعَفْوِهِ عَنْ عَقُوبَتِهِ عَلَيْهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا

بِهَآ كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قَدْ سَأَلَ الْآيَاتِ قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ، فَلَمَّا آتَاهُمُوهَا اللَّهُ

أصبحوا بها جاحدين، مُنْكَرِينَ أَنْ تَكُونَ دَلَالَةً عَلَى حَقِيقَةِ مَا احْتَجَّ بِهَا عَلَيْهِمْ، وبرهاناً على صِحَّةِ مَا جُعِلَتْ برهاناً على تصحيحه - كقوم صالح الذين سألوا الآية، فلما جاءتهم الناقةُ آيَةً عَقَرُوهَا - وكالذين سألوا عيسى مائدةً تنزلُ عليهم من السماء، فلما أُعْطَوْهَا كَفَرُوا بِهَا، وما أشبه ذلك.

فَحَذَّرَ اللهُ تعالى المؤمنين بنبيه ﷺ أَنْ يَسْلُكُوا سَبِيلَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي هَلَكَتْ بِكُفْرِهِمْ بآيَاتِ اللهِ لَمَّا جَاءَتْهُمْ عِنْدَ مَسْأَلَتِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ، وَلَا تَبْحَثُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّ لَكُمْ تُسْؤُكُمْ، فَقَدْ سَأَلَ الْآيَاتِ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ، فَلَمَّا أُوتُوا أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحَيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَا بَحَرَ اللهُ بحيرةً، وَلَا سَيْبَ سائبةً، وَلَا وَصَلَ وصيلةً، وَلَا حَمَى حامياً ولكنكم الذين فعلتم ذلك، أيها الكفرة، فحُرِّمْتُمُوهُ افْتِرَاءً عَلَى رَبِّكُمْ.

و«البحيرة» «الفعيلة» من قول القائل: «بَحَرْتُ أُذَنَ هَذِهِ النَّاَقَةِ»، إِذَا شَقَّهَا، «أَبَحَرُهَا بَحْرًا»، وَالنَّاَقَةُ «مَبْحُورَةٌ».

وَأَمَّا «السَّائِبَةُ»، فَإِنَّهَا الْمُسَيَّيَةُ الْمُخَلَّاةُ. وَكَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَحَدُهُمْ بَعْضُ مُوَاشِيَةٍ، فَيَحْرُمُ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، كَمَا كَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ يَعْتَقُ عَبْدَهُ سَائِبَةً، فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ وَلَا بِوَلَائِهِ.

وَأَمَّا «الْوَصِيلَةُ»، فَإِنَّ الْأُنْثَى مِنْ نَعْمِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَتْ إِذَا أَتَمَّتْ بَطْنًا بِذَكَرٍ وَأُنْثَى، قِيلَ: «قَدْ وَصَلَتِ الْأُنْثَى أَخَاهَا»، بِدَفْعِهَا عَنْهُ الدُّبْحِ، فَسَمَّوْهَا «وَصِيلَةً».

وأما «الحامي»، فإنه الفحل من النعم يُحمى ظهره من الركوب والانتفاع، بسبب تتابع أولاد تحدث من فحلته.

وهذه أمور كانت في الجاهلية فأبطلها الإسلام، فلا نعرف قوماً يعملون بها اليوم.

فإذ كان ذلك كذلك - وكان ما كانت الجاهلية تعمل به لا يوصل إلى علمه - إذ لم يكن له في الإسلام اليوم أثر، ولا في الشرك، نعرفه - إلا بخبر، وكانت الأخبار عما كانوا يفعلون من ذلك مختلفة، فالصواب من القول في ذلك أن يقال: أما معاني هذه الأسماء فما بينا في ابتداء القول في تأويل هذه الآية، وأما كيفية عمل القوم في ذلك، فما لا علم لنا به.

القول في تأويل قوله تعالى: وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ .

إنَّ المعنيين بقوله: «ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب»، الذين بحروا البحائر، وسببوا السوائب، ووصلوا الوسائل، وحموا الحوامي، مثل عمرو ابن لحي وأشكاله ممن سن لأهل الشرك السنن الرديئة، وغير دين الله دين الحق، وأضافوا إلى الله تعالى ذكره: أنه هو الذي حرّم ما حرّموا، وأحل ما أحلوا، افتراء على الله الكذب وهم يعلمون، واختلاقاً عليه الإفك وهم يفهمون، فكذبهم الله تعالى ذكره في قيلهم ذلك، وإضافتهم إليه ما أضافوا من تحليل ما أحلوا وتحريم ما حرّموا، فقال تعالى ذكره: ما جعلت من بحيرة ولا سائبة، ولكن الكفار هم الذين يفعلون ذلك، ويفترون على الله الكذب.

وإنَّ المعنيين بقوله: «وأكثرهم لا يعقلون»، هم أتباع من سن لهم هذه

السُّنَنَ مِنْ جَهْلَةِ الْمُشْرِكِينَ، فَهَمْ لَا شَكَّ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ سَنُوا ذَلِكَ لَهُمْ، فَوَصَّفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْقِلُونَ أَنَّ الَّذِينَ سَنُوا لَهُمْ تِلْكَ السُّنَنَ وَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، كَذَبَةُ فِي أَخْبَارِهِمْ، أَفْكَةٌ، بَلْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ فِيمَا يَقُولُونَ مُحَقِّقُونَ، وَفِي أَخْبَارِهِمْ صَادِقُونَ. وَإِنَّمَا مَعْنَى الْكَلَامِ: وَأَكْثَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ أَنَّ ذَلِكَ التَّحْرِيمَ الَّذِي حَرَّمَهُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ وَأَضَافُوهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرَهُ كَذِبٌ وَيَاطِلُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَإِذَا قِيلَ لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَبْحِرُونَ الْبَحَائِرَ وَيُسَيِّوْنَ السَّوَابِ؟ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ أَنَّهُمْ بِإِضَافَتِهِمْ تَحْرِيمَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ: تَعَالَوْا إِلَى تَنْزِيلِ اللَّهِ وَآيِ كِتَابِهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، لِيَتَّبِعَنَّ لَكُمْ كَذِبَ قِيلِكُمْ فِيمَا تُضَيِّفُونَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ مِنْ تَحْرِيمِكُمْ مَا تُحَرِّمُونَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ - أَجَابُوا مَنْ دَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ بِأَنْ يَقُولُوا: حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ مَنْ قَبْلُنَا آبَاءَنَا يَعْمَلُونَ بِهِ، وَيَقُولُونَ: «نَحْنُ لَهُمْ تَبِعٌ وَهُمْ لَنَا أُمَمَةٌ وَقَادَةٌ، قَدْ اكْتَفَيْنَا بِمَا أَخَذْنَا عَنْهُمْ، وَرَضِينَا بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ تَحْرِيمٍ وَتَحْلِيلٍ»، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: أَوَلَوْ كَانَ آبَاءُنَا هَؤُلَاءِ الْقَائِلِينَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا؟ يَقُولُ: لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا يُضَيِّفُونَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ مِنْ تَحْرِيمِ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ، كَذِبٌ وَفَرِيَةٌ عَلَى اللَّهِ، لَا حَقِيقَةَ لَذَلِكَ وَلَا صَحَّةَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَتْبَاعَ الْمُفْتَرِينَ الَّذِينَ ابْتَدَأُوا تَحْرِيمَ ذَلِكَ، افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ بِقِيلِهِمْ مَا كَانُوا يَقُولُونَ مِنْ إِضَافَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرَهُ مَا يُضَيِّفُونَ -

ولا كانوا فيما هُم به عاملونَ من ذلك على استقامةٍ وصواب، بل كانوا على ضلالةٍ وخطأ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ فَاصْلِحُوهَا، واعملوا في خلاصِهَا من عقَابِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ، وانظروا لها فيما يُقَرِّبُهَا من رَبِّهَا. فإنه «لا يضرُّكم مَن ضَلَّ»، يقول: لا يضرُّكم مَن كفر وسلك غيرَ سبيلِ الحق، إذا أنتم اهتديتم وآمنتم بربكم، وأطعتموه فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، فحرمتم حرامَهُ وحلَّلتُم حلالَهُ.

واختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ ذلك.

فقال بعضهم معناه: «يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ»، إذا أمرتم بالمعروفِ ونهيتم عن المنكرِ فلم يُقبل منكم.

وقال آخرون: معنى ذلك أَنَّ العبدَ إذا عملَ بطاعةِ اللَّهِ لم يضره مَن ضَلَّ بعده وهلك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: «يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ»، فاعملوا بطاعةِ اللَّهِ. «لا يضرُّكم مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»، فأمرتم بالمعروفِ ونهيتم عن المنكرِ.

وقال آخرون: بل معنى هذه الآية: لَا يَضُرُّكُمْ مَن حَادَ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ وَكَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وقال آخرون: عَنَى بِذَلِكَ كُلُّ مَن ضَلَّ عَنْ دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ.

وأولى هذه الأقوالِ وأصحُّ التأويلاتِ عندنا بتأويلِ هذه الآية، ما رُوِيَ عن أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه فيها، وهو: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم»، الزمُّوا العملَ بطاعةِ الله وبما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم الله عنه. «لا يضرركم مَنْ ضَلَّ إذا اهتديتم»، يقول: فإنه لا يضرركم ضلالُ مَنْ ضَلَّ إذا أنتم لَزِمْتُمُ العملَ بطاعةِ الله، وأدَّيْتُم فيمن ضَلَّ من الناسِ ما ألزَمكم اللهُ به فيه، من فرض الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يركبه أو يحاول ركوبه، والأخذ على يديه إذا رامَ ظُلْمًا لمسلمٍ أو مُعَاهِدٍ ومنعه منه فأبى النزوعَ عن ذلك، ولا صَبَرَ عليكم في تماديه في غِيِّه وضلاله، إذا أنتم اهتديتم وأدَّيْتُم حَقَّ الله تعالى ذِكْرَهُ فيه.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلاتِ في ذلك بالصواب، لأنَّ الله تعالى ذَكَّرَهُ أَمَرَ المؤمنين أَنْ يَقُومُوا بِالْقِسْطِ، ويتعاونوا على البرِّ والتقوى. ومن القيامِ بالقسطِ، الأخْذُ على يدي الظالم. ومن التعاونِ على البرِّ والتقوى، الأمرُ بالمعروف. وهذا مع ما تظاهرتْ به الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ من أمرِهِ بالأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر. ولو كان للناسِ تَرْكُ ذلك، لم يكن للأمرِ به معنى، إلا في الحالِ التي رُخِّصَ فيه رسولُ الله ﷺ تَرْكُ ذلك، وهي حالُ العجزِ عن القيامِ به بالجوارحِ الظاهرة، فيكون مرخصاً له تركه، إذا قام حينئذٍ بأداء فرضِ الله عليه في ذلك بقلبه.

وإذا كان ما وصفنا من التأويلِ بالآيةِ أولى، فبيِّنْ أنه قد دخل في معنى قوله: «إذا اهتديتم»، ما قاله (بعضهم) من أنَّ ذلك: «إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ: اعملوا، أيها المؤمنون، بما أمرتكم به، وانتهوا عما نهيتكم عنه، ومُروا أهل الزَّيْغِ والضلالِ وَمَنْ حَادَ عَنْ سَبِيلِي بِالْمَعْرُوفِ، وانتهوهم عن المنكر. فَإِنْ قَبِلُوا، فلهم ولكم، وَإِنْ تَمَادَوْا فِي غِيْهِمْ وضلالهم، فَإِنْ إِلَيَّ مَرْجِعُ جَمِيعِكُمْ ومصيركم في الآخرة ومصيرهم، وأنا العالمُ بما يعملُ جَمِيعُكُمْ من خيرٍ وشرٍ، فَأُخَبِّرُ هُنَا كُلَّ فَرِيقٍ مِنْكُمْ بما كان يعملُهُ في الدنيا، ثُمَّ أُجَازِيهِ عَلَى عَمَلِهِ الَّذِي قَدِمَ بِهِ عَلَيَّ جَزَاءَهُ حَسَبَ اسْتِحْقَاقِهِ، فإنه لا يخفى عَلَيَّ عَمَلُ عَامِلٍ مِنْكُمْ من ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَتْلُوهُ الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةً بَيْنَهُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ: «يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بَيْنَكُمْ»، يقول: ليشهد بَيْنَكُمْ. «إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ»، يقول: وقت الوصية. «اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ»، يقول: ذوا رُشْدٍ وعَقْلٍ وحجَّيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «ذوا عدلٍ منكم».

فقال بعضهم: عَنَى بِهِ: مِنْ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ.

وقال آخرون: عَنَى بِذَلِكَ: ذَوَا عَدْلٍ مِنْ حَيِّ الْمَوْصِي.

واختلفوا في صفة «الاثنتين» اللَّذَيْنِ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، مَا هِيَ،

وما هما؟

فقال بعضهم: هما شاهداً يشهدانِ عَلَى وَصِيِّ الْمَوْصِي.

وقال آخرون: هما وصيَّان.

وتأويل الذين زعموا أنهم شاهدان. قوله: «شهادة بينكم»، ليشهد شاهدان ذوا عدل منكم على وصيتكم.

وتأويل الذين قالوا: «هما وصيلان لا شاهدان» قوله: «شهادة بينكم»، بمعنى الحضور والشهود لما يوصيهما به المريض، من قولك: «شهدت وصية فلان»، بمعنى حضرته.

وأولى التأويلين بقوله: «اثنان ذوا عدل منكم»، تأويل من تأوله بمعنى أنهما من أهل الملة، دون من تأوله أنهما من حي الموصي.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية، لأن الله تعالى ذكره، عم المؤمنين بخطابهم بذلك في قوله: «يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم» فغير جائز أن يصرف ماعمه الله تعالى ذكره إلى الخصوص إلا بحجة يجب التسليم لها. وإذا كان ذلك كذلك، فالواجب أن يكون العائد من ذكره على العموم، كما كان ذكرهم ابتداءً على العموم.

وأولى المعنيين بقوله: «شهادة بينكم» اليمين، لا «الشهادة» التي يقوم بها من عنده شهادة لغيره، لمن هي عنده، على من هي عليه عند الحكام. لأننا لا نعلم لله تعالى ذكره حكماً يجب فيه على الشاهد اليمين، فيكون جائزاً صرف «الشهادة» في هذا الموضع، إلى «الشهادة» التي يقوم بها بعض الناس عند الحكام والأئمة.

وفي حكم الآية في هذه، اليمين على ذوي العدل - وعلى من قام مقامهم، باليمين بقوله: «تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيَقْسَمَانِ بِاللَّهِ» - أوضح الدليل على صحة ما قلنا في ذلك، من أن «الشهادة» فيه: الأيمان، دون الشهادة التي يُقضى بها للمشهود له على المشهود عليه - وفساد ما خالفه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِي حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرَهُ يَمِينًا تَجِبُ عَلَى الْمُدْعَى، فَتُوجَّهَ قَوْلُكَ فِي الشَّهَادَةِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى الصَّحَةِ؟

فَإِنْ قُلْتَ: «لَا»، تَبَيَّنَ فُسَادُ تَأْوِيلِكَ ذَلِكَ عَلَى مَا تَأَوَّلْتَ، لِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ أَنْ يَكُونَ الْمُقْسَمَانِ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقُّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِيَانِ فَيُقْسَمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا»، هُمَا الْمُدْعِيَيْنِ.

وَإِنْ قُلْتَ: «بَلَى»، قِيلَ لَكَ: وَفِي أَيِّ حُكْمٍ لِلَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ؟

قِيلَ: وَجَدْنَا ذَلِكَ فِي أَكْثَرِ الْمَعَانِي. وَذَلِكَ فِي حُكْمِ الرَّجُلِ يَدْعِي قَبْلَ رَجُلٍ مَالًا فَيَقْرَرُ بِهِ الْمُدْعَى عَلَيْهِ قَبْلَهُ ذَلِكَ، وَيَدْعِي قَضَاءَهُ. فَيَكُونُ الْقَوْلُ قَوْلَ رَبِّ الدَّيْنِ - وَالرَّجُلُ يَعْرِفُ فِي يَدِ الرَّجُلِ السَّلْعَةَ، فَيَزْعُمُ الْمَعْرُوفَ فِي يَدِهِ أَنَّهُ اشْتَرَاهَا مِنَ الْمُدْعَى، أَوْ أَنَّ الْمُدْعَى وَهَبَهَا لَهُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْثُرُ إِحْصَاؤُهُ. وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدْعِيَيْنِ اللَّذِينَ عَثَرَ عَلَى الْخَائِنِينَ فِيمَا خَانُوا فِيهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْءَاخْرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ: لِيَشْهَدَ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ، عَدْلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: «أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ».

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَاهُ: أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ، نَحْوَ الَّذِي قُلْنَا فِيهِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أو آخرا من غير حَيْكُم وَعَشِيرَتِكُمْ.

وأولى التأويلين في ذلك عندنا بالصواب، تأويل مَنْ تَأَوَّلَهُ: أو آخرا من غير أهل الإسلام. وذلك أَنَّ الله تعالى عَرَّفَ عبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عند الوصية، شهادة اثنين من عدول المؤمنين، أو اثنين من غير المؤمنين. ولا وجه لَأَنَّ يُقَالَ في الكلام صفة شهادة مُؤْمِنِينَ منكم، أو رَجُلَيْنِ من غير عشيرتكم، وإنما يقال: صفة شهادة رجلين من عشيرتكم أو من غير عشيرتكم - أو رجلين من المؤمنين أو من غير المؤمنين.

فإِذْ كَانَ لا وجهَ لذلك في الكلام، فغيرُ جائزٍ صرفُ معنى كلامِ الله تعالى ذِكْرَهُ إِلا إِلَى أَحْسَنِ وَجْهِهِ.

وقد دللنا قَبْلَ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: «ذُوا عَدْلٍ مِنْكُمْ»، إِنَّمَا هُوَ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ وَمِلَّتِكُمْ، بِمَا فِيهِ كَفَايَةٌ لِمَنْ وَفَّقَ لِفَهْمِهِ.

وَإِذْ صَحَّ ذَلِكَ بِمَا دَلَّلْنَا عَلَيْهِ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: «أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ»، إِنَّمَا هُوَ: أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ دِينِكُمْ وَمِلَّتِكُمْ. وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَسَوَاءٌ كَانَ الْآخِرَانِ اللَّذَانِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ دِينِنَا، يَهُودِيَيْنِ كَانَا أَوْ نَصْرَانِيَيْنِ أَوْ مَجُوسِيَيْنِ أَوْ عَابِدِي وَثَنٍ، أَوْ عَلَى أَيِّ دِينٍ كَانَا. لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ لَمْ يَخْصِصْ آخَرِينَ مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ بَعَيْنِهَا دُونَ مِلَّةٍ، بَعْدَ أَنْ يَكُونَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتُمْ مَصِيبَةَ الْمَوْتِ

يقول تعالى ذكره للمؤمنين: صفة شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت

وقت الوصية، أن يشهد اثنان ذوا عدلٍ منكم، أيها المؤمنون، أو رجلان آخران من غير أهلٍ ملتكم، إن أنتم سافرتُم ذاهبينَ وراجعينَ في الأرض.

«فأصابتكم مصيبةُ الموت»، يقول: فنزلَ بكم الموتُ.

ووجهُ أكثر أهلِ التأويلِ هذا الموضعَ إلى معنى التعقيبِ دون التخيير، وقالوا: معناه: شهادةُ بينكم إذا حضرَ أحدُكم الموتَ حين الوصية، اثنان ذوا عدلٍ منكم إن وُجدَا، فإن لم يُوجدَا فآخرانِ من غيركم - وإنما فعلَ ذلك مَنْ فَعَلَهُ، لأنه وجهُ معنى «الشهادة» في قوله: «شهادة بينكم»، إلى معنى الشهادة التي تُوجبُ للقوم قِيامَ صاحبها عند الحاكم، أو يُبطلها.

ووجهُ ذلك آخرون إلى معنى التخيير، وقالوا: إنما عَنَى بالشهادة في هذا الموضع، الأيمانَ على الوصية التي أوصى إليهما، وإثمانَ الميتِ إياهما على ما اتَّمتَّههما عليه من مالٍ ليُؤدياهُ إلى ورثته بعد وفاته، إن ارتببَ بهما. قالوا: وقد يَتِمُّن الرجلُ على ماله مَنْ رآه موضعاً للأمانة من مؤمنٍ وكافرٍ في السفر والحضر. وقد ذكرنا الروايةَ عن بعضٍ مَنْ قال هذا القولُ فيما مضى، وسنذكر بقيته إن شاء الله تعالى بعد.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تَحْلِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا دَخَرْتُمْ بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ

يقول تعالى ذِكرُهُ للمؤمنين به وبرسوله: شهادة بينكم إذا حضرَ أحدُكم الموتَ، إن شهد اثنان ذوا عدلٍ منكم، أو كان أوصى إليهما - أو آخران من غيركم إن كنتم في سفرٍ فعضرتُكم المنيّةُ، فأوصيتم إليهما، ودفعتم إليهما ما كانَ معكم من مالٍ وتركته لورثتكم. فإذا أنتم أوصيتم إليهما ودفعتم إليهما ما كانَ معكم من مالٍ، فأصابتكم مصيبةُ الموت، فأذيه إلى ورثتكم ما اتَّمتَّموهما

وَادْعُوا عَلَيْهِمَا خِيَانَةَ خَانَاهَا مَا أَتَمْنَا عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْحَكَمَ فِيهِمَا حِينَئِذٍ أَنْ تَحْبِسُوهُمَا. - يقول: تستوقفونهما بعد الصلاة. وفي الكلام محذوف اجتزىء بدلالة مظهر منه على ما حذف، وهو: «فأصابتكم مصيبة الموت، وقد أسندتم وصيتكم إليهما، ودفعتم إليهما ما كان معكم من مال»، فإنكم تحبسونهما من بعد الصلاة. فيقسمان بالله إن ارتبتم»، يقول: فيحلفان بالله إن اتهمتوهما بخيانة فيما اتئمتا عليه من تغيير وصية أوصى إليهما بها أو تبديلها، و«الارتباب» هو الاتهام. «لا نشترى به ثمنًا»، يقول: يحلفان بالله لا نشترى بإيماننا بالله ثمنًا، يقول: لا نحلف كاذبين على عوضٍ نأخذهُ عليه، وعلى مالٍ نذهبُ به، أو لحقٍ نجحده لهؤلاء القوم الذين أوصى إلينا وليهم وميتهم.

«ولو كان ذا قربي»، يقول: يقسمان بالله لا نطلبُ بأقسامنا بالله عوضاً فنكذب فيها لأحدٍ، ولو كان الذي نقسم به له ذا قرابة منا.

واختلفوا في «الصلاة» التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية، فقال: «تحبسونهما من بعد الصلاة».

فقال بعضهم: هي صلاة العصر.

وقال آخرون: بل يستحلفان بعد صلاة أهل دينهما وملتهم.

وأولى القولين في ذلك بالصواب عندنا، قول من قال: «تحبسونهما من بعد صلاة العصر». لأن الله تعالى عرّف «الصلاة» في هذا الموضع بإدخال «الألف واللام» فيها، ولا تدخلهما العربُ إلّا في معروف، إما في جنس، أو في واحدٍ معهودٍ معروفٍ عند المتخاطبين. فإذا كان كذلك، وكانت «الصلاة» في هذا الموضع مُجمَعاً على أنه لم يُعَنَّ بها جميع الصلوات، لم يُجَزَّ أَنْ يَكُونَ مُراداً بها صلاة المستحلف من اليهود والنصارى، لأنّ لهم صلوات ليست واحدة، فيكون معلوماً أنها المعنيّة بذلك. فإذا كان ذلك كذلك، صحَّ أنها صلاة

بعينها من صلوات المسلمين. وإذا كان ذلك كذلك، وكان النبي ﷺ صحيحاً عنه أنه إذ لَاعَنَ بين العَجَلَانِين، لَاعَنَ بينهما بعد العصرِ دونَ غيره من الصلوات^(١) كان معلوماً أنَّ التي عنيت بقوله: «تجسّونهما من بعد الصلاة»، هي الصلاة التي كان رسولُ الله ﷺ يتخيرها لاستحلافِ مَنْ أراد تغليظَ اليمينِ عليه. هذا ما عند أهل الكُفر بالله من تعظيم ذلك الوقت، وذلك لقربه من غروب الشمس.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ



يعني: ولا نكتم شهادة الله، وإن كان (صاحبها) بعيداً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِنْ عُرِضَ عَنْهُمَا اسْتَحْقَاقُ إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ

يعني تعالى ذكره بقوله: «فإن عُرِثَ»، فإن أُطْلِعَ منهما أو ظهر.

وأما قوله: «على أنهما استحقا إثماً»، فإنه يقول تعالى ذكره: فإن اطلع من الوصيين اللذين ذكر الله أمرهما في هذه الآية - بعد حلفيهما بالله لا نشترى بأيماننا ثمناً ولو كان ذا قُربى، ولا نكتم شهادة الله. «على أنهما استحقا إثماً»، يقول: على أنهما استوجبا بأيمانهما التي حلفا بها إثماً، وذلك أن يطلع على أنهما كانا كاذِبَيْنِ في أيمانهما بالله ماخُضًا ولا بدَلْنَا ولا غَيْرَنَا. فإن وُجِدَا قد خانا من مالٍ الميت شيئاً، أو غَيْرًا وصِيَّتَهُ، أو بدَلًا، فأثماً بذلك من حلفيهما بربهما.

(١) انظر البيهقي: ٣٩٨/٧.

«فأخراَنَ يقومَانِ مقامَهُمَا»، يقول، يقومَ حينئذٍ مقامَهُمَا من ورثةِ الميت، الأوليانِ الموصى إليهما.

واختلف أهلُ التأويلِ في المعنى الذي له حَكَمَ اللهُ تعالى ذِكْرَهُ على الشاهدين بالآيمان فنقلها إلى الآخرين، بعد أن عُرِثَ عليهما أنهما استحقا إنمًا.

فقال بعضهم: إنما ألزَمَهُمَا اليمين، إذا ارتببَ في شهادتهما على الميت في وصيته أنه أوصى بغير الذي يجوزُ في حُكْمِ الإسلام. وذلك أن يشهد أنه أوصى بماله كله، أو أوصى أن يُفْضَلَ بعضُ ولده ببعض ماله.

وقال آخرون: بل إنما ألزم الشاهدان اليمين، لأنهما ادّعىَا أنه أوصى لهما ببعض المال. وإنما ينقل إلى الآخرين من أجل ذلك، إذا ارتابوا بدعواهما.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا، أن الشاهدين ألزِمَا اليمينَ في ذلك باتهام ورثةِ الميت إياهما فيما دَفَعَ إليهما الميتُ من ماله، ودعواهم قِبَلَهُمَا خيانةٌ مالهٍ معلومٍ المبلغ، ونقلت بعد إلى الورثة عند ظهورِ الريةِ التي كانت من الورثة فيهما، وصحة التهمة عليهما بشهادةِ شاهدٍ عليهما أو على أحدهما، فيحلف الوارث حينئذٍ مع شهادةِ الشاهد عليهما، أو على أحدهما، إنما صحح دعواه إذ حُقِّقَ حقه - أو: الإقرار يكون من الشهود ببعض ما ادّعى عليهما الوارثُ أو بجميعه، ثم دعواهما في الذي أقرَّأ به من مالِ الميت مالا يقبل فيه دعواهما إلا ببينة، ثم لا يكون لهما على دعواهما تلك بينة، فينقل حينئذٍ اليمين إلى أولياء الميت.

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك بالصحة، لأننا لا نعلمُ من أحكام الإسلام حكمًا يجبُ فيه اليمين على الشهود، ارتببَ بشهادتهما أو لم يُرتب بها، فيكون الحكم في هذه الشهادة نظيرًا لذلك - ولا - إذ لم نجد ذلك

كذلك - صحَّ بخبر عن الرسول ﷺ، ولا بإجماع من الأمة. لأنَّ استخلاف الشهود في هذا الموضع من حُكْمِ الله تعالى ذِكْرُهُ، فيكون أصلاً مُسَلِّماً. والقول إذا خرج من أن يكون أصلاً أو نظيراً لأصلٍ فيما تنازعت فيه الأمة، كان واضحاً فسادُهُ.

وإذا فسَدَ هذا القولُ بما ذكرنا، فالقولُ بأنَّ الشاهدين استحلّفا من أجل أنهما أدعيا على الميتِ وصيةٌ لهما بماله من ماله، أفسدٌ^(١) من أجل أن أهل العلم لا خِلافَ بينهم في أن من حُكِمَ الله تعالى ذِكْرُهُ أن مُدْعياً لو ادَّعى في مالٍ ميتٍ وصيةً، أنَّ القولَ قولَ ورثةِ المدعى في ماله الوصية مع أيمانهم، دون قولٍ مدعي ذلك مع يمينه، وذلك إذا لم يكن للمدعي بينة. وقد جعل الله تعالى اليمينَ في هذه الآية على الشهود إذا اُرتبَ بهما، وإنما نُقِلَ الأيمانُ عنهم إلى أولياءِ الميتِ، إذا عثر على أن الشهود استحقوا إثماً في أيمانهم. فمعلومٌ بذلك فسادُ قولٍ مَنْ قال: «ألزم اليمينَ الشهودَ، لدعواهم لأنفسهم وصيةً أوصى بها لهم الميت من ماله».

على أن ما قلنا في ذلك عن أهل التاويلِ هو التاويلُ الذي وردت به الأخبارُ عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ: أن رسولَ الله ﷺ قضى به حين نزلت هذه الآية، بين الذي نزلت فيهم ويسببهم^(٢).

(١) يعني: أفسد من القول السابق.

(٢) ساق الطبري حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قصة تميم الداري وعدي بن بَدَأ في الشهادة (١٢٩٦٦) و(١٢٩٦٧) و(١٢٩٦٨) بأسانيد فيها مقال. ورواه البخاري في صحيحه معلقاً (٢٧٨٠)، وفي تاريخه الكبير (١/ الترجمة ٦٧٦)، وإنما علقه، والله أعلم، لكون إسناده عنده فيه نظر بسبب محمد بن أبي القاسم الطويل، كما في تهذيب الكمال للمزي: ٣٠٦/٢٦، ورواه أبو داود (٣٦٠٦)، والترمذي (٣٠٦٠) وقال: حسن غريب

واختلفت القُرْأَةُ في قراءة قوله: «من الذين استحق عليهم الأوليان». فقرأ ذلك قُرْأَةُ الحجاز والعراق والشام: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولِيَّانِ﴾، بضم «التاء».

وروي عن عليٍّ، وأبي بن كعب، والحسن البصري أنهم قرأوا ذلك: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾، بفتح «التاء».

وأولى القراءتين بالصواب في قوله: «من الذين استحق عليهم»، قراءة من قرأ بضم «التاء»، لإجماع الحُجَّةِ من القراءة عليه، مع مشايعة عامة أهل التأويل على صحة تأويله، وذلك لإجماع عايتهم على أن تأويله: فأخرا من أهل الميت، الذين استحق المؤمنان على مال الميت الإثم فيهم، يقومان مقام المستحقين الإثم فيهما، بخيانتها ما خانا من مال الميت.

وأحسب أن الذين قرأوا ذلك بفتح «التاء»، أرادوا أن يؤجَّهوا تأويله إلى: «فأخرا يقومان مقامهما»، مقام المؤمنين اللذين عُثِرَ على خيانتها في القسم، والاستحقاق به عليهما، دعواهما قبلهما - من «الذين استحق» على المؤمنين على المال على خيانتها القيام مقامهما في القسم والاستحقاق، الأوليان بالميت.

وكذلك كانت قراءة من رُوِيَ هذه القراءة عنه، فقرأ ذلك: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ﴾ بفتح «التاء» و«الأوليان»، على معنى: الأوليان بالميت وماله.

وذلك مذهب صحيح، وقراءة غير مدفوعة صحتها، غير أننا نختار الأخرى، لإجماع الحجة من القُرْأَةِ عليها، مع موافقتها التأويل الذي ذكرنا عن الصحابة والتابعين.

وأما قوله: «عليهم» في هذا الموضع، فإنَّ معناها: فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ﴾، [البقرة: ١٠٢]، يعني: في ملك سليمان، وكما قال: ﴿وَلَا صَلَّيْنُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]. فـ «في» توضع موضع «على»، و«على» في موضع «في»، كل واحدة منهما تعاقب صاحبتهما في الكلام.

وأما قوله: «الأوليان»، فإنَّ معناه عندنا: الأولى بالميت من المقسمين الأولين فالأولى. وقد يحتمل أن يكون معناه: الأولى باليمين منهما فالأولى - ثم حذف «منهما»، والعربُ تفعل ذلك فتقول: «فلان أفضل»، وهي تريد: «أفضل منك»، وذلك إذا وضع «أفعل» موضع الخبر. وإنَّ وقع موقع الاسم و أدخلت فيه «الألف واللام»، فعلوا ذلك أيضاً، إذا كان جواباً للكلام قد مضى، يقالوا: «هذا الأفضل، وهذا الأشرف»، يريدون: هو الأشرف منك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ
شَهِدَتِيهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فيقسم الأخران اللذان يقومان مقامَ اللذين عثر على أنهما استحقا إثماً بخيانتهم مالَ الميت، الأوليان باليمين والميت من الخائنين: «لشهادتنا أحقُّ من شهادتهما»، يقول: لأيماننا أحقُّ من أيمانِ المُقْسِمِينَ المستحقِّين الإثم، وأيمانُهما الكاذبة - في أنَّهما قد خانا في كذا وكذا من مالِ مَيِّتِنَا، وكذا في أيمانِهما التي حلفا بها. «وما اعتدينا»، يقول: وما تجاوزنا الحقَّ في أيماننا.

«إنا إذا لمن الظالمين» يقول: إِنَّا إِنْ كُنَّا اعْتَدِينَا فِي أَيْمَانِنَا، فحلفنا مُبْطِلِينَ فِيهَا كَاذِبِينَ، «لَمِنَ الظَّالِمِينَ»، يقول: لِمَنْ عِدَادٍ مَنْ يَأْخُذُ مَا لَيْسَ لَهُ

أخذه، ويقطع بأيمانه الفاجرة أموال الناس

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ

يعني تعالى ذكره بقوله: «ذلك»، هذا الذي قلت لكم في أمر الأوصياء - إذا اربتم في أمرهم، واتهمتموهم بخيانة لمال من أوصى إليهم، من حبسهم بعد الصلاة، واستحلافكم إياهم على ما ادعى قبلهم أولياء الميت. «أذنى» لهم «أن يأتوا بالشهادة على وجهها»، يقول: هذا الفعل، إذا فعلتم بهم، أقرب لهم أن يصدقوا في أيمانهم، ولا يكتموا، ويُقرُّوا بالحق ولا يخونوا. «أو يخافوا أن تُردَّ أيمانٌ بعد أيمانهم»، يقول: أو يخاف هؤلاء الأوصياء أن عثر عليهم أنهم استحقوا إثماً في أيمانهم بالله، أن تُردَّ أيمانهم على أولياء الميت، بعد أيمانهم التي عثر عليها أنها كذب، فيستحقوا بها ما ادعوا قبلهم من حقوقهم، فيصدقوا حينئذٍ في أيمانهم وشهادتهم، مخافةً الفضيحة على أنفسهم، وحثراً أن يستحق عليهم ما خانوا فيه أولياء الميت وورثته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا اللَّهَ لَا يَهْدِيَ الْقَوْمَ

الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ذكره: وخافوا الله، أيها الناس، وراقبوه في أيمانكم أن تحلفوا بها كاذبة، وأن تذهبوا بها مال من يحرم عليكم ماله، وأن تخونوا من أتمنكم. «واسمعوا»، يقول: اسمعوا ما يُقال لكم وما تُوعظون به، فاعملوا به، وانتهوا إليه. «والله لا يهدي القوم الفاسقين»، يقول: والله لا يوفق من فسق عن أمر ربه، فخالفه وأطاع الشيطان وعصى ربه.

ثم اختلف أهل العلم في حكم هاتين الآيتين، هل هو منسوخ، أو هو مُحْكَم ثابت؟

فقال بعضهم: هو منسوخ.

وقال جماعة: هي محكمة وليست بمنسوخة. وقد ذكرنا قول أكثرهم فيما مضى.

والصواب من القول في ذلك أن حُكْم الآية غير منسوخ. وذلك أن من حكم الله تعالى ذِكْرُه الذي عليه أهل الإسلام، من لدن بعث الله تعالى ذِكْرُه نبيه محمداً ﷺ إلى يومنا هذا، أن مَنْ ادَّعى عليه دَعْوَى مِمَّا يملكه بنو آدم، أن المدَّعى عليه لا يرثه مما ادَّعى عليه إلا اليمين، إذا لم يكن للمدَّعي بَيِّنَةٌ تصحُّح دَعَوَاهُ - وأنه إن اعترف في يَدِ المدَّعي عليه سلعة له، فادَّعى أنها له دون الذي في يده، فقال الذي هي في يده: «بل هي لي، اشتريتها من هذا المدَّعي»، أن القول قول مَنْ زَعَمَ الذي هي في يده أنه اشتراها منه، دون مَنْ هي في يده مع يمينه، إذا لم يكن للذي هي في يده بَيِّنَةٌ تحقق به دَعَوَاهُ الشراء منه.

فإذا كان ذلك حكم الله الذي لا خِلافَ فيه بين أهل العلم، وكانت الآيتان اللتان ذكر الله تعالى ذِكْرُه فيهما أمرَ وصية الموصي إلى عَدْلَيْنِ من المسلمين، أو إلى آخرين من غيرهم، إنما ألَزَمَ النبي ﷺ، فيما ذكر عنه، الوصِيَّينَ اليمينَ حين ادَّعى عليهما الورثة ما ادَّعوا، ثم لم يلزم المدَّعى عليهما شيئاً إذ حلّفا، حتى اعترفتِ الورثة في أيديهما ما اعترفوا من العجام أو الإبريق أو غير ذلك من أموالهم؛ فزعمَا أنهما اشترياه من ميتهم، فحينئذٍ ألَزَمَ النبي ﷺ ورثة الميتَ اليمينَ، لأن الوصيين تحوُّلاً مُدَّعين بدعواهما ما وَجَدَا في أيديهما من مال الميت أنه لهما، اشترياً ذلك منه، فصارَا مُقْرَئِينَ بالمال

للميت، مدعين منه الشراء، فاحتاجا حينئذٍ إلى بينة تصحح دعواهما، وصارت ورثة الميت رب السلعة، أولى باليمين منهما. فذلك قوله تعالى ذكّره: «فإن عثر على أنهما استحقا إثماً فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما»، الآية.

فإذ كان تأويل ذلك كذلك، فلا وجه لدعوى مدّع أن هذه الآية منسوخة، لأنه غير جائز أن يُقضى على حكم من أحكام الله تعالى ذكّره أنه منسوخ، إلا بخبر يقطع العذر: إما من عند الله، أو من عند رسوله ﷺ، أو بورود النقل المستفيض بذلك، فأما ولا خبر بذلك، ولا يدفع صحته عقل، فغير جائز أن يُقضى عليه بأنه منسوخ.

القول في تأويل قوله تعالى: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ
قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ذكّره: «واتقوا الله، أيها الناس. واسمعوا وعظه إياكم وتذكيره لكم، واحذروا يوم يجمع الله الرسل - ثم حذف «واحذروا»، واكتفى بقوله: «واتقوا الله واسمعوا»، عن إظهاره.

وأما قوله: «ماذا أُجبتُم»، فإنه يعني به: ما الذي أجابتكم به أممكم، حين دعوتهم إلى توحيدى، والإقرار بى، والعمل بطاعتي، والانتهاى عن معصيتى؟ «قالوا لا علم لنا».

ومعناه: لا علم لنا، إلا علم أنت أعلم به منا، لأنه تعالى ذكّره أخبر عنهم أنهم قالوا: «لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب: أي: إنك لا تخفى عليك ما عندنا من علم، ذلك ولا غيره من خفى العلوم وجليها. فإنما نفى القوم أن

يكون لهم بما سئَلُوا عنه من ذلك علم لا يعلمه هو تعالى ذِكْرُهُ - لا أَنَّهُمْ نَفَّوْا أَن يَكُونُوا عُلَمَاءُ مَا شَهِدُوا. وكيف يجوز أن يكون ذلك كذلك، وهو تعالى ذِكْرُهُ يخبر عنهم أَنَّهُمْ يُخْبِرُونَ بما أَجَابْتَهُمْ به الأُمَمَ، وَأَنَّهُمْ يَشْهَدُونَ على تَبْلِيغِهِم الرِّسَالَةَ شُهَدَاءَ، فقال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقِصَ ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ

معنى الكلام: «إِذْ قَالَ اللَّهُ»، حين قال. «يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ»، يقول: يا عيسى اذكر أياذي عندك وعند والدتك، إِذْ قَوَّيْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَأَعْتَنْتُ بِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَظْفَارِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَظْفَارِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِأَظْفَارِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِأَظْفَارِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنكَ إِذْ جَسَّتْهُمُ الْبَابِلُوتُ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ مُوسَىٰ



يقول تعالى ذِكْرُهُ، مخبراً عن قبيله، لعيسى: «اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ»، في حالِ تَكْلِيمِكَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا.

وإنما هذا خبرٌ من الله تعالى ذكَّره: أنه أيده بروح القدس صغيراً في المهد، وكهلاً كبيراً - فردَّ «الكهل» على قوله: «في المهد»، لأنَّ معنى ذلك: صغيراً، كما قال تعالى ذكره: ﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾، [يونس: ١٢].

وقوله: «وإذ علمتكَ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ»، يقول: واذكر أيضاً نعمتي عليك «إذ علمتكَ الكتابَ»، وهو الخطأ. «والحكمة»، وهي الفهم بمعاني الكتاب الذي أنزلته إليك، وهو الإنجيلُ. «وإذ تَخَلَّقُ من الطينِ كهيئة الطير»، يقول: كصورة الطير. «بإذني». يعني بقوله: «تخلق» تعملُ وتصلح - «من الطينِ كهيئة الطير بإذني»، يقول: بعوني على ذلك، وعلمَ مِنِّي به. «فتنفخُ فيها»، يقول: فتنفخُ في الهيئة، فتكون الهيئةُ والصورةُ طيراً بإذني. «وتبرئُ الأكمة»، يقول: وتشفي «الأكمة»، وهو الأعمى الذي لا يبصرُ شيئاً، المطموس البصر. «والأبرص بإذني».

وقوله: «وإذ كففتُ بني إسرائيلَ عنكَ إذ جثتهم بالبينات»، يقول: واذكر أيضاً نعمتي عليك بكفِّي عنكَ بني إسرائيلَ إذ كففتهم عنكَ، وقد هموا بقتلك. «إذ جثتهم بالبينات»، يقول: إذ جثتهم بالأدلة والأعلامِ المعجزة على نبوتك، وحقيقة ما أرسلتكَ به إليهم. «فقال الذين كفروا منهم»، يقولُ تعالى ذكَّره: فقال الذين جحدوا نبوتكَ وكذبوك من بني إسرائيل. «إن هذا إلا سحر مبين».

القولُ في تأويلِ قولِهِ تعالى: وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي

وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١٠﴾

(يعني): «وإذ أُلقيتُ إلى الحواريين أن صدَّقوا بي ورسولي عيسى، فقالوا: «آمنّا»، أي: صدقنا بما أمرتنا أن نؤمنَ بربنا. «واشهد» علينا «بأننا

مسلمون»، يقول: واشهد علينا بأننا خاضعون لك بالذلة، سامعون مطيعون لأمرك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾

يقول تعالى ذكره: واذكر، يا عيسى، أيضاً نعمتي عليك، إذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي، إذ قالوا لعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء - فـ «إذ»، الثانية من صلة «أوحيتُ».

وأما قوله: «قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين»، فإنه يعني: قال عيسى للحواريين القائلين له: «هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء» - راقبوا الله، أيها القوم، وخافوه، أن ينزل بكم من الله عقوبة على قولكم هذا، فإن الله لا يعجزه شيء أراد. وفي شككم في قدرة الله على إنزال مائدة من السماء، كفر به، فاتقوا الله أن ينزل بكم نِقْمَتُهُ. «إن كنتم مؤمنين»، يقول: إن كنتم مصدقي على ما أتوعدكم به من عقوبة الله إياكم على قولكم: «هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء»؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَحْطَمَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقَتْنَا وَكُنُوعًا عَلَيْهِنَّ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٤﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: قال الحواريون مجيبي عيسى على قوله لهم: «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين»، في قولكم لي: «هل يستطيع ربك أن ينزل علينا

مائدة من السماء»:- إنا إنما قلنا ذلك، وسألناك أن تسأل لنا رَبَّكَ لِنَأْكُلَ من المائدة، فنعلم يقيناً قدرته على كل شيء. «وتطمئن قلوبنا»، يقول: وتسكن قلوبنا، وتستقرّ على وحدانيته وقدرته على كل ما شاء وأراد. «ونعلم أنّ قد صدقتنا»، ونعلم أنك لم تكذبنا في خبرك أنك لله رسولٌ مُرْسَلٌ ونبىٌ مبعوثٌ. «ونكون عليها»، يقول: ونكون على المائدة. «من الشاهدين»، يقول: ممن يشهد أنّ الله أنزلها حجةً لنفسه علينا في توحيده وقدرته على ما شاء، ولك على صدقك في نبوتك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٣﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكّره عن نبيه عيسى عليه السلام، أنه أجاب القوم إلى ما سألوه من مسألة ربه مائدة تنزل عليهم من السماء.

وقوله: «تكون لنا عيداً» معناه: تكون لنا عيداً، نعبُد ربَّنَا في اليوم الذي تنزل فيه، ونصلي له فيه، كما يعبد الناس في أعيادهم، لأنّ المعروف من كلام الناس المستعمل بينهم في «العيد»، ما ذكرنا.

وأما قوله: «لأوّلنا وآخرنا»، فإنّ الأولى من تأويله بالصواب، قول مَنْ قال: «تأويله: للأحياء منا اليوم، ومَنْ يحيى بعدنا منا».

وأما قوله: «آية منك»، فإنّ معناه: علامة وحجة منك يارب، على عبادك في وحدانيتك، وفي صدقي على أنّي رسولٌ إليهم بما أرسلتني به. «وارزقنا وأنت خير الرازقين»، وأعطنا من عطائك، فإنك يارب خير مَنْ يُعطي، وأجود من تفضل، لأنه لا يدخلُ عطاءه مَنْ ولا نكد.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

وهذا جواب من الله تعالى ذكَّره القوم فيما سألوا نبيهم عيسى مسألة ربهم، من إنزاله مائدة عليهم. فقال تعالى ذكَّره: إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ، أيها الحواريون، فَمُطْعِمُكُمْوَهَا. «فمن يكفر بعد منكم»، يقول: فمن يجحد بعد إنزالها عليكم، وإطعاميكموها - منكم رسالتي إليه، وينكر نبوة نبيي عيسى ﷺ، ويخالف طاعتي فيما أمرته ونهيته. «فإني أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ»، من عالمي زمانه. ففعل القوم، فجحدوا وكفروا بعد ما أنزلت عليهم، فيما ذكَّر لنا، فَعُذِّبُوا، فيما بَلَّغْنَا، بَأَن مَسَّخُوا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ.

تأويل الكلام: «أَأَنْتَ قُلْتَ للناس اتخذوني وأمي إلهين»، أي: معبودين تعبدونهما من دون الله. قال عيسى: تنزيهاً لك يارب وتعظيماً أن أفعل ذلك أو أتكلم به. «ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق»، يقول: ليس لي أن أقول ذلك، لأنني عبد مخلوق، وأمي أمة لك، وكيف يكون للعبد والأمة ادعاء ربوبية؟. «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ»، يقول: إنك لا يخفى عليك شيء، وأنت عالم أني لم أقُل ذلك ولم أمرهم به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ

إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ، مُخْبِرًا عن نبيه عيسى ﷺ: أنه يبرأ إليه مما قالت فيه وفي أمه الكَفَرَةُ من النصارى، أَنْ يَكُونَ دعاهم إليه أو أمرهم به، فقال: «سبحانك ما يكون لي أَنْ أَقُولَ ما ليس لي بحق إِنَّ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ». ثم قال: «تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي»، يقول: إِنَّكَ يَا رَبِّ، لَا يَخْفَى عَلَيْكَ مَا أَضْمَرْتُهُ نَفْسِي مِمَّا لَمْ أَنْطِقْ بِهِ وَلَمْ أَظْهَرِهِ بِجَوَارِحِي، فَكَيْفَ بِمَا قَدْ نَطَقْتُ بِهِ وَأَظْهَرْتُهُ بِجَوَارِحِي؟ يقول: لَوْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لِلنَّاسِ: «اتَّخِذُونِي وَأَمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ»، كُنْتُ قَدْ عَلِمْتُهُ، لِأَنَّكَ تَعْلَمُ ضَمَائِرَ النُّفُوسِ مِمَّا لَمْ تَنْطِقْ بِهِ، فَكَيْفَ بِمَا قَدْ نَطَقْتُ بِهِ؟ «وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ»، يقول: وَلَا أَعْلَمُ أَنَا مَا أَخْفَيْتَهُ عَنِّي فَلَمْ تُظْلِعْنِي عَلَيْهِ، لِأَنِّي إِنَّمَا أَعْلَمُ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا أَعْلَمْتَنِيهِ. «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»، يقول: إِنَّكَ أَنْتَ الْعَالِمُ بِخَفِيَّاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَطْلُعُ عَلَيْهَا سِوَاكَ، وَلَا يَعْلَمُهَا غَيْرُكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرَهُ عن قول عيسى، يقول: ما قلتُ لهم إلا الذي أَمَرْتَنِي بِهِ مِنَ الْقَوْلِ أَنْ أَقُولَهُ لَهُمْ، وَهُوَ أَنْ قُلْتُ لَهُمْ: «اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ». «وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ»، يقول: وَكُنْتُ عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ شَاهِدًا عَلَيْهِمْ وَعَلَى أَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ. «فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي»، يقول: فَلَمَّا قَبَضْتَنِي إِلَيْكَ. «كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ»، يقول: كُنْتُ أَنْتَ الْحَفِیْظُ عَلَيْهِمْ دُونِي، لِأَنِّي إِنَّمَا شَهِدْتُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ مَا عَمَلُوهُ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ.

وفي هذا تبيان أن الله تعالى ذكره إنما عرّفه أفعال القوم ومقاتلهم بعد ما قبضه إليه وتوفاه بقوله: «أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

«وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» يقول: وَأَنْتَ تَشْهَدُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، لَأنه لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ. وأما أنا، فإنما شهدتُ بعض الأشياء، وذلك ما عاينتُ وأنا مقيمٌ بين أظهرِ القوم، فإنما أنا أشهدُ على ذلك الذي عاينتُ ورأيتُ وشهدتُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

يقول تعالى ذكره: إِنْ تُعَذِّبْ هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، بإماتتك إياهم عليها. «فإنهم عبادُك»، مُستسلمون لك، لَا يمتنعون مما أردت بهم، وَلَا يدفعون عن أنفسهم ضرّاً ولا أمراً تنالهم به. «وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ»، بهدایتك إياهم إلى التوبة منها، فتستر عليهم. «فإنك أَنْتَ الْعَزِيزُ»، في انتقامه ممن أراد الانتقام منه، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ بِدفعه عنه. «الْحَكِيمُ»، في هدايته مَنْ هَدَى مِنْ خَلَقِهِ إِلَى التوبة، وتوفيقه مَنْ وَفَّقَ مِنْهُمْ لِسبيلِ النجاة من العقاب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

اختلفت القراءَةُ في قراءة قوله: «هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ». فقرأ ذلك بعض أهل الحجاز والمدينة: «هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ»، بنصب «يوم».

وقراه بعض أهل الحجاز وبعض أهل المدينة، وعامة قَرَاءَةِ أهلِ العراق: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾، برفع «يوم». فمن رفعه رفعه بـ «هذا»، وجعل «يوم» اسماً، وإن كانت إضافته غير محضة، لأنه قد صار كالمنعوت.

وكان من قرأ هذا هكذا رفعاً، وجَّه الكلام إلى أنه من قِيلَ اللهُ يَوْمَ القيامة.

وأما النصب في ذلك، فإنه يتوجه من وجهين:

أحدهما: أن إضافة «يوم» ما لم تكن إلى اسم، تجعله نصباً، لأن الإضافة غير محضة. وإنما تكون الإضافة محضة، إذا أضيف إلى اسم صحيح ونظير «اليوم» في ذلك: «الحين» و«الزمان»، وما أشبههما من الأزمنة.

والوجه الآخر: أن يكون مراداً بالكلام: هذا الأمر وهذا الشأن، يوم ينفع الصادقين - فيكون «اليوم» حينئذ منصوباً على الوقت والصفة، بمعنى: هذا الأمر في يوم ينفع الصادقين صدقهم.

وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾، بنصب «اليوم»، على أنه منصوب على الوقت والصفة. لأن معنى الكلام: إِنَّ اللهَ جَلَّ وتعالى ذِكْرُهُ، أجاب عيسى حين قال: «سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ»، إلى قوله: «فإنك أنت العزيز الحكيم»، فقال له عز وجل: هذا القولُ النافع - أو هذا الصدق النافع - يوم ينفع الصادقين صدقهم. فـ «اليوم» وقت القول والصدق النافع.

فإن قال قائل: فما موضع «هذا»؟

قيل: رفع.

فإن قال: فأين رآفعه؟

قيل: مضمّر. وكأنه قال: قال الله عز وجل: هذا، هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم.

فتأويل الكلام، إذ كان الأمر على ما وصفنا لما بينا: قال الله لعيسى: هذا القول النافع في يوم ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم ذلك، في الآخرة عند الله. «لهم جنات تجري من تحتها الأنهار»، يقول: للصادقين في الدنيا، جنات تجري من تحتها الأنهار في الآخرة، ثواباً لهم من الله عز وجل على ما كان من صدقهم الذي صدقوا الله فيما وعدوه، فوفوا به الله، فوفى الله عز وجل لهم ما وعدهم من ثوابه. «خالدين فيها أبداً»، يقول: باقين في الجنات التي أعطاهموها. «أبداً»، دائماً، لهم فيها نعيم لا ينتقل عنهم ولا يزول.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»



يقول تعالى ذِكْرَهُ: رَضِيَ اللَّهُ عَنْ هَؤُلَاءِ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي الْوَفَاءِ لَهُ بِمَا وَعَدُوهُ، مِنَ الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ. «ورضوا عنه»، يقول: وَرَضُوا هُمْ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرَهُ فِي وَفَائِهِ لَهُمْ بِمَا وَعَدَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ، مِنْ جَزِيلِ ثَوَابِهِ. «ذلك الفوز العظيم»، يقول: هذا الذي أعطاهم الله مِنَ الْجَنَّاتِ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا مَرْضِيًّا عَنْهُمْ وَرَاضِينَ عَنْ رَبِّهِمْ، هُوَ الظَّفَرُ الْعَظِيمُ بِالطَّلْبَةِ، وَإِدْرَاكِ الْحَاجَةِ الَّتِي كَانُوا يَطْلُبُونَهَا فِي الدُّنْيَا، وَلَهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِيهَا، فَتَأَلَّوْا مَا طَلَبُوا، وَأَدْرَكُوا مَا أَمَلُوا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَيُّهَا النَّصَارَى، «لِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، يقول: له سلطانُ السموات والأرض. «وما فيهن»، دون عيسى الذي تزعمون أنه إلهكم، ودون أمه، ودونَ جميع مَنْ في السموات وَمَنْ في الأرض، فإنَّ السمواتِ والأرضِ خُلِقُوا مِنْ خَلْقِهِ وما فيهن، وعيسى وأُمُّه من بعض ذلك بالحلول والانتقال، يدلُّان بكونهما في المكان الذي هما فيه بالحلول فيه والانتقال، أنهما عبدان مملوكان لِمَنْ له ملكُ السموات والأرض وما فيهن. يَنْبَهُهُم وَجَمِيعَ خَلْقِهِ عَلَى مَوْضِعِ حُجَّتِهِ عَلَيْهِم، لِيَذَّبُوهُ وَيَعْتَبِرُوهُ فَيَعْقِلُوا عَنْهُ. «وهو على كل شيء قدير»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: واللَّهِ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وما فيهن، قَادِرٌ عَلَى إِفْنَائِهِنَّ وَعَلَى إِهْلَاكِهِنَّ، وإِهْلَاكِ عِيسَى وَأُمِّهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً كَمَا ابْتَدَأَ خَلْقَهُمْ، لا يعجزه ذلك ولا شيء أرادَه، لَأَنَّ قُدْرَتَهُ الْقُدْرَةُ الَّتِي لَا تُشَبِّهُهَا قُدْرَةُ، وسلطانَه السلطان الَّذِي لَا يُشَبِّهُهُ سُلْطَانٌ وَلَا مَمْلَكَةٌ.

نَفْسِي سُوْرَةُ الْاَنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(١)

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ

يعني تعالى ذِكْرَهُ بقوله: «الحمد لله»، الحمد الكامل لله وحده لا شريك
له دون جميع الأنداد والآلهة، ودون ماسواه مما تعبدُه كَفَرَةُ خَلْقِهِ من الأوثان
والأصنام.

وهذا كلامٌ مخرجه مخرج الخبير، يُنْحَى به نحو الأمر. يقول: أَخْلَصُوا
الحمد والشكر لِلَّذِي خَلَقَكُمْ، أيها الناس، وخلق السموات والأرض، ولا
تشرِكوا معه في ذلك أحداً أو شيئاً، فإنه المستوجب عليكم الحمد بأياديه
عندكم ونعمه عليكم، لا مَنْ تعبدونه من دونه، وتجعلونه له شريكاً من خَلْقِهِ.

(١) ذكر الزجاج أن أكثر سورة الأنعام احتجاج على مشركي العرب، على مَنْ كَذَّبَ
بالبعث والنشور (معاني القرآن: ٢٢٧/٢).

وذكر صاحب «الظلال» أن موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى متنها هو
موضوع العقيدة بكل مقوماتها وبكل مكوناتها... إنها تطوف بالنفس البشرية في
ملكوت السموات والأرض تلحظ فيها الظلمات والنور وترقب الشمس والقمر والنجوم،
وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات، والمياه الهاطلة عليها والجارية
فيها. وتتقف على مصارع الأمم الخالية، وأثارها البائدة والباقية. ثم تسبح بها في
ظلمات البر والبحر، وأسرار الغيب والنفس، والحي يخرج من الميت، والميت يخرج
من الحي، والجنة المستكنة في ظلمات الأرض، والنطفة المستكنة في ظلمات
الرحم. ثم تمسج بالجن والإنس، والطيور والوحش، والأولين والآخرين، والموتى
والأحياء... إنه الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وأظلم الليل، وأنار النهار.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ



يقول تعالى ذِكْرُهُ، مُعْجَبًا خَلَقَهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كُفْرَةِ عِبَادِهِ، وَمَحْتَجًّا عَلَى الْكَافِرِينَ: إِنَّ الْإِلَهَ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، حَمْدُهُ، هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، الَّذِي جَعَلَ مِنْهُمَا مَعَايِشَكُمْ وَأَقْوَاتَكُمْ، وَأَقْوَاتَ أَنْعَامِكُمُ الَّتِي بِهَا حَيَاتُكُمْ. فَمَنْ السَّمَوَاتِ يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ الْغَيْثُ، وَفِيهَا تَجْرِي الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِاعْتِقَابٍ وَاخْتِلَافٍ لِمَصَالِحِكُمْ. وَمِنَ الْأَرْضِ يَنْبُتُ الْحَبُّ الَّذِي بِهِ غِذَاؤُكُمْ، وَالشُّمَارُ الَّتِي فِيهَا مَلَأْتُكُمْ، مَعَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي فِيهَا مَصَالِحُكُمْ وَمَنَافِعُكُمْ بِهَا - وَالَّذِينَ يَجْحَدُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ خَلْقٍ ذَلِكَ لَهُمْ وَلَكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ. «بربهم»، الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ وَأَحْدَثَهُ. «يَعْدِلُونَ»، يَجْعَلُونَ لَهُ شَرِيكًا فِي عِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُ، فَيَعْبُدُونَ مَعَهُ الْأَلِهَةَ وَالْأَنْدَادَ وَالْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ، وَلَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ شَرِكُهُ فِي خَلْقِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا فِي إِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، بَلْ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَهُمْ يَشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُ غَيْرُهُ. فَسَبْحَانَ اللَّهِ مَا أَبْلَغَهَا مِنْ حُجَّةٍ، وَأَوْجَزَهَا مِنْ عِظَةٍ، لِمَنْ فَكَّرَ فِيهَا بِعَقْلِ، وَتَدَبَّرَهَا بِفَهْمٍ!

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ

الأنعام: ٢

يعني تعالى ذكَّره بقوله: «هو الذي خلقكم من طين»، أن الله الذي خلق السموات والأرض، وأظلم ليلهما وأنار نهارهما، ثم كفرَ به مع إنعامه عليهم الكافرون، وعدلوا به مَنْ لا ينفعهم ولا يضرُّهم، هو الذي خلقكم، أيها الناس، من طين. وإنما يعني بذلك تعالى ذكَّره: أن الناس ولَّدَ مَنْ خَلَقَهُ من طين، فأخرج ذلك مخرجَ الخطابِ لهم، إذ كانوا ولَّده.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ.

معناه: ثم قضى أجل الحياة الدنيا. «وأجل مسمى عنده»، وهو أجل البعث عنده لأنه تعالى ذكَّره نُبّه خلقه على موضع حُجَّتِهِ عليهم من أنفسهم فقال لهم: أيها الناس، إنَّ الذي يعدُّلُ به كفاركم الآلهة والأنداد، هو الذي خلقكم فابتدأكم وأنشأكم من طين، فجعلكم صوراً أجساماً أحياء، بعد إذ كنتم طيناً جماداً، ثم قضى آجالَ حياتكم لفنائكم ومماتكم، ليعيدكم تراباً وطيناً كالذي كنتم قبل أن ينشئكم ويخلقكم - وأجل مسمى عنده لإعادتكم أحياءً وأجساماً كالذي كنتم قبل مماتكم. وذلك نظير قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، [البقرة: ٢٨].

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ أَمَّنتُمْ مَتَرُونَ ﴿٢﴾

يقول تعالى ذكَّره: ثم أنتم تشكون في قُدْرَةِ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ السموات والأرض، وإظلام الليل وإنارة النهار، وخلقكم من طين حتى صيركم بالهيئة التي أنتم بها - على إنشائه إياكم من بعد مماتكم وفنائكم، وإيجاده إياكم بعد عدمكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى ذكره: إِنَّ الذي له الألوهة التي لا تنبغي لغيره، المستحقُّ عليكم إخلاصَ الحمد له بآلائه عندكم، أيها الناس، الذي يعدلُ به كُفَّارُكم مَنْ سواه، هو الله الذي هو في السموات وفي الأرض يعلم سِرُّكم وجَهْرُكم، فلا يخفى عليه شيء. يقول: فربكم الذي يستحقُّ عليكم الحمد، ويجبُ عليكم إخلاصُ العبادة له، هُوَ هذا الذي صِفَتُهُ - لا مَنْ لا يقدرُ لكم على ضَرٍّ ولا نفعٍ، ولا يعملُ شيئاً، ولا يدفعُ عن نفسه سوءاً أريدَ بها.

وأما قوله: «ويعلم ما تكسبون»، يقول: ويعلم ما تعملون وتجرحون، فيُحصي ذلك عليكم ليجازيكم به عند معادكم إليه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما تأتي هؤلاء الكفار الذين بربهم يعدلون أو ثانهم وآلهتهم. «آية من آيات ربهم»، يقول: حجةٌ وعلامةٌ ودلالةٌ من حُججِ رَبِّهم ودلالاته وأعلامه على وحدانيته، وحقيقة نبوتك، يا محمد، وصدق ما أُنتِهمُ به من عندي. «إلا كانوا عنها مُعْرِضِينَ»، يقول: إلا أعرضوا عنها، يعني عن الآية، فصدّوا عن قبولها، والإقرار بما شهدت على حقيقته ودلّت على صحته، جهلاً منهم بالله، واغتراراً بحليمه عنهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذكره: فقد كَذَّبَ هؤلاء العادلون بالله، الحقُّ لما جاءهم، وذلك «الحق»، هو محمد ﷺ: كَذَّبُوا بِهِ، وجحدوا بُبُوَّتَهُ لما جاءهم. قَالَ اللهُ لَهُمْ مُتَوَعِّدًا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ وَجُحُودِهِمْ بُبُوَّتَهُ: سوف يَأْتِي المَكْذِبِينَ بك، يا محمد، من قومِكَ وغيرهم. «أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يقول: سوف يَأْتِيهِمْ أَخْبَارُ استهْزَائِهِمْ بما كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ من آيَاتِي وَأَدْلَتِي الَّتِي آتَيْتُهُمْ. ثم وفي لهم بوعيده لَمَّا تَمَادَوْا فِي غِيْبِهِمْ، وَعَتَوْا عَلَى رَبِّهِمْ، فقتلتهم يوم بدرٍ بالسيف.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أَلَمْ يَرَوْا هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبُونَ بِآيَاتِي، الجاحدون بُبُوَّتِكَ، كَثْرَةً مِمَّنْ أَهْلَكْتُ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ - وهم الأمم - الذين وَطَّأَتْ لَهُمُ الْبِلَادُ وَالْأَرْضُ تَوَاطُؤَةً لَمْ أُوطِئْهَا لَهُمْ، وَأَعْطَيْتُهُمْ فِيهَا مَا لَمْ أُعْطِهِمْ؟ أَمْطَرْتُ فَأَخْرَجْتُ لَهُمُ الْأَشْجَارَ ثَمَارَهَا، وَأَعْطَيْتُهُمُ الْأَرْضَ رَيِّعَ نَبَاتِهَا، وَجَابُوا صَخُورَ جِبَالِهَا، وَذَرَّتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ بِأَمْطَارِهَا، وَتَفَجَّرَتْ مِنْ تَحْتِهِمْ عَيُونُ الْمِيَاهِ بَيْنَابِيعِهَا بِإِذْنِي، فَغَمَطُوا نِعْمَةَ رَبِّهِمْ، وَعَصَوْا رَسُولَ خَالِقِهِمْ، وَخَالَفُوا أَمْرَ بَارِئِهِمْ، وَبَغَوْا حَتَّى حَقَّ عَلَيْهِمْ قَوْلِي، فَأَخَذْتُهُمْ بِمَا اجْتَرَحُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ،

وعاقبتهم بما اكتسبت أيديهم، وأهلكت بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالصيحة، وغير ذلك من أنواع العذاب.

ومعنى قوله: «وأرسلنا السماء عليهم مدراراً»، المطر. ويعني بقوله: «مدراراً»، غزيرة دائمة. «وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين»، يقول: وأحدثنا من بعد الذين أهلكناهم قرناً آخرين، فابتدأنا سواهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾

وهذا إخبار من الله تعالى ذكره نبيه محمداً ﷺ، عن هؤلاء القوم الذين يعدلون برأيهم الأوثان والآلهة والأصنام. يقول تعالى ذكره: وكيف يتفهون الآيات، أم كيف يستدلون على بطلان ما هم عليه مقيمون من الكفر بالله وجود نبوتك، بحجج الله وآياته وأدلته، وهم لعنادهم الحق وبعدهم من الرشد، لو أنزلت عليك، يا محمد، الوحي الذي أنزلته عليك مع رسولي، في قِرطاس يُعَايِنُونَهُ ويمسونه بأيديهم، وينظرون إليه ويقرأونه منه، مُعَلِّقًا بين السماء والأرض، بحقيقة ما تدعوهم إليه، وصحة ما تأتيهم به من توحيدي وتنزيلي، لقال الذين يعدلون بي غيري فيشركون في توحيدي سواي: «إن هذا إلا سحر مبين»، أي: ما هذا الذي جئنا به إلا سحر سحرت به أعيننا، ليست له حقيقة ولا صحة. «مبين»، يقول: مبين لمن تدبره وتأمله أنه سحر لا حقيقة له.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ شَرًّا لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾

الأنعام : ٨ - ٩

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال هؤلاء المُكَذِّبُونَ بآياتي، العادلون بي الأنداد والالهة، يا محمد، لك، لو دعوتهم إلى توحيدي والإقرار بربوبيتي، وإذا أتيتهم من الآيات والعبر بما أتيتهم به، واحتججت عليهم بما احتججت عليهم مما قطعت به عُذْرَهُمْ: هَلَّا نُزِّلَ عَلَيْكَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ فِي صُورَتِهِ، يُصَدِّقُكَ عَلَى مَا جِئْتَنَا بِهِ، ويشهد لك بحقيقة ماتدعي من أن الله أرسلك إلينا! كما قال تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن المشركين في قِلبهم لِنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، «ولو أنزلنا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ»، يقول: ولو أنزلنا مَلَكًا عَلَى مَا سَأَلُوا، ثم كفروا ولم يؤمنوا بي وبرسولي، لجاءهم العذاب عاجلاً غير آجل، ولم يُنْظَرُوا فَيُؤْخَرُوا بِالْعُقُوبَةِ مَرَاجِعَةَ التَّوْبَةِ، كما فعلت بمن قبلهم من الأمم التي سألت الآيات، ثم كفرت بعد مجيئها، مِنْ تَعْجِيلِ النِّقْمَةِ، وترك الإنظار.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو جعلنا رسولنا إلى هؤلاء العادلين بي، القائلين: لولا أنزل على محمد ﷺ مَلَكٌ بتصديقه - ملكاً ينزل عليهم من السماء، يشهد بتصديقي محمد ﷺ، ويأمرهم باتباعه. «لجعلناه رجلاً»، يقول: لجعلناه في صورة رجلٍ من البشر، لأنهم لا يقدرُونَ أَنْ يَرَوْا الْمَلَكَ فِي صُورَتِهِ. يقول: وإذا كان ذلك كذلك، فسواء أنزلت عليهم بذلك ملكاً أو بشراً، إذ كنتُ إذا أنزلتُ عليهم مَلَكًا إنما أنزلُهُ بِصُورَةِ إِنْسِي، وحججي في كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ عَلَيْهِمْ ثَابِتَةٌ: بِأَنَّكَ صَادِقٌ، وَأَنْ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ حَقٌّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿١﴾

يعني تعالى ذكّره بقوله: «وللبسنا عليهم»: ولو أنزلنا ملكاً من السماء مُصَدِّقاً لك، يا محمد، شاهداً لك عند هؤلاء العادلين بي، الجاحدين آياتك على حقيقة نبوتك، فجعلناه في صورة رجلٍ من بني آدم، إذ كانوا لا يُطيقون رؤية الملك بصورته التي خلقته بها - التبس عليهم أمره، فلم يدروا أملك هو أم إنسي! فلم يُوقنوا به أنه ملك، ولم يُصدّقوا به، وقالوا: «ليس هذا ملكاً!» وللبسنا عليهم ما يلبسونه على أنفسهم من حقيقة أمرك، وصحة برهانك وشاهدك على نبوتك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسُلَ مَنْ قَبْلِكَ فَحَقَّ
بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى ذكّره لنبّيه محمد ﷺ، مسلماً عنه بوعيده المستهزين به عقوبة ما يلقى منهم من أذى الاستهزاء به، والاستخفاف في ذات الله: هُوَ عَلَيْكَ، يا محمد، ما أنت لاقٍ من هؤلاء المستهزين بك، المستخفين بحقك في وفي طاعتي، وامض لما أمرتك به من الدعاء إلى توحيدٍ والإقرار بي والإذعان لطاعتي، فإنهم إن تمادوا في غيهم، وأصرّوا على المقام على كفرهم، نسلك بهم سبيل أسلافهم من سائر الأمم من غيرهم، من تعجيل النعمة لهم، وحلول المثلاث بهم. فقد استهزأت أُمَمٌ من قبلك برُسُلٍ أرسلتهم إليهم بمثل الذي أرسلتك به إلى قومك، وفعلوا مثلاً ما فعل قومك بك. «فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون»، يعني بقوله: «فحاق»، فنزل وأحاط بالذين هزئوا من رُسُلهم. «ما كانوا به يستهزئون»، يقول: العذاب الذي كانوا يهزأون به، وينكرون أن يكون واقعاً بهم على ما أنذرتهم رُسُلهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا**
كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «قل»، يا محمد، لهؤلاء العادلين بي الأوثان والأنداد، المكذِّبِينَ بك، الجاحدين حقيقة ما جِئْتُهُمْ به من عندي «سيروا في الأرض»، يقول: جُولُوا في بلاد المكذِّبِينَ رُسُلَهُمْ، الجاحدين آياتي مِنْ قَبْلِهِمْ من ضُرْبَائِهِمْ وأشكالِهِمْ من الناس. «ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذِّبِينَ»، يقول: ثم انظروا كيف أَعَقَبُهُمْ تكذيبُهُمْ ذلك، الهلاك والعطب وخزي الدنيا وعارها، وما حَلَّ بهم من سَخَطِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، من البوارِ وَخَرَابِ الدِّيارِ وَعُقُوقِ الآثار. فاعتبروا به، إِنَّ لَمْ تَنْهَكُم حُلُومُكُمْ، ولم تزجركم حُجُجُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ من التكذيب، فاحذروا مِثْلَ مَصَارِعِهِمْ، واتقوا أَنْ يَحُلَّ بكم مِثْلُ الَّذِي حَلَّ بِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ**
كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: «قل»، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم. «لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، يقول: لِمَنْ مُلْكُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ ثم أخبرهم أَنَّ ذَلِكَ لِلَّهِ الَّذِي اسْتَعْبَدَ كُلُّ شَيْءٍ، وَفَهَرَ كُلُّ شَيْءٍ بِمُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ - لا للأوثانِ والأندادِ، ولا لِمَا يَعْبُدُونَهُ وَيَتَّخِذُونَهُ إلهًا من الأصنامِ التي لا تملكُ لأنفسِها نفعًا ولا تدفعُ عنها ضرًّا.

وقوله: «كتب على نفسه الرحمة»، يقول: قَضَى أَنَّهُ بِعِبَادِهِ رَحِيمٌ، لا يعجلُ عَلَيْهِم بِالْعُقُوبَةِ، ويقبلُ مِنْهُمْ الْإِنَابَةَ وَالتَّوْبَةَ.

وهذا من الله تعالى ذِكْرُهُ استعطافٌ للمُعْرِضِينَ عنه إلى الإقبالِ إليه بالتوبة.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إِنَّ هَؤُلَاءِ الْعَادِلِينَ بِي، الْجَاهِدِينَ نَبُوتَكَ، يَامُحَمَّدُ، إِنَّ تَابُوا وَأَنَابُوا قَبْلْتُ تَوْبَتَهُمْ، وَإِنِّي قَدْ قَضَيْتُ فِي خَلْقِي أَنَّ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ

وهذه «اللام» التي في قوله: «ليجمعنكم»، لامٌ قَسَمَ.
ومعنى الكلام: لِيَجْمَعَنَّكُمْ اللَّهُ، أيها العادلون بالله، ليوم القيامة الذي لا ريبَ فيه، لينتقم منكم بكفركم به.
وأما تأويل قوله: «لا ريبَ فيه»، فإنه: لا شك فيه. يقول: في أن الله يجمعكم إلى يوم القيامة، فيحشركم إليه جميعاً، ثم يوتي كُلَّ عاملٍ منكم أَجَرَ ما عمل من حسن أو سيء.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «الذين خسروا أنفسهم»، العادلين به الأوثان والأصنام. يقول تعالى ذِكْرُهُ: لِيَجْمَعَنَّ اللَّهُ. «الذين خسروا أنفسهم»، يقول: الذين أهلكوا أنفسهم وَغَبْنُوهَا بِأَدْعَائِهِمْ لله النَّدَّ وَالْعَدِيلَ، فَأَوْبَقُوهَا بِاسْتِجَابِهِمْ سَخَطَ الله وأليم عقابه في المعاد.

وقوله: «فهم لا يؤمنون»، يقول: «فهم»، لإهلاكهم أنفسهم وغبنهم إياها حَظَّهَا. «لا يؤمنون»، أي لا يُوحِّدُونَ الله، ولا يصدِّقُونَ بوَعْدِهِ ووَعِيدِهِ، ولا يَقْرَؤُونَ بِنُورِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: لا يؤمن هؤلاء العادلون بالله الأوثان، فَيَخْلُصُوا له التوحيد، وَيُقَرِّدُوا له الطاعة، وَيُقَرِّوْا بالالوهية، جهلاً. «وله ما سَكَنَ في الليل والنهار»، يقول: وله ملكُ كُلِّ شيءٍ، لأنه لا شيء من خَلْقِ الله إلا وهو ساكنٌ في الليل والنهار. فمعلومٌ بذلك أن معناه ما وصفنا. «وهو السميع»، يقول: وهو السميع ما يقول هؤلاء المشركون فيه، من ادَّعَاهُمْ له شريكاً، وما يقول غيرهم من خَلْقِهِ. «العليم»، بما يُضْمِرُونَهُ في أنفسهم، وما يُظْهِرُونَهُ بجوارحهم، لا يخفى عليه شيء من ذلك، فهو يُحْصِيهِ عليهم، ليوفي كُلَّ إنسان ثواب ما اكتسب، وجزاء ما عَمِلَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَتَّخَذَ لِيَا فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُلْطَعُ

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمد ﷺ: «قُلْ»، يا محمد، لهؤلاء المشركين العادلين برَّبِّهم الأوثان والأصنام، والمُنْكَرِينَ عليك إخلاص التوحيد لرَبِّكَ، الداعين إلى عبادة الآلهة والأوثان: أشيئاً غير الله تعالى ذِكْرَهُ: «اتَّخَذَ وَلِيًّا»، أَسْتَنْصِرُهُ وَأَسْتَعِينُهُ على النوائب والحوادث.

ويعني بقوله: «فاطر السموات والأرض»، مبتدعهما ومبتدئهما وخالقهما.

وأما قوله: «وهو يطعم ولا يطعم»، فإنه يعني: وهو يَرْزُقُ خَلْقَهُ ولا يَرْزُقُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: «قُلْ»، يامحمد، للذين يَدْعُونَكَ إِلَى اتِّخَاذِ الْأَلِهَةِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَيَحْشُونَكَ عَلَى عِبَادَتِهَا: أَغِيرَ اللَّهُ فَاطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ يَرْزُقُنِي وَغَيْرِي وَلَا يَرْزُقُهُ أَحَدٌ، أَتُخَذُ وَلِيًّا هُوَ لَهُ عَبْدٌ مَمْلُوكٌ وَخَلْقٌ مَخْلُوقٌ؟ وَقُلْ لَهُمْ أَيْضاً: إِنِّي أُمِرْتُ رَبِّي: «أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» يقول: أَوَّلَ مَنْ خَضَعَ لَهُ بِالْعِبَادَةِ، وَتَذَلَّلَ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَانْقَادَ لَهُ مِنْ أَهْلِ دَهْرِي وَزَمَانِي. «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، يقول: قل: وقيل لي: لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْأَلِهَةَ وَالْأَنْدَادَ شُرَكَاءَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين العادلين بالله، الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِلَى عِبَادَةِ أَوْثَانِهِمْ: إِنَّ رَبِّي نَهَانِي عَنْ عِبَادَةِ شَيْءٍ سِوَاهُ. «وإِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي»، فعبدتها. «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»، يعني: عَذَابَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَوَصَفَهُ تَعَالَى بِـ«الْعَظْمِ» لِعِظَمِ هَوْلِهِ، وَفُظَاعَةِ شَأْنِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ
وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

اختلف القراءة في قراءة ذلك.

فقرأته عامة قُرَاءَةَ الْحِجَازِ وَالْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾،
بضم «الياء» وفتح «الراء»، بمعنى: مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ الْعَذَابُ يَوْمَئِذٍ.

وقرأ ذلك عامة قُرَاءَةَ الْكُوفَةِ: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾، بفتح «الياء» وكسر
«الراء»، بمعنى: مَنْ يُصْرَفُ اللَّهُ عَنْهُ الْعَذَابُ يَوْمَئِذٍ.

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب عندي، قراءة مَنْ قَرَأَهُ: ﴿يُصْرَفْ عَنْهُ﴾،
بفتح «الياء» وكسر «الراء»، لدلالة قوله: «فقد رحمه» على صحة ذلك،
وأن القراءة فيه بتسمية فاعله. ولو كانت القراءة في قوله: «من يصرف»، على
وجه ما لم يُسَمَّ فاعله، كان الوجه في قوله: «فقد رحمه» أن يقال: «فقد رُحِمَ»
غير مسمى فاعله. وفي تسمية الفاعل في قوله: «فقد رحمه»، دليلٌ بَيِّنٌ على
أن ذلك كذلك في قوله: «من يصرف عنه».

وإذ كان ذلك هو الوجه الأولي بالقراءة، فتأويل الكلام: مَنْ يُصْرَفُ عَنْهُ
مَنْ خَلَقَهُ يَوْمَئِذٍ عَذَابُهُ فَقَدْ رَحِمَهُ. «وذلك هو الفوز المبين»، ويعني بقوله:
«وذلك»، وصرفُ اللَّهِ عَنْهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَرَحْمَتُهُ إِيَّاهُ. «الفوز»، أي:
النَّجَاةُ مِنَ الْهَلَاكَةِ، وَالظَّفَرُ بِالطَّلِبَةِ. «المبين»، يعني الذي يَبَيِّنُ لِمَنْ رَأَهُ أَنَّهُ
الظَّفَرُ بِالْحَاجَةِ وَإِدْرَاكُ الطَّلِبَةِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِصُفْرِ فَلَكَ كَاشِفٌ

لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ يُصِيبُكَ اللَّهُ. «بِضْرٍ»، يقول: بشدة في دنياك، وشظفٍ في عيشك وضيقٍ فيه فلن يكشف ذلك عنك إلا الله الذي أمرك أن تكون أول من أسلم لأمره ونهيهِ، وأذعن له من أهل زمانك، دون ما يدعوك العادلون به إلى عبادته من الأوثان والأصنام، ودون كل شيء سواها من خلقه. «وإن يمسسك بخير»، يقول: وإن يُصِيبَكَ بخير، أي: برخاءٍ في عيشٍ، وسعةٍ في الرزق، وكثرةٍ في المال، فتقر أنه أصابك بذلك. «فهو على كل شيء قدير»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله الذي أصابك بذلك، فهو على كل شيء قدير، هو القادر على نفعك وضرك، وهو على كل شيء يريد قادر، لا يعجزه شيء يريد، ولا يمتنع منه شيء طلبه، ليس كالألهة الذليلة المهينة التي لا تقدر على اجتلاب نفعٍ على أنفسها ولا غيرها، ولا دفع ضرٍ عنها ولا غيرها. يقول تعالى ذِكْرُهُ: فكيف تعبد من كان هكذا، أم كيف لا تخلص العبادة، وتقر لمن كان بيده الضر والنفع، والثواب والعقاب، وله القدرة الكاملة، والعزة الظاهرة؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ



يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وهو»، نفسه، يقول: والله الظاهر فوق عباده - ويعني بقوله: «القاهر»، المذلُّلُ المُستَعْبَدُ خَلْقُهُ، العالي عليهم. وإنما قال: «فوق عباده»، لأنه وصَفَ نفسه تعالى ذِكْرُهُ بقره إياهم. ومن صِفَةِ كُلِّ قَاهِرٍ شيئاً، أن يكون مُستَعْلِياً عليه.

فمعنى الكلام إذاً: والله الغالب عباده المذلَّلُ لهم، العالي عليهم بتذليله لهم، وخلقهم إياهم، فهو فوقهم بقره إياهم، وهم دونهُ. «وهو الحكيم»،

يقول: والله الحكيم في علوه على عباده، وقهره إياهم بقدرته، وفي سائر تدبيره. «الخبير»، بمصالح الأشياء ومضارها، الذي لا يخفى عليه عواقب الأمور ويواديها، ولا يقع في تدبيره خلل، ولا يدخل حكمه دخل.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ، لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ وَيَجْحَدُونَ نُبُوتَكَ مِنْ قَوْمِكَ: أَيُّ شَيْءٍ أَعْظَمُ شَهَادَةً وَأَكْبَرُ؟ ثُمَّ أَخْبِرْهُمْ بِأَنَّ أَكْبَرَ الْأَشْيَاءِ شَهَادَةُ: «اللَّهُ»، الذي لا يجوز أن يقع في شهادته ما يجوز أن يقع في شهادة غيره من خلقه من السهو والخطأ، والغلط والكذب. ثُمَّ قُلْ لَهُمْ: إِنَّ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ الْأَشْيَاءِ شَهَادَةً، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، بِالْمُحَقِّقِ مِنَّا مِنَ الْمُبْطِلِ، وَالرَّشِيدِ مِنَّا فِي فِعْلِهِ وَقَوْلِهِ مِنَ السَّفِيهِ، وَقَدْ رَضِينَا بِهِ حَكْمًا بَيْنَنَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ

بَلَغَ

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قُلْ لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ يَكْذِبُونَكَ: «اللَّهُ» شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. «وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ» عِقَابَهُ، وَأُنْذِرَ بِهِ مَنْ بَلَغَهُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ غَيْرِكُمْ - إِنَّ لَمْ يَنْتَهَ إِلَى الْعَمَلِ بِمَا فِيهِ، وَتَحْلِيلِ حَلَالِهِ وَتَحْرِيمِ حَرَامِهِ، وَالْإِيمَانِ بِجَمِيعِهِ - نَزُولَ نَقْمَةِ اللَّهِ بِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُنَّ أَنَّ مَعَ اللَّهِ الْهَمَّةَ

أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ، الْجَاهِدِينَ نُبُوتَكَ، الْعَادِلِينَ بِاللَّهِ، رَبًّا غَيْرِهِ: «أَنْتُمْ»، أَيُّهَا الْمَشْرِكُونَ. «لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى»، يقول: تشهدون أَنَّ مَعَهُ مَعْبُودَاتٍ غَيْرِهِ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ.

وقال: «أُخْرَى»، ولم يقل «أُخَر»، و«الآلهة» جمع، لأنَّ الْجُمُوعَ يَلْحَقُهَا، التَّأْنِيثُ، كما قال تعالى ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١]، ولم يقل: «الأول» ولا «الأولين».

ثم قال لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: «قُلْ»، يامحمدُ. «لا أشهد»، بما تشهدون: أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى، بل أَجْحَدُ ذَلِكَ وَأَنْكَرُهُ. «قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ»، يقول: إِنَّمَا هُوَ مَعْبُودٌ وَاحِدٌ، لا شَرِيكَ لَهُ فِيمَا يَسْتَوْجِبُ عَلَى خَلْقِهِ مِنَ الْعِبَادَةِ. «وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ»، يقول: قل: وَإِنِّي بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ شَرِيكَ تَدْعُونَهُ اللَّهَ، وَتُضَيِّفُونَهُ إِلَى شَرِكْتِهِ، وَتَعْبُدُونَهُ مَعَهُ، لا أَعْبُدُ سِوَى اللَّهِ شَيْئًا، ولا أَدْعُو غَيْرَهُ إِلَهًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ

أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: الَّذِينَ «آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ»، التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ - يَعْرِفُونَ أُنْمًا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ -، لا جَمَاعَةَ الْآلِهَةِ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ. «كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ».

ويعني بقوله: «خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ»، أَهْلَكُوهَا وَأَلْقَوْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ،

بإنكارهم محمداً أنه الله رسولٌ مُرْسَلٌ، وهم بحقيقة ذلك عارفون. «فهم لا يؤمنون»، يقول: فهم بخسارتهم بذلك أنفسهم لا يؤمنون.

وقد قيل: إن معنى «خسارتهم أنفسهم»، أن كلَّ عبدٍ له منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار. فإذا كان يوم القيامة، جعل الله لأهل الجنة منازلَ أهل النار في الجنة، وجعل لأهل النار منازلَ أهل الجنة في النار، فذلك خسرانُ الخاسرين منهم، لبيعهم منازلهم من الجنة بمنازل أهل الجنة من النار، بما فرطَ منهم في الدنيا من معصيتهم الله، وظلمهم أنفسهم، وذلك معنى قول الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، [المؤمنون: ١١].

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَمَنْ أَشَدُّ اعْتِدَاءً، وأخطأ فعلاً، وأخطأ قولاً. «ممن افترى على الله كذباً»، يعني: مِمَّنْ اخْتَلَقَ عَلَى اللَّهِ قِيلَ بَاطِلٍ، واخترق من نفسه عليه كَذِبًا، فزعم أن له شريكاً من خَلْقِهِ، وإلهاً يعبد من دونه - كما قاله المشركون من عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ - أو ادَّعى له ولداً أو صاحبةً، كما قالته النصارى. «أو كذب بآياته»، يقول: أَوْ كَذَّبَ بِحُجَجِهِ وَأَعْلَامِهِ وَأَدْلَتِهِ الَّتِي أَعْطَاهَا رَسُولُهُ عَلَى حَقِيقَةِ نُبُوَّتِهِمْ، كَذَّبَتْ بِهَا الْيَهُودُ. «إنه لا يفلح الظالمون»، يقول: إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل، ولا يُدْرِكُونَ الْبَقَاءَ فِي الْجَنَانِ، والمفترون عليه الكذب، والجاحدون بنبوة أنبيائه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا

أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَالْمُكَذِّبِينَ بآيَاتِهِ، لَا يُفْلِحُونَ الْيَوْمَ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا - يعني: وَلَا فِي الْآخِرَةِ. ففي الكلام محذوف قد استغني بذكر ما ظهر عما حذف.

وتأويل الكلام: إنه لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي الدُّنْيَا، «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا»، فقولُه: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ»، مردودٌ عَلَى الْمَرَادِ فِي الْكَلَامِ. لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ مُحذُوفًا مِنْهُ، فَكَانَ فِيهِ، لِمَعْرِفَةِ السَّامِعِينَ بِمَعْنَاهُ. ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائِكُمْ»، يَقُولُ: ثُمَّ نَقُولُ، إِذَا حَشَرْنَا هَؤُلَاءِ الْمَفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، بِأَدْعَائِهِمْ لَهُ فِي سُلْطَانِهِ شَرِيكًا، وَالْمُكَذِّبِينَ بآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ، فَجَمَعْنَا جَمِيعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. «أَيْنَ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ»، أَنَّهُمْ لَكُمْ آلِهَةٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ، افْتَرَاءً وَكَذِبًا، وَتَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِهِ أَرْبَابًا؟ فَأَتُوا بِهِمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ!

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «ثُمَّ لَنَزَكُنَّ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾»

يقول تعالى ذِكْرَهُ: ثُمَّ لَمْ يَكُنْ قَوْلُهُمْ إِذْ قُلْنَا لَهُمْ: «أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ؟» - إجابةً مِنْهُمْ لَنَا عَنْ سُؤْلِنَا إِيَّاهُمْ ذَلِكَ، إِذْ فَتَنَاهُمْ فَاخْتَبَرْنَاهُمْ، «إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ»، كَذِبًا مِنْهُمْ فِي أَيْمَانِهِمْ عَلَى قِيلِهِمْ ذَلِكَ. ثُمَّ اخْتَلَفَتِ الْقَرَأَةُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ.

فقرأته جماعة من قَرَاءَةِ الْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ وَبَعْضِ الْكُوفِيِّينَ: «ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ» بِالتَّاءِ، بِالنَّصْبِ، بِمَعْنَى: لَمْ يَكُنْ اخْتِبَارُنَاهُمْ إِلَّا قِيلُهُمْ: «وَاللَّهِ رَبُّنَا

ما كنا مشركين» - غير أنهم يقرأون «تكن» بالتاء على التانيث. وإن كانت للقول لا للفتنة، لمجاورته الفتنة، وهي خبر. وذلك عند أهل العربية شاذٌ غير فصيح في الكلام.

وقرأ ذلك جماعة من قَرَأَةِ الكوفيين: «ثُمَّ لَمْ يَكُنْ» بالياء، «فَتَنَّتْهُمْ» بالنصب، «إِلَّا أَنْ قَالُوا»، بنحو المعنى الذي قصده الآخرون الذين ذكرنا قراءتهم. غير أنهم ذكروا «يكون» لتذكير «أن». وهذه القراءة عندنا أولى القراءتين بالصواب، لأن «أن» أثبت في المعرفة من «الفتنة»^(١).

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «ثم لم تكن فتنتهم». فقال بعضهم: معناه ثم لم يكن قَوْلُهُمْ. وقال آخرون: معنى ذلك: مَعْدِرَتُهُمْ.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: معناه: ثم لم يكن قِيلَهُمْ عند فِتْنَتِنَا إِيَّاهُمْ، اعتذاراً مما سَلَفَ منهم من الشُّرْكِ بالله. «إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ»، قَوِّضَتِ «الْفِتْنَةُ» موضعَ «القول»، لمعرفة السامعين معنى الكلام.

وإنما «الفتنة»، الاختبارُ والابتلاء. ولكن لما كان الجوابُ من القومِ غيرَ واقع هنالك إلا عند الاختبار، وضعت «الفتنة» التي هي الاختبار، موضع الخبر عن جوابهم ومعدرتهم.

واختلفت القَرَأَةُ أيضاً في قراءة قوله: «وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ».

(١) أغفل المؤلف قراءة الرفع في «فتنتهم» وهي قراءتنا في مصحفنا، قراءة حفص.

فقرأ ذلك عامة قَرَأَ المدينة وبعض الكوفيين والبصريين: ﴿وَاللهِ رَبَّنَا﴾، خفضاً، على أَنَّ «الرَّبَّ» نَعَتْ لله.

وقرأ ذلك جماعة من التابعين: ﴿وَاللهِ رَبَّنَا﴾، بالتصبي، بمعنى: والله ياربُّنا. وهي قراءة عامة قَرَأَ أهل الكوفة^(١).

وأولى القراءتين عندي بالصواب في ذلك، قراءة من قرأ: ﴿وَاللهِ رَبَّنَا﴾، بنصب «الرَّب» ، بمعنى: ياربُّنا ذلك أَنَّ هذا جوابٌ من المسئولينَ المَقُول لهم: «أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون؟» وكان من جوابِ القومِ لربهم: والله ياربُّنا ما كُنَّا مشركين - فَتَقَوَّا أن يكونوا قالوا ذلك في الدنيا.

يقول الله تعالى ذِكْرَهُ لمحمدٍ ﷺ: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

يعني بقوله: «ما كنا مشركين»، ما كُنَّا ندعو لكَ شريكاً، ولا ندعو سواكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ

مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لنبية محمدٍ ﷺ: انظر، يا محمد، فاعلم، كيف كَذَب هؤلاء المشركون العادِلُونَ بربهم الأوثانَ والأصنامَ، في الآخرة عند لقاء الله - على أَنْفُسِهِمْ بَقِيلِهِمْ: «والله ياربنا ما كنا مشركين»، واستعملوا هنالك الأخلاق التي كانوا بها يتخلَّقُونَ في الدنيا، من الكذب والفرية.

(١) انظر (معاني القرآن للفراء: ١/٣٣٠). وقال الزجاج: ويجوز نصبه على أعني، أعني ربُّنا واذكر ربُّنا (معاني القرآن: ٢/٢٣٦).

ومعنى «النظر» في هذا الموضع، النظر بالقلب، لا النظر بالبصر. وإنما معناه: تبين فاعلم كيف كَذَّبُوا في الآخرة.

وقال: «كذبوا»، ومعناه: يكذبون، لأنه لَمَّا كَانَ الخبرُ قد مضى في الآية قبلها، صار كالشيء الذي قد كَانَ وَوُجِدَ.

«وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ»، يقول: وَفَارَقَهُمُ الْإِنْدَادُ وَالْأَصْنَامُ، وتبرأوا منها، فسلَكُوا غَيْرَ سَبِيلِهَا، لأنها هَلَكَتْ، وأَعِيدَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا اجْتِرَاءً، ثم أَخَذُوا بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَهُ مِنْ قِيلِهِمْ فِيهَا عَلَى اللَّهِ، وَعِبَادَتِهِمْ إِيَّاهَا، وَإِشْرَاكِهِمْ إِيَّاهَا فِي سُلْطَانِ اللَّهِ، فَضَلَّتْ عَنْهُمْ، وَعُوقِبَ عَابِدُوهَا بِفِرْيَتِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْعَادِلِينَ بَرِيَّهُمُ الْإِثْمَانُ وَالْأَصْنَامُ مِنْ قَوْمِكَ، يَا مُحَمَّدُ. «مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ»، يقول: مَنْ يَسْتَمِعُ الْقُرْآنَ مِنْكَ، وَيَسْتَمِعُ مَا تَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ رَبِّكَ، وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَلَا يَفْقَهُ مَا تَقُولُ وَلَا يُوعِيهِ قَلْبُهُ، وَلَا يَتَذَكَّرُهُ، وَلَا يُضْغِي لَهُ سَمْعَهُ، لِيَتَفَقَّهَهُ فَيَفْهَمُ حُجَجَ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي تَنْزِيلِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ، إِنَّمَا يَسْمَعُ صَوْتَكَ وَقِرَاءَتَكَ وَكَلَامَكَ، وَلَا يَعْقِلُ عَنْكَ مَا تَقُولُ، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ عَلَى قَلْبِهِ «أَكِنَّةً».

وهي جمع «كنان»، وهو الغطاء، مثل: «سنان»، «وَأَسِنَّةً».

«وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَجَعَلَ فِي آذَانِهِمْ ثِقْلًا وَصَمًّا عَنْ فَهْمٍ مَا تَتْلُو عَلَيْهِمْ، وَالْإِصْغَاءَ لِمَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ.

والعربُ تفتح «الواو» من «الوَقْر» في الأذن، وهو الثَّقْلُ فيها - وتكسرُها في الحمل فتقول: «هو وقْر الدابة».

وقال تعالى ذِكْرُه: «وجعلنا على قلوبهم أكنةً أَنْ يَفْقَهُوه»، بمعنى: أن لا يفقهوه، كما قال «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا» [النساء: ١٧٦]، بمعنى: أن لا تضلوا، لأن «الكن» إنما جُعِلَ على القلب، لثَلَا يُفْقَهُهُ، لا ليفقهه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَئِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ يُقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وَإِنْ يَرَوْا هَؤُلَاءِ الْعَادِلُونَ بِرَبِّهِمُ الْأَوْتَانَ وَالْأَصْنَامَ، الَّذِينَ جَعَلْتَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكْنَةً أَنْ يَفْقَهُوا عَنْكَ مَا يَسْمَعُونَ مِنْكَ. «كل آية»، يقول: كُلُّ حُجَّةٍ وَعَلَامَةٍ تَدُلُّ أَهْلَ الْحُجْبَى وَالْفَهْمِ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَصِدْقِ قَوْلِكَ وَحَقِيقَةِ نُبُوتِكَ. «لا يؤمنوا بها»، يقول: لَا يُصَدِّقُونَ بِهَا، وَلَا يُقَرُّونَ بِأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ دَالَّةٌ. «حتى إذا جاؤوك يجادلونك»، يقول: حتى إذا صاروا إِلَيْكَ بَعْدَ مَعَايِنَتِهِمُ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى حَقِيقَةِ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ. «يجادلونك»، يقول: يَخَاصِمُونَكَ. «يقول الذين كفروا»، يعني بذلك: الَّذِينَ جَحَدُوا آيَاتِ اللَّهِ وَأَنْكَرُوا حَقِيقَتَهَا، يَقُولُونَ لِنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَمِعُوا حُجَجَ اللَّهِ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا عَلَيْهِمْ، وَبَيَانَهُ الَّذِي بَيَّنَّهُ لَهُمْ. «إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، أي: مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

وَالْأَسَاطِيرُ جَمْعُ «إِسْطَارَةٍ» وَ«أَسْطُورَةٍ» مِثْلُ «أَفْكُوه» وَ«أَضْحُوكَ»، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْوَاحِدُ «أَسْطَارًا»^(١) مِثْلُ «أَبْيَات»، وَ«أَبَابِيَّت»، وَ«أَقْوَالٍ وَأَقَاوِيلِ»،

(١) جمع سطر.

من قول الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾، [الطور: ٢]. من: «سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْرًا».

فإذ كان من هذا: فإن تأويله: ما هذا إلا ما كتبه الأولون.

وقد ذكر عن ابن عباس وغيره أنهم كانوا يتأولونه بهذا التأويل، ويقولون: معناه: إن هذا إلا أحاديث الأولين.

وكان بعض أهل العلم - وهو أبو عبيدة معمر بن المثنى - بكلام العرب يقول: «الإسطارة» لغة، ومجازها مجازُ الترهات^(١).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ

إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

(يعني): وإن ير هؤلاء المشركون، يامحمد، كُلُّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُونَ: «إِنْ هَذَا الَّذِي جِئْنَا بِهِ إِلَّا أَحَادِيثُ الْأَوَّلِينَ وَأَخْبَارُهُمْ!» وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْ اسْتِمَاعِ التَّنْزِيلِ، وَيَتَأَوَّنَ عَنْكَ فَيَبْعِدُونَ مِنْكَ وَمِنْ اتِّبَاعِكَ. «وإن يهلكون إلا أنفسهم»، يقول: وما يهلكون بصدِّهم عن سبيل الله، وإعراضهم عن تنزيله، وكفرهم بربهم - إلا أنفسهم لا غيرها، وذلك أنهم يكسبونها بفعلهم ذلك، سَخَطَ اللهُ وَالْيَمَّ عِقَابِهِ، وَمَا لَا قَبْلَ لَهَا بِهِ. «وما يشعرون»، يقول: وما يذرون ما هم مكسبوها من الهلاك والعطب بفعلهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ تَرَى إِذْ ذُقُوا غُلًّا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا لَوْلَا بَلَّيْنَا نَارُ وَلَا

نُكَذِّبُ بِثَايِتٍ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

(١) مجاز القرآن: ١/١٨٩.

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: «ولو ترى»، يامحمدُ، هؤلاء العادلين بربهم الأصنام والأوثان، الجاحدين نُبُوتَكَ، الذين وصفتُ لك صِفَتَهُمْ «إِذْ وَقُفُوا»، يقول: إِذْ حُسِبُوا «على النار»، يعني: في النار- فوضعت «على» موضع «في» كما قال: ﴿وَأَتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ﴾، [البقرة: ١٠٢]، بمعنى: في ملك سليمان.

وقيل: «ولو ترى إِذْ وَقُفُوا»، ومعناه: إِذَا وَقُفُوا - لما وصفنا قَبْلَ فيما مضى: أَنَّ العربَ قد تَضَع «إِذ» مكان «إِذَا»، «وَإِذَا» مكان «إِذ».

وقيل: «وقفوا»، ولم يُقَل: «أَوْقِفُوا»، لأنَّ ذلك هو الفصيحُ من كلام العرب. يقال: «وَقَفْتُ الدابةَ وغيرها»، بغير ألف، إِذَا حَبَسْتُهَا. وكذلك: «وقفت الأرضَ»، إِذَا جعلتها صدقةً حَبِيساً، بغير ألف.

«فقالوا ياليتنا نُرَدُّ»، يقول: فقال هؤلاء المشركون بربهم، إِذْ حُسِبُوا في النار: «ياليتنا نُرَدُّ»، إلى الدنيا حتى نتوبَ ونراجعَ طاعة الله. «وَلَا نُكْذِبُ بآيَاتِ رَبَّنَا»، يقول: وَلَا نُكْذِبُ بِحُجَجِ رَبَّنَا وَلَا نَجْحِدها. «ونكون من المؤمنين»، يقول: ونكون من الْمُصَدِّقِينَ بالله وحججه ورسله، مُتَّبِعِي أمره ونهيه. واختلقت القِرَاءَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامة قِرَاءَةَ الحجاز والمدينة والعراقيين: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكْذِبُ بآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، بمعنى: ياليتنا نُرَدُّ، ولسنا نُكْذِبُ بآيَاتِ رَبَّنَا، وَلَكِنَّا نَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وقرأ ذلك بعض قِرَاءَةِ الكوفة: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكْذِبُ بآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، بمعنى: ياليتنا نرد، وَأَنْ لَا نَكْذِبَ بآيَاتِ رَبَّنَا، وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

والقراءة التي لا أختار غيرها في ذلك: ﴿يَالْتَنَّا نُرْذُ وَلَا نُكْذِبُ بآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالرفع في كليهما، بمعنى: ياليتنا نُرْذُ، ولسنا نُكْذِبُ بآيَاتِ رَبَّنَا إِنْ رَدَدْنَا، ولكننا نكون من المؤمنين - على وجه الخبر منهم عَمَّا يفعلُونَ إِنْ هُمْ رُدُّوا إلى الدنيا، لا على التمني منهم أَنْ لَا يُكْذِبُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ ويكونوا من المؤمنين. لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ قَدْ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ، وَأَنَّهُمْ كَذَبُوا فِي قِيلِهِمْ ذَلِكَ. ولو كان قِيلَهُمْ ذَلِكَ على وجه التمني، لاستحال تكذيبهم فيه، لَأَنَّ التمني لَا يُكْذِبُ، وإنما يكون التصديق والتكذيب في الأخبار.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا

لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما بهؤلاء العادلين برَبِّهِمْ، الجاحدين نبوتك، يامحمد، في قِيلَهُمْ إِذَا وَقَفُوا عَلَى النَّارِ: «يَالْتَنَّا نُرْذُ وَلَا نُكْذِبُ بآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» - الْأَسَى وَالنَّدَمُ عَلَى تَرْكِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالتَّصْدِيقِ بِكَ، لَكِنْ بِهِمُ الْإِسْفَاقُ مِمَّا هُوَ نَازِلٌ بِهِمْ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَالْإِيمِ عَذَابِهِ، عَلَى مَعَاصِيهِمُ الَّتِي كَانُوا يُخْفُونَهَا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ وَيَسْتَرُونَهَا مِنْهُمْ، فَأَبْدَاهَا اللَّهُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَظْهَرَهَا عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، فَفَضَّحَهُمْ بِهَا، ثُمَّ جَازَاهُمْ بِهَا جَزَاءَهُمْ.

يقول: بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ الَّتِي كَانُوا يُخْفُونَهَا مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، فَظَهَرَتْ. «لَوْ رُدُّوا»، يقول: وَلَوْ رُدُّوا إِلَى الدُّنْيَا فَأَمَّهُلُوا. «لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ»، يقول: لَرَجَعُوا إِلَى مِثْلِ الْعَمَلِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ ذَلِكَ، مِنْ جَحْدِ آيَاتِ اللَّهِ، وَالْكَفْرِ بِهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا يُسَخِّطُ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ. «وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»، فِي قِيلِهِمْ: «لَوْ رُدُّدْنَا لَمْ نُكْذِبْ بآيَاتِ

رَبَّنَا وَكُنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»، لَأَنَّهُمْ قَالُوا حِينَ قَالُوا خَشْيَةَ الْعَذَابِ، لَا إِيمَانًا بِاللَّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» ﴿٢٩﴾

وهذا خَبَرٌ من الله تعالى ذَكَرَهُ عن هؤلاء المشركين، العادلين به الأوثان والأصنام، الذين ابتدأ هذه السورة بالخبر عنهم.

يقول تعالى ذَكَرَهُ: «وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا»، يخبرُ عنهم أنهم ينكرون أن الله يُحْيِي خَلْقَهُ بعد أن يُمَيِّتَهُمْ، ويقولون: «لَا حَيَاةَ بعدَ المماتِ، وَلَا بَعْثَ وَلَا نَشْوَْرَ بعدَ الفناء». فهم بجحودهم ذلك، وإنكارهم ثواب الله وعقابه في الدار الآخرة، لَا يُيَالُونَ مَا أَتَوْا وما ركبوا من إثمٍ ومعصية، لأنهم لَا يَرْجُونَ ثَوَابًا على إيمانٍ بالله وتصديقِ برسوله وعملٍ صالحٍ بعد موت، وَلَا يخافون عقابًا على كُفْرِهِمْ بالله وِرسوله وسُوءِ من عملٍ يَعْمَلُونَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَوْ تَرَى إِذْ ذُقُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ» ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذَكَرَهُ: «لو ترى»، يامحمدُ، هؤلاء القائلين: ما هي إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وما نحنُ بِمَبْعُوثِينَ. «إِذْ ذُوقُوا»، يوم القيامة، أي: حُسِبُوا. «على رَبِّهِمْ»، يعني على حُكْمِ الله وقضائه فيهم. «قال أليس هذا بِالْحَقِّ»، يقول: فقليل لهم: أليس هذا البعثُ والنشْرُ بعد المماتِ الذي كنتم تُنْكِرُونَهُ في الدنيا، حقًا؟ فاجابوا، فقالوا: بَلَى والله إنه لَحَقٌّ. «قال فذوقوا العذاب»، يقول: فقال الله تعالى ذَكَرَهُ لهم: فَذُوقُوا الْعَذَابَ الذي كنتم به في الدنيا تكذبون. «بما كنتم

تكفرون»، يقول: بتكذيبكم به وجحدكموه الذي كان منكم في الدنيا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ
السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا

يعني تعالى ذكّره بقوله: «قد خسر الذين كذبوا بقاء الله»، قد هلك
ووكس، في بيعهم الإيمان بالكفر. «الذين كذبوا بقاء الله»، يعني: الذين
أنكروا البعث بعد الممات، والثواب والعقاب، والجنة والنار، من مشركي قریش
وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ فِي ذَلِكَ. «حتى إذا جاءتهم الساعة»، يقول: حتى إذا
جاءتهم الساعة التي يبعث الله فيها الموتى من قبورهم.

وإنما أدخلت «الألف واللام» في «الساعة»، لأنها معروفة المعنى عند
المخاطبين بها، وأنها مقصود بها قصد الساعة التي وصفت.

ويعني بقوله: «بغتة»، فجأة، من غير علم. مَنْ تَفَجَّؤُهُ بوقتِ مفاجأتها
إِيَّاهُ.

«قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها»، يقول تعالى ذكّره: وكس الذين
كذبوا بقاء الله ببيعهم منازلهم من الجنة بمنازل من اشتروا منازلهم من أهل
الجنة من النار، فإذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا إذا عاينوا ما باعوا وما اشتروا،
وتبينوا خسارة صفقة بيعهم التي سلفت منهم في الدنيا، تندموا وتلهفوا على
عظيم العتب الذي غبنوه أنفسهم، وجليل الخسران الذي لا خسران أجل منه.
«يا حسرتنا على ما فرطنا فيها»، يقول: يندامتنا على ما ضيعنا فيها، يعني:
صفقتهم تلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ
 أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى ذكره: وهؤلاء الذين كذبوا بقاء الله، «يحملون أوزارهم على ظهورهم». وقوله: «وهم» من ذكرهم. «يحملون أوزارهم»، يقول: آثامهم وذنوبهم.

وأما قوله تعالى ذكره: «ألا ساء ما يزرُونَ»، فإنه يعني: ألا ساء الوزر الذي يزرُونَ - أي: الإثم الذي يَأْتُمُونَهُ بربهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ
 وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

وهذا تكذيبٌ من الله تعالى ذكره هؤلاء الكفار المُنْكَرِينَ البعث بعد المماتِ في قولهم: «إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» [المائدة: ٢٩].

يقول تعالى ذكره، مكذباً لهم في قيلهم ذلك: «ما الحياة الدنيا»، أيها الناس. «إلا لعب ولهو»، يقول: ما باغي لذات الحياة التي أذْنِيتُ لَكُمْ وَقُرْبُتُ مِنْكُمْ فِي دَارِكُمْ هَذِهِ، وَنَعِيمُهَا وَسُرُورُهَا فِيهَا، وَالْمَتَلَذُّ بِهَا^(١)، وَالْمَنَافَسُ عَلَيْهَا إِلَّا فِي لَعِبٍ وَلَهْوٍ، لِأَنَّهُمَا عَمَّا قَلِيلٍ تَزُولُ عَنِ الْمُسْتَمْتَعِ بِهَا وَالْمَتَلَذِّ فِيهَا

(١) سياق الجملة: «ما باغي لذات الحياة... ونعيمها وسرورها» بالعطف ثم قوله: «فيها» سياقه: «ما باغي لذات الحياة... فيها»، وقوله بعد: «والمتلذذ بها» مرفوع معطوف على قوله: «ما باغي لذات الحياة».

بملاذها، أو تأتية الأيام بفجائعها وضروفها، فتمر عليه وتكدر، كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندماً، ويورثه منه ترحاً.

يقول: لا تغتروا، أيها الناس، بها، فإن المعتبر بها عمّا قليل يندم. وللدار الآخرة خير للذين يتقون، يقول: وللعمل بطاعته، والاستعداد للدار الآخرة بالصالح من الأعمال التي تبقى منافعها لأهلها، ويدوم سرور أهلها فيها، خير من الدار التي تفتى وشيكاً، فلا يبقى لعمالها فيها سرور، ولا يدوم لهم فيها نعيم. للذين يتقون، يقول: للذين يخشون الله فيتقونه بطاعته واجتناب معاصيه، والمسارة إلى رضاه. أفلا تعقلون، يقول: أفلا يعقل هؤلاء المكذبون بالبعث حقيقة ما أخبرهم به، من أن الحياة الدنيا لعب ولهو، وهم يرون من يخترم منهم، ومن يهلك فيموت، ومن تنوبه فيها النوائب وتصيبه المصائب وتفجعه الفجائع. ففي ذلك لمن عقل مذكر ومزجر عن الركون إليها، واستعباد النفس لها - ودليل واضح على أن لها مذبراً ومصرفاً يلزم الخلق إخلاص العباد له، بغير إشراك شيء سواه معه.

القول في تأويل قوله تعالى: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا

يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: «قد نعلم، يا محمد، إنه ليحزنك الذي يقولون، فإنه لا يكذبونك». وذلك قولهم له: إنه كذاب. «فإنهم لا يكذبونك».

وأما قوله: «ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون»، فإنه يقول: ولكن المشركين بالله، بحجج الله وآي كتابه ورسوله يجحدون، فينكرون صحة ذلك كله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا
عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا وَحَتَّىٰ أَنهَضَ نَصَرُهُمْ لِكَلِمَةٍ أَلَّهَ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

وهذا تسلية من الله تعالى ذكروه لنبية محمد ﷺ، وتعزية له عما ناله من
المساءة بتكذيب قومه إياه على ما جاءهم به من الحق من عند الله.

يقول تعالى ذكروه: إِنَّ يُكَذِّبُكَ، يامحمد، هؤلاء المشركون من قومك،
فيجحدوا نبوتك، وينكروا آيات الله أنها من عنده، فلا يخزئك ذلك، واصبر
على تكذيبهم إياك وما تلقى منهم من المكروه في ذات الله، حتى يأتي نصر
الله، فقد كذبت رسول من قبلك أرسلتهم إلى أمهم، فنالوهم بمكروه، فصبروا
على تكذيب قومهم إياهم، ولم يثنهم ذلك من المضي لأمر الله الذي أمرهم
به من دعاء قومهم إليه، حتى حكم الله بينهم وبينهم. «ولا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ
الله»، يقول: ولا مُغَيِّرَ لِكَلِمَاتِ الله، و«كلماته» تعالى ذكروه: ما أنزل الله إلى
نبية محمد ﷺ، مِنْ وَعْدِهِ إِيَّاهُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَضَادَّهُ، والظفر على مَنْ
تَوَلَّى عنه وأدبر. «ولقد جاءك من نبي المرسلين»، يقول: ولقد جاءك، يامحمد،
من خبر مَنْ كان قبلك من الرسل، وخبر أمهم وما صنعت بهم - حين جحدوا
آياتي وتمادوا في غيهم وضلالهم - أنباء - وترك ذكر «أنباء»، للدلالة «مِنْ» عليها.
يقول تعالى ذكروه: فانتظر أنت أيضاً من النصرة والظفر مثل الذي كان مِنِّي فيمن
كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الرسل إِذْ كَذَّبَهُمْ قَوْمُهُمْ، واقتد بهم في صبرهم على ما لقوا من
قومهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ كَانَ كِبْرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ

أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِثَاقٍ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنْ كَانَ عَظَمَ عَلَيْكَ، يامحمدُ، إِعْرَاضُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ عَنْكَ، وَإِنْصِرَافُهُمْ عَنْ تَصْدِيقِكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي بَعَثْتُكَ بِهِ، فَشَقُّ ذَلِكَ عَلَيْكَ، وَلَمْ تَصْبِرْ لِمَكْرُوهِ مَا يَنَالُكَ مِنْهُمْ. «فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ»، يَقُولُ: فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَتَّخِذَ سَرَبًا فِي الْأَرْضِ مِثْلَ نَافِقَاءِ الزُّبُرِ، وَهِيَ أَحَدُ جِجَرَتِهِ فَتَذْهَبَ فِيهِ. «أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ»، يَقُولُ: أَوْ مَصْعَدًا تَصْعَدُ فِيهِ، كَالدَّرَجِ وَمَا أَشْبَهَهَا. «فَتَأْتِيَهُمْ بَآيَةٌ»، مِنْهَا - يَعْنِي بِعَلَامَةٍ وَبِرَهَانٍ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِكَ، الَّذِي أَتَيْتَكَ - فافْعَلْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ»

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنْ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ، يامحمدُ، فَيَحْزَنُكَ تَكْذِيبُهُمْ إِيَّاكَ، لَوْ أَشَاءَ أَنْ أَجْمَعَهُمْ عَلَى اسْتِقَامَةٍ مِنَ الدِّينِ، وَصَوَابٍ مِنْ مَحَبَّةِ الْإِسْلَامِ، حَتَّى تَكُونَ كَلِمَةُ جَمِيعِكُمْ وَاحِدَةً، وَمِلَّتُكُمْ وَمِلَّتُهُمْ وَاحِدَةً، لَجَمَعْتُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ بَعِيدًا عَلَيَّ، لِأَنِّي الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ بِلُطْفِي، وَلَكِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ لِسَابِقِ عِلْمِي فِي خَلْقِي، وَنَافِذِ قَضَائِي فِيهِمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُخْلِقَهُمْ وَأَصُورَ أَجْسَامَهُمْ. «فَلَا تَكُونَنَّ»، يامحمدُ، «مِنَ الْجَاهِلِينَ»، يَقُولُ: فَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَوْ شَاءَ لَجَمَعَ عَلَى الْهُدَى جَمِيعَ خَلْقِهِ بِلُطْفِهِ، وَأَنَّ مَنْ يَكْفُرُ بِهِ مَنْ خَلَقَهُ إِنَّمَا يَكْفُرُ بِهِ لِسَابِقِ عِلْمِ اللَّهِ فِيهِ، وَنَافِذِ قَضَائِهِ بِأَنَّهُ كَاتِرٌ مِنَ الْكَافِرِينَ بِهِ اخْتِيَارًا لَا اضْطِرَارًا، فَإِنَّكَ إِذَا عَلِمْتَ صِحَّةَ ذَلِكَ، لَمْ يَكْبِرْ عَلَيْكَ إِعْرَاضُ مَنْ أَعْرَضَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ عَمَّا تَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَتَكْذِيبُ مَنْ كَذَّبَكَ مِنْهُمْ.

وفي هذا الخبر من الله تعالى ذِكْرُهُ، الدلالة الواضحة على خطأ ما قال أهل التفويض من القدرية^(١)، المنكروْنَ أَنْ يكون عند الله لطائف لمن شاء توفيقه من خلقه، يُلطفُ بها له حتى يهتديَ للحقَّ فينقادَ له، وينيبَ إلى الرشاد فيدعن به ويؤثره على الضلال والكفر بالله. وذلك أنه تعالى ذِكْرُهُ أخبر أنه لو شاء الهدايةَ لجميع مَنْ كَفَرَ به، حتى يجتمعوا على الهدى، فعلَ. ولا شك أنه لو فعلَ ذلك بهم، كانوا مهتدين لا ضالًّا. وهم لو كانوا مهتدين، كان لا شك أن كونهم مهتدين كان خيرًا لهم. وفي تَرْكِهِ تعالى ذِكْرُهُ أن يجمعَهُم على الهدى، تَرَكَ منه أن يفعل بهم في دينهم بعض ما هو خيرٌ لهم فيه، مما هو قادرٌ على فعله بهم، وقد ترك فعله بهم. وفي تركه فعله ذلك بهم، أوضحُ الدليل أنه لم يُعْطِهِمْ كُلَّ الأسبابِ التي بها يصلون إلى الهداية، ويتسبَّبون بها إلى الإيمان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: لا يكْبُرُنَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُ هَؤُلَاءِ الْمَعْرِضِينَ عَنْكَ، وعن الاستجابة لدعائك إذا دَعَوْتَهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ وَالْإِقْرَارِ بِنَبَوَّتِكَ، فإنه لا يستجيبُ لدعائك إلى ماتدعوه إليه من ذلك، إلَّا الذين فتحَ اللهُ أَسْمَاعَهُمْ لِلْإِصْغَاءِ إِلَى الْحَقِّ، وسَهَّلَ لَهُمْ اتِّبَاعَ الرُّشْدِ، دُونَ مَنْ خَتَمَ اللهُ عَلَى سَمْعِهِ، فلا يفقه من دعائك إِيَّاهُ إِلَى اللهِ وَإِلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ إِلَّا مَا تَفَقَّهَ

(١) أهل التفويض: هم الذين يقولون: إن الأمر فوض إلى الإنسان فإرادته كافية في إيجاد فعله، طاعة أو معصية، وهو خالق لأفعاله، والاختيار بيده. والقدرية: هم نفاة القدر.

الأنعام من أصوات رعاتها، فهم كما وصّفهم به الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. «والموتى يبعثهم الله»، يقول: والكفار يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم تعالى ذِكْرُهُ في عِدَادِ الموتى الذين لا يسمعون صوتاً، ولا يعقلون دُعَاءً، ولا يفقهون قولاً، إذ كانوا لا يتدبرون حُجَجَ الله، ولا يعتبرون آيَاتِهِ، ولا يتذكرون فينزعرون عما هُم عليه من تكذيب رُسُلِ الله وخلافهم.

وأما قوله: «ثم إليه يرجعون»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم إلى الله يرجع المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول، والكفار الذين يحول الله بينهم وبين أن يفقهوا عنك شيئاً، فيثيب هذا المؤمن على ما سَلَفَ من صالح عمله في الدنيا بما وَعَدَ أهل الإيمان به من الثواب، ويعاقب هذا الكافر بما أوعَدَ أهل الكفر به من العقاب، لا يظلم أحداً منهم مثقال ذرة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال هؤلاء العادلون برّبهم، المعترضون عن آياته: «لولا نُزِّلَ عليه آية من ربه»، يقول: قالوا: هَلَّا نزل على محمد آية من ربه؟ و«الآية»، العلامة.

وذلك أنهم قالوا: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا* أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٨، ٧]. قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: قُلْ، يا محمد، لقائلي هذه المقالة لك: «إن الله قادرٌ على أن يُنْزِلَ آيةً»، يعني: حُجَّةً على ما يريدون ويسألون. «ولكن أكثرهم لا يعلمون»، يقول: ولكن أكثر الذين يقولون ذلك

فيسألونك آية، لا يعلمون ما عليهم في الآية إن نزلها من البلاء، ولا يذرون ماوجه ترك إنزال ذلك عليك. ولو علموا السبب الذي من أجله لم أنزلها عليك، لم يقولوا ذلك، ولم يسألوكه، ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَاهُ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نَعْلَمُ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ



يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمَعْرُضِينَ عَنْكَ، الْمُكَذِّبِينَ بآيَاتِ اللَّهِ: أَيُّهَا الْقَوْمُ، لَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا تَعْمَلُونَ، أَوْ أَنَّهُ غَيْرُ مُجَازِيكُمْ عَلَى مَا تَكْسِبُونَ! وَكَيْفَ يَغْفُلُ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَوْ يَتْرَكُ مُجَازَاتَكُمْ عَلَيْهَا، وَهُوَ غَيْرُ غَافِلٍ عَنْ عَمَلِ شَيْءٍ دَبَّ عَلَى الْأَرْضِ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، وَلَا عَمَلِ طَائِرٍ طَارَ بِجَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ، بَلْ جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ أَجْنَاسًا مُجَنِّسَةً وَأَصْنَافًا مُصَنَّفَةً، تَعْرِفُ كَمَا تَعْرِفُونَ، وَتَتَصَرَّفُ فِيمَا سُخِّرَتْ لَهُ كَمَا تَتَصَرَّفُونَ، وَمَحْفُوظٌ عَلَيْهَا مَا عَمِلْتَ مِنْ عَمَلٍ لَهَا وَعَلَيْهَا، وَثُبِتَ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهَا فِي أُمِّ الْكِتَابِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ مُمِيتُهَا ثُمَّ مُنْشِرُهَا وَمُجَازِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَزَاءَ أَعْمَالِهَا. يَقُولُ: فَالرَّبُّ الَّذِي لَمْ يُضَيِّعْ حِفْظَ أَعْمَالِ الْبَهَائِمِ وَالِدَوَابِّ فِي الْأَرْضِ، وَالطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ، حَتَّى حَفِظَ عَلَيْهَا حَرَكَاتَهَا وَأَفْعَالَهَا، وَأَثَبَتْ ذَلِكَ مِنْهَا فِي أُمِّ الْكِتَابِ، وَحَشَرَهَا ثُمَّ جَازَاهَا عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهَا فِي دَارِ الْبَلَاءِ، أُخْرَى أَنْ لَا يُضَيِّعَ أَعْمَالَكُمْ، وَلَا يُفَرِّطَ فِي حِفْظِ أَفْعَالِكُمْ الَّتِي تَجْتَرِحُونَهَا، أَيُّهَا النَّاسُ، حَتَّى يَحْشُرَكُمْ فَيُجَازِيَكُمْ عَلَى جَمِيعِهَا، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا، إِذْ كَانَ قَدْ خَصَّكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَبَسَطَ عَلَيْكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، مَا لَمْ يَعَمْ بِهِ غَيْرَكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَكُتِمَ بِشُكْرِهِ أَحَقُّ، وَبِمَعْرِفَةِ وَاجِبِهِ عَلَيْكُمْ أَوْلَى، لِمَا أَعْطَاكُمْ مِنَ الْعَقْلِ الَّذِي بِهِ يَبِينُ الْأَشْيَاءُ تُمَيِّزُونَ،

وَالْفَهْمُ الَّذِي لَمْ يُعْطِهِ الْبَهَائِمُ وَالطَّيْرُ، الَّذِي بِهِ بَيْنَ مَصَالِحِكُمْ وَمَضَارِكُمْ تَفَرُّقُونَ.

وأما قوله: «ما فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ»، فَإِنْ مَعْنَاهُ: مَا ضَيَّعْنَا إِثْبَاتَ شَيْءٍ مِنْهُ.

وأما قوله: «ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ»، فَإِنَّ أَهْلَ التَّأْوِيلِ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى «حَشَرَهُمْ»، الَّذِي عَنْهُ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: «حَشَرَهَا»، مَوْتَهَا.

وَقَالَ آخَرُونَ: «الْحَشَرُ» فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، يَعْنِي بِهِ الْجَمْعَ لِبَعْثِ السَّاعَةِ وَقِيَامِ الْقِيَامَةِ.

وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي أَنْ يَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ أَخْبَرَ أَنْ كُلَّ دَابَّةٍ وَطَائِرٍ مُحْشُورٌ إِلَيْهِ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنِيًّا بِذَلِكَ حَشَرُ الْقِيَامَةِ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنِيًّا بِهِ حَشَرُ الْمَوْتِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَعْنِيًّا بِهِ الْحَشْرَانِ جَمِيعاً، وَلَا دَلَالَةَ فِي ظَاهِرِ التَّنْزِيلِ، وَلَا فِي خَبَرٍ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ أَيُّ ذَلِكَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ»، إِذْ كَانَ «الْحَشَرُ»، فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْجَمْعُ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ذَكَرَهُ: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوْبَابٌ﴾ [ص: ١٩]، يَعْنِي: مَجْمُوعَةٌ. فَإِذَا كَانَ الْجَمْعُ هُوَ «الْحَشَرُ»، وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ جَامِعاً خَلَقَهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجَامِعَهُمْ بِالْمَوْتِ، كَانَ أَصَوْبُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُعَمَّ بِمَعْنَى الْآيَةِ مَا عَمَّهُ اللَّهُ بظَاهِرِهَا. وَأَنْ يَقَالَ: كُلُّ دَابَّةٍ وَكُلُّ طَائِرٍ مُحْشُورٌ إِلَى اللَّهِ بَعْدَ الْفَنَاءِ وَبَعْدَ بَعْثِ الْقِيَامَةِ، إِذْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ قَدْ عَمَّ بِقَوْلِهِ: «ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ»، وَلَمْ يَخْصُصْ بِهِ حَشَرًا دُونَ حَشَرٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا وَجْهُ قَوْلِهِ: «وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ»؟ وَهَلْ يَطِيرُ الطَّائِرُ إِلَّا بِجَنَاحِيهِ؟ فَمَا فِي الْخَبَرِ عَنِ طَيْرَانِهِ بِالْجَنَاحَيْنِ مِنَ الْفَائِدَةِ؟

قيل : قد قَدَّمْنَا القولَ فيما مضى أَنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَهُ أَنْزَلَ هذا الكتابَ بلسانِ قومٍ ، وبلغاتهم وما يتعارفونه بينهم ويستعملونه في مَنْطِقِهِمْ خاطبهم . فإذا كان مِنْ كلامِهِمْ إذا أرادوا المبالغة في الكلامِ أَنْ يقولوا : «كَلِمَتُ فُلَانًا بِفَمِي» ، و«مَشِيتُ إِلَيْهِ بِرَجْلِي» ، و«ضَرَبْتُهُ بِيَدِي» ، خاطبهم تعالى بنظير ما يتعارفونه في كلامِهِمْ ، ويستعملونه في خطابهم ، ومن ذلك قوله تعالى ذكره : ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً أَنْثَى﴾ ^(١) [سورة ص : ٢٣] .

القولُ في تأويلِ قولِهِ تعالى : وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُورُكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ



يقول تعالى ذِكْرَهُ : والَّذِينَ كَذَّبُوا بِحُجَجِ اللَّهِ وَأَعْلَامِهِ وأدلتِهِ . «صُورُكُمْ» ، عن سماعِ الحقِّ . «يُكْمُ» ، عن القليلِ به . «في الظلمات» ، يعني : في ظُلُمَةِ الكُفْرِ حائراً فيها ، يقول : هو مرتطمٌ في ظُلُمَاتِ الكُفْرِ ، لا يُبْصِرُ آيَاتِ اللَّهِ فيعتبرُ بها ، ويعلم أَنَّ الذي خلقه وأنشأه فَدَبَّرَهُ وأحكم تديبره ، وَقَدَّرَهُ أحسنَ تقديرٍ ، وأعطاه القوةَ ، وَصَحَّحَ لَهُ آلَةَ جِسْمِهِ - لم يَخْلُقْهُ عَبَثاً ، ولم يتركه سُدىً ، ولم يُعْطِهِ ما أعطاه من الآلاتِ إِلَّا لاستعمالها في طاعته وما يرضيه ، دونَ معصيته وما يسخطه . فهو لحيرته في ظلماتِ الكُفْرِ ، وتردُّده في غَمَرَاتِهَا ، غافلٌ عما الله قد أثبتَ له في أمِّ الكتابِ ، وما هوَ به فاعلٌ يومَ يُحْشَرُ إِلَيْهِ مع سائرِ الأممِ . ثم

(١) استند الطبري رحمه الله على قراءة عبدالله بن مسعود بإضافة كلمة «أنثى» وذلك على سبيل تأكيد العرب الكلمة ، كقولهم : «هذا رجلٌ ذَكَرَ» ولا يكادون يفعلون ذلك إلا في المؤنث والمذكر الذي تذكيره وتأنيثه في نفسه ، كالمراة والرجل والناقة . وهذه زيادة تفسيرية من ابن مسعود .

أخبر تعالى ذِكْرَهُ أَنَّهُ الْمُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ إِضْلَالَهُ مِنْ خَلْقِهِ عَنِ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ، والهادي إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنْهُمْ مَنْ أَحَبَّ هِدَايَتَهُ، فموقفه بفضلِهِ وَطَوْلُهُ لِلْإِيمَانِ بِهِ، وترك الكُفْرَ بِهِ وبرسلِهِ وما جَاءَتْ بِهِ أَنْبِيَآؤُهُ، وَأَنَّهُ لَا يَهْتَدِي مِنْ خَلْقِهِ أَحَدٌ إِلَّا مَنْ سَبَقَ لَهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ السَّعَادَةُ، وَلَا يُضِلُّ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا مَنْ سَبَقَ لَهُ فِيهَا الشَّقَاءُ، وَأَنَّ بِيَدِهِ الْخَيْرَ كُلَّهُ، وَإِلَيْهِ الْفَضْلُ كُلُّهُ، لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾

تأويل الكلام: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء العادلين بالله الأوثان والأصنام: أخبروني، إِنْ جَاءَكُمْ، أيها القومُ، عَذَابُ اللَّهِ كَالَّذِي جَاءَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ هَلَكَ بَعْضُهُمْ بِالرَّجْفَةِ، وَبَعْضُهُمْ بِالصَّاعِقَةِ - أَوْ جَاءَتْكُمْ السَّاعَةُ الَّتِي تُنْشِرُونَ فِيهَا مِنْ قُبُورِكُمْ، وَتُبْعَثُونَ لِمَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، أَغَيْرَ اللَّهِ هُنَاكَ تَدْعُونَ لِكَشْفِ مَا نَزَلَ بِكُمْ مِنَ الْبَلَاءِ، أَوْ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ آلِهَتِكُمْ تَفْرَعُونَ لِتُنَجِّيَكُمْ مِمَّا نَزَلَ بِكُمْ مِنْ عَظِيمِ الْبَلَاءِ؟ «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، يقول: إِنْ كُنْتُمْ مُحِقِّينَ فِي دَعْوَاكُمْ وَزَعْمِكُمْ أَنَّ آلِهَتَكُمْ الَّتِي تَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَنْفَعُ أَوْ تَضُرُّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا أَنْشَرَكُمُ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ، مُكَذِّباً لِهَؤُلَاءِ الْعَادِلِينَ بِهِ الْأَوْثَانِ: مَا أَنْتُمْ، أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ الْإِلَهِةِ وَالْأَنْدَادِ، إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ، بِمُسْتَجِيرِينَ بِشَيْءٍ غَيْرِ اللَّهِ فِي حَالِ شِدَّةِ الْهَوْلِ النَّازِلِ بِكُمْ مِنْ آلِهَةٍ وَوثنٍ وَصنمٍ، بَلْ تَدْعُونَ هُنَاكَ رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَبِهِ تَسْتَغِيثُونَ، وَإِلَيْهِ تَفْرَعُونَ،

دُونَ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِهِ. «فِيكشَفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ»، يَقُولُ: فَيَفْرُجُ عَنْكُمْ عِنْدَ اسْتِغَاثَتِكُمْ بِهِ وَتَضَرُّعِكُمْ إِلَيْهِ، عَظِيمَ الْبَلَاءِ النَّازِلِ بِكُمْ إِنْ شَاءَ أَنْ يَفْرَجَ ذَلِكَ عَنْكُمْ، لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَمَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، دُونَ مَا تَدْعُونَهُ إِلَهًا مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ. «وَتَتَسَوَّنَ مَا تُشْرِكُونَ»، يَقُولُ: وَتَتَسَوَّنَ حِينَ يَأْتِيكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيكُمْ السَّاعَةُ بِأَهْوَالِهَا، مَا تَشْرِكُونَهُ مَعَ اللَّهِ فِي عِبَادَتِكُمْ إِيَّاهُ، فَتَجْعَلُونَهُ لَهُ نَدًّا مِنْ وَثْنٍ وَصَنَمٍ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا تَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِهِ وَتَدْعُونَهُ إِلَهًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ

بِالْبَاسِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: - مُتَوَعِّدًا لِهَؤُلَاءِ الْعَادِلِينَ بِهَ الْأَصْنَامِ - وَمَحَذِّرُهُمْ أَنْ يَسْلُكَ بِهِمْ إِنْ هُمْ تَمَادَوْا فِي ضَلَالِهِمْ سَبِيلَ مَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ، فِي تَعْجِيلِ اللَّهِ عَقُوبَتَهُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا - وَمَخْبِرًا نَبِيًّا عَنْ سِتِّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ عَلَى مَنَاجِهِمْ مِنْ تَكْذِيبِ الرِّسْلِ -: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا، بِأَمْحَمْدٍ، «إِلَى أُمَمٍ»، يَعْنِي: إِلَى جَمَاعَاتٍ وَقُرُونٍ. «مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَاسِ»، يَقُولُ: فَأَمْرَانَهُمْ وَنَهْيَانَهُمْ، فَكَذَّبُوا رِسْلَنَا، وَخَالَفُوا أَمْرَنَا وَنَهْيَنَا، فَامْتَحَنَاهُمْ بِالْإِبْتِلَاءِ. «بِالْبَاسِ»، وَهِيَ شِدَّةُ الْفَقْرِ وَالضِّيقِ فِي الْمَعِيشَةِ. «وَالضَّرَاءِ»، وَهِيَ الْأَسْقَامُ وَالْعِلَلُ الْعَارِضَةُ فِي الْأَجْسَامِ.

وَقَوْلُهُ: «لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ» يَقُولُ: فَعَلْنَا ذَلِكَ بِهِمْ لِيَتَضَرَّعُوا إِلَيَّ، وَيُخْلِصُوا لِيَ الْعِبَادَةِ، وَيُقَرِّدُوا رَغْبَتَهُمْ إِلَيَّ دُونَ غَيْرِي، بِالتَّذَلُّلِ مِنْهُمْ لِيَ بِالطَّاعَةِ، وَالِاسْتِكَانَةِ مِنْهُمْ إِلَيَّ بِالْإِنَابَةِ.

وَفِي الْكَلَامِ مَحْذُوفٌ قَدْ اسْتَغْنَى بِمَا دُلَّ عَلَيْهِ الظَّاهِرُ مِنْ إِظْهَارِهِ دُونَ قَوْلِهِ: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ»، وَإِنَّمَا كَانَ سَبَبُ أَخْذِهِ

إياهم، تَكْذِبُهُمُ الرِّسْلَ وخلافهم أمره - لا إرسال الرسل إليهم. وإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن معنى الكلام: «ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك» رسلاً فكذبوهم، «فأخذناهم بالأساء».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

وهذا أيضاً من الكلام الذي فيه متروك استغني بدلالة الظاهر عن ذكر مأتوك. وذلك أنه تعالى ذكره أخبر عن الأمم التي كذبت رسلها أنه أخذهم بالأساء والضراء ليتضرعوا له، ثم قال: «فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا»، ولم يخبر عما كان منهم من الفعل عند أخذه إياهم بالأساء والضراء. ومعنى الكلام: «ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالأساء والضراء لعلهم يتضرعون»، فلم يتضرعوا، «فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا».

ومعنى: «فلولا»، في هذا الموضع، فهلاً. والعرب إذا أولت «لولا» اسماً مرفوعاً، جعلت مابعدا خبراً، وتلقته بالأمر، فقالت: «لولا أخوك لزرتك» و«لولا أبوك لضربتك»، وإذا أولتها فعلاً، أو لم تولها اسماً، جعلوها استفهاماً فقالوا: «لولا جئتنا فنكرمك» و«لولا زرت أخاك فنزورك»، بمعنى: «هلاً»، كما قال تعالى ذكره: «لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ» [المنافقون: ١٠]. وكذلك تفعل بـ «لَوْما» مثل فعلها بـ «لولا».

فتأويل الكلام إذا: فهلاً إذا جاء بأسنا هؤلاء الأمم المكذبة رسلها، الذين لم يتضرعوا عند أخذناهم بالأساء والضراء. «تضرعوا»، فاستكانوا لربهم، وخضعوا لطاعته، فيصرف ربهم عنهم بأسه، وهو عذابه.

«ولكن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ» يقول: ولكن أقاموا على تكذيبهم رُسُلَهُمْ، وأَصْرُوا على ذلك، واستكبروا عن أمر رَبِّهِمْ، استهانةً بعقاب الله، واستخفافاً بعذابه، وقسوة قلب منهم. «وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، يقول: وحَسَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ من الأعمال التي يكرهها الله ويسخطها منهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٣﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «فلما نسوا ما ذُكِّرُوا به»، فلما تَرَكُوا العمل بما أمرناهم به على السِّنِّ رُسُلِنَا.

«فتحنا عليهم أبواب كل شيء»، يقول: بَدَلْنَا مكانَ البأساءِ الرخاءِ والسعةِ في العيشِ، ومكانَ الضراءِ الصِّحَّةِ والسلامةِ في الأبدانِ والأجسامِ، استدراجاً مِنَّا لَهُمْ.

فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: «فتحنا عليهم أبواب كل شيء»، وقد علمت أن باب الرحمة وباب التوبة لم يُفْتَحَ لَهُمْ، ولم تُفْتَحْ لَهُمْ أبواب آخر غيرهما كثيرة؟

قيل: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننت من معناه، وإنما معنى ذلك: فتحنا عليهم، استدراجاً مِنَّا لَهُمْ، أبواب كل ما كُنَّا سَدَدْنَا عَلَيْهِمْ بَابَهُ، عند أخذنا إياهم بالبأساءِ والضراءِ ليتضرعوا، إذ لم يتضرعوا وتركوا أمر الله تعالى

ذِكْرُهُ، لَأَنَّ آخِرَ هَذَا الْكَلَامِ مُرَدُّهُ عَلَى أَوَّلِهِ. وَذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، [الأعراف: ٩٤، ٩٥]، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ نَسُوا مَاذَكَرَهُمْ، بِقَوْلِهِ: «فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ»، هُوَ تَبْدِيلُهُ لَهُمْ مَكَانَ السَّيِّئَةِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا حَالِ امْتِحَانِهِ لِيَاهِهِمْ، مِنْ ضَيْقِ الْعَيْشِ إِلَى الرِّخَاءِ وَالسَّعَةِ، وَمِنَ الضَّرِّ فِي الْأَجْسَامِ إِلَى الصَّحَةِ وَالْعَافِيَةِ، وَهُوَ «فَتَحَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ» كَانَ أَغْلَقَ بَابَهُ عَلَيْهِمْ، مِمَّا جَرَى ذِكْرُهُ قَبْلَ قَوْلِهِ: «فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ»، فَرَدَّ قَوْلَهُ: «فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ» عَلَيْهِ.

وَيَعْنِي تَعَالَى بِقَوْلِهِ: «حَتَّى إِذَا فَرَّحُوا بِمَا أُوتُوا»، يَقُولُ: حَتَّى إِذَا فَرَّحَ هَؤُلَاءِ الْمَكْذُوبُونَ رُسُلَهُمْ بِفَتْحِنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ السَّعَةِ فِي الْمَعِيشَةِ، وَالصَّحَةِ فِي الْأَجْسَامِ.

وَيَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: «أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً»، أَتَيْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَجْأَةً، وَهُمْ غَارُونَ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ، وَلَا هُوَ بِهِمْ حَالٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ»، فَإِنَّهُمْ هَالِكُونَ، مَنْقُطَةٌ حُجَجُهُمْ، نَادِمُونَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُمْ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا»، فَاسْتَوْصَلَ الْقَوْمَ الَّذِينَ عَتَوْا عَلَى رَبِّهِمْ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَخَالَفُوا أَمْرَهُ، عَنْ آخِرِهِمْ، فَلَمْ

يَتْرَكَ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا أَهْلَكَ بَغْتَةً إِذْ جَاءَهُمْ عَذَابُ اللَّهِ .

«والحمد لله رب العالمين»، يقول: والثناء الكامل التام. «الله رب العالمين»، على إنعامه على رُسُلِهِ وأهل طاعته، بإظهار حججهم على مَنْ خالفهم من أهل الكفر، وتحقيق عِدَاتِهِمْ ما وَعَدَهُمْ على كفرهم بالله وتكذيبهم رسلَهُ من نِقَمِ الله وعاجلِ عذابه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ
وَحَفَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ
ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنبيه محمد ﷺ: قُلْ، يا محمد، لهؤلاء العادلين بي
الأوثان والأصنام، المكذبين بك: أرايتم، أيها المشركون بالله غيره، إن
أَصْمَكُمُ اللهُ فَذَهَبَ بِأَسْمَاعِكُمْ، وأَعْمَاكُمْ فَذَهَبَ بِأَبْصَارِكُمْ، وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ
فَطَبَعَ عَلَيْهَا، حتى لا تفقهوا قولاً، ولا تُبْصِرُوا حجةً، ولا تفهموا مفهوماً، أي
إِلَهٍ غير الله الذي له عبادة كُلِّ عابد. «يَأْتِيكُمْ بِهِ» يقول: يَرُدُّ عَلَيْكُمْ مَا ذَهَبَ
الله به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام، فتعبده أو تشركوه في عبادة رَبِّكُمْ
الذي يقدرُ على ذهابه بذلك منكم، وعلى رَدِّهِ عليكم إذا شاء؟

وهذا من الله تعالى ذِكْرُهُ، تعليم نبيه الحجة على المشركين به، يقول
له: قُلْ لَهُمْ: إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا،
وإنما يستحقُّ العبادةَ عليكم مَنْ كَانَ بِيَدِهِ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ، وَالْقَبْضُ وَالْبَسْطُ، الْقَادِرُ
عَلَى كُلِّ مَا أَرَادَ، لَا الْعَاجِزُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ.

ثم قال تعالى ذِكْرُهُ لِنبيه محمد ﷺ: «انظر كيف نُصَرِّفُ الْآيَاتِ»،

يقول: انظر كيف نتابع عليهم الحجج، ونضرب لهم الأمثال والعبر، ليعتبروا ويزكروا فينبؤوا. «ثم هم يصدفون»، يقول: ثم هم مع متابعتنا عليهم الحجج، وتنبهنا إياهم بالعبر، عن الأذكار والاعتبار يعرضون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ يَكْفُرُونَ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بِغَتَةٍ أَوْ جَهْرَةٍ هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان، المكذِبِينَ بأنك لي رسولٌ إليهم: أخبروني. «إِنَّ أَنْتَ كَافِرٌ بِمَا كُنْتَ تُدْعَى عَلَيْهِ»، وعقابه على ما تُشْرِكُونَ به ما تشركون من الأوثان والأنداد، وتكذيبكم إياي بعد الذي قد عاينتم من البرهان على حقيقة قولي. «بغته»، يقول: فجأة على غرة^(١) لا تشعرون. «أو جهرة»، يقول: أو أناكم عذابُ الله وأنتم تعانونه وتنتظرون إليه. «هل يهلكُ إلا القومُ الظالمون»، يقول: هل يهلكُ الله منا ومنكم إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبدُ غَيْرَ مَنْ يَسْتَحِقُّ عَلَيْنَا الْعِبَادَةَ، ويترك عبادة مَنْ يَسْتَحِقُّ عَلَيْنَا الْعِبَادَةَ؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما رُسُلُ رُسُلِنَا إِلَّا بَشَارَةٌ لِّأَهْلِ الطَّاعَةِ لَنَا بِالْجَنَّةِ وَالْفَوْزِ الْمُبِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، جزاءً مِّنَّا لَهُمْ عَلَى طَاعَتِنَا - وَيُنْذِرُ مَنْ عَصَانَا وَخَالَفَ أَمْرَنَا، عقوبتنا إِيَّاهُ عَلَى مَعْصِيَتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، جزاءً مِّنَّا عَلَى مَعْصِيَتِنَا، لنعذر إليه فيهلكُ إِنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ. «فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ»، يقول: فَمَنْ صَدَّقَ مَنْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِ مِنْ رُسُلِنَا إِنْذَارَهُمْ إِيَّاهُ، وَقَبِلَ مِنْهُمْ مَا جَاؤُوهُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَعَمِلَ صَالِحًا

(١) الغرة بالكسر: الغفلة. والغار: الغافل. واغتر الرجل، واغتر بالشيء: خدع به.

في الدنيا. «فلا خوفٌ عليهم»، عند قدومهم على ربهم، من عقابه وعذابه الذي أعدّه الله لأعدائه وأهل معاصيه. «ولا هم يحزنون»، عند ذلك على ما خلّفوا وراءهم في الدنيا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ
بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى ذِكرُهُ: وأما الذين كَذَّبُوا بمن أرسلنا إليه من رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، ودافعوا حجتنا، فإنهم يباشرون عذابنا وعقابنا، على تكذيبهم ما كَذَّبُوا به من حججنا. «بما كانوا يفسقون»، يقول: بما كانوا يُكذِّبون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى ذِكرُهُ: قُلْ لهؤلاء المنكرين بُبُوتِكَ: لست أقول لكم إنِّي الربُّ الذي له خزائن السموات والأرض، فأعلم غيوب الأشياء الخفية التي لا يعلمها إلا الربُّ الذي لا يخفى عليه شيء، فتكذبوني فيما أقول من ذلك، لأنه لا ينبغي أن يكون ربًّا إلا مَنْ ملك كل شيء، وبيده كل شيء، ومن لا يخفى عليه خافية، وذلك هو الله الذي لا إله غيره. «ولا أقول لكم إنِّي ملك»، لأنه لا ينبغي لملك أن يكون ظاهراً بصورته لأبصار البشر في الدنيا، فتجحدوا ما أقول لكم من ذلك. «إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ»، يقول قُلْ لهم: ما أتبع فيما أقول لكم وأدعوكم إليه، إِلَّا وحي الله الذي يوحيه إليّ، وتنزله الذي ينزله

عليّ، فأمضي لوحيه وأتثمر لأمره، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة من الله عذركم على صحتة قولِي في ذلك، وليس الذي أقول من ذلك بمنكرٍ في عقولكم ولا مستحيل كونه، بل ذلك مع وجود البرهان على حقيقته هو الحكمة البالغة، فما وجه إنكاركم ذلك؟

وذلك تنبيه من الله تعالى ذكّره نبيه ﷺ على موضع حجته على منكري نبوته من مشركي قومه.

«قل هل يستوي الأعمى والبصير»، يقول تعالى ذكّره: «قل، يا محمد، لهم: هل يستوي الأعمى عن الحق، والبصير به. «والأعمى»، هو الكافر الذي قد عمي عن حجج الله فلا يتبينها فيتبعها. «والبصير»، المؤمن الذي قد أبصر آيات الله وحججه، فاقتدى بها واستضاء بضياها. «أفلا تتفكرون»، يقول لهؤلاء الذين كذبوا بآيات الله: أفلا تتفكرون فيما أحتج عليكم به، أيها القوم، من هذه الحجج، فتعلموا صحة ما أقول وأدعوكم إليه، من فساد ما أنتم عليه مقيمون من إشراك الأوثان والأنداد بالله ربكم، وتكذيبكم إياي مع ظهور حجج صدقي لأعينكم، فتدعوا ما أنتم عليه من الكفر مقيمون، إلى ما أدعوكم إليه من الإيمان الذي به تفوزون؟

القول في تأويل قوله تعالى: وَأَنْذِرْهُ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَا يَسْأَلُهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلَئِنْ لَا شَافِعَ لَهُمْ يُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا

يقول تعالى ذكّره لنبيه محمد ﷺ: وأنذر، يا محمد، بالقرآن الذي أنزلناه إليك، القوم الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، علماً منهم بأن ذلك كائن، فهم مُصدّقون بوعد الله ووعيده، عاملون بما يُرْضي الله، دائبون في السعي، فيما ينقذهم في معادهم من عذاب الله. «ليس لهم من دونه ولي»، أي ليس

لهم من عذاب الله إن عذبهم، «ولي»، ينصرهم فيستنقذهم منه. «ولا شفيع»، يشفع لهم عند الله تعالى ذكره فيخلصهم من عقابه. «لعلهم يتقون»، يقول: أنذرهم كي يتقوا الله في أنفسهم، فيطيعوا ربهم، ويعملوا لمعادهم، ويحذروا سخطه باجتنب معاصيه.

وقيل: «وأُنذر به الذين يخافون أن يحشروا»، ومعناه، يعلمون أنهم يُحشرون، فوضعت «المخافة» موضع «العلم»، لأن خوفهم كان من أجل علمهم بوقوع ذلك ووجوده من غير شك منهم في ذلك.

وهذا أمر من الله تعالى ذكره نبيه محمداً ﷺ بتعليم أصحابه ما أنزل الله إليه من وحيه، وتذكيرهم، والإقبال عليهم بالإنذار. وصد عنه المشركون به، بعد الإعذار إليهم، وبعد إقامة الحجة عليهم، حتى يكون الله هو الحاكم في أمرهم بما يشاء من الحكم فيهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾

دُكِرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي سَبَبِ جَمَاعَةٍ مِنْ ضَعْفَاءِ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ الْمَشْرُكُونَ لَهُ: لَوْ طَرَدْتَ هَؤُلَاءِ عَنْكَ لَغَشِينَاكَ وَحَضَرْنَا مَجْلِسَكَ!

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الدِّعَاءِ الَّذِي كَانَ هَؤُلَاءِ الرُّهْطُ، الَّذِينَ نَهَى اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ طَرْدِهِمْ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِهِ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ.

وقال آخرون: هي الصلاة، ولكنَّ القومَ لم يسألوا رسولَ الله ﷺ طرد هؤلاء الضعفاءِ عن مجلسه، ولا تأخيرهم عن مجلسه، وإنما سألوه تأخيرهم عن الصفِّ الأولِ، حتى يكونوا وراءهم في الصفِّ.

وقال آخرون: بل معنى «دعائهم» كان، ذكُّهم الله تعالى ذِكْرُهُ.

وقال آخرون: بل كان ذلك، تَعَلُّمهم القرآنَ وقراءته.

وقال آخرون: بل عَنى بدعائهم رَبِّهم، عبادَتُهُمْ إِيَّاهُ.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ نهى نبيه محمداً ﷺ أن يطرد قوماً كانوا يدعون رَبِّهم بالغداة والعشي، «والدعاء لله»، يكون بذكره وتمجيدِه والثناءِ عليه قولاً وكلاماً - وقد يكونُ بالعملِ له بالجوارحِ الأعمالِ التي كان عليهم فرضها، وغيرها من النوافلِ التي تُرضي عن العاملِ له عابدهُ بما هو عاملٌ له. وقد يجوز أن يكونَ القومُ كانوا جامعين هذه المعاني كلها، فوصفهم الله بذلك بأنهم يَدْعُونَهُ بالغداة والعشي، لأنَّ الله قد سَمَّى «العبادة»، «دعاءً»، فقال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، [غافر: ٦٠]. وقد يجوز أن يكون ذلك على خاصٍّ من الدعاء.

ولا قولٌ أولى بذلك بالصحة، من وَصَفِ القومِ بما وصفهم الله به: من أنهم كانوا يدعون رَبِّهم بالغداة والعشي، فيعمُّون بالصفة التي وصفهم بها ربهم، ولا يخصُّون منها بشيءٍ دون شيءٍ.

فتأويلُ الكلام إذاً: يا محمد، أنذر بالقرآنِ الذي أنزلتُ إليك، الذين يعلمون أنهم إلى رَبِّهم محشورون - فهم من خوفٍ ورودهم على الله الذي لا شفيعَ لهم من دونه ولا نصير، في العملِ له دائبون - إذ أَعْرَضَ عن إنذارك

واستماع ما أنزل الله عليك المكذَّبُونَ بالله واليوم الآخر من قومك، استكباراً على الله - ولا تطردهم ولا تُقصِّصهم، فتكون ممن وَضَعَ الإقصاء في غير موضعه، فأقصى وطرد مَنْ لم يَكُنْ له طرده وإقصاؤه، وقَرَّبَ مَنْ لم يكن له تقديمه بقربه وإدناؤه، فَإِنَّ الذين نهيْتِكَ عن طردهم هم الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فيسألونَهُ عَفْوَهِ ومَغْفِرَتَهُ بِصَالِحِ أَعْمَالِهِمْ، وأداء ما أَلْزَمَهُمْ من فرائضِهِ، ونوافِلِ تَطَوُّعِهِمْ، وَذِكْرِهِمْ إِيَّاهُ بِالسُّتْهِمِ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، يَلْتَمِسُونَ بِذَلِكَ الْقُرْبَةَ إِلَى الله، والدنوُّ من رِضَاهِ. «ما عليك من حسابهم من شيء»، يقول: ما عليك من حساب ما رزقتهم من الرزق من شيء وما عليهم من حساب ما رزقتك من الرزق من شيء. «فتطردهم»، حذَرَ محاسبي إياك بما خَوَّلْتَهُمْ في الدنيا من الرزق.

وقوله: «فتطردهم»، جوابٌ لقوله: «ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء».

وقوله: «فتكون من الظالمين» جوابٌ لقوله: «ولا تطرد الذين يدعون ربهم».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَن يَبِينُنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ»، وكذلك اختبرنا وابتلينا.

وإنما فَتَنَهُ اللهُ تعالى ذِكْرُهُ بَعْضَ خَلْقِهِ بِبَعْضٍ، مخالفتَهُ بينهم فيما قَسَمَ لهم من الأرزاق والأخلاق، فجعل بعضاً غنياً وبعضاً فقيراً، وبعضاً قوياً، وبعضاً ضعيفاً، فأحجَّجَ بَعْضَهُمْ إِلَى بَعْضٍ، اختباراً منه لهم بذلك.

وأما قوله: «ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا»، يقول تعالى: اخترنا الناس بالغنى والفقر، والعز والذل، والقوة والضعف، والهدى والضلال، كي يقول من أضله الله وأعماه عن سبيل الحق، للذين هداهم الله ووفقهم: «أهؤلاء من الله عليهم»، بالهدى والرشد، وهم فقراء ضعفاء أذلاء. «من بيننا»، ونحن أغنياء أقوياء؟ استهزاء بهم، ومعادة للإسلام وأهله.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «أليس الله بأعلم بالشاكرين»، وهذا منه تعالى ذِكْرُهُ إجابة لهؤلاء المشركين الذين أنكروا أن يكون الله هذى أهل المسكنة والضعف للحق، وخذلهم عنه وهم أغنياء - وتقرير لهم: أنا أعلم بمن كان من خلقي شاكرًا نعمتي، بمن هو لها كافر. فَمَنِّي على مَنْ مَنَنْتُ عليه منهم بالهداية، جزاء شكره إياي على نعمتي، وتخليلي مَنْ خذلتُ منهم عن سبيل الرشد، عقوبة كُفْرانه إياي نعمتي، لا لغنى الغني منهم ولا لفقر الفقير، لأن الثواب والعقاب لا يستحقُّه أحدٌ إلا جزاءً على عمله الذي اكتسبه، لا على غناه وفقره، لأن الغنى والفقر والعجز والقوة ليس من أفعال خلقي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا نُنَادِيكَ فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُ لَهُ ثَمَرًا تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥٤

اختلف أهل التأويل في الذين عَنِ الله تعالى ذِكْرُهُ بهذه الآية.

فقال بعضهم: عَنِ بها الذين نهى الله نبيه عن طردهم.

وقال آخرون: عَنِ بها قومًا استفتوا النبي ﷺ في ذنوب أصابوها عظام، فلم يؤسِّسْهم الله من التوبة.

وقال آخرون: بل عُني بها قومٌ من المؤمنين كانوا أشاروا على النبي ﷺ بطرد القوم الذين نهاه الله عن طردهم، فكان ذلك منهم خطيئة، فغفرها الله لهم وعفا عنهم، وأمر نبيه ﷺ إذا أتوه أن يُبشِّرَهُمْ بأن قد غَفَرَ لَهُمْ خطيئتهم التي سَلَفَتْ منهم بمشورتهم على النبي ﷺ بطرد القوم الذين أشاروا عليه بطردهم.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بتأويل الآية، قول مَنْ قال: المعنيون بقوله: «وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم»، غير الذين نهى الله النبي ﷺ عن طردهم. لأنَّ قوله: «وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا»، خبرٌ مستأنفٌ بعد تقضي الخبر عن الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم. ولو كانوا هم، لقليل: «وإذا جاؤوك فقل سلامٌ عليكم». وفي ابتداء الله الخبر عن قصة هؤلاء، وتزكّيه وصلِّ الكلام بالخبر عن الأولين، ما ينبئ عن أنهم غيرهم.

فتأويل الكلام إذاً - إذ كان الأمر على ما وصفنا - : وإذا جاءك، يا محمد، القوم الذين يصدّقون بتزييلنا وأدلتنا وحججنا، فيُقرّون بذلك قولاً وعملاً، مُستَرشِدِينَكَ عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة، فلا تُؤيِسُهُمْ منها، وقلّ لهم: «سلام عليكم»، أَمَنَةُ الله لكم من ذنوبكم، أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها. «كُتِبَ رَبُّكُمْ على نفسه الرحمة»، يقول: قضى ربكم الرحمة بخلقهم. «أنه مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بجهالةٍ ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفورٌ رحيم».

واختلفت القراءة في قراءة ذلك.

فقرأته عامة قُرَاءَةِ المدنيين: «أنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً»، فيجعلون «أنَّ»

منصوبةً على الترجمة بها عن «الرحمة» - ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، على اثنان «إنه» بعد «الفاء» فيكسرونها، ويجعلونها أداة لا موضع لها، بمعنى: فهو له غفور رحيم - أو: فله المغفرة والرحمة^(١).

وقرأهما بعض الكوفيين بفتح «الألف» منهما جميعاً، بمعنى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ثم ترجم بقوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ﴾، عن الرحمة، ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فيعطف بـ «أَنَّهُ» الثانية على «أنه» الأولى، ويجعلهما اسمين منصوبين.

وقرأ ذلك بعض المكيين وعامة قُرَآةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ مِنَ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ: بكسر «الألف» من «إنه» و«إنه» على الابتداء، وعلى أنهما أداتان لا موضع لهما.

وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب، قراءة مَنْ قَرَأَهَا بِالْكَسْرِ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ إِنَّهُ﴾، على ابتداء الكلام، وأن الخبر قد انتهى عند قوله: «كتب ربكم على نفسه الرحمة»، ثم استؤنف الخبر عما هو فاعلُ تعالى ذِكْرُهُ بِمَنْ عَمِلَ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ وَأَصْلَحَ مِنْهُ.

ومعنى قوله: «إنه من عمل منكم سوءاً بجهالة»، إنه مَنْ اقْتَرَفَ مِنْكُمْ ذَنْباً فَجْهَلَ بِاقْتِرَافِهِ إِيَّاهُ، ثُمَّ تَابَ وَأَصْلَحَ. «فإنه غفور»، لذنبه إذا تاب وأناب، وراجع العمل بطاعة الله، وترك العودَ إلى مثله، مع الندم على ما قَرَّطَ مِنْهُ. «رحيم»، بالتائب أن يعاقبه على ذنبه بعد توبته منه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَتِينَ

سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٢٣٦/١.

يعني تعالى ذكَّره بقوله: «وكذلك نُفَصِّلُ الْآيَاتِ»، وكما فصلنا لك في هذه السورة من ابتدائها وفاتحتها، يا محمد، إلى هذا الموضع، حُجَّتْنَا عَلَى الْمَشْرِكِينَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وأدلتنا، وميَّزناها لك وبينَّاها، كذلك نُفَصِّلُ لَكَ أَعْلَامَنَا وَأَدَلَّتْنَا فِي كُلِّ حَقٍّ يُنْكِرُهُ أَهْلُ الْبَاطِلِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْمَلَلِ غَيْرِهِمْ، فَنُبَيِّنُهَا لَكَ، حتى يبين حَقُّهُ مِنْ بَاطِلِهِ، وصحيحه من سقيمِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْتُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى ذكَّره: لنبينه محمد ﷺ: قُلْ، يا محمد، لهؤلاء المشركين برَّبِّهِمْ مِنْ قَوْمِكَ، العادلين به الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ، الذين يدعونكَ إلى موافقتهم على دينهم وعبادة الْأَوْثَانِ: إِنَّ اللَّهَ نَهَانِي أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ، فلن أتبعكم على ما تدعونني إليه من ذلك، ولا أوافقكم عليه، ولا أعطيكم محبتكم وهوامكم فيه. وإن فعلت ذلك، فقد تركت محبة الحق، وسلكت على غير الهدى، فصرت ضالاً مثلكم على غير استقامة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى ذكَّره لنبينه ﷺ: «قُلْ»، يا محمد، لهؤلاء العادلين برَّبِّهِمْ، الداعين لك إلى الإِشْرَاقِ بِرَبِّكَ. «إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي»، أي إني على بيان قد تَبَيَّنَتْهُ، وبرهانٍ قد وَضَحَ لِي. «مِنْ رَبِّي»، يقول: من توحيدِي، وما أنا عليه

من إخلاص عِبَادَتِهِ من غير إشراك شيء به .

«وكذبتم به» يقول: وكذبتم أنتم بربكم . و«الهاء» في قوله «به» من ذكر الربَّ جَلَّ وَعَزَّ «ما عندي ما تستعجلون به»، يقول: ما الذي تستعجلون من نِقَمِ الله وعذابه بيدي، ولا أنا على ذلك بقادر. وذلك أنهم قالوا حين بعث الله نبيَّه محمداً ﷺ بتوحيده، فدعاهم إلى الله، وأخبرهم أنه رسوله إليهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]. وقال للقرآن: هو أضغاث أحلام. وقال بعضهم: بل هو اختلاق اختلقه. وقال آخرون: بل محمدٌ شاعرٌ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون - فقال الله لنبيه ﷺ: أَجِبْهُمْ بِأَنَّ الْآيَاتِ بِيَدِ اللَّهِ لَا بِيَدِكَ، وإنما أنت رسولٌ، وليس عليك إلا البلاغ لما أرسلت به، وأن الله يقضي الحق فيهم وفيك، ويفصلُ به بينك وبينهم، فيبين المَحِقَّ منكم والمُبْطِلُ. «وهو خيرُ الفاصلين»، أي: وهو خير من بين وميز بين المحق والمبطل وأعدلهم، لأنه لا يقع في حُكْمِهِ وقضائه حَيْفٌ إلى أحدٍ لو سِيلَ له إليه ولا لقرابةٍ ولا مناسبة، ولا في قضائه جَوْرٌ، لأنه لا يأخذُ الرشوة في الأحكام فيجور، فهو أعدلُ الحكام وخيرُ الفاصلين.

واختلفت القُرْأَةُ في قراءة قوله: «يَقْصُ الْحَقُّ».

فقرأ عامة قُرْأَةُ الْحِجَازِ وَالْمَدِينَةِ وبعض قُرْأَةِ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْصُ الْحَقُّ﴾، بالصاد، بمعنى «القصص»، وتأولوا في ذلك قول الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، [يوسف: ٣].

وقرأ ذلك جماعة من قُرْأَةِ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقُّ﴾، بالضاد، من «القضاء»، بمعنى الحكم والفصل بالقضاء، واعتبروا صحة ذلك بقوله: «وهو خير الفاصلين»، وأن «الفصل» بين المختلفين إنما يكون بالقضاء لا بالقصص.

وهذه القراءة عندنا أولى القراءتين بالصواب، لما ذكرنا لأهلها من العلة.

فمعنى الكلام إذا: ما الحكم فيما تستعجلونه به، أيها المشركون، من عذاب الله وفيما بيني وبينكم، إلا الله الذي لا يجوز في حكمه، ويده الخلق والأمر، يقضي الحق بيني وبينكم، وهو خير الفاصلين بيننا بقضائه وحكمه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا دَسْتَعِجِلُونَ بِهِ، لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنبيه محمد ﷺ: قُلْ، يا محمد، لهؤلاء العادلين برّبهم الآلهة والأوثان، المُكذِّبِك فيما جِئْتُهُمْ بِهِ، السائلِك أن تأتيهم بآية استعجالاً منهم بالعذاب: لو أن بيدي ما تستعجلون به من العذاب. «لقضي الأمر بيني وبينكم»، ففصل ذلك أسرع الفصل، بتعجيلي لكم ما تسألوني من ذلك وتستعجلونه، ولكن ذلك بيد الله، الذي هو أعلم بوقت إرساله على الظالمين، الذين يضعون عبادتهم التي لا تنبغي أن تكون إلا لله في غير موضعها، فيعبدون من دونه الآلهة والأصنام، وهو أعلم بوقت الانتقام منهم، وحال القضاء بيني وبينهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

يقول: وعند الله مفاتيح الغيب.

و«المفاتيح» جمع «مِفْتَاح»، يقال فيه: «مِفْتَاح» و«مِفْتَاح». فَمَنْ قَالَ: «مِفْتَاح»، جمعه «مفاتيح»، وَمَنْ قَالَ: «مِفْتَاح»، جمعه «مفاتيح».

ويعني بقوله: «وعنده مفاتيح الغيب»، خزائن الغيب.

فتأويل الكلام إذاً: والله أعلم بالظالمين من خلقه، وما هم مستحقوه وما هو بهم صانع، فإنَّ عنده علم ما غاب علمه عن خلقه فلم يطلبوا عليه ولم يُذركوه، ولن يعلموه ولن يدركوه. «ويعلم ما في البر والبحر»، يقول: وعنده علم ما لم يغيب أيضاً عنكم، لأنَّ ما في البر والبحر مما هو ظاهر للعين، يعلمه العباد. فكأنَّ معنى الكلام: وعند الله علم ما غاب عنكم، أيها الناس، مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثر بعلمه نفسه، ويعلم أيضاً مع ذلك جميع ما يعلمه جميعكم، لا يخفى عليه شيء، لأنه لا شيء إلا ما يخفى عن الناس أو مالا يخفى عليهم. فآخبر تعالى ذكره أن عنده علم كل شيء كان ويكون، وما هو كائن مما لم يكن بعد، وذلك هو الغيب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا نَسْفُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا أَلَيْعُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذكره: ولا تسقط ورقة في الصحاري والبراري، ولا في الأمصار والقرى، إلا الله يعلمها. «ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين»، يقول: ولا شيء أيضاً مما هو موجود، أو مما سيوجد ولم يوجد بعد، إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ، مكتوب ذلك فيه، ومرسوم عدده ومبلغه، والوقت الذي يوجد فيه، والحال التي يفنى فيها.

ويعني بقوله: «مبين»، أنه يبين عن صحة ما هو فيه، بوجود ما رُسم فيه على ما رُسم.

فإنَّ قال قائل: وما وجه إثباته في اللوح المحفوظ والكتاب المبين، مالا يخفى عليه، وهو بجميعه عالم لا يخاف نسيانه؟

قيل له: الله تعالى ذكَّره فِعْلٌ ما شاء. وجائزُ أن يكونَ كانَ ذلك منه امتحاناً منه لحَفَظَتِهِ، واختباراً للمتوكِّلِينَ بكتابةِ أعمالهم، فإنهم فيما ذُكِرَ مأمورونَ بكتابةِ أعمالِ العبادِ، ثم بعرضها على ما أثبتَه الله من ذلك في اللوح المحفوظ، حتى أثبت فيه ما أثبت كل يوم. وقيل إن ذلك معنى قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، [الجاثية: ٢٩]. وجائزُ أن يكونَ ذلك لغير ذلك، مما هو أعلمُ به، إمَّا بحجةٍ يحتجُّ بها على بعضِ ملائكته، وإمَّا على بني آدم وغير ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ

يقول تعالى ذكَّره لنبيه ﷺ: وَقُلْ لَهُمْ، يامحمدُ، والله أعلم بالظالمين، والله هو الذي يتوفى أرواحكم بالليل فيقبضها من أجسادكم. «ويعلم ما جرحتم بالنهار»، يقول: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار.

وأما «الاجتراح» عند العرب، فهو عملُ الرجلِ بيده أو رجله أو فمه، وهي «الجوارح» عندهم، جوارح البدن فيما ذُكِرَ عنهم. ثم يقال لِكُلِّ مكتسبٍ عملاً «جراح»، لاستعمالِ العربِ ذلك في هذه «الجوارح»، ثم كثرَ ذلك في الكلام حتى قيلَ لكلِ مُكْتَسِبٍ كَسْباً، بأيِّ أعضاء جسمه اكتسب: «مُجْتَرِحٌ».

وهذا الكلامُ وإن كان خبراً من الله تعالى ذكَّره عن قُدْرَتِهِ وعلمه، فإنَّ فيه احتجاجاً على المشركين به، الذين كانوا يُنكروُنَ قُدْرَتَهُ على إحيائهم بعد مماتهم وبعثهم بعد فنائهم. فقال تعالى ذكَّره محتجاً عليهم: «وهو الذي

يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى»، يقول: فالذي يقبض أرواحكم بالليل ويبعثكم في النهار لتبلغوا أجلاً مسمى، وأنتم ترون ذلك وتعلمون صحته، غير منكر له القدرة على قبض أرواحكم وإفنائكم، ثم رَدَّها إلى أجسادكم، وإنشائكم بعد مماتكم، فإن ذلك نظير ما تُعانون وتُشاهدون. وغير منكر لمن قَدَّرَ على ما تعانون من ذلك، القدرة على ما لم تُعانونه. وإنَّ الذي لم تروه ولم تعانونه من ذلك، شبيه ما رأيتم وعايَنتم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

يعني تعالى ذكَّره: «ثم يبعثكم»، يثيركم ويوقظكم من منامكم. «فيه» يعني: في النهار، و«الهاء» التي في «فيه» راجعة على «النهار». «ليقضى أجل مسمى»، يقول: ليقضي الله الأجل الذي سَمَّاهُ لحياتكم، وذلك الموت، فيبلغ مدته ونهايته. «ثم إليه مرجعكم»، يقول: ثم إلى الله معادكم ومصيركم. «ثم ينبيئكم بما كنتم تعملون»، يقول: ثم يخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا، ثم يجازيكم بذلك، إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى ذكَّره: «وهو القاهر»، والله الغالبُ خَلَقَهُ، العالي عليهم بقدرة، لا المقهور من أوثانهم وأصنامهم، المذلُّ المَعْلُو عليه لِدَلَّتِهِ. «ويرسل عليكم حفظة»، وهي ملائكته الذين يتعاقبونكم ليلاً ونهاراً، يحفظون أعمالكم ويحصونها، ولا يفرطون في حفظ ذلك وإحصائه ولا يُضيعون.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَوْ لَيْسَ الَّذِي يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَكَيْفَ قِيلَ: «تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا»، «وَالرَّسُلُ» جملة وهو واحد؟ أو ليس قد قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، [السجدة: ١١]؟

قيل: جائز أن يكون الله تعالى ذَكَرَهُ أَعَانَ مَلَكُ الْمَوْتِ بِأَعْوَانٍ مِنْ عِنْدِهِ، فيقولون ذلك بِأَمْرِ مَلِكِ الْمَوْتِ، فيكون «التوفي» مضافاً - وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ أَعْوَانِ مَلِكِ الْمَوْتِ - إِلَى مَلِكِ الْمَوْتِ، إِذْ كَانَ فِعْلُهُمْ مَا فَعَلُوا مِنْ ذَلِكَ بِأَمْرِهِ، كَمَا يُضَافُ قَتْلُ مَنْ قَتَلَ أَعْوَانُ السُّلْطَانِ وَجُلْدُ مَنْ جُلِدَ بِهِ بِأَمْرِ السُّلْطَانِ، إِلَى السُّلْطَانِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ السُّلْطَانُ بَاشِرَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَلَا وَلِيَهُ بِيَدِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: ثُمَّ رَدَّتِ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ تَوَفَّوهُمْ فَقَبَضُوا نَفْسَهُمْ وَأَرْوَاحَهُمْ، إِلَى اللَّهِ سَيِّدِهِمُ الْحَقِّ. «أَلَا لَهُ الْحُكْمُ»، يقول: أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ دُونَ مَنْ سِوَاهُ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ. «وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ»، يقول: وَهُوَ أَسْرَعُ مَنْ حَسَبَ عِدْدَكُمْ وَأَعْمَالَكُمْ وَأَجَالَكُمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَحْصَايَاها، وَعَرَفَ مَقَادِيرَهَا وَمِبَالِغَهَا، لِأَنَّهُ لَا يَحْسَبُ بِعَقْدٍ يَدٍ، وَلَكِنَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ خَافِيَةٌ، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبا: ٣].

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مَنْ ظَلَمَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ
تَدْعُونَهُ تُضْرَعًا وَخَفِيَةً لَّيْنِ أَجْنُنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: قُلْ، يا محمد، لهؤلاء العادلين برّبهم، الداعين إلى عبادة أوّثانهم: من الذي ينجيكم. «من ظلمات البر»، إذا ضللتهم فيه فتحيرتكم، فأظلم عليكم الهدى والمحجة، ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه، فأخطأتم فيه المحجة، فأظلم عليكم فيه السبيل، فلا تهتدون له - غير الله الذي إليه مفزعكم حينئذ بالدعاء. «تضرعاً»، منكم إليه واستكانة جهرأ. «وخفية»، يقول: وإخفاء للدعاء أحياناً، وإعلاناً وإظهاراً تقولون: لئن أنجيتنا من هذه يارب - أي من هذه الظلمات التي نحن فيها. «لنكونن من الشاكرين»، يقول: لنكونن ممن يُوحّدك بالشكر، ويخلص لك العبادة، دون مَنْ كُنّا نشركه معك في عبادتك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ

تُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء العادلين برّبهم سِوَاهُ من الآلهة، إذا أَنْتِ استفهمتَهُمْ عَمَّنْ بِهِ يَسْتَعِينُونَ عند نزولِ الكربِ بهم في البر والبحر: الله القادرُ على فَرَجِكُمْ عند حُلُولِ الكربِ بكم، ينجيكم من عظيمِ النازلِ بكم في البر والبحر مِنْ هَمِّ الضلالِ وخوفِ الهلاكِ، ومن كُلِّ كَرْبٍ سوى ذلك وهَمٍّ - لا آلهتُكم التي تُشْرِكُونَ بها في عبادته، ولا أوّثانُكم التي تعبدونها من دونه، التي لا تقدّرُ لكم على نفعٍ ولا ضَرٍّ، ثم أنتم بعد تَفَضُّلِهِ عليكم بكشفِ النازلِ بكم من الكربِ، ودفعِ الحالِّ بكم من جسيمِ الهَمِّ، تَعْدِلُونَ به آلهتُكم وأصنامُكم، فتشركونها في عبادتِكم إياه. وذلك منكم جهلٌ بواجبِ حقِّه عليكم، وكفرٌ لأَياديهِ عندكم، وتعرض منكم لإِنزالِ عقوبته عاجلاً بكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: قُلْ لهؤلاء العادِلينَ بربهم غيره من الأصنام والأوثان، يا محمد، إِنَّ الذي ينجيكم من ظلمات البرِّ والبحرِ ومن كُلِّ كربٍ، ثم تعودون للإشراكِ به، هو القادرُ على أن يرسلَ عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحتِ أرجلكم، لِشُرِّكُمْ به، وأدعائكم معه إلهاً آخرَ غيره، وكفرانكم نِعَمَهُ، مع إسباغِهِ عليكم آلاءَهُ ومِنَنَهُ.

وقد اختلف أهل التأويل في معنى «العذاب» الذي تَوَعَّدَ اللهُ به هؤلاء القوم أن يبعثَهُ عليهم من فوقهم أو من تحتِ أرجلهم.

فقال بعضهم: أما العذاب الذي توعدهم به أن يبعثه عليهم من فوقهم، فالرجم، وأما الذي توعدهم أن يبعثه عليهم من تحتهم، فالخسف.

وقال آخرون: عَنَى بالعذاب من فوقكم، أئمة السوء. «أو من تحت أرجلكم»، الخدم وسفلة الناس.

وأولى التأويلين في ذلك بالصواب عندي، قولُ مَنْ قَالَ: عَنَى بالعذاب من فوقهم، الرجم أو الطوفانَ وما أشبه ذلك مما ينزل عليهم من فوق رؤوسهم - ومن تحت أرجلهم، الخسفَ وما أشبهه. وذلك أن المعروف في كلام العرب من معنى «فوق» و«تحت» الأرجل، هو ذلك، دون غيره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوَلَيْسَ كُمْ شِعَاعَ وَيْذِقَ بَعْضُكُم بِأَسْ بَعْضٍ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «أَوْ يَخْلَطُكُمْ شَيْعاً»، فرقاً، واحداً «شَيْعَةً».

وأما قوله: «يَلْبِسُكُمْ» فهو من قولك: «لَبَسْتُ عَلَيْهِ الْأَمْرَ»، إذا خلطت، «فَأَنَا أَلْبِسُهُ». وإنما قلتُ إِنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ، لأنه لا خِلَافَ بَيْنَ الْقَرَأَةِ فِي ذَلِكَ بِكَسْرِ «الْبَاءِ»، ففي ذلك دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ: «لَبَسَ يَلْبِسُ»، وذلك هو معنى الخلط. وإنما عَنَى بِذَلِكَ: أَوْ يَخْلَطُكُمْ أَهْوَاءٌ مُخْتَلِفَةٌ وَأَحْزَابٌ مُفْتَرَقَةٌ.

وأما قوله: «وَيُذَيِّقُ بَعْضَكُمْ بِأَسِّ بَعْضٍ»، فإنه يعني: يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بِيَدِ بَعْضٍ.

ثم اختلف أهل التأويل فيمن عني بهذه الآية.

فقال بعضهم: عني بها المسلمون من أمة محمد ﷺ، وفيهم نزلت.

وقال آخرون: عني ببعضها أهل الشرك، وبعضها أهل الإسلام.

والصوابُ من القول عندي أن يقال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ تَوَعَّدَ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَهْلَ الشَّرْكِ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَإِيَّاهُمْ خَاطَبٌ بِهَا، لِأَنَّهَا بَيْنَ إِخْبَارٍ عَنْهُمْ وَخِطَابٍ لَهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَتْلُو قَوْلَهُ: «قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لِّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ»، وَيَتْلُوها قَوْلُهُ: «وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ». وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ كَانُوا بِهِ مُكَذِّبِينَ، فَإِذَا كَانَ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، كَانَ بَيِّنًا أَنَّ ذَلِكَ وَعِيدٌ لِمَنْ تَقَدَّمَ وَصَفَ اللَّهُ إِيَّاهُ بِالشَّرْكِ، وَتَأَخَّرَ الْخَبَرُ عَنْهُ بِالتَّكْذِيبِ - لَا لِمَنْ لَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرُهُ. غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ قَدْ عَمَّ وَعِيدُهُ بِذَلِكَ كُلَّ مَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْخِلَافِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ، وَالتَّكْذِيبِ بآيَاتِ اللَّهِ مِنْ هَذِهِ وَغَيْرِهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَنْظِرْ كَيْفَ نَصْرِي الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ

يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: انظر، يا محمد، بعين قلبك إلى ترديدنا حُجَجَنَا على هؤلاء المكذبين برَّبِّهم - الجاحدين نعمه، وتَصْرِيفِهَا فِيهِمْ. «لعلهم يفقهون»، يقول: ليفقهوا ذلك ويعتبروه، فيذكروا ويَزِدَّجُرُوا عما هُمْ عليه مُقِيمُونَ مما يسخطه الله منهم، من عبادة الأوثان والأصنام، والتكذيب بكتاب الله تعالى ذِكْرَهُ ورسوله ﷺ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ

بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَكَذَّبَ، يا محمد، قَوْمُكَ بما تقول وتُخْبِرُ وتُوَعِّدُ من الوعيد. «وهو الحق»، يقول: والوعيد الذي أوعدناهم على مقامهم على شركهم: من بعث العذاب من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، أو لبسهم شيعاً، وإذاقة بعضهم بأس بعض. «الحق الذي لا شك فيه أنه واقع إن هُم لم يتوبوا وَيُنَبِّئُوا مما هُم عليه مَقِيمُونَ من معصية الله والشرك به، إلى طاعة الله والإيمان به. «قل لست عليكم بوكيل»، يقول: قل لهم، يا محمد، لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أُرْسِلْتُ به إليكم. «لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ»، يقول: لِكُلِّ خَبَرٍ مُسْتَقَرٌّ، يعني: قرارٌ يستقرُّ عنده، ونهايةٌ ينتهي إليه، فيتبين حَقُّهُ وَصِدْقُهُ، مِنْ كَذِبِهِ وَبَاطِلِهِ. «وسوف تعلمون»، يقول: وسوف تعلمون، أيها المكذَّبُونَ بصحة ما أخبركم به من وعيد الله إياكم، أيها المشركون،

حقيقته عند حلول عذابه بكم، فأروا ذلك وعاینوه، فقتلهم يومئذ بأیدی أولیائه من المؤمنین.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيْءِ آيِنِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمدٍ ﷺ: وإذا رأيتَ، يا محمدُ، المشركين الذين يخوضون في آياتنا التي أنزلناها إليك، ووحينا الذي أوحيناهُ إليك، و«خوضهم فيها»، كان استهزاءً بهم بها، وسبُّهم من أنزلها وتكلم بها، وتكذيبهم بها. «فأعرض عنهم»، يقول: فصدَّ عنهم بوجهك، وقمَّ عنهم، ولا تجلس معهم. «حتى يخوضوا في حديثٍ غيره»، يقول: حتى يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بآياتِ الله من حديثهم بينهم. «وإمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ»، يقول: وإن أنساكَ الشيطان نَهْيَنَا إِيَّاكَ عن الجلوس معهم والإعراض عنهم في حال خوضهم في آياتنا، ثم ذكرتَ ذلك، فقمَّ عنهم، ولا تقعد بعد ذكركَ ذلك مع القوم الظالمين الذين خاضوا في غير الذي لهم الخوض فيه بما خاضوا به فيه. وذلك هو معنى «ظلمهم» في هذا الموضع.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتُقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَنْتُقُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَمَنْ اتَّقَى الله فَخَافَهُ، فاطاعه فيما أمرَهُ به، واجتنبَ ما نهَاهُ عنه، فليس عليه بتركِ الإعراض عن هؤلاء الخائضين في آياتِ الله في حال خوضهم في آياتِ الله، شيء من تبعَةٍ فيما بينه وبين الله، إذا لم يكن

الأنعام: ٦٩ - ٧٠

تركه الإعراض عنهم رضى بما هم فيه، وكان لله بحقوقه متقياً، ولا عليه من إثمهم بذلك حرج، ولكن ليعرضوا عنهم حينئذ ذكرى لأمر الله «لعلهم يتقون»، يقول: ليتقوا.

وقد ذُكرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إنما أمر بالقيام عن المشركين إذا خاضوا في آياتِ الله، لأن قيامه عنهم كان مما يكرهونه، فقال الله له: إذا خاضوا في آياتِ الله فقم عنهم، ليتقوا الخوض فيها ويتركوا ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرْتَهُمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ذر هؤلاء الذين اتخذوا دين الله وطاعتهم إياه لعباً ولهواً، فجعلوا حظوظهم من طاعتهم إياه اللعب بآياته، واللهو والاستهزاء بها إذا سمعوها وتليت عليهم، فأعرض عنهم، فإني لهم بالمرصاد، وإني لهم من وراء الانتقام منهم والعقوبة لهم على ما يفعلون، وعلى اغترارهم بزينة الحياة الدنيا، ونسيانهم المعاد إلى الله تعالى ذكره والمصير إليه بعد الممات.

وقد نسخ الله تعالى ذكره هذه الآية بقوله: «أَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»، [التوبة: ٥].

وأما قوله: «وَذَكَّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ»، فإنه يعني به: وذكّر، يامحمد، بهذا القرآن هؤلاء المولئين عنك وعنه «أن تبسل نفس»، بمعنى: أن تبسل، كما قال: «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا»، [النساء: ١٧٦]، بمعنى: أن لا تضلوا - وإنما معنى الكلام: وذكّرهم به ليؤمنوا ويتبعوا ما جاءهم من عند

الأنعام: ٧٠

الله من الحق، فلا تُبْسَلْ أَنْفُسُهُمْ بما كَسَبَتْ من الأوزار ولكن حذفت «لا»، لدلالة الكلام عليها.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ».

فقال بعضهم: معنى ذلك: أَنْ تُسَلَّمَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: تُحْبَسَ.

وقال آخرون: معناه: تُفْضَحَ.

وقال آخرون: معناه: أَنْ تُجْزَى.

وأصل «الإبسال» التحريم، يقال منه: «أبسلت المكان»، إذا حُرِّمَتْ فلم يُقْرَبَ.

فتأويل الكلام إذا: وذَكَرَ بالقرآن هؤلاء الذين يخوضون في آياتنا وغيرهم ممن سلك سَبِيلَهُمْ من المشركين، كيلا تُبْسَلَ نَفْسٌ بذنوبها وكفرها بربها، وترتهن فتغلق بما كَسَبَتْ من إجرامها في عذاب الله «ليس لها من دون الله»، يقول: ليس لها، حين تسلم بذنوبها فترتهن بما كَسَبَتْ من آثامها، أحد ينصرها فينقذها من الله الذي جازاها بذنوبها جزاءها «ولا شفيع»، يشفع لها لوسيلة له عنده.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَإِنْ تَعَدَّلَ النَّفْسُ الَّتِي أْبْسَلْتَ بِمَا كَسَبَتْ: يعني: «وإن تعدل كل عدل»، يعني: كل فداء.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَتْبَعُوكُمْ بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ

شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين إِنْ قَدُوا أَنْفُسَهُمْ من عذاب الله يوم القيامة كُلُّ فِدَاءٍ لَمْ يُؤْخَذْ مِنْهُمْ، هم «الذين أُبْسِلُوا بما كَسَبُوا»، يقول: أُسْلِمُوا لعذابِ الله، فرهنوا به جزاء بما كَسَبُوا في الدنيا من الآثام والأوزار. «لهم شرابٌ من حميم». و«الحميم» هو الحارّ، في كلام العرب، وإنما هو «محموم» صرف إلى «فعليل».

وإنما جعل تعالى ذِكْرَهُ لهؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ في هذه الآية شراباً من حميم، لأنَّ الحارَّ من الماء لا يروي من عَطَشٍ. فأخبر أنهم إذا عطشوا في جهنم لم يُعْأَثُوا بماءٍ يرويههم، ولكن بما يَزِيدُون به عطشاً على ما بِهِمْ من العطش «وعذاب أليم»، يقول: ولهم أيضاً مع الشرابِ الحميم من الله العذابُ الأليم والهوانُ المقيم «بما كانوا يكفرون»، يقول: بما كان من كُفْرِهِمْ في الدنيا بالله، وإنكارِهِمْ توحيدَهُ، وعبادَتِهِمْ مَعَهُ آلِهَةً دونه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَهِ

وهذا تنبيه من الله تعالى ذِكْرَهُ نبيه ﷺ على حُجَّتِهِ على مُشْرِكِي قَوْمِهِ من عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ. يقول له تعالى ذِكْرَهُ: قُلْ، يا محمد، لهؤلاء العادلين بِرَبِّهِمِ الْأَوْثَانُ وَالْأَنْدَادُ، وَالْأَمْرَيْنِ لَكَ بِاتِّبَاعِ دِينِهِمْ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ مَعَهُمْ: أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ حَجَرًا أَوْ خَشْبًا لَا يَقْدِرُ عَلَى نَفْعِنَا أَوْ ضَرَرِنَا، فَتَخْصُصْهُ بِالْعِبَادَةِ دُونَ اللَّهِ، وَنَدْعِ عِبَادَةَ الَّذِي بِيَدِهِ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ وَالْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَتَمَيِّزُونَ

الأنعام: ٧١

بين الخير والشر؟ فلا شك أنكم تعلمون أن خدمة ما يُرتجى نفعه ويُرهَب ضُرُّه، أحق وأولى من خدمة مَنْ لا يُرجى نفعه ولا يُخشى ضُرُّه!

«ونردّ على أعقابنا»، يقول: ونرد إلى أديارنا، فنرجع القهقري خلقنا، لم نظفر بحاجتنا.

ولأنما يراد به في هذا الموضع: ونرد من الإسلام إلى الكفر بعد إذ هدانا الله، فوفّقنا له، فيكون مثلنا في ذلك مثل الرجل الذي استتبعه الشيطان، يهوي في الأرض حيران.

وقوله: «استهوته»، «استفعلته»، من قول القائل: «هوى فلان إلى كذا يهوي إليه»، ومن قول الله تعالى ذكره: ﴿فَأَجْعَلْ أُفْدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾، [إبراهيم: ٣٧]، بمعنى: تنزع إليهم وتريدهم.

وأما «حيران»، فإنه «فعلان» من قول القائل: «قد حار فلان في الطريق، فهو يحار فيه حيرة وحيراناً وخيرة»، وذلك إذ ضلّ فلم يَهْتَدِ للمحجّة.

وله أصحاب يدعونه إلى الهدى، يقول: لهذا الحيران الذي قد استهوته الشياطين في الأرض، أصحاب على المحجّة واستقامة السبيل، يدعونه إلى المحجّة لطريق الهدى الذي هم عليه، يقولونه له: ائتنا.

وهذا مثل ضربه الله تعالى ذكره لمن كفر بالله بعد إيمانه، فاتبع الشياطين، من أهل الشرك بالله - وأصحابه الذين كانوا أصحابه في حال إسلامه، المقيمون على الدين الحق، يدعونه إلى الهدى الذي هم عليه مقيمون، والصواب الذي هم به متمسكون، وهو له مفارق وعنه زائل، يقولونه له: «ائتنا فكن معنا على استقامة وهدى»! وهو يأبى ذلك، ويتبع دواعي الشيطان، ويعبد الآلهة والأوثان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَأَمْرًا

لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: قُلْ، يا محمد، لهؤلاء العادلين برّبهم الأوثان، القائلين لأصحابك: «اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ، فَإِنَّا عَلَى هَدَىٰ»:- لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ - «إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهَدَىٰ»، يقول: إِنَّ طَرِيقَ اللَّهِ الَّذِي بَيَّنَّهُ لَنَا وَأَوْضَحَهُ، وَسَبِيلَهُ الَّذِي أَمَرْنَا بِلِزْمِهِ، وَدِينَهُ الَّذِي شَرَعَهُ لَنَا قَبِيلُهُ، هُوَ الْهُدَى وَالِاسْتِقَامَةُ الَّتِي لَا شَكَّ فِيهَا، لَا عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، فَلَا تَتْرَكِ الْحَقَّ وَتَتَّبِعِ الْبَاطِلَ. «وَأَمَرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»، يقول: وَأَمَرْنَا رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ تَعَالَى وَجْهَهُ، لِنُسْلِمَ لَهُ، لِنَخْضَعَ لَهُ بِالذَّلَّةِ وَالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، فَنَخْلُصَ ذَلِكَ لَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَلِهَةِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَهُوَ الَّذِي

إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾

(يعني): وَأَمَرْنَا بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَذَلِكَ أَدَائُهَا بِحُدُودِهَا الَّتِي فَرَضَتْ عَلَيْنَا. «وَاتَّقُوا اللَّهَ»، يقول: وَاتَّقُوا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي أَمَرْنَا أَنْ نُسْلِمَ لَهُ، فَخَافُوهُ وَاحْذَرُوا سَخَطَهُ، بِأَدَاءِ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَيْكُمْ، وَالِإِذْعَانِ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ. «وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ»، يقول: وَرَبُّكُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ، هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فَتُجْمَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ، وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي
الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

إن الله تعالى ذكّره أخبر أنه المنفرد بخلق السموات والأرض دون كل
مأسواه، معرّفاً مَنْ أشرك به من خلقه جهله في عبادة الأوثان والأصنام، وخطأ
ما هم عليه مقيمون من عبادة مالا يضر ولا ينفع، ولا يقدر على اجتلاب نفع
إلى نفسه، ولا دفع ضرر عنها - ومحتجاً عليهم في إنكارهم البعث بعد الممات
والثواب والعقاب، بقدرته على ابتداع ذلك ابتداءً، وأن الذي ابتدع ذلك غير
متعذر عليه إفاؤه ثم إعادته بعد إفناؤه، فقال: «وهو الذي خلق»، أيها العادلون
بربهم مَنْ لا ينفع ولا يضر ولا يقدر على شيء. «السموات والأرض بالحق»،
حجة على خلقه، ليعرفوا بها صانعها، وليستدلوا بها على عظيم قدرته
وسلطانه، فيخلصوا له العبادة «ويوم يقول كُنْ فيكون»، يقول: ويوم يقول حين
تُبْدَلُ الأرض غير الأرض والسموات كذلك: «كُنْ فيكون»، كما شاء تعالى
ذكّره، فتكون الأرض غير الأرض - ويكون الكلام عند قوله: «كن فيكون»
متناهيًا.

وإذا كان كذلك معناه، وجب أن يكون في الكلام محذوف يدل عليه
الظاهر، ويكون معنى الكلام: ويوم يقول كذلك: «كن فيكون» تُبْدَلُ السموات
والأرض غير السموات والأرض. ويدل على ذلك قوله: «وهو الذي خلق
السموات والأرض بالحق»، ثم ابتدأ الخبر عن القول فقال: «قوله الحق»،
بمعنى وعده هذا الذي وعدتعالى ذكّره، من تبديله السموات والأرض غير
الأرض والسموات، الحق الذي لا شك فيه. «وله الملك يوم ينفع في الصور»
فيكون قوله: «يوم ينفع في الصور»، من صلة «الملك» ويكون معنى الكلام:
ولله الملك يومئذ، لأن النفخة الثانية في الصور حال تبديل الله السموات

والأرض غيرهما.

وجائزُ أَنْ يَكُونَ «القول» أعني: «قوله الحق»، مرفوعاً بقوله: «ويومَ يقولُ كُنْ فيكون»، ويكون قوله: «كُنْ فيكون» محلاً للقول مرافعاً، فيكون تأويلُ الكلام: وهو الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحق، ويومَ يُبَدِّلُهَا غَيْرَ السمواتِ والأرضِ، فيقول لذلك: «كُنْ فيكون»، «قوله الحق».

وأما قوله: «وله الملكُ يومَ يُنفخُ في الصور»، فإنه خُصَّ بالخبر عن ملكه يومئذٍ، وإنَّ كان الملكُ له خالصاً في كُلِّ وَقْتٍ في الدنيا والآخرة، لأنه عَنِ تعالى ذِكْرُهُ أَنَّهُ لَا مُنَازَعَ لَهُ فِيهِ يَوْمئِذٍ وَلَا مُدَّعَى لَهُ، وَأَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِهِ دُونَ كُلِّ مَنْ كَانَ يَنَازِعُهُ فِيهِ فِي الدنيا من الجبابرة، فَأَذَعَنَ جَمِيعُهُمْ يَوْمئِذٍ لَهُ بِهِ، وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ دَعْوَاهُمْ فِي الدنيا فِي باطل.

معنى «الصور» في هذا الموضع: هو قرنٌ يُنْفَخُ فِيهِ نَفْخَتَانِ: إحداهما لفناء مَنْ كَانَ حَيًّا عَلَى الأرض، والثانية لنشر كُلِّ مَيِّتٍ وَاعْتَلُّوا لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي نَارٍ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وبالخبر الذي روي عن رسولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ إِذْ سئلَ عَنِ الصُّورِ: هو قرنٌ يُنْفَخُ فِيهِ^(١).

ويعني بقوله: «عالم الغيب والشهادة»، عالم ما تعينون: أيها الناس، فتشاهدونه، وما يغيبُ عن حواسِّكم وأبصاركم فلا تحسونه ولا تبصرونه «وهو الحكيم»، في تدبيره وتصريفه خَلْقَهُ مِنْ حَالِ الْوُجُودِ إِلَى الْعَدَمِ، ثُمَّ مِنْ حَالِ الْعَدَمِ وَالْفَنَاءِ إِلَى الْوُجُودِ، ثُمَّ فِي مَجَازَاتِهِمْ بِمَا يَجَازِيهِمْ بِهِ مِنْ ثَوَابٍ أَوْ عِقَابٍ.

(١) أخرجه أحمد: ١٩٢/٢، والترمذي من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وخسنة (٢٤٣٠)، وأبو داود، والنسائي في الكبرى (كما في التحفة ٨٦٠٨). والحاكم في المستدرک: ٥٦٠/٤، وصححه، ووافقه الذهبي. قلنا: رجاله ثقات فهو صحيح.

«الخير»، بكل ما يعملونه ويكسبونه من حسن وسىء، حافظ ذلك عليهم ليجازيهم على كل ذلك. يقول تعالى ذكره: فاحذروا، أيها العادلون بربكم، عقابه، فإنه عليم بكل ما تأتون وتذرون، وهو لكم من وراء الجزاء على ماتعملون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَ

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وأذكر، يا محمد - لحجاجك الذي تحاج به قومك، وخصومتك إياهم في آلهتهم، وما تراجعهم فيها، مما نلقيه إليك وتعلمك من البرهان والدلالة على باطل ما عليه قومك مقيمون، وصحة ما أنت عليه مقيم من الدين، وحقيقة ما أنت به عليهم محتج حجاج إبراهيم خليلي قومه، ومراجعته إياهم في باطل ما كانوا عليه مقيمين من عبادة الأوثان، وانقطاعه إلى الله والرضى به ولياً وناصرأ دون الأصنام، فاتخذهُ إماماً واقتد به، وأجعل سيرته في قومه لنفسك مثلاً - إذ قال لأبيه مفارقاً لدينه، وعائباً عبادته الأصنام دون بارئه وخالقه: يا أزر.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: اتَّخَذَ أَصْنَامًا إِيَّاهُ أَرَكَ

وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قيل إبراهيم لأبيه أزر أنه قال: «اتخذ أصناماً آلهة»، تعبدها وتتخذها رباً دون الله الذي خلقك فسواك ورزقك؟

«إني أراك وقومك في ضلال مبين»، يقول: «إني أراك»، يا أزر، «وقومك». الذين يعبدون معك الأصنام ويتخذونها آلهة. «في ضلال»، يقول: في زوالٍ عن محجة الحق، وعدولٍ عن سبيل الصواب. «مبين»، يقول:

يتبين لمن أبصره أنه جَوْرٌ عن قصدِ السبيل، وزوالٌ عن محجةِ الطريق القويم .
يعني بذلك أنه قد ضَلَّ هو وهم عن توحيدِ الله وعبادته، الذي استوجبَ عليهم
إخلاصَ العبادةِ له بآلائِهِ عندهم، دونَ غيره من الآلهةِ والأوثان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

يعني تعالى ذِكْرَهُ بقوله: «وكذلك»، وكما أريناه البصيرةُ في دينه، والحقُّ
في خلافِهِ ما كانوا عليه من الضلالِ، نُريهِ ملكوتَ السمواتِ والأرضِ - يعني:
ملكه.

وأما قوله: «وليكون من الموقنين»، فإنه يعني أنه أراه ملكوتَ السمواتِ
والأرضِ، ليكون مِمَّنْ يُقَرُّ بتوحيدِ الله، ويعلم حقيقةَ ما هداهُ له وبَصَرُهُ إياه،
من معرفةِ وحدانيته، وما عليه قومه من الضلالةِ، من عبادَتِهِم الأصنامَ،
واتخاذهم إياها آلهةً دونَ الله تعالى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي
فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فلما وراه الليلُ وَغِيَّهُ.

وقوله: «رأى كوكباً»، يقول: أبصر كوكباً حين طلع. «قال هذا ربي».

وأما قوله: «فلما أفَلَ»، فإنَّ معناه: فلما غابَ وذهبَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا

أَفَلَمْ قَالَ لَيْنَ تَمْ يَهْدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما طلع القمرُ فرأه إبراهيمُ طالماً، وهو «بُزوغه». «قال هذا ربي فلما أفل»، يقول: فلما غابَ «قال»، إبراهيمُ، «لئن لم يَهْدِنِي ربي»، ويوفِّقَنِي لإصابةِ الْحَقِّ في توحيدِهِ. «لأكوننَّ من القومِ الضالِّينَ»، أي: من القومِ الذين أخطأوا الْحَقَّ في ذلك، فلم يُصَيِّبُوا الْهَدْيَ، وعبدوا غيرَ الله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فلما رأى الشمسَ بازغةً»، فلما رأى إبراهيمُ الشمسَ طالعةً، قال: هذا الطالعُ رَبِّي «هذا أكبرُ»، يعني: هذا أكبرُ من الكوكبِ والقمرِ - فحذف ذلك للدلالةِ الكلامِ عليه - «فلما أفلت»، يقول: فلما غَابَتْ، قال إبراهيمُ لقومه «يا قوم إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ»، أي: من عبادةِ الآلهةِ والأصنامِ ودعائه إلهاً مع الله تعالى ذِكْرُهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن خليلِهِ إبراهيمَ عليه السلام: أنه لما تَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ وعرفَهُ، شَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، وأظهرَ خِلَافَ قَوْمِهِ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَأَهْلِ الشُّرْكِ بِاللَّهِ، ولم يأخذهُ في الله لَوْمَةٌ لائِمٌ، ولم يستوحشْ من قِيلِ الْحَقِّ والثباتِ عليه، مع خِلَافِ جميعِ قَوْمِهِ لقوله، وإنكارِهِمْ إِيَّاهُ عليه، وقال لهم: «يا قوم إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ» مع الله الَّذي خلقني وخلقكم في عبادته من

آلهتكم وأصنامكم، إني وجهت وجهي في عبادتي إلى الذي خَلَقَ السموات والأرض، الدائم الذي يبقى ولا يفنى، ويُحيي ويميت - لا إلى الذي يفنى ولا يبقى، ويزول ولا يدوم، ولا يضر ولا ينفع.

ثم أخبرهم تعالى ذِكْرَهُ: أَنْ تُوْجِهَهُ وَجْهَهُ لِعِبَادَتِهِ، بإخلاص العبادَةِ له، والاستقامة في ذلك لرَبِّه على ما يحبُّ من التوحيد، لا على الوجه الذي يوجِّه له وَجْهَهُ مَنْ ليس بحنيفٍ، ولكنه به مشرك إذ كان توجيهُ الوجهِ على غير التحنُّفِ غير نافعٍ مَوْجَّهَهُ، بل ضارٌّ ومهلكه. «وما أنا من المشركين»، ولستُ منكم، أي: لستُ مِنْ يَدِينُ دِينِكُمْ، وَيَتَّبِعُ مِلَّتَكُمْ أيها المشركون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَحَاجَّجْهُ قَوْمَهُ، قَالَ أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وجادل إبراهيمُ قَوْمَهُ في توحيدِ الله وبراءته من الأصنام، وكان جدالهم إياه قولهم: أَنْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا خَيْرٌ مِنْ إِلَهِهِ. قال إبراهيمُ: «أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ»، يقول: أَتُجَادِلُونِي فِي تَوْحِيدِي اللَّهَ وَإِخْلَاصِي الْعَمَلَ لَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنْ آلِهَةٍ. «وقد هدان»، يقول: وقد وفَّقني ربي لمعرفة وحدانيته، وبصَّرني طريقَ الْحَقِّ حَتَّى أَبْقَنْتُ أَنْ لَا شَيْءَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ سِوَاهُ. «ولا أخافُ ما تشركون به»، يقول: ولا أُرْهِبُ مِنْ آلِهَتِكُمْ الَّتِي تَدْعُونَهَا مِنْ دُونِهِ شَيْئًا يَنَالُنِي بِهِ فِي نَفْسِي مِنْ سُوءٍ وَمَكْرِهِ. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ: إِنَّا نَخَافُ أَنْ تَمْسُكَ آلِهَتُنَا بِسُوءٍ مِنْ بَرَصٍ أَوْ خَبَلٍ، لِذِكْرِكَ إِيَّاهَا بِسُوءٍ! فَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِاللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَلْهَةِ أَنْ تَنَالَنِي بِضَرٍّ وَلَا مَكْرِهِ، لِأَنَّهَا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ. «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا»، يقول: ولكن خوفي من الله الذي

خلقتني وخلق السموات والأرض، فإنه إن شاء أن ينالني في نفسي أو مالي بما شاء من فناء أو بقاء، أو زيادة أو نقصان أو غير ذلك، نالني به، لأنه القادر على ذلك.

«وسع ربي كل شيء علماء»، يقول: وعلم ربي كل شيء، فلا يخفى عليه شيء، لأنه خالق كل شيء، ليس كالألوه التي لا تضر ولا تنفع ولا تفهم شيئاً، وإنما هي خشبة منحوتة، وصورة ممثلة. «أفلا تذكرون»، يقول: أفلا تعتبرون، أيها الجاهلة، فتعقلوا خطأ ما أنتم عليه مقيمون، من عبادتكم صورة مصورة وخشبة منحوتة، لا تقدر على ضر ولا على نفع، ولا تفقه شيئاً ولا تعقله - وترككم عبادة من خلقكم وخلق كل شيء، ويديه الخير، وله القدرة على كل شيء، والعالم بكل شيء.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

وهذا جواب إبراهيم لقومه حين خوفوه من ألهمهم أن تمسه، لذكره إياها بسوء، في نفسه بمكرهه، فقال لهم: وكيف أخاف وأرهب ما أشركتموه في عبادتكم ربكم فعبدتموه من دونه، وهو لا يضر ولا ينفع؟ ولو كانت تنفع أو تضر، لدفعت عن أنفسها كسري إياها وضربي لها بالفأس! وأنتم لا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم، وهو القادر على نفعكم وضرركم في إشراككم في عبادتكم إياه. «ما لم ينزل به عليكم سلطاناً»، يعني: ما لم يعطكم على إشراككم إياه في عبادته حجة، ولم يضع لكم عليه برهاناً، ولم يجعل لكم به عدلاً. «فأي الفريقين أحق بالأمن»، يقول: أنا أحق بالأمن من عاقبة عبادتي

رَبِّي مُخْلِصًا لَهُ الْعِبَادَةَ، حَنِيفًا لَه دِينِي، بَرِئًا مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، أَمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَصْنَامًا لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَكُمْ بِعِبَادَتِكُمْ إِيَّاهَا بَرَهَانًا وَلَا حُجَّةً. «إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ»، يَقُولُ: إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقَ مَا أَقُولُ، وَحَقِيقَةَ مَا أحتِجُّ بِهِ عَلَيْكُمْ، فَقُولُوا وَآخِبرُونِي: أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

اختلف أهل التأويل في الذي أخبر تعالى ذكره عنه أنه قال هذا القول = أعني: «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم»، الآية.

فقال بعضهم: هذا فصل القضاء من الله بين إبراهيم خليله ﷺ، وبين مَنْ حاجَّه من قومه من أهل الشرك بالله، إذ قال لهم إبراهيم: «وكيف أخافُ ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون؟» فقال الله تعالى ذكره، فاصلاً بينه وبينهم: الذين صدَّقوا الله وأخلصوا له العبادَةَ، ولم يخلطوا عبادتهم إياه وتصدقهم له بظلم - يعني: بشرك - ولم يشركوا في عبادته شيئاً، ثم جعلوا عبادتهم لله خالصاً، أحقُّ بالأمن من عقابه مَكْرُوهَ عِبَادَتِهِ رَبِّه، من الذين يُشْرِكُونَ في عبادتهم إياه الأوثان والأصنام، فإنهم الخائفون من عقابه مَكْرُوهَ عِبَادَتِهِمْ - أمَّا في عاجل الدنيا فإنهم وجَّهون من حلولِ سَخَطِ اللَّهِ بِهِمْ، وأمَّا في الآخرة، فإنهم الموقنون باليَمِّ عَذَابِ اللَّهِ.

وقال آخرون: هذا جواب من قوم إبراهيم ﷺ لإبراهيم، حين قال لهم: «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ؟» فقالوا له: الذين آمنوا بالله فوَحَّدُوهُ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ، إذ لم يلبسوا إيمانهم بظلم.

الأنعام: ٨٢

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول مَنْ قال: هذا خبرٌ من الله تعالى ذكَّره عن أولى الفريقين بالأمن، وفصل قضاءً منه بين إبراهيم ﷺ وبين قومه. وذلك أنَّ ذلك لو كان من قول قوم إبراهيم الذين كانوا يعبدون الأوثان ويشركونها في عبادة الله، لكانوا قد أقرُّوا بالتوحيدِ واتبَعوا إبراهيم على ما كانوا يخالفونه فيه من التوحيدِ، ولكنه كما ذكرت من تأويله بديًّا.

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي عناه الله تعالى بقوله: «ولم يلبسوا إيمانهم بظلم».

فقال بعضهم: بشرك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولم يخلطوا إيمانهم بشيء من معاني الظلم، وذلك: فَعَلُ ما نهى الله عن فعله، أو ترك ما أمر الله بفعله. وقالوا: الآية على العموم، لأنَّ الله لم يخصَّ به معنىً من معاني الظلم.

قالوا: فإنَّ قال لنا قائل: أفلا آمنَ في الآخرة، إلَّا لمن لم يعصِ الله في صغيرة ولا كبيرة، وإلا لمن لقيَ الله ولا ذنبَ له؟

قلنا: إنَّ الله عَنَى بهذه الآية خاصًّا من خَلَقَه دون الجميع منهم، والذي عنى بها وأراد به، خليله إبراهيم ﷺ، فأما غيره، فإنه إذا لقيَ الله لا يشرك به شيئاً فهو في مشيئته إذا كان قد أتى بعض معاصيه التي لا تبلغ أنَّ تكونَ كفرًا، فإنَّ شاء لم يؤمنه من عذابه، وإن شاء تَفَضَّلَ عليه فعفا عنه.

قالوا: وذلك قول جماعةٍ من السلف، وإنَّ كانوا مختلفين في المعنى بالآية.

فقال بعضهم: عُنِيَ بها إبراهيم.

وقال بعضهم: عُنِيَ بها المهاجرون من أصحاب رسول الله ﷺ.

وأولى القولين بالصحة في ذلك، ما صحَّ به الخبرُ عن رسول الله ﷺ، وهو الخبر الذي رواه ابن مسعود عنه أنه قال: الظلمُ الذي ذكره الله تعالى ذكَّره في هذا الموضع، هو الشرك^(١).

وأما قوله: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»، فإنه يعني: هؤلاء الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك. «لَهُمُ الْأَمْنُ» يوم القيامة من عذاب الله. «وهم مهتدون»، يقول: وَهُمْ الْمَصْبُيُونَ سَبِيلَ الرِّشَادِ، والسالكُونَ طريقَ النجاة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾

يعني تعالى ذكَّره بقوله: «وتلك حجتنا»، قول إبراهيم لمخاصميه من قومه المشركين: «أي الفريقين أحقُّ بالأمن»، أَمَّنْ يَعْبُدُ رَبًّا وَاحِدًا مَخْلَصًا لَهُ الدِّينَ والعبادة، أم من يعبدُ أرباباً كثيرة؟ وإجابتهم إياه بقولهم: «بل مَنْ يَعْبُدُ رَبًّا وَاحِدًا أَحَقُّ بِالْأَمْنِ»، وقضاؤهم له على أنفسهم، فكان في ذلك قطع عُذْرِهِمْ وانقطاع حُجَّتِهِمْ، واستعلاء حجة إبراهيم عليهم^(٢). فهي الحجة التي آتاها الله إبراهيم على قومه.

وأما قوله: «إن ربك حكيم عليم»، فإنه يعني: إِنَّ رَبَّكَ، يامحمدُ،

(١) أخرجه الطبري من طرق (١٣٤٧٦-١٤٨٠، ١٤٨٣) وهو في الصحيحين: البخاري (٣٢) و(٣٣٦٠) و(٣٤٢٨) و(٣٤٢٩) و(٤٦٢٩) و(٤٧٧٦) و(٦٩١٨) و(٦٩٣٧)، ومسلم (١٢٤).

(٢) هذا تناقض من أبي جعفر في تفسيره، فقد ذكر قبل قليل أن الصواب في قوله تعالى: «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» أنه خبر من الله تعالى ذكره عن أولى الفريقين بالأمن، ثم عاد هنا فزعم أن ذلك من إجابة قوم إبراهيم لإبراهيم

«حكيم»، في سياسته خلقه، وتلقيته أنبياءه الحجج على أمهم المكذبة لهم، الجاحدة توحيد ربهم، وفي غير ذلك من تدبيره. «عليم»، بما يؤول إليه أمر رُسُلِهِ والمرسل إليهم، من ثبات الأمم على تكذيبهم إياهم، وهلاكهم على ذلك، أو إنباتهم وتوبتهم منه بتوحيد الله تعالى ذكره وتصديق رسله، والرجوع إلى طاعته.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فَاتَّسِ، يامحمدُ، في نفسك وقومك المُكذِّبِيكَ، والمُشْرِكِينَ، بأبيك وخليلي إبراهيم ﷺ، واصبرْ على ما ينوبك منهم صَبْرُهُ، فإنني بالذي يؤولُ إليه أمرُك وأمرُهم عالمٌ، وبالتدبيرِ فيك وفيهم حكيمٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى ذكره: فجزينا إبراهيم ﷺ على طاعته إيانا، وإخلاصه توحيد ربه، ومفارقة دين قومه المشركين بالله، بأن رفعنا درجته في عِلِّيِّينَ، وآتيناه أجره في الدنيا، ووهبنا له أولاداً خصصناهم بالنبوة، وذرية شرفناهم من الكرامة، وفضلناهم على العالمين، منهم: ابنه إسحق، وابن ابنه يعقوب. «كُلًّا هَدَيْنَا»، يقول: هَدَيْنَا جميعهم لسبيل الرشاد، فوقناهم للحق والصواب من الأديان. «ونوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ»، يقول: وهدينا لمثل الذي هدينا إبراهيم وإسحق ويعقوب من الحق والصواب، فوقناه له - نوحاً، من قبل إبراهيم وإسحق ويعقوب.

«ومن ذريته داود»، و«الهاء» التي في قوله: «ومن ذريته»، من ذكر نوح.

وذلك أن الله تعالى ذكّره ذكّر في سياق الآيات التي تتلو هذه الآية لوطاً فقال: «وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلّاً فضلنا على العالمين». ومعلوم أن لوطاً لم يكن من ذرية إبراهيم صلى الله عليه وسلم، فإذ كان ذلك كذلك، وكان معطوفاً على أسماء مَنْ سَمِينَا من ذريته، كان لا شك أنه لو أُريدَ بالذرية ذرية إبراهيم، لما دخل يونس ولوط فيهم. ولا شك أن لوطاً ليس من ذرية إبراهيم، ولكنه من ذرية نوح. فلذلك وجب أن تكون «الهاء» في «الذرية»، من ذكر نوح. فتأويل الكلام: ونوحاً وَفَقْنَا للحقّ والصواب من قبل إبراهيم وإسحق ويعقوب، وَهَدَيْنَا أيضاً من ذرية نوح، داود وسليمان.

«وكذلك نجزي المحسنين»، يقول: تعالى ذكّره: جَزَيْنَا نوحاً بصبره على ما امْتَحَنَ به فينا، بأن هديناه فوقّناه لإصابة الحق الذي خذلنا عنه مَنْ عصانا فخالَفَ أمرنا ونهينا من قومه، وَهَدَيْنَا من ذريته من بعده مَنْ ذكّر تعالى ذكّره من أنبيائه لِمِثْلِ الذي هديناه له. وكما جزينا هؤلاء بِحُسْنِ طاعتهم إيانا وصبرهم على المِحْنِ فينا، كذلك نجزي بالإحسانِ كُلَّ محسن.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنْ

الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾

يقول تعالى ذكّره: وهدينا أيضاً لمثل الذي هدينا له نوحاً من الهدى والرشاد من ذريته: زكريا بن إدو بن برخيا، ويحيى بن زكريا، وعيسى بن مريم ابنة عمران بن ياشهم بن أمون بن حزقيا. «وإلياس».

وقوله: «كُلٌّ مِنَ الصّالِحِينَ»، يقول: مَنْ ذكرنا من هؤلاء الذين سَمِينَا «من الصّالحين»، يعني: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس صلى الله عليه وسلم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَإِسْمَاعِيلَ وَإِلْيَاسَ وَيُونُسَ وَلُوطًا**
وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَهَدَيْنَا أَيْضاً مِنْ ذُرِّيَةِ نُوحٍ «إِسْمَاعِيلَ» وَهُوَ: إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ. «وَالْيَاسَعَ»، هُوَ: الْيَسَعَ بْنُ أَخْطُوبَ بْنِ الْعَجُوزِ. وَ«يُونُسَ» هُوَ: يُونُسُ بْنُ مَتَّى. «وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا»، مِنْ ذُرِّيَةِ نُوحٍ وَنُوحاً، لَهُمْ بَيِّنَةُ الْحَقِّ وَوَقَفْنَاهُمْ لَهُ، وَفَضَّلْنَا جَمِيعَهُمْ «عَلَى الْعَالَمِينَ»، يَعْنِي: عَلَى عَالَمِ أَرْزَاقِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ**
وَأَجْنِبْتَهُمْ وَهَدَيْنَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَهَدَيْنَا أَيْضاً مِنْ آبَاءِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ تَعَالَى ذِكْرَهُ. «وَمِنْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ»، آخَرِينَ سِوَاهُمْ، لَمْ يُسَمِّهِمْ، لِلْحَقِّ وَالِدِينَ الْخَالِصِ الَّذِي لَا شَرَكَ فِيهِ، فَوَقَفْنَاهُمْ لَهُ. «وَأَجْنِبْنَاهُمْ»، يَقُولُ: وَاخْتَرْنَاهُمْ لِدِينِنَا وَبِلَاغِ رِسَالَتِنَا إِلَى مَنْ أَرْسَلْنَاهُمْ إِلَيْهِ، كَالَّذِي اخْتَرْنَا مِنْهُمْ سَمِينًا.

«وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، يَقُولُ: وَسَدَّدْنَاهُمْ فَأَرْشَدْنَاهُمْ إِلَى طَرِيقِ غَيْرِ مَعْوَجٍ، وَذَلِكَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي لَا عِوَجَ فِيهِ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ رَبُّنَا لِأَنْبِيَائِهِ، وَأَمَرَ بِهِ عِبَادَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنَ**
عِبَادِهِ ۖ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

يعني تعالى ذِكْرَهُ بقوله: «ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ»، هَذَا الْهُدَى الَّذِي هَدَيْتُ بِهِ

مَنْ سَمَّيْتُ مِنَ الْآنِبِيَاءِ وَالرَّسُلِ، فَوَقَّعْتُهُمْ بِهِ لِإِصَابَةِ الدِّينِ الْحَقِّ الَّذِي نَالُوا بِإِصَابَتِهِمْ إِيَّاهُ رَضَىٰ رَبُّهُمْ، وَشَرَفَ الدُّنْيَا، وَكَرَامَةَ الْآخِرَةِ، هُوَ «هُدَى اللَّهِ»، يَقُولُ: هُوَ تَوْفِيقُ اللَّهِ وَلُطْفُهُ الَّذِي يُوَفِّقُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيُلَطِّفُ بِهِ لِمَنْ أَحَبَّ مِنْ خَلْقِهِ، حَتَّى يَنْبِذَ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ، وَإِقْرَارِهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَرَفْضِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ. «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، يَقُولُ: وَلَوْ أَشْرَكَ هَؤُلَاءِ الْآنِبِيَاءُ الَّذِينَ سَمَّيْنَاهُمْ، بِرَبِّهِمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ، فَعَبَدُوا مَعَهُ غَيْرُهُ. «لَحَبِطَ عَنْهُمْ»، يَقُولُ: لَبْطَلَ فَذَهَبَ عَنْهُمْ أَجْرُ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونَ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مَعَ الشَّرِكِ بِهِ عَمَلًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**

يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: «أُولَئِكَ»، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَمَّيْنَاهُمْ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، نُوحًا وَذُرِّيَّتِهِ الَّذِينَ هَدَاهُمْ لِلدِّينِ الْإِسْلَامِ، وَاخْتَارَهُمْ لِرِسَالَتِهِ إِلَى خَلْقِهِ، هُمْ «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ»، يَعْنِي: بِذَلِكَ: صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى، وَزُبُورَ دَاوُدَ، وَإِنْجِيلَ عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. «وَالْحِكْمَ»، يَعْنِي: الْفَهْمَ بِالْكِتَابِ، وَمَعْرِفَةً مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ.

وَعَنَى بِذَلِكَ مُجَاهِدٌ، إِنَّ شَاءَ اللَّهُ، مَا قُلْتُ، لِأَنَّ «الْلبَّ» هُوَ «الْعَقْلُ»، فَكَانَهُ أَرَادَ: أَنَّ اللَّهَ آتَاهُمُ الْعَقْلَ بِالْكِتَابِ، وَهُوَ بِمَعْنَى مَا قُلْنَا مِنْ أَنَّهُ الْفَهْمُ بِهِ. وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى «النُّبُوَّةِ» وَ«الْحِكْمِ»، فِيمَا مَضَى بِشَوَاهِدِهِمَا، فَأَعْنَى ذَلِكَ عَنْ إِعَادَتِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا**

بِهَا بِكَافِرِينَ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فَإِنْ يَكْفُرْ: يامحمّد، بآياتِ كتابي الذي أنزلته إليك فيجحد هؤلاء المشركون العادلون برّبهم.

ثم اختلف أهل التأويل في المعنى بـ«هؤلاء».

فقال بعضهم: عني بهم كفار قريش، وعني بقوله: «فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين»، الأنصار.

وقال آخرون: معنى ذلك: فَإِنْ يَكْفُرْ بها أهل مكة، فقد وَكَّلْنَا بها الملائكة.

وقال آخرون: عني بقوله: «فإن يكفر بها هؤلاء»، يعني قريشاً وبقوله: «فقد وكلنا بها قوماً»، الأنبياء الذين سَمَّاهم في الآيات التي مضت قَبْلَ هذه الآية.

وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قول مَنْ قال: عني بقوله: «فإن يكفر بها هؤلاء»، كفار قريش. «فقد وَكَّلْنَا بها قوماً ليسوا بها بكافرين»، يعني به الأنبياء الثمانية عشر الذين سَمَّاهم الله تعالى ذِكْرَهُ في الآيات قبل هذه الآية. وذلك أَنَّ الخبرَ في الآياتِ قبلها عنهم مَضَى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما بينها بأن يكونَ خبراً عنهم، أولى وأحقّ مِنْ أَنْ يكونَ خبراً عن غيرهم.

فتأويل الكلام، إِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ: فَإِنْ كَفَرَ قَوْمُكَ مِنْ قريش، يامحمّد، بآياتنا، وَكَذَّبُوا وَجَحَّدُوا حَقِيقَتَهَا، فقد استحفظناها واسترعيْنَا القيامَ بها رُسُلَنَا وأَنْبِيََاءَنَا مِنْ قَبْلِكَ، الذين لا يجحدون حَقِيقَتَهَا، ولا يُكَذِّبُونَ بها، ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْدَرُهُ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «أولئك»، هؤلاء القوم الذين وَكَّلْنَا بآيَاتِنَا وليسوا بها بكافرين، هُم الذين هَدَاهُمُ اللهُ لِدِينِهِ الْحَقِّ، وحَفِظَ مَا وَكَّلُوا بِحِفْظِهِ مِنْ آيَاتِ كِتَابِهِ، وَالْقِيَامِ بِحُدُودِهِ، وَاتِّبَاعِ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ مِنْ أَمْرِ اللهِ، وَالِانْتِهَاءِ عَمَّا فِيهِ مِنْ نَهْيِهِ، فَوْقَهُمْ جَلٌّ ثَنَاؤُهُ لَذَلِكَ. «فبهدهم اقتده»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَبِالْعَمَلِ الَّذِي عَمِلُوا، وَالْمَنَاجِ الَّذِي سَلَكَوا، وَبِالْهُدَى الَّذِي هَدَيْنَاهُمْ، وَالتَّوْفِيقَ الَّذِي وَفَّقْنَاهُمْ. «اقتده»، يامحمدُ، أَي: فاعملْ، وَخُذْ بِهِ وَاسْلُكْهُ، فَإِنَّ عَمَلَ اللهِ فِيهِ رِضَى، وَمِنْهَاجٌ مَنْ سَلَكَهُ اهْتَدَى.

وهذا التأويلُ على مذهب مَنْ تَأَوَّلَ قَوْلَهُ: «فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين»، أَنَّهُمُ الْأَنْبِيَاءُ الْمُسَمُّونَ فِي الْآيَاتِ الْمَتَقَدِّمَةِ. وَهُوَ الْقَوْلُ الَّذِي اخْتَرَنَاهُ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: «قُلْ» لهؤلاء الذين أَمَرْتُكَ أَنْ تُذَكِّرَهُمْ بآيَاتِي، أَنْ تُبَسِّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ، مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِكَ يَامُحَمَّدُ: «لَا أَسْأَلُكُمْ»، عَلَى تَذْكِيرِي إِيَّاكُمْ، وَالْهُدَى الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وَالْقُرْآنَ الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ، عَوَضًا عَنْتَاضُهُ مِنْكُمْ عَلَيْهِ، وَأَجْرًا أَخَذَهُ مِنْكُمْ، وَمَا ذَلِكَ مِنِّي إِلَّا تَذْكِيرٌ لَكُمْ، وَلِكُلِّ مَنْ كَانَ مِثْلَكُمْ مِمَّنْ هُوَ مُقِيمٌ عَلَى بَاطِلٍ، بِأَسْأَلِ اللهِ أَنْ يَحُلَّ بِكُمْ، وَسَخَطُهُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ عَلَى شُرَكَائِكُمْ بِهِ وَكَفَرِكُمْ - وَإِنذَارٌ لَجَمِيعِكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ، لَتَذَكَّرُوا وَتَنْزَجُرُوا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ

يقول تعالى ذكره: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ»، وما أجَلُّوا اللهَ حَقَّ إجلاله، ولا عَظَّمُوهُ حَقَّ تعظيمه. «إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ»، يقول: حين. قالوا: لم ينزل الله على آدمي كتاباً ولا وحياً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَسْتَدْنُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: «قُلْ»، يا محمد، لمشركي قومك القائلين لك: «وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ» - قُلْ: «مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا»، يعني: جلاء وضياء من ظُلْمَةِ الضلالة. «وهدى للناس»، يقول: بياناً للناس، يبين لهم به الحق من الباطل فيما أشكل عليهم من أمر دينهم. «تجعلونه قرآنًا يَسْتَدْنُونَهَا». والمراد منه المكتوب في القراطيس، يراد: يُبَدُونُ كثيراً مما يكتبون في القراطيس فيُظهِرُونَهُ للناس، وَيُخْفُونَ كثيراً مما يثبتونه في القراطيس فيُسِرُّونَهُ ويكتُمونه الناس.

ومما كانوا يكتُمونه إياهم، ما فيها من أمر محمد ﷺ ونبوته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَلَّمْتُمَا لَعَلَّكُمْ أَتَمُّوْا أَبَاؤَكُمْ قُلْ اللَّهُ يُدْرِكُهُمْ فِي خَوَاصِهِمْ يَلْعَبُونَ

يقول تعالى ذكره: وَعَلَّمْتُكُمُ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ، مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ مِنْ أَخْبَارِ مَنْ قَبْلَكُمْ، وَمِنْ أَنْبَاءِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَمَا هُوَ كَائِنْ فِي

مَعَادِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. «وَلَا آبَاؤُكُمْ»، يقول: ولم يعلمه آباؤكم، أيها المؤمنون بالله من العرب ورسوله ﷺ.

وأما قوله: «قُلِ اللَّهُ»، فإنه أمر من الله جل ثناؤه نبيه محمداً ﷺ أن يجيب استفهامه هؤلاء المشركين عما أمره باستفهامهم عنه بقوله: «قُلِ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ^(١) قُرَاطِيسَ يَبْدُونَهَا وَيَخْفُونَ كَثِيراً»، يقبل الله، كأمره إياه في موضع آخر في هذه السورة بقوله: ﴿قُلِ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، [الأنعام: ٦٣]. فأمره باستفهام المشركين عن ذلك، كما أمره باستفهامهم إذ قالوا: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ»، عَمَّنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ. ثم أمره بالإجابة عنه هنالك بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤]، كما أمره بالإجابة هنا عن ذلك بقوله: الله أنزله على موسى.

وأما قوله: «ثُمَّ ذَرُوهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ»، فإنه يقول لنبيه محمداً ﷺ: ثم ذر هؤلاء المشركين العادلين بربهم الأوثان والأصنام، بعد احتجاجك عليهم في قبيلهم: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ» بقولك: «مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ»، وإجابتك ذلك بأن الذي أنزله: الله الذي أنزل عليك كتابه. «فِي خَوْضِهِمْ»، يعني: فيما يخوضون فيه من باطلهم وكفرهم بالله وآياته. «يَلْعَبُونَ»، يقول: يستهزئون ويسخرون.

وهذا من الله وعيدٌ لهؤلاء المشركين وتهديدٌ لهم. يقول الله جل ثناؤه: ثم دَعَهُمْ لَاعِبِينَ، يامحمداً، فإنني من وراء ما هم فيه من استهزائهم بآياتي بالمرصاد، وأذيقهم بأسِي، وأحلُّ بهم إن تمادوا في غيِّهم سَخَطِي.

(١) قوله «يَجْعَلُونَهُ... يَبْدُونَهَا... وَيَخْفُونَ» كلها على قراءة المؤلف الطبري.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ
الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا

يقول تعالى ذِكْرَهُ : وهذا القرآن، يا محمد. «كتاب». «أنزلناه»، يقول :
أوحيناه إليك. «مبارك»، وهو «مفاعل» من «البركة». «مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ»،
يقول : صَدَّقَ هذا الكتابُ ما قَبْلَهُ من كُتُبِ الله التي أنزلها على أنبيائه قبلك،
ولم يخالفها دلالةً ومعنى «نوراً وهدى للناس»، يقول : هو الذي أنزل إليك،
يا محمد، هذا الكتابَ مباركاً، مصدقاً كتابَ موسى وعيسى وغير ذلك من كُتُبِ
الله. ولكنه جَلَّ ثَنَاهُ ابتداءً الخبر عنه، إذ كان قد تقدم من الخبر عن ذلك ما
يدل على أنه له مواصل، فقال : «وهذا كتابٌ أنزلناه إليك مبارك»، ومعناه :
وكذلك أنزلتُ إليك كتابي هذا مباركاً، كالذي أنزلتُ من التوراة إلى موسى
هدى ونوراً.

وأما قوله : «ولتنذر أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا»، فإنه يقول : أنزلنا إليك،
يا محمد، هذا الكتابَ مصدقاً ما قَبْلَهُ من الكُتُبِ، ولتنذر به عذابَ الله وبأسَهُ
مَنْ فِي أُمَّ الْقُرَى، وهي مكة. «وَمَنْ حَوْلَهَا»، شرقاً وغرباً، من العادلين برَبِّهِمْ
غيرَهُ من الآلهة والأنداد، والجاحدين برسُلِهِ، وغيرهم من أصنافِ الكفار.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَهُمْ
عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ : وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ وَالْمَعَادِ فِي الْآخِرَةِ إِلَى
الله، وَصَدَّقَ بِالنَّوَابِ وَالْعِقَابِ، فإنه يُؤْمِنُ بهذا الكتابِ الذي أنزلناه إليك،
يا محمد، ويصدقُ به، ويقرُّ بأنَّ الله أنزله، ويحافظُ على الصلوات المكتوبات

التي أمره الله بإقامتها، لأنه منذرٌ مَنْ بلغه وعيدُ الله على الكفرِ به وعلى معاصيه، وإنما يجحدُ به وبما فيه ويكذب، أهلُ التكذيب بالمعاد، والجحود لقيام الساعة، لأنه لا يرجو من الله إِنْ عَمِلَ بما فيه ثواباً، ولا يخاف إِنْ لم يجتنِبْ ما يأمره باجتنابه عقاباً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

يعني جَلَّ ذِكْرُهُ بقوله: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا»، وَمَنْ أَخْطَأَ قولاً وأجهل فعلاً. «مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا»، يعني: مِمَّنْ اخْتَلَقَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، فادَّعى عليه أنه بعثه نبياً وأرسله نذيراً، وهو في دعواه مُبْطِلٌ، وفي قيله كاذبٌ.

وهذا تسفيهٌ من الله لمشركي العرب، وتجهيلٌ منه لهم، في معارضة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، والحنفي مسيلمَةَ، لنبيِّ الله ﷺ، بدعوى أحدهما النبوة، ودعوى الآخر أنه قد جاء بمثل ما جاء به رسولُ الله ﷺ - ونفيٌ منه عن نبيه محمدٍ ﷺ اختلاقَ الكذبِ عليه ودعوى الباطل.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: وَلَوْ تَرَى، يامحمدُ، حين يغمرُ الموتُ بسكراته هؤلاء الظالمينَ العادلينَ برُبِّهم الآلهةَ والأندادَ، والقائلين: «ما أنزلَ الله على بشرٍ من شيءٍ»، والمفترينَ على الله كذباً، الزاعمينَ أَنَّ الله أوحى إليه

ولم يُوحِ إليه شيءٌ، والقائلين: «سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ»، فتعابَنَهُمْ وقد غَشِيَتْهُمْ سَكْرَاتُ الْمَوْتِ، ونَزَلَ بِهِمْ أَمْرُ اللَّهِ، وحانَ فَنَاءُ آجَالِهِمْ، والملائكةُ باسَطُوا أَيْدِيَهُمْ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ، كما قال جَلُّ ثَنَاؤُهُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾، [محمد: ٢٧، ٢٨]. يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٣﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلُّ ثَنَاؤُهُ عما تقولُ رسلُ الله التي تقبضُ أرواحَ هؤلاء الكفار لها، يخبر عنها أنها تقولُ لأجسامِها ولأصحابِها: «أخرجوا أنفسكم»، إلى سَخَطِ الله ولعنتِهِ، فإنكم اليومُ تُثابون على كُفْرِكُم بالله، وقِيلَ كُمْ عليه الباطلُ، ورُزِعْ كُمْ أَنَّ الله أوحى إليكم ولم يُوحِ إليكم شيئاً، وإنكاركم أن يكونَ الله أنزلَ على بشرٍ شيئاً، واستكباركم عن الخضوعِ لأمرِ الله وأمرِ رسوله، والانقيادِ لطااعته «عذابُ الهون»، وهو عذابُ جهنم الذي يُهينُهُمْ فيذلُّهُمْ حتى يعرفوا صَغَارَ أنفسهم وذِلَّتِهَا.

والعرب إذا أرادت بـ «الهون» معنى «الهوان»، ضمت «الهاء»، وإذا أرادت به الرُّفْقَ والدَّعَةَ وخِفَّةَ المؤونة، فتحت «الهاء»، فقالوا: هو «قليل هُونِ المؤونة»، ومنه قول الله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، يعني: بالرفق والسكينة والوقار.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَمَّا هُوَ قَائِلٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لهؤلاءِ العادلينَ به
الآلهةُ والأنداد، يخبرُ عبادهُ أنه يقولُ لهمُ عندَ ورودِهِم عليه: «لقد جئتمونا
فُرادى».

ويعني بقوله: «فُرادى»، «وُحِدَانًا لَا مَالَ مَعَهُمْ، وَلَا إِنَاثَ، وَلَا رَقِيقَ، وَلَا
شَيْءَ مِمَّا كَانَ اللَّهُ خَوَّلَهُمْ فِي الدُّنْيَا «كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ»، غُرَاءَ غُلْفًا غُرْلًا
حُفَاءَ، كَمَا وَلَدْتَهُمْ أُمَهَاتُهُمْ^(١)»، وكَمَا خَلَقَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي بَطُونِ أُمَهَاتِهِمْ لَا شَيْءَ
عَلَيْهِمْ وَلَا مَعَهُمْ مِمَّا كَانُوا يَتَبَاهَوْنَ بِهِ فِي الدُّنْيَا.

وأما قوله: «وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ»، فإنه يقول: خَلَفْتُمْ إِلَهُيَا
الْقَوْمَ مَا مَكَانَكُمْ فِي الدُّنْيَا مِمَّا كُنْتُمْ تَتَبَاهَوْنَ بِهِ فِيهَا، خَلَفَكُمْ فِي الدُّنْيَا فَلَمْ
تَحْمِلُوهُ مَعَكُمْ.

وهذا تعبيرٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ لهؤلاءِ المشركينَ بمباهاتِهِم التي كانوا
يتباهون بها فِي الدُّنْيَا بِأَمْوَالِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ
أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ

يقول تعالى ذِكْرُهُ لهؤلاءِ العادلينَ بربِّهم الأنداد يومَ الْقِيَامَةِ: مَا نَرَى مَعَكُمْ
شُفَعَاءَكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَشْفَعُونَ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ.

(١) غلف: جمع أغلف، وهو الذي لَمْ يُخْتَنَ، والغُرْل: جمع أغرل: وهو أيضاً الذي
لَمْ يُخْتَنَ، وهو مستفادٌ من حديث عائشة رضي الله عنها: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
حُفَاءَ غُرَاءَ غُرْلًا، الذي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٨٥٩).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ، مُخْبِرًا عَنْ قِيلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِهَؤُلاءِ الْمَشْرِكِينَ بِهِ الْأَنْدَادِ : «لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ»، يَعْنِي تَوَاصَلَهُمُ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، ذَهَبَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَلَا تَوَاصَلَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَوَادًّا وَلَا تَنَاصُرًا، وَقَدْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَتَوَاصَلُونَ وَيَتَنَاصَرُونَ، فَاضْمَحَلَّ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي الْآخِرَةِ، فَلَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يَنْصُرُ صَاحِبَهُ، وَلَا يُوَاصِلُهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ : «وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ»، فَإِنَّهُ يَقُولُ : وَحَازَ عَنْ طَرِيقِكُمْ وَمِنْهَاجِكُمْ مَا كُنْتُمْ مِنْ آلِهَتِكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُ شَرِيكُ رَبِّكُمْ، وَأَنَّهُ لَكُمْ شَفِيعٌ عِنْدَ رَبِّكُمْ، فَلَا يَشْفَعُ لَكُمْ الْيَوْمَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴿٩٥﴾

وَهَذَا تَنْبِيهٌُ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاهُ هَؤُلاءِ الْعَادِلِينَ بِهِ الْآلِهَةِ وَالْأَوْثَانَ عَلَى مَوْضِعِ حُجَّتِهِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْرِيفٌ مِنْهُمْ لِهِمْ خَطَأَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ مِنْ إِشْرَاكِ الْأَصْنَامِ فِي عِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُ. يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرَهُ : إِنَّ الَّذِي لَهُ الْعِبَادَةُ، أَيُّهَا النَّاسُ، دُونَ كُلِّ مَا تَعْبُدُونَ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَوْثَانِ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّ - يَعْنِي : شَقَّ الْحَبَّ مِنْ كُلِّ مَا يَنْبُتُ مِنَ النَّبَاتِ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ الزَّرْعَ. «وَالنَّوَى»، مِنْ كُلِّ مَا يَغْرَسُ مِمَّا لَهُ نَوَاةٌ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ الشَّجَرَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴿٩٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يَخْرُجُ السُّنْبُلُ الْحَيِّ مِنَ الْحَبِّ الْمَيِّتِ، ومخرج الحبِّ المَيِّتِ من السنبِلِ الْحَيِّ، والشجرِ الْحَيِّ من النوى المَيِّتِ، والنوى المَيِّتِ من الشجرِ الْحَيِّ.

والشجرُ مادام قائماً على أصوله لم يجفَّ، والنباتُ على ساقه لم يبس، فإنَّ العرب تسميه «حَيًّا»، فإذا يبسَ وجفَّ أو قطع من أصله، سمَّوه «مَيِّتاً».

وأما قوله: «ذلكم الله»، فإنه يقول: فاعلُ ذلك كُلُّهُ اللهُ جَلَّ جلاله. «فَأَنْتُمْ تَوْفِكُونَ»، يقول: فَأَنْتُمْ وَجوهُ الصِّدِّقِ عَنْ الْحَقِّ، أيها الجاهلون، تصُدُّونَ عن الصوابِ وتَصْرِفُونَ، أفلا تتدبرُونَ فتعلمُونَ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُجْعَلَ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِفُلْقِ الْحَبِّ وَالنَّوَى، فَأَخْرَجَ لَكُمْ مِنْ يَابِسِ الْحَبِّ وَالنَّوَى زُرُوعاً وَخُرُوثاً وَثِمَاراً تَتَغَذَّونَ بِبَعْضِهِ وَتَفْكُكُوهُونَ بِبَعْضِهِ، شَرِيكَ فِي عِبَادَتِهِ مَا لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا

يعني بقوله: «فالقُ الإِصْبَاحِ»، شاقُّ عُمُودِ الصُّبْحِ عَنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وسواده.

و«الإِصْبَاحُ» مصدر من قول القائل: «أصبحنا إصباحاً».

وأخبر جل ثناؤه أَنَّهُ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا، لَأَنَّهُ يَسْكُنُ فِيهِ كُلُّ مُتَحَرِّكٍ بِالنَّهَارِ، وَيَهْدَأُ فِيهِ، فَيَسْتَقِرُّ فِي مَسْكَنِهِ وَمَأْوَاه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا

اختلف أهل التأويل في ذلك:

فقال بعضهم: معنى ذلك: وجعل الشمس والقمر يجريان في أفلاكهما بحساب.

وقال آخرون: معنى ذلك: وجعل الشمس والقمر ضياء.

وأولى القولين في تأويل ذلك عندي بالصواب، تأويل من تأوله: وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب وعدد لبلوغ أمرهما ونهاية آجالهما، ويدوران لمصالح الخلق التي جعلها.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية، لأن الله تعالى ذكره، ذكر قبله أياديه عند خلقه، وعظم سلطانه، بقلقه الإصباح لهم، وإخراج النبات والغراس من الحب والنوى، وعقب ذلك بذكره خلق النجوم لهدايتهم في البر والبحر. فكان وصفه إجرأه الشمس والقمر لمنافعهم، أشبه بهذا الموضع من ذكر إضاءتهما، لأنه قد وصف ذلك قبل بقوله: «فالق الإصباح»، فلا معنى لتكريره مرة أخرى في آية واحدة لغير معنى.

القول في تأويل قوله تعالى: **ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴿٩٦﴾

يقول تعالى ذكره: وهذا الفعل الذي وصفه أنه فعله، وهو قلقة الإصباح، وجعله الليل سكناً والشمس والقمر حساباً، تقدير الذي عز سلطانه، فلا يقدر أحد أرادته بسوء وعقاب أو انتقام، من الامتناع منه. «العليم»، بمصالح خلقه وتبديرهم - لا تقدير الأصنام والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تفقه شيئاً ولا تعقله، ولا تضر ولا تنفع، وإن أريدت بسوء لم تقدر على الامتناع منه ممن أرادها. يقول جل ثناؤه: فأخلصوا، أيها الجهلة، عبادكم لفاعل هذه الأشياء، ولا تشركوا في عبادته شيئاً غيره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله الذي جعل لكم، أيها الناس، النجوم أدلة في البر والبحر إذا ضللتكم الطريق، أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلاً، تستدلون بها على المحجة، فتهتدون بها إلى الطريق والمحجة، فتسلكونه وتنجون بها من ظلمات ذلك، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، أي: من ضلال الطريق في البر والبحر وعنَى بالظلمات، ظلمة الليل، وظلمة الخطأ والضلال، وظلمة الأرض أو الماء.

وقوله: «قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»، يقول: قد ميزنا الأدلة، وفرقنا الحجج فيكم وبينها، أيها الناس، ليتدبرها أولو العلم بالله منكم، ويفهمها أولو الحجى منكم، فينبأوا من جهلهم الذي هم مقيمون عليه، وينزجروا عن خطأ فعلهم الذي هم عليه ثابتون، ولا يتمادوا عناداً لله - مع علمهم بأن ما هم عليه مقيمون خطأ - في غيهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإلهكم، أيها العادلون بالله غيره «الذي أنشأكم»، يعني: الذي ابتداء خلقكم من غير شيء، فأوجدكم بعد أن لم تكونوا شيئاً «من نفس واحدة»، يعني: من آدم.

وأما قوله: «فمستقر ومستودع»، فإن أهل التأويل في تأويله مختلفون.

فقال بعضهم: معنى ذلك: وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة، فمنكم مُسْتَقَرٌّ في الرحم، ومنكم مستودع في القبر حتى يبعثه الله لِنَشْرِ الْقِيَامَةِ.

وقال آخرون: «المستودع»، ما كان في أصلاب الآباء، و«المستقر»، ما كان في بطون النساء، ويطون الأرض، أو على ظهورها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فمستقر في الأرض على ظهورها، ومستودع عند الله.

وقال آخرون: معنى ذلك: فمستقر في الرحم، ومستودع في الصُّلب.

وأولى التاويلات في ذلك بالصواب أن يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَمَّ بِقَوْلِهِ: «فمستقر ومستودع»، كُلُّ خَلْقِهِ الَّذِي أَنشَأَ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، مُسْتَقَرًّا وَمُسْتَوْدَعًا، وَلَمْ يَخْصِصْ مِنْ ذَلِكَ مَعْنَى دُونَ مَعْنَى. وَلَا شَكَّ أَنَّ مِنْ بَنِي آدَمَ مُسْتَقَرًّا فِي الرَّحِمِ، وَمُسْتَوْدَعًا فِي الصُّلْبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُسْتَقَرٌّ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَوْ بَطْنِهَا، وَمُسْتَوْدَعٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَمِنْهُمْ مُسْتَقَرٌّ فِي الْقَبْرِ، مُسْتَوْدَعٌ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ. فَكُلُّ «مُسْتَقَرٍّ» أَوْ «مُسْتَوْدَعٍ» بِمَعْنَى مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي، فَدَاخِلٌ فِي عَمُومِ قَوْلِهِ: «فمستقر ومستودع» وَمُرَادٌ بِهِ، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ خَبَرٌ يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ بِأَنَّهُ مَعْنَى بِهِ مَعْنَى دُونَ مَعْنَى، وَخَاصٌّ دُونَ عَامٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ»، يَقُولُ تَعَالَى: قَدْ بَيَّنَّا الْحَجَجَ، وَمَيَّزْنَا الْأَدْلَةَ وَالْأَعْلَامَ وَأَحْكَمْنَاهَا. «لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ»، مَوَاقِعَ الْحَجَجِ وَمَوَاضِعَ الْعَبَرِ وَيَفْهَمُونَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرَ، فَإِنَّهُمْ إِذَا اعْتَبَرُوا بِمَا نَبَّهَتْهُمْ عَلَيْهِ مِنْ إِنْشَائِي مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ مَا عَايَنُوا مِنَ الْبَشَرِ، وَخَلَقِي مَا خَلَقْتُ مِنْهَا مِنْ عَجَائِبِ الْأَلْوَانِ وَالصُّوَرِ، عَلِمُوا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ فَعْلٍ مَنْ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ وَلَا شَرِيكَ فَيَشْكُرُوهُ فِي عِبَادَتِهِمْ إِيَّاهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا

يقول تعالى ذِكْرَهُ: والله الذي له العبادة خالصة لا شريك فيها لشيءٍ سِوَاهُ، هو الإله الذي أنزل من السماء ماءً. «فأخرجنا به نبات كل شيء»، فأخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء من غذاء الأنعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم، ما يتغذون به ويأكلونه فينبتون عليه وينمون. وإنما معنى قوله: «فأخرجنا به نبات كل شيء»، فأخرجنا به ما ينبت به كل شيء وينمو عليه ويصلح.

ولو قيل: معناه: فأخرجنا به نبات جميع أنواع النبات، فيكون «كل شيء»، هو أصناف النبات - كان مذهباً، وإن كان الوجه الصحيح هو القول الأول^(١).

وقوله: «فأخرجنا منه خَضِرًا»، يقول: «فأخرجنا منه»، يعني: من الماء الذي أنزلناه من السماء «خَضِرًا»، رطباً من الزرع.

قوله: «نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا»، يقول: نُخْرِجُ من الخضر حَبًّا - يعني: ما في السنبُل، سنبُل الحنطة والشعير والأرز، وما أشبه ذلك من السنبُل التي حَبُّها يركب بعضها بعضاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَمِنَ النَّخْلِ مَنْ طَلْعُهَا قِنْوَانُهُ دَانِيَةٌ. والقِنْوَان جمع

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٣٤٧/١.

«قَنُو»، كما «الصنوان» جمع «صَنُو»، وهو العِذْق، ويعني بقوله: «دانية»، قرية مُتَهَدِّلَةٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَنَّبَ مِنْ أَغْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُشْتَبِهًا
وَعَيْرَ مُنَشَبِهٍ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وأخرجنا أيضاً جناتٍ من أغنابٍ - يعني: بساتين من أغناب.

وقوله: «والزيتون والرمان»، عطف بـ «الزيتون» على «الجنات»، بمعنى: وأخرجنا الزيتون والرمان مُشْتَبِهًا وغير مُنَشَبِهٍ.

ومعنى الكلام: وشجر الزيتون والرمان، فاكتفى من ذِكْرِ «الشجر» بذكر ثمره، كما قيل: ﴿وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾، [يوسف: ٨٢]، فاكتفى بذكر «القرية» من ذِكْرِ «أهلها»، لمعرفة المخاطبين بذلك بمعناه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ

اختلفت القُرْأَةُ في قراءة ذلك:

فقرأته عامة قُرْأَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وبعض أَهْلِ الْبَصْرَةِ: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾، بفتح «الثاء» و«الميم».

وقراه بعض قُرْأَةِ أَهْلِ مَكَّةَ وعامة قُرْأَةِ الْكُوفِيِّينَ: ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾، بضم «الثاء» و«الميم»

فكَانَ مَنْ فَتَحَ «الثاء» و«الميم» من ذلك، وَجَّهَ معنى الكلام: انظروا إلى ثمرِ هذه الأشجارِ التي سَمَّيْنَا مِنَ النَّخْلِ والأغْنَابِ والزيتونِ والرمانِ إِذَا أَثْمَرَ -

وَأَنَّ «الثمر» جمع «ثمرة»، كما «القصْبُ»، جمع «قصبَة»، و«الخشْب» جمع «خشبة».

وَكَاَنَّ مَنْ ضَمَّ «الثاء» و«الميم»، وَجَّهَ ذلك إلى أنه جمع «ثَمَار»، كما «الحُمُر» جمع «حمار»، والجُرْبُ جمع «جراب».

وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب، قراءة مَنْ قَرَأَ: ﴿أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾ بضم «الثاء» و«الميم»، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَصَفَ أَصْنَافاً مِنَ الطَّعَامِ كما قال يحيى بن وَثَّاب، وكذلك حَبُّ الزَّرْعِ المتراكب، وَقَيَّوْنَ النَّخْلَ الدَّانِيَةَ، والجَنَاتِ مِنَ الْأَعْنَابِ والزيتونِ والرمان، فَكَانَ ذلك أنواعاً مِنَ الثَّمَرِ، فَجُمِعَتْ «الثمرة» «ثمرأً»، ثم جمع «الثمر» «ثمارأً»، ثم جمع ذلك فقيـل: ﴿أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾، فَكَانَ ذلك جمع «الثمار» و«الثمار» جمع «الثمر»، و«إثماره» عقدُ الثمر. وأما قوله: «وَيَنْعَهُ»، فَإِنَّهُ نُضِجُهُ وَبَلَغُهُ حِينَ يَبْلُغُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: إِنَّ فِي إِنْزَالِ الله مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءِ الَّذِي أَخْرَجَ بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْخَضِرَ الَّذِي أَخْرَجَ مِنْهُ الْحَبُّ الْمُتْرَاكِبُ، وَسَائِرُ مَا عُدَّدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ صُنُوفِ خَلْقِهِ «لآيات»، يقول: فِي ذَٰلِكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِذَا أَنْتُمْ نَظَرْتُمْ إِلَى ثَمَرِهِ عِنْدَ عَقْدِ ثَمَرِهِ، وَعِنْدَ يَنْعِهِ وَانْتِهَائِهِ، فَرَأَيْتُمْ اخْتِلَافَ أَحْوَالِهِ وَتَصَرُّفِهِ فِي زِيَادَتِهِ وَنَمُوِّهِ، عَلِمْتُمْ أَنَّ لَهُ مُدَبِّرًا لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَلَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ دُونَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ، وَكَانَ فِيهِ حُجُجٌ وَبُرْهَانٌ وَبَيَانٌ. «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول: لِقَوْمٍ يُصَدِّقُونَ بوحْدانيَةِ الله وَقُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ.

وخصَّ بذلك تعالى ذِكْرَهُ الْقَوْمَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَنَفِعُونَ بِحُجُجِ الله وَالْمُعْتَبِرُونَ بِهَا، دُونَ مَنْ قَدْ طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ، فَلَا يَعْرِفُ حَقًّا

من باطل، ولا يتبين هدى من ضلالة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا
لِلرُّبِّينَ وَبَنَتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ

يعني بذلك جَلَّ ثَنَاهُ: وجعل هؤلاء العادلون برئهم الآلهة والأنداد، الله
شركاء، الجن، كما قال جَلَّ ثَنَاهُ: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا﴾،
[الصفات: ١٥٨].

وأما قوله: «وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم»، فإنه يعني بقوله: «خرقوا».
اختلقوا.

فتأويل الكلام إذاً: وجعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياه، وهو المنفرد
بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير. «وخرقوا له بنين وبنات»، يقول:
وتخرصوا لله كذباً، فافتعلوا له بنين وبناتٍ، بغير علم منهم بحقيقة مايقولون،
ولكن جهلاً بالله وبِعِظَمَتِهِ، وأنه لا ينبغي لمن كان إلهاً أن يكون له بنون وبنات
ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يَصِفُونَ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: تَنَزَّاهُ اللَّهُ، وَعَلَا فارتفع عن الذي يصفه به هؤلاء
الجهلة من خلقه، في ادعائهم له شركاء من الجن، واختراقهم له بنين وبناتٍ،
وذلك لا ينبغي أن يكون من صفته، لأن ذلك من صفة خلقه الذين يكونون منهم
الجماع الذي يحدث عنه الأولاد، والذين تضطروهم لضعفهم الشهوات إلى
اتخاذِ الصاحبة لقضاء اللذات، وليس الله تعالى ذِكْرُهُ بالعاجز فيضطره شيء إلى

شيء، ولا بالضعيف المحتاج فتدعوه حاجته إلى النساء إلى اتخاذ صاحبة لقضاء لذة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً**

يقول تعالى ذكره: الله، الذي جعل هؤلاء الكفرة به له الجن شركاء، وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم. «يدع السموات والأرض»، يعني: مُبْتَدِعُهَا وَمُحْدِثُهَا وموجدُها بعد أن لم تكن.

«أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة»، والولد إنما يكون من الذكر من الأنثى، ولا ينبغي أن يكون لله سبحانه صاحبة، فيكون له ولد. وذلك أنه هو الذي خلق كل شيء. يقول: فإذا كان لا شيء إلا الله خلقه، فأنى يكون لله ولد، ولم تكن له صاحبة فيكون له منها ولد؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**

يقول تعالى ذكره: والله خلق كل شيء، ولا خالق سواه. وكل ما تدعون، أيها العادلون بالله الأوثان من دونه، خلقه وعبيده ملكاً، كان الذي تدعونه رباً وتزعمون أنه له ولد، أو جنياً أو إنسياً. «وهو بكل شيء عليم»، يقول: والله الذي خلق كل شيء، لا يخفى عليه ما خلق ولا شيء منه، ولا يعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، عالم بعددكم وأعمالكم، وأعمال من دَعَوْتُمُوهُ رَبًّا أو الله ولداً، وهو مُحْصِيهَا عَلَيْكُمْ وعليهم، حتى يجازي كلًّا بعمله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ

كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، هُوَ اللَّهُ رَبُّكُمْ، أَيُّهَا الْعَادِلُونَ بِاللَّهِ الْإِلَهَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَالْجَاعِلُونَ لَهُ الْجِنَّ شُرَكَاءَ، وَالْهَتَكُمْ الَّتِي لَا تَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا تَفْعَلُ خَيْرًا وَلَا شَرًّا. «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

وهذا تكذيبٌ من الله جَلَّ ثَنَاهُ للَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْجِنَّ شُرَكَاءُ اللَّهِ. يقول جَلَّ ثَنَاهُ لَهُمْ: أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ، إِنَّهُ لَا شَيْءَ لَهُ الْإِلَهِيَّةُ وَالْعِبَادَةُ، إِلَّا الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عِبَادَتُكُمْ وَعِبَادَةُ جَمِيعِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا لَهُ خَالِصَةٌ بَغَيْرِ شَرِيكِ تَشْرُكُونَهُ فِيهَا، فَإِنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَبَارِئُهُ وَصَانِعُهُ. وَحَقٌّ عَلَى الْمَصْنُوعِ أَنْ يُفَرِّدَ صَانِعَهُ بِالْعِبَادَةِ «فَاعْبُدُوهُ»، يقول: فَذَلُّوا لَهُ بِالطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخِدْمَةِ، وَاخْضَعُوا لَهُ بِذَلِكَ. «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ»، يقول: وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ مَا خَلَقَ مِنْ شَيْءٍ رَقِيبٌ وَحَفِيزٌ، يَقُومُ بِأَرْزَاقِ جَمِيعِهِ وَأَقْوَاتِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَتَصْرِيفِهِ بِقُدْرَتِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا تَدْرِكُهُ الْآَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ

الْآَبْصَرُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «لَا تَدْرِكُهُ الْآَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآَبْصَارَ».

فقال بعضهم: معناه لَا تَحِيطُ بِهِ الْآَبْصَارُ، وَهُوَ يُحِيطُ بِهَا.

وَاعْتَلَّ قَائِلُو هَذِهِ الْمَقَالَةِ لِقَوْلِهِمْ هَذَا، بَأَن قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا

الأنعام: ١٠٣

أَذْرَكُهُ الْغَرْقُ قَالَ آمَنْتُ ﴿٩٠﴾، [يونس: ٩٠]. قالوا: فوصف الله تعالى ذِكْرَهُ الْغَرْقُ بأنه أدرك فرعون. ولا شك أَنَّ الْغَرْقَ غير موصوفٍ بأنه رآه، ولا هو مما يجوز وصفه بأنه يَرَى شيئاً. قالوا: فمعنى قوله: «لا تدركه الأبصار»، بمعنى: لا تراه، بعيد. لأنَّ الشيء قد يدرك الشيء ولا يراه، كما قال جَلُّ ثَنَاؤُهُ مُخْبِراً عن قِيلِ أصحاب موسى ﷺ لموسى حين قُرِبَ مِنْهُمْ أصحاب فرعون: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾، [الشعراء: ٦١]، لأنَّ الله قد كان وَعَدَ نَبِيَّهُ موسى ﷺ أنهم لا يُدْرِكُونَ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرْكاً وَلَا تَخْشَى﴾، [طه: ٧٧].

قالوا: فَإِنَّ كَانَ الشيء قد يرى الشيء ولا يدركه، ويدركه ولا يراه، فكان معلوماً بذلك أن قوله: «لا تدركه الأبصار»، من معنى: لا تراه الأبصار، بمعزل - وأنَّ معنى ذلك: لا تحيطُ به الأبصار، لأنَّ الإحاطةَ به غير جائزة. قالوا: فالمؤمنون وأهل الجنة يرون رَبَّهُمْ بأبصارهم، ولا تدركه أبصارهم، بمعنى: أنها لا تحيطُ به، إذ كان غير جائز أن يوصفَ الله بأن شيئاً يحيطُ به.

قالوا: ونظيرُ جواز وصفه بأنه يَرَى ولا يُدْرِك، جوازُ وصفه بأنه يعلم ولا يحاط بعلمه، وكما قال جَلُّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، [البقرة: ٢٥٥]. قالوا: فنفي جَلِّ ثَنَاؤُهُ عن خَلْقِهِ أَنْ يَكُونُوا يحيطون بشيءٍ من عِلْمِهِ إلا بما شاء. قالوا: ومعنى «العلم» في هذا الموضع، المعلوم. قالوا: فلم يكن في نفيه عن خَلْقِهِ أَنْ يُحِيطُوا بشيءٍ من علمه إلا بما شاء، نَفْيٌ عن أَنْ يعلموه. قالوا: فإذا لم يكن في نفي الإحاطة بالشيء علماً نَفْيٌ للعلم به، كان كذلك، لم يكن في نفي إدراكِ الله عن البصر، نَفْيٌ رؤيته له. قالوا: وكما جاز أن يعلم الخلقُ أشياءً ولا يحيطون بها علماً، كذلك جائز أن يَرَوْا رَبَّهُمْ بأبصارهم ولا يدركوه بأبصارهم، إذ كان معنى «الرؤية» غير معنى

«الإدراك»، ومعنى «الإدراك» غير معنى «الرؤية»، وأن معنى «الإدراك»، إنما هو الإحاطة.

قالوا: فإن قال لنا قائل: وما أنكرتم أن يكون معنى قوله: «لا تدركه الأبصار»، لا تراه الأبصار؟

قلنا له: أنكرنا ذلك، لأن الله جل ثناؤه أخبر في كتابه أن وجوهاً في القيامة إليه ناظرة^(١)، وأن رسول الله ﷺ أخبر أُمَّتَهُ أنهم سيرون ربهم يوم القيامة، كما يرى القمر ليلة البدر^(٢)، وكما ترون الشمس ليس دونها سحب^(٣). قالوا: فإذا كان الله قد أخبر في كتابه بما أخبر، وحققت أخبار رسول الله ﷺ بما ذكرنا عنه من قبله ﷺ: أن تأويل قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾، [القيامة: ٢٢، ٢٣]، أنه نظر أبصار العيون لله جل جلاله^(٤)، وكان كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، وكان مع ذلك غير جائز أن يكون أحد هذين الخبرين ناسخاً للآخر، إذ كان غير جائز في الأخبار - لما قد بينا في كتابنا: «كتاب لطيف البيان، عن أصول الأحكام»، وغيره - علم، أن معنى قوله: «لا تدركه الأبصار»، غير معنى قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾، فإن أهل الجنة ينظرون بأبصارهم يوم القيامة إلى الله، ولا يدركونه بها، تصديقاً لله في كلا الخبرين، وتسليماً لما جاء به تنزيله على ما جاء به في السورتين.

-وقال، آخرون: معنى ذلك: لا تراه الأبصار، وهو يرى الأبصار.

(١) يعني قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

(٢) البخاري (٧٤٣٤) وغيره من حديث جرير بن عبد الله.

(٣) البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة.

(٤) الأحاديث الصحاح في رؤية الله سبحانه يوم القيامة كثيرة معروفة لا ينكرها إلا جاحد بالسنة المطهرة.

فقال قائلو هذه المقالة: معنى «الإدراك» في هذا الموضع، الرؤية - وأنكروا أن يكون الله يُرى بالأبصار في الدنيا والآخرة - وتأولوا قوله: ﴿وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ، بمعنى انتظارها رحمة الله وثوابه.

وتأول بعضهم في الأخبار التي رُويت عن رسول الله ﷺ بتصحيح القول برؤية أهل الجنة ربهم يوم القيامة تأويلات، وأنكر بعضهم مجيئها، ودافعوا أن يكون ذلك من قول رسول الله ﷺ، وَرَدُّوا الْقَوْلَ فِيهِ إِلَى عَقُولِهِمْ، فزَعَمُوا أَنَّ عَقُولَهُمْ تُحِيلُ جَوَازَ الرُّؤْيَةِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْأَبْصَارِ، وَأَتَوْا فِي ذَلِكَ بِضُرُوبٍ مِنَ التَّمْويهَاتِ، وَأَكْثَرُوا الْقَوْلَ فِيهِ مِنْ جِهَةِ الاسْتِخْرَاجَاتِ.

وكان من أجل ما زَعَمُوا أَنَّهُمْ عَلِمُوا بِهِ صِحَّةَ قَوْلِهِمْ ذَلِكَ مِنَ الدَّلِيلِ، أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا أَبْصَارَهُمْ تَرَى شَيْئاً إِلَّا مَا بَايَنَهَا دُونَ مَا لَاصَقَهَا، فَإِنِهَا لَا تَرَى مَا لَاصَقَهَا. قَالُوا: فَمَا كَانَ لِلْأَبْصَارِ مُبَايَناً مِمَّا عَايَنَتْهُ، فَإِنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا فُضَاءٌ وَفَرَجَةٌ. قَالُوا: فَإِنَّ كَانَتِ الْأَبْصَارُ تَرَى رَبَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَى نَحْوِ مَا تَرَى الْأَشْخَاصَ الْيَوْمَ، فَقَدْ وَجِبَ أَنْ يَكُونَ الصَّانِعَ مُحَدوداً. قَالُوا: وَمَنْ وَصَفَهُ بِذَلِكَ، فَقَدْ وَصَفَهُ بِصِفَاتِ الْأَجْسَامِ الَّتِي يَجُوزُ عَلَيْهَا الزِّيَادَةُ وَالنَّقْصَانُ.

قَالُوا: وَأُخْرَى، أَنَّ مِنْ شَأْنِ الْأَبْصَارِ أَنْ تُدْرِكَ الْأَلْوَانَ، كَمَا مِنْ شَأْنِ الْأَسْمَاعِ أَنْ تُدْرِكَ الْأَصْوَاتَ، وَمِنْ شَأْنِ الْمُتَنَسِّمِ أَنْ يَدْرِكَ الْأَعْرَافَ^(١). قَالُوا: فَمِنْ الْوَجْهِ الَّذِي فَسَدَ أَنْ يَكُونَ جَائِزاً أَنْ يُقْضَى لِلْسَّمْعِ بِغَيْرِ إِدْرَاكِ الْأَصْوَاتِ، وَلِلْمُتَنَسِّمِ إِلَّا بِإِدْرَاكِ الْأَعْرَافِ. فَسَدَ أَنْ يَكُونَ جَائِزاً الْقَضَاءُ لِلْبَصَرِ بِإِدْرَاكِ الْأَلْوَانِ. قَالُوا: وَلَمَّا كَانَ غَيْرَ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ مَوْصُوفاً بِأَنَّهُ ذَوَّلُونُ، صَحَّ أَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ مَوْصُوفاً بِأَنَّهُ مَرْتِيٌّ.

(١) الأعراف: الروائح.

وقال آخرون: معنى ذلك: لا تدركه أبصارُ الخلائق في الدنيا، وأما في الآخرة فإنها تدركه. وقال أهل هذه المقالة: «الإدراك»، في هذا الموضع، الرؤية.

واعْتَلَّ أَهْلُ هذه المقالة لقولهم هذا بأن قالوا: «الإدراك»، وإن كان قد يكون في بعض الأحوال بغير معنى الرؤية، فإن الرؤية من أحد معانيه. وذلك أنه غير جائز أن يلحق بصره شيئاً فيراه، وهو لما أَبْصَرَهُ وعَيْنَهُ غير مُدْرِكٍ، وإن لم يُحِطْ بأجزائه كلها رؤية. قالوا: فرؤية ما عانته الرائي إدراك له، دون ما لم يَرَهُ قالوا: وقد أَخْبَرَ اللهُ أَنَّ وجوهاً يوم القيامة إليه ناظرة. قالوا: فَمُحَالٌ أَنْ تكون إليه ناظرة وهي له غير مدركة رؤية. قالوا: وإذا كان ذلك كذلك، وكان غير جائز أَنْ يَكُونَ في أخبار الله تَضَادٌّ وتعارض، وَجَبَ وَصَحَّ أَنْ قوله: «لا تدركه الأبصار»، على الخصوص لا على العموم، وَأَنْ معناه: لا تدركه الأبصار في الدنيا، وهو يدرك الأبصار في الدنيا والآخرة، إذ كان الله قد استثنى ما استثنى منه قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ.

وقال آخرون: من أهل هذه المقالة: الآية على الخصوص، إلا أنه جائز أَنْ يكون معنى الآية: لا تدركه أبصارُ الظالمين في الدنيا والآخرة، وتدركه أبصارُ المؤمنين وأولياء الله. قالوا: وجائز أن يكون معناها: لا تدركه الأبصار بالنهاية والإحاطة، وأما بالرؤية قَبْلَى. قالوا: وجائز أَنْ يَكُونَ معناها: لا تدركه الأبصار في الدنيا، وتدركه في الآخرة - وجائز أن يكون معناها: لا تدركه أبصارُ مَنْ يَرَاهُ بالمعنى الذي يدرك به القديم أبصارَ خَلْقِهِ - فيكون الذي نفى عن خَلْقِهِ من إدراك أبصارهم إياه، هو الذي أثبتته لنفسه، إذ كانت أبصارهم ضعيفة لا تنفذ إلا فيما قَوَّاهَا جَلُّ ثَنَاقِهِ عَلَى النَفْذِ فيه، وكانت كلها متجلية لبصره لا يَخْفَى عليه منها شيء. قالوا: ولا شَكَّ في خصوص قوله: «لا تدركه الأبصار»،

الأنعام: ١٠٣

وَأَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ سِيرُونَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَبْصَارِهِمْ، غَيْرَ أَنَّا لَا نَدْرِي أَيُّ مَعَانِي الْخُصُوصِ الْأَرْبَعَةِ أُرِيدَ بِالْآيَةِ. وَاعْتَلُّوا لِتَصْحِيحِ الْقَوْلِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى فِي الْآخِرَةِ، بِنَحْوِ عِلَلِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا قَبْلُ.

وقال آخرون: الآية على العموم، ولن يدرك الله بصرُ أحدٍ في الدنيا والآخرة، ولكنَّ الله يُحَدِّثُ لِأَوْلِيَائِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَاسَةً سَادِسَةً سِوَى حَوَاسِّهِمُ الْخَمْسِ، فَيَرُونَهُ بِهَا.

واعتلوا لقولهم هذا بأنَّ الله تعالى ذَكَرَهُ نَفَى عَنِ الْأَبْصَارِ أَنْ تَدْرِكَه، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدُلَّ فِيهَا أَوْ بَايَةً غَيْرَهَا عَلَى خُصُوصِهَا. قالوا: وكذلك أَخْبَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى أَنَّ وَجْهَهَا إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَازِلَةٌ. قالوا: فَأَخْبَارُ اللَّهِ لَا تَتَنَافَى وَلَا تَتَعَارَضُ، وَكِلَا الْخَبَرَيْنِ صَحِيحٌ مَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ التَّنْزِيلُ. وَاعْتَلُّوا أَيْضاً مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ بِأَنَّ قَالُوا: إِنْ كَانَ جَائِزاً أَنْ نَرَاهُ فِي الْآخِرَةِ بِأَبْصَارِنَا هَذِهِ وَإِنْ زِيدَ فِي قُوَاهَا، وَجِبَ أَنْ نَرَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ ضَعُفَتْ، لِأَنَّ كُلَّ حَاسَةٍ خُلِقَتْ لِإِدْرَاكِ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي، فَهِيَ وَإِنْ ضَعُفَتْ كُلُّ الضَّعْفِ، فَقَدْ تُدْرِكُ مَعَ ضَعْفِهَا مَا خُلِقَتْ لِإِدْرَاكِهِ وَإِنْ ضَعُفَ إِدْرَاكُهَا إِيَّاهُ، مَا لَمْ تُعْذَر. قالوا: فَلَوْ كَانَ فِي الْبَصَرِ أَنْ يُدْرِكَ صَانِعَهُ فِي حَالِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ أَوْ وَقْتِهِ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَيَرَاهُ، وَجِبَ أَنْ يَكُونَ يَدْرِكُهُ فِي الدُّنْيَا وَيَرَاهُ فِيهَا وَإِنْ ضَعُفَ إِدْرَاكُهُ إِيَّاهُ. قالوا: فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ غَيْرَ مُوْجُودٍ مِنْ أَبْصَارِنَا فِي الدُّنْيَا، كَانَ غَيْرَ جَائِزٍ أَنْ تَكُونَ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا بِهَيْئَتِهَا فِي الدُّنْيَا فِي أَنَّهَا لَا تَدْرِكُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهَا إِدْرَاكُهُ فِي الدُّنْيَا. قالوا: فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ وَجْهَهَا فِي الْآخِرَةِ تَرَاهُ، عِلْمُ أَنَّهَا تَرَاهُ بِغَيْرِ حَاسَةِ الدَّمْعِ، إِذْ كَانَ غَيْرَ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ خَبْرُهُ إِلَّا حَقًّا.

والصوابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا، مَا تَظَاهَرَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ

الاعتام: ١٠٣

الله ﷻ أنه قال: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر»^(١) - «وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب»^(٢)، فالمؤمنون يرونه، والكافرون عنه يومئذ محجوبون، كما قال جل ثناؤه: ﴿كَأَلَا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾، [المطففين: ١٥].

فأما ما اعتلَّ به مُنْكَرُو رؤيةِ الله يومَ القيامةِ بالأبصار، لما كانت لا ترى إلا ما بآينها وكان بينها وبينه فضاء وفُرْجة، وكان ذلك عندهم غير جائز أن تكون رؤيةُ الله بالأبصار كذلك، لأنَّ في ذلك إثبات حَدٍّ له ونهاية، فبطل عندهم لذلك جوازُ الرؤيةِ عليه - فإنه يُقالُ لهم: هل علمتم موصوفاً بالتدبيرِ سوى صانعكم، إلا مُماساً لكم أو مبايناً؟

فإن زعموا أنهم يعلمون ذلك، كُلُّفُوا تبيينه، ولا سبيلَ إلى ذلك.

وإن قالوا: لا نعلمُ ذلك.

قيل لهم: أو ليس قد علمتموه لا مُماساً لكم ولا مبايناً، وهو موصوفٌ بالتدبيرِ والفعل، ولم يجب عندهم إذ كنتم لم تعلموا موصوفاً بالتدبيرِ والفعلِ غيره إلا مُماساً لكم أو مبايناً، أن يكون مستحيلاً العلم به، وهو موصوفٌ بالتدبيرِ والفعلِ لا مماس ولا مباين؟

فإن قالوا: ذلك كذلك.

قيل لهم: فما تنكرون أن تكونَ الأبصارُ كذلك لا ترى إلا ما بآينها وكانت بينه وبينها فُرْجة، قد تراه وهو غير مباين لها ولا فرجة بينها وبينه ولا فضاء، كما لا تعلمُ القلوبُ موصوفاً بالتدبيرِ إلا مُماساً لها أو مبايناً، وقد علمته عندهم

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الأنعام: ١٠٣

لا كذلك؟ وهل بينكم وبين مَنْ أنكر أن يكون موصوفاً بالتدبير والفعل معلوماً، إلا مُماساً للعالم به أو مبيئاً - وأجاز أن يكون موصوفاً برؤية الأبصار، لا مماساً لها ولا مبيئاً، فرق؟

ثم يُسألون الفرق بين ذلك، فلن يقولوا في شيء من ذلك قولاً إلا الزموا في الآخر مثله.

وكذلك يسألون فيما اعتلوا به في ذلك: أن من شأن الأبصار إدراك الألوان، كما أن من شأن الأسماع إدراك الأصوات، ومن شأن المتنسم درك الأعراف، فمن الوجه الذي فسد أن يُقضى للسمع بغير درك الأصوات، فسد أن يُقضى للأبصار بغير درك الألوان.

فيقال لهم: أستم لم تعلموا فيما شاهدتم وعايستم، موصوفاً بالتدبير والفعل إلا ذا لون، وقد علمتموه موصوفاً بالتدبير لا ذا لون؟

فإن قالوا: «نعم» - لا يجدون من الإقرار بذلك بدءاً، إلا أن يكذبوا فيزعموا أنهم قد رأوا وعانوا موصوفاً بالتدبير والفعل غير ذي لون، فيكلفون بيان ذلك، ولا سبيل إليه.

فيقال لهم: فإذا كان ذلك كذلك، فما أنكرتم أن تكون الأبصار فيما شاهدتم وعايستم لم تجدوها تدرك إلا الألوان، كما لم تجدوا أنفسكم تعلم موصوفاً بالتدبير إلا ذا لون، وقد وجدتموها علمته موصوفاً بالتدبير غير ذي لون. ثم يسألون الفرق بين ذلك، فلن يقولوا في أحدهما شيئاً إلا الزموا في الآخر مثله.

ولأهل هذه المقالة مسائل فيها تلبس، كرهنا ذكرها وإطالة الكتاب بها وبالجواب عنها، إذ لم يكن قصدنا في كتابنا هذا قصد الكشف عن تمويهاتهم، بل قصدنا فيه البيان عن تأويل آي الفرقان. ولكننا ذكرنا القدر

الذي ذكرنا، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أنهم لا يرجعون من قولهم إلا إلى ما لبس عليهم الشيطان، مما يسهل على أهل الحق البيان عن فسادهم، وأنهم لا يرجعون في قولهم إلى آية من التنزيل مُحْكَمَة، ولا رواية عن رسول الله ﷺ صحيحة ولا سقيمة، فهم في الظلمات يَخْطُونَ، وفي العمياء يَتَرَدَّدُونَ، نعوذ بالله من الحيرة والضلالة.

وأما قوله: «وهو اللطيف الخبير»، فإنه يقول: والله تعالى ذَكَرَهُ المتيسر له من إدراكِ الأبصار، والمتأني له من الإحاطة بها رؤية ما يَغُسرُ على الأبصار من إدراكها إياه وإحاطتها به ويتعذر عليها. «الخبير»، يقول: العليم بخلقه وأبصارهم، والسبب الذي له تعذر عليها إدراكه، فلطف بقدرته فَهَيَّا أَبْصَارَ خَلْقِهِ هيئة لا تدركه، وخَبَرَ بعلمه كيف تدبيرها وشؤونها وما هو أصلح بخلقه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾

وهذا أمر من الله جل ثناؤه نبيه محمداً ﷺ أَنْ يَقُولَ لهؤلاء الذين نبههم بهذه الآيات من قوله: «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى» إلى قوله: «وهو اللطيف الخبير»، على حُجَجِهِ عليهم، وعلى سائر خَلْقِهِ معهم، العادلين به الأوثان والأنداد، والمكذِبِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وما جاءهم من عند الله - قُلْ لَهُمْ يَامُحَمَّدُ: «قد جاءكم»، أيها العاذلون بالله، والمكذبون برسوله. «بصائر من ربكم»، أي: ماتبصرون به الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر.

وقوله: «فمن أبصره فلنفسه»، يقول: فمن تَبَيَّنَ حُجَجَ اللَّهِ وَعَرَفَهَا وَأَقْرَبَهَا، وآمن بما دلَّته عليه من توحيدِ اللَّهِ وتصدقِ رسوله وما جاء به، فإنما أصاب حَقُّ نَفْسِهِ، ولنفسه عمل، وإياها بَغَى الخير. «ومن عَمِيَ فَعَلَيْهَا»، يقول: ومن

لم يستدل بها، ولم يصدق بما دلته عليه من الإيمان بالله ورسوله وتنزيله، ولكنه عمي عن دلالتها التي تدل عليها، يقول: فنفسه ضر، وإليها أساء لا إلى غيرها.

وأما قوله: «وما أنا عليكم بحفيظ»، يقول: وما أنا عليكم برفيق أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والله الحفيظ عليكم، الذي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ وَلِيَقُولُوا
دَرَسَتْ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

يقول تعالى ذكره: كما صرفت لكم، أيها الناس، الآيات والحجج في هذه السورة، وبيئتها، فعرّفْتُكُمْوها، في توحيدتي وتصديق رسولي وكتابي ووقفتكم عليها، فكذاك أبين لكم آياتي وحججي في كل ما جهلتموه فلم تعرفوه من أمري ونهيي.

وأما تأويل قوله: «ولنبينه لقوم يعلمون»، يقول: تعالى ذكره: كما صرفنا الآيات والعبر والحجج في هذه السورة لهؤلاء العادلين برّبهم الآلهة والأنداد، كذلك نصرف لهم الآيات في غيرها، كيلا يقولوا لرسولنا الذي أرسلناه إليهم: «إنما تعلمت ما تأتينا به تتلوه علينا من أهل الكتاب»، فينزعروا عن تكذيبهم إياه، ويقولهم عليه الإفك والزور، ولنبين بتصرفنا الآيات الحق، لقوم يعلمون الحق إذا تبين لهم فيتبعوه ويقبلوه، وليسوا كمن إذا بين لهم عموا عنه فلم يعقلوه، وازدادوا من الفهم له بعداً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَتَبِعَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنبيه محمد ﷺ: اتَّبِعْ، يا محمد، ما أمرك به رَبُّكَ في وحيه الذي أوحاهُ إليك، فاعملْ به، وانزجر عما رَجَرَ عنه فيه، ودَعْ ما يدعوك إليه مشركو قومك من عبادةِ الأوثانِ والأصنام، فإنه لا إله إلا هو. يقول: لا معبودَ يستحقُّ عليك إخلاصَ العبادةِ له إلا الله الذي هو فائقُ الحَبِّ والنوى، وفائقُ الإصباح، وجاعلُ الليل سكناً، والشمس والقمر حساباً. «وأعرض عن المشركين»، يقول: ودَعْ عنكَ جدالهم وخصومتهم. ثم نسخ ذلك جل ثناؤه بقوله في براءة: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، الآية، [التوبة: ٥].

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ

حَفِظًا أَوْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

يقول جُلُّ ثناؤه لِنبيه محمد ﷺ: أَعْرَضَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ، ودَعْ عَنْكَ جِدَالَهم وخصومتهم ومسائبتهم. «ولو شاء الله ما أشركوا»، يقول: لو أرادَ رَبُّكَ هِدَايَتَهُم واستنقاذَهُم من ضلالَتهم، للطفَ لهم بتوفيقه إياهم فلم يُشْرِكُوا به شيئاً، ولأمنوا بك فاتبعوك وصدَّقُوا ما جِئْتُهُمْ به من الْحَقِّ من عند ربك. «وما جعلناكَ عليهم حَفِظًا»، يقول جل ثناؤه: وإنما بعثتك إليهم رسولاً مبلِّغاً، ولم نبعثكَ حافظاً عليهم ما هم عاملوه، تُحصي ذلك عليهم، فإنَّ ذلك إلينا دونك. «وما أنتَ عليهم بوكيل»، يقول: ولستَ عليهم بَقِيْمٍ تقوم بأرزاقهم وأقواتهم ولا بحفظهم، فيما لم يُجْعَلْ إِلَيْكَ حَفْظُهُ من أمرهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

فَيَسْجُودُ لِلَّهِ عَدُوًّا وَبَغِيرًا عَلِيمًا

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ وللمؤمنين به : ولا تَسْجُودُوا للذين يدعو المشركون من دون الله من الآلهة والأنداد، فيسبّ المشركون الله جهلاً منهم بريهم، واعتداءً بغير علم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ : كما زَيَّنَّا لهؤلاء العادِلين بريهم الأوثان والأصنام، عبادة الأوثان و طاعة الشيطان بخذلاننا إيَّاهم عن طاعة الرحمن، كذلك زَيَّنَّا لكل جماعة اجتمعت على عملٍ من الأعمال من طاعة الله ومعصيته، عملهم الذي هم عليه مجتمعون، ثم مرجعهم بعد ذلك ومصيرهم إلى ربهم. «فينبئهم بما كانوا يعملون». يقول : فيؤفِّقهم ويخبرهم بأعمالهم التي كانوا يعملون بها في الدنيا، ثم يجازيهم بها، إن كان خيراً فخييراً، وإن كان شراً فشرّاً، أو يعفو بفضله، ما لم يكن شركاً أو كفراً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ : وَحَلَفَ بالله هؤلاء العادلون بالله جَهْدَ حَلْفِهِمْ، وذلك أوكد ما قَدَرُوا عليه من الإيمان وأصعُبها وأشدّها. «لئن جاءتهم آية»، يقول : قالوا : نقسم بالله لئن جاءتنا آية تُصَدِّقُ ما تقول، يا محمد، مثل الذي جاء من

قَبَلْنَا مِنَ الْأَمَمِ. «لِيُؤْمِنَ بِهَا»، يقول: قالوا: لَنُصَدِّقَنَّ بِمَجِيئِهَا بِكَ، وَأَنْتَ اللَّهُ رَسُولُ مُرْسَلٍ، وَأَنْ مَا جِئْتَنَا بِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وقيل: «لِيُؤْمِنَ بِهَا»، فأخرج الخبرَ عن «الآية»، والمعنى لمجيء الآية.

يقول لنبيه ﷺ: «قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ»، وهو القادرُ على إتيانكم بها دونَ كُلِّ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ «وَمَا يُشْعِرُكُمْ»، يقول: وما يُذَرِّبُكُمْ «أَنهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ»؟

وذكر أن الذين سألوه الآيةَ من قومه، هم الذين آيسَ الله نبيّه من إيمانهم من مشركي قومه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ

معنى الكلام: وما يُذَرِّبُكُمْ، أيها المؤمنون، لعل الآياتِ إِذْ جَاءَتْ هؤلاء المشركين لا يؤمنون، فيعاجلوا بالنقمة والعذاب عند ذلك، ولا يؤخروا به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَقَلِبْ أَفْسَدَهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ

إنَّ الله جل ثناؤه، أخبر عن هؤلاء الذين أقسموا بالله جَهْدَ إيمانهم لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمنن بها: أَنَّهُ يَلْبَسُ أَفْسَدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ وَيُصَرِّفُهَا كَيْفَ شَاءَ، وَأَنَّ ذَلِكَ بِيَدِهِ يَقِيمُهُ إِذَا شَاءَ، وَيَزِيغُهُ إِذَا أَرَادَ - وَأَنَّ قَوْلَهُ: «كما لم يؤمنوا به أول مرة»، دليلٌ على محذوفٍ من الكلام - وَأَنَّ قَوْلَهُ: «كما» تشبيه ما بعده بشيءٍ قبله.

وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فالواجبُ أَنْ يَكُونَ معنى الكلام: وَنَقَلِبْ أَفْسَدَتَهُمْ،

فتزيغها عن الإيمان، وأبصارهم عن رؤية الحق ومعرفة موضع الحجة، وإن جاءتهم الآية التي سألوها، فلا يؤمنوا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله، كما لم يؤمنوا بتقليدنا إياها قبل مجيئها مرة قبل ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ



يقول تعالى ذكره: ونذر هؤلاء المشركين الذين أقسموا بالله جهداً إيمانهم: لأن جاءتهم آية ليؤمنن بها عند مجيئها - في تمردهم على الله واعتدائهم في حدوده، يترددون، لا يهتدون لحق، ولا يبصرون صواباً، قد غلب عليهم الخذلان، واستحوذ عليهم الشيطان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَهُمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يُجَاهِلُونَ

يقول تعالى ذكره لنبه محمد ﷺ: يا محمد، آيس من فلاح هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام، القائلين لك: «لئن جئتنا بآية لنؤمنن لك»، فإننا نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عياناً، وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حجة لك، ودلالة على نبوتك، وأخبروهم أنك مُحِقٌّ فيما تقول، وأن ماجئهم به حق من عند الله، وحشرنا عليهم كل شيء فجعلناهم لك قبلاً، ما آمنوا ولا صدقوك ولا اتبعوك إلا أن يشاء الله ذلك لمن شاء منهم. «ولكن أكثرهم يجهلون»، يقول: ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن ذلك كذلك، يحسبون أن الإيمان إليهم، والكفر بأيديهم، متى شأؤوا آمنوا، ومتى شأؤوا كفروا. وليس

ذلك كذلك، ذلك بيدي، لا يؤمنُ منهم إِلَّا مَنْ هَدَيْتَهُ لَهُ فَوَقَّعْتَهُ، ولا يكفر إِلَّا مَنْ خَذَلْتَهُ عَنِ الرُّشْدِ فَأَضَلَّاهُ.

وقيل إِنَّ ذلك نزل في المستهزئين برسولِ الله ﷺ، وما جاء به من عندِ الله، من مشركي قريش.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمدٍ ﷺ، مُسَلِّيه بذلك عما لَقِيَ من كَفَرَةٍ قَوْمِهِ فِي ذَاتِ اللَّهِ، وحاتاً له على الصبرِ على ما نالَ فيه: «وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوًّا»، يقول: وكما ابتليناك، يا محمدُ، بأنَّ جعلنا لك من مشركي قومك أعداءَ شياطينَ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ، ليصدُّوهم بمجادلتهم إياك بذلك عن اتِّباعِكَ والإيمانِ بكَ وبما جئتهم به من عند ربِّكَ، كذلك ابتلينا من قبلك من الأنبياء والرُّسلِ، بأنَّ جعلنا لهم أعداءَ من قومهم يُؤذُونَهُمْ بِالْجِدَالِ والخصومات. يقول: فهذا الذي امتحنتُك به، لم تخصص به من بينهم وحدك، بل قَدْ عَمَّمْتُهُمْ بِذلك معكَ لأبتليهم وأختبرهم، مع قُدْرَتِي على منع مَنْ آذَاهُمْ من إيذائهم، فلم أفعَلْ ذلك إِلَّا لأعرفَ أولي العزمِ منهم من غيرهم. يقول: فاصبرِ أَنْتَ كما صبرَ أولُو العزمِ من الرسل.

وأما «شياطين الإنس والجن»، فإنهم مَرَدُّهُمْ.

وأما قوله: «يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا»، فإنه يعني أَنَّهُ يُلْقِي الْمُلقِي منهم الْقَوْلَ، الَّذِي رَيْنَهُ وَحَسَنَهُ بِالْباطِلِ إِلَى صاحبه، ليغترَّ به مَنْ سمعه، فيضلَّ عن سبيلِ الله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا

يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: ولو شئتُ، يا محمد، أن يؤمنَ الذين كانوا لأنبيائي أعداء من شياطين الإنس والجن فلا ينالهم مَكْرُهُمْ ويؤمنوا غَوَائِلَهُمْ وأذاهم، فعلتُ ذلك، ولكني لم أشأ ذلك، لأبتلي بعضهم ببعض، فيستحق كل فريقٍ منهم ما سَبَقَ له في الكتاب السابق. «فَذَرَّهُمْ»، يقول: فَذَعَّهُمْ - يعني الشياطين الذين يجادلونك بالباطل من مشركي قومك ويخاصمونك بما يُوحى إليهم أولياؤُهُم من شياطين الإنس والجن. «وما يفترون»، يعني: وما يختلقون من إفك وزور.

يقول له ﷺ: اصبرْ عليهم، فإنني من وراء عقابِهِمْ على افتراءِهِمْ على الله، واختلاقِهِمْ عليه الكذب والزور.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوهُ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطينَ الإنس والجن يُوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً». «وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ»، يقول: جَلَّ ثَنَاؤُهُ: يُوحى بعض هؤلاء الشياطين إلى بعض المُرْتَبِينَ من القول بالباطل، ليغرّوا به المؤمنين من أتباع الأنبياء فيفتنهم عن دينهم. «ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة»، يقول: ولتتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلِيَقَرِّفُوا مَا هُم مُّقَرَّرِفُونَ ﴿١١٣﴾

يقول تعالى ذكره: وليكتسبوا من الأعمال ما هم مكتسبون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي
أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قُلْ لَهُوْلَاءِ الْعَادِلِينَ بِاللَّهِ الْأَوْتَانِ
وَالْأَصْنَامَ، الْقَائِلِينَ لَكَ: «كُفُّ عَن آلِهَتِنَا، وَنَكْفُ عَنِ إِلَهِكَ»: إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَّمَ
عَلَيَّ بِذِكْرِ آلِهَتِكُمْ بِمَا يَكُونُ صَدًّا عَنِ عِبَادَتِهَا. «أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَى حَكَمًا»، أَي:
قُلْ: فَلَيْسَ لِي أَنْ أَتَعَدَّى حُكْمَهُ وَأَتَجَاوِزَهُ، لِأَنَّهُ لَا حَكَمَ أَعْدِلَ مِنْهُ، وَلَا قَائِلَ
أَصْدُقَ مِنْهُ. «وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا»، يَعْنِي الْقُرْآنَ. «مُفَصَّلًا»،
يَعْنِي: مُبَيِّنًا فِيهِ الْحَكَمَ فِيمَا تَخْتَصِمُونَ فِيهِ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِكُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ
مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

يقول تعالى ذكره: إِنَّ أَنْكَرَ هَؤُلَاءِ الْعَادِلُونَ بِاللَّهِ الْأَوْتَانِ مِنْ قَوْمِكَ تَوْحِيدَ
اللَّهِ، وَأَشْرَكُوا مَعَهُ الْأَنْدَادَ، وَجَحَدُوا مَا أَنْزَلْتَهُ إِلَيْكَ، وَأَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ حَقًّا وَكَذَّبُوا
بِهِ - فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ، وَهُوَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. «يَعْلَمُونَ»
أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ»، يَعْنِي الْقُرْآنَ وَمَا فِيهِ. «بِالْحَقِّ» يَقُولُ: فَصَلًّا بَيْنَ أَهْلِ
الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ الصَّادِقِ عَلَى اللَّهِ، وَكَذِبِ الْكَاذِبِ الْمَفْتَرِي
عَلَيْهِ. «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ»، يَقُولُ: فَلَا تَكُونَنَّ، يَا مُحَمَّدُ، مِنَ الشَّاكِّينَ
فِي حَقِيقَةِ الْأَنْبَاءِ الَّتِي جَاءَتْكَ مِنَ اللَّهِ فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ،
لِأَنَّ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ

لِكَلِمَتِهِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١١٥

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَتَمَّتْ. «كلمة ربك»، يعني القرآن. «صدقًا وعَدْلًا»، يقول: كملت كلمة ربك من الصدق والعدل.

«لا مُبَدِّلَ لكلماته»، يقول: لا مُغَيِّرَ لما أُخْبِرَ في كتبه أنه كائنٌ، من وقوعه في حِينِهِ وَأَجَلِهِ الذي أُخْبِرَ اللهُ أنه واقعٌ فيه، وذلك نظيرُ قولِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾، [الفتح: ١٥]، فكانت إرادتهم تبديلَ كلامِ الله، مسألتهم نبيَّ الله أن يتركهم يحضرون الحرب معه، وقلوبهم له ولمن معه من المؤمنين: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾، بعد الخبر الذي كان اللهُ أخبرهم تعالى ذكره في كتابه بقوله: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ الآية، [التوبة: ٨٣]، فحاولوا تبديلَ كلامِ الله وخبره بأنهم لَنْ يخرجوا مع نبيِّ الله في غَزَاةٍ، ولن يقاتلوا معه عدوًّا بقلوبهم لهم: «ذرونا نتبعكم»، فقال اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا﴾ - بمسألتهم إياهم ذلك - كلامَ الله وخبرَهُ: ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾. فكذلك معنى قوله: «لا مُبَدِّلَ لكلماته»، إنما هو لا مُغَيِّرَ لما أُخْبِرَ عنه من خبرٍ أنه كائنٌ، فيبطل مجيئه وكونه ووقوعه على ما أُخْبِرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، لأنه لا يزيد المفترون في كُتُبِ الله ولا ينقصون منها. وذلك أَنَّ اليهودَ والنصارى لا شَكَّ أنهم أهلُ كتبِ الله التي أنزلها على أنبيائه، وقد أُخْبِرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنهم يُحَرِّفُونَ غيرَ الذي أُخْبِرَ أنه لا مُبَدِّلَ له.

وأما قوله: «وهو السميع العليم»، فإنَّ معناه: والله «السميع»، لما يقول هؤلاء العادلون بالله، الْمُقْسِمُونَ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لئن جاءتهم آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها، وغير ذلك من كلامِ خَلْقِهِ. «العليم»، بما تؤوَّلُ إليه أيمانُهم من بَرٍّ وَصِدْقٍ

وَكَذِبَ وَجْهٌ، وغير ذلك من أمور عباده.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ تَطِيعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ
يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: لا تُطِيع هؤلاء العادِلِينَ بالله الأندادَ،
يامحمدُ، فيما دَعَوَكَ إِلَيْهِ مِنْ أَكْلِ مَا ذَبَحُوا لِأَلْهَتِهِمْ، وَأَهْلُوا بِهِ لِغَيْرِ رَبِّهِمْ،
وَأَشْكَالَهُمْ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ، فَإِنَّكَ إِنْ تَطِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ
عَنْ دِينِ اللَّهِ، وَمَحَجَّةِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، فَيَصُدُّوكَ عَنْ ذَلِكَ.

وإنما قال الله لِنبيه: «وإن تطيع أكثر من في الأرض»، من بني آدم، لأنهم
كانوا حينئذٍ كفاراً ضالّين، فقال له جَلُّ ثَنَاهُ: لا تُطِيعُهُمْ فيما دَعَوَكَ إِلَيْهِ، فَإِنَّكَ
إِنْ تُطِيعُهُمْ ضَلَلْتَ ضَلَالَتَهُمْ، وَكُنْتَ مِثْلَهُمْ، لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد
أخطأوه. ثم أخبر جَلُّ ثَنَاهُ عَنْ حَالِ الَّذِينَ نَهَى نَبِيَّهُ عَنْ طَاعَتِهِمْ فيما دَعَا
إِلَيْهِ فِي أَنْفُسِهِمْ، فقال: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ»، فأخبر جَلُّ ثَنَاهُ أَنَّهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ
عَلَى ظَنِّ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ، وَحَسَابٍ عَلَى صَحَّةِ عِزْمٍ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ خَطَأً فِي
الْحَقِيقَةِ. «وإن هم إلا يخرصون»، يقول: ما هم إلا مُتَخَرِّصُونَ، يَظُنُّونَ
وَيَتَوَقَّعُونَ خَرّاً، لا يَقِينَ عِلْمٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: يامحمدُ، إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي نَهَاكَ أَنْ
تَطِيعَ هَؤُلَاءِ الْعَادِلِينَ بِاللَّهِ الْاَوْثَانَ، لِثَلَا يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِهِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ وَمَنْ

جميع خَلْقِهِ من يَضِلُّ عن سبيله بزخرفِ القولِ الذي يوحى الشياطينُ بعضهم إلى بعضٍ، فيصدُّوا عن طاعتهِ واتباعِ ما أمر به. «وهو أعلمُ بالمهتدين»، يقول: وهو أعلمُ أيضاً منك ومنهم بمن كان على استقامةٍ وسدادٍ، لا يخفى عليه منهم أحدٌ. يقول: واتبع، يا محمدُ، ما أمرتُك به، واثَّبه عما نهيتُك عنه من طاعةِ مَنْ نهيتُك عن طاعتهِ، فإنِّي أعلمُ بالهادي والمضلِّ من خَلْقِي، منك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ

رِشَاقِيَّتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

يقول تعالى ذكَّره لنبية محمد ﷺ وعباده المؤمنين به وبآياته: «فكلوا»، أيها المؤمنون، مما ذُكِّرتُم من ذبائحكم وذبحتموه الذبيح الذي بينتُ لكم أنه تحلُّ به الذبيحةُ لكم، وذلك ما ذَبَحَهُ المؤمنونَ بي من أهلِ دينكم دين الحق، أو ذبحه مَنْ دَانَ بتوحيدي من أهلِ الكتاب، دونَ ماذبحه أهلُ الأوثانِ وَمَنْ لا كِتَابَ له من المجوس. «إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ»، يقول: إِنْ كُنْتُمْ بحججِ الله التي أنتمكم وأعلامه، بإحلالِ ما أحلَّتْ لكم، وتحريمِ ما حرمتُ عليكم من المطاعمِ والمأكَلِ، مُصَدِّقِينَ. ودَّعوا عنكم زخرفِ ما توحيه الشياطينُ بعضها إلى بعضٍ من زخرفِ القولِ لكم، وتلبيسِ دينكم عليكم غروراً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ

عَلَيْهِ وَقَدْ فُصِّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ

معنى قوله: «وما لكم»، في هذا الموضع: وأيُّ شيءٍ يمنعكم أن تأكلوا مما ذُكِّرَ اسْمُ الله عليه. وذلك أن الله تعالى ذكَّره تقدَّمَ إلى المؤمنين بتحليلِ ما ذُكِّرَ اسْمُ الله عليه، وإباحةِ أكلِ ما ذَبَحَ بدينه أو دينِ مَنْ كان يَدِينُ ببعضِ

شرائع كتبه المعروفة، وتحريم ما أُهْلَ به لغيره، من الحيوان - وَزَجَرَهُمْ عَنِ
الإصغاء لما يوحي الشياطينُ بعضهم إلى بعضٍ من زُخْرَفِ القول في الميتةِ
والمنخنقة والمتردية، وسائر ما حَرَّمَ الله من المطاعم. ثم قال: وما يمنعكم من
أكل ما ذُبِحَ بدينني الذي ارتضيته، وقد فَصَلْتُ لكم الحلالَ من الحرامِ فيما
تطعمون، وبيئته لكم بقولي: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا
أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾، إلى قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ﴾،
[المائدة: ٣]، فلا لبس عليكم في حرام ذلك من حلاله، فتمتنعوا من أكل
حلاله حَذَرًا من واقعة حرامه.

وأما قوله: «إلا ما اضطررتم إليه»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُهُ: أَنْ ما اضطررنا
إليه من المطاعمِ الْمُحَرَّمَةِ التي بَيَّنَّ تحريمها لنا في غيرِ حالِ الضرورة، لنا
حلالٌ ما كنا إليه مُضْطَرِّينَ، حتى تزولِ الضرورة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ [الذين] يجادلونكم في أكلِ
ما حَرَّمَ الله عليكم، أيها المؤمنون بالله، من الميتة، لِيُضِلُّونَ أَتْبَاعَهُمْ بِأَهْوَائِهِمْ
من غيرِ عِلْمٍ منهم بصحة ما يقولون، ولا برهانٍ عندهم بما فيه يجادلون، إلا
رُكُوبًا منهم لأَهْوَائِهِمْ، وَأَتْبَاعًا مِنْهُمْ لدواعي نفوسهم، اعتداءً وخِلَافًا لأمر الله
ونهيهِ، وطاعةً للشياطين. «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ»، يقول: إِنَّ رَبَّكَ،
يا محمد، الذي أَحَلَّ لَكَ ما أَحَلَّ وَحَرَّمَ عَلَيْكَ ما حَرَّمَ، هو أَعْلَمُ بمن اعتدى
حدوده ف تجاوزَهَا إلى خِلَافِهَا، وهو لهم بالمرصاد.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ

يقول تعالى ذكره: ودعوا، أيها الناس^(١)، علانية الإثم، وذلك ظاهره - وسرّه، وذلك باطنه.

ثم اختلف أهل التأويل في المعنى بالظاهر من الإثم والباطن منه، في هذا الموضع.

فقال بعضهم: «الظاهر منه»، ما حرم جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، [سورة النساء: ٢٢]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، الآية، [سورة النساء: ٢٣]، «والباطن منه»، الزنا.

وقال آخرون: «الظاهر»، أولات الرايات^(٢) من الزواني، «والباطن»، ذوات الأخدان^(٣).

وقال آخرون: «الظاهر»، التعري والتجرد من الثياب، وما يستر العورة في الطواف - «والباطن»، الزنا.

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره تقدّم إلى خلقه بترك ظاهر الإثم وباطنه، وذلك سره وعلانيته. «والإثم» كل ما عصي الله به من محارمه، وقد يدخل في ذلك سر الزنا وعلانيته، ومعاهرة أهل الرايات وأولات الأخدان منهن، ونكاح حلائل الآباء والأمهات والبنات، والطواف بالبيت عرياناً، وكل معصية لله ظهّرت أو بطنّت. وإذ كان ذلك كذلك، وكان جميع ذلك «إثماً»، وكان الله عمّ بقوله: «وَدَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ»، جميع ما

(١)

(٢) أولات الرايات: البغايا في الجاهلية، كنّ ينصبن رايات عند خيامهن أو عند بيوتهن، يُعرفن بها.

(٣) الأخدان: الأصدقاء، وذات الخدن: التي تتخذ صديقاً يأتيها سرّاً.

ظهر من الإثم وجميع ما بطن - لم يكن لأحد أن يخص من ذلك شيئاً دون شيء، إلا بحجة للعدر قاطعة.

غير أنه لو جاز أن يوجه ذلك إلى الخصوص بغير برهان، كان توجيهه إلى أنه عني بظاهر الإثم وباطنه في هذا الموضع، ما حرم الله من المطاعم والمآكل من الميتة والدم، وما بين الله تحريمه في قوله: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الميتة»، إلى آخر الآية، أولى، إذ كان ابتداء الآيات قبلها بذكر تحريم ذلك جرى، وهذه في سياقها. ولكنه غير مستنكر أن يكون عني بها ذلك، وأدخل فيها الأمر باجتناب كل ما جانس من معاصي الله، فخرج الأمر عاماً بالنهي عن كل ما ظهر أو بطن من الإثم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ ﴿١٢٠﴾

يقول تعالى ذكره: إن الذين يعملون بما نهاهم الله عنه، ويركبون معاصي الله، ويأتون ما حرم الله. «سَيَجْزَوْنَ»، يقول: سَيُثَبِّتُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بما كانوا في الدنيا يعملون من معاصيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوَكُمْ وَلَئِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ»، لا تأكلوا، أيها المؤمنون، مما مات فلم تدبّحوه أنتم، أو تدبّحه مؤخداً يدين الله بشرائع شرعها له في كتاب منزل، فإنه حرام عليكم - ولا ما أهل به لغير الله مما ذبحه

المشركون لأوثانهم، فَإِنَّ أَكَلَ ذَلِكَ «فِسْقٌ»، يعني: معصية كفر.

(ويعني بقوله): «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم»: إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوا الْمُؤْمِنِينَ فِي تَحْرِيمِهِمْ أَكْلَ الْمَيْتَةِ، بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ جَدِّهِمْ إِيَّاهُمْ - وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْمُوحُونَ كَانُوا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ يُوْحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنْهُمْ - وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونُوا شَيَاطِينَ الْجِنِّ أَوْحُوا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ - وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْجِنْسَانِ كِلَاهُمَا تَعَاوَنًا عَلَى ذَلِكَ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي الْآيَةِ الْآخَرَى الَّتِي يَقُولُ فِيهَا: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾، [الأنعام: ١١٢]. بَلْ ذَلِكَ الْأَغْلَبُ مِنْ تَأْوِيلِهِ عِنْدِي، لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ أَنَّهُ جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءَ مِنْ شَيَاطِينَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، كَمَا جَعَلَ لَأَنْبِيَائِهِ مِنْ قَبْلِهِ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْمَزِينُ مِنَ الْأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ، ثُمَّ أَعْلَمَهُ أَنَّ أُولَئِكَ الشَّيَاطِينَ يُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ لِيُجَادِلُوهُ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ الْمَيْتَةِ عَلَيْهِمْ. ويعني بقوله: «ليجادلوكم»، ليخاصموكم.

وأما قوله: «وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون»، فإنه يعني: وإن أطمعتموهم.

وأما قوله: «إنكم لمشركون»، يعني: إنكم إذا مثلتم، إِذْ كَانَ هَؤُلَاءِ يَأْكُلُونَ الْمَيْتَةَ اسْتِحْلَالًا. فَإِذَا أَنْتُمْ أَكَلْتُمُوهَا كَذَلِكَ، فَقَدْ صَرُتُمْ مِثْلَهُمْ مُشْرِكِينَ. واختلف أهل العلم في هذه الآية، هل نُسَخَ مِنْ حُكْمِهَا شَيْءٌ أَمْ لَا؟

والصواب من القول في ذلك عندنا، أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُحْكَمَةٌ فِيمَا أَنْزَلَتْ، لَمْ يُنْسَخْ مِنْهَا شَيْءٌ، وَأَنَّ طَعَامَ أَهْلِ الْكِتَابِ حَلَالٌ، وَذَبَائِحُهُمْ ذَكِيَّةٌ. وَذَلِكَ مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَكْلَهُ بِقَوْلِهِ: «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ»، بِمَعْزَلٍ. لِأَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ الْمَيْتَةَ، وَمَا أَهْلُ بَيْتِهِ لِلطَّوَاعِيتِ،

وَذَبَائِحُ أَهْلِ الْكِتَابِ ذِكْيَةً سَمَوْا عَلَيْهَا أَوْ لَمْ يُسَمَوْا، لَأَنَّهُمْ أَهْلُ تَوْحِيدٍ وَأَصْحَابُ كُتُبٍ لِلَّهِ، يَدِينُونَ بِأَحْكَامِهَا، يَذْبَحُونَ الذَّبَائِحَ بِأَدْيَانِهِمْ، كَمَا يَذْبَحُ الْمُسْلِمُ بَدِينِهِ، سَمَى اللَّهُ عَلَى ذَبِيحَتِهِ أَوْ لَمْ يُسَمَّ، أَلَا أَنَّ يَكُونَ تَرْكُ مَنْ ذَكَرَ تَسْمِيَةَ اللَّهِ عَلَى ذَبِيحَتِهِ عَلَى الدِّينُونَةِ بِالتَّعْطِيلِ، أَوْ بِعِبَادَةِ شَيْءٍ سِوَى اللَّهِ، فَيَحْرَمُ حَيْثُذُ أَكَلَ ذَبِيحَتِهِ، سَمَى اللَّهُ عَلَيْهَا أَوْ لَمْ يُسَمَّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا

وهذا الكلام من الله جَلَّ ثَنَاهُ يدلُّ على نهيه المؤمنين برسوله يومئذٍ عن طاعة بعض المشركين الذين جادلوهم في أكل الميتة، بما ذكرنا عنهم من جدالهم إياهم به، وأمره إياهم بطاعة مؤمن منهم كان كافراً، فهذا جَلَّ ثَنَاهُ لِرُشْدِهِ، وَوَفْقَهُ لِلْإِيمَانِ. فقال لهم: أطاعة مَنْ كان ميتاً، يقول: مَنْ كان كافراً؟ فجعله جَلَّ ثَنَاهُ لَانْتِصَافِهِ عَنْ طَاعَتِهِ، وَجَهْلِهِ بِتَوْحِيدِهِ وَشَرَائِعِ دِينِهِ، وَتَرْكِهِ الْاِخْذَ بِنُصَيْيِهِ مِنَ الْعَمَلِ لِلَّهِ بِمَا يُؤَدِّيهِ إِلَى نَجَاتِهِ، بِمَنْزِلَةِ «الْمَيْتِ» الَّذِي لَا يَنْفَعُ نَفْسَهُ بِنَافِعَةٍ، وَلَا يَدْفَعُ عَنْهَا مِنْ مَكْرُوهِ نَازِلَةٍ. «فَأَحْيَيْنَاهُ»، يَقُولُ: فَهَدَيْنَاهُ لِلْإِسْلَامِ، فَأَنْعَشْنَاهُ، فَصَارَ يَعْرِفُ مَضَارَّ نَفْسِهِ وَمَنَافِعَهَا، وَيَعْمَلُ فِي خِلَاصِهَا مِنْ سَخَطِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ فِي مَعَادِهِ. فَجَعَلَ إِبْصَارَهُ الْحَقُّ تَعَالَى ذِكْرَهُ بَعْدَ عَمَاهُ عَنْهُ، وَمَعْرِفَتِهِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَشَرَائِعِ دِينِهِ بَعْدَ جَهْلِهِ بِذَلِكَ، حَيَاةً وَضِيَاءً يَسْتَضِيءُ بِهِ فَيَمْشِي عَلَى قَصْدِ السَّبِيلِ، وَمَنْهَجِ الطَّرِيقِ فِي النَّاسِ. «كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ»، لَا يَدْرِي كَيْفَ يَتَوَجَّهُ، وَأَيَّ طَرِيقٍ يَأْخُذُ، لَشِدَّةِ ظُلُمَةِ اللَّيْلِ وَإِضْلَالِهِ الطَّرِيقِ. فَكَذَلِكَ هَذَا الْكَافِرُ الضَّالُّ فِي ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ، لَا يَبْصُرُ رِشْدًا، وَلَا يَعْرِفُ حَقًّا، - يَعْنِي فِي ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ. يَقُولُ: أَقْطَاعُهُ هَذَا الَّذِي هَدَيْنَاهُ لِلْحَقِّ وَبَصَّرْنَاهُ الرِّشَادَ، كَطَاعَةِ مَنْ مَثَلُهُ مِثْلُ مَنْ هُوَ فِي الظُّلُمَاتِ مُتَرَدِّدٌ، لَا يَعْرِفُ الْمَخْرَجَ مِنْهَا، فِي

دعاء هذا إلى تحريم ما حرم الله، وتحليل ما أحل، وتحليل هذا ما حرم الله، وتحريمه ما أحل؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: كما خذلتُ هذا الكافر الذي يُجادِلُكم - أيها المؤمنون بالله ورسوله، في أكل ما حُرِّمَتْ عليكم من المطاعم - عن الحق، فزینتُ له سوءَ عمله فراه حسناً، ليستحقُّ به ما أعددتُ له من أليم العقاب، كذلك زینتُ لغيره مِمَّنْ كان على مثل ما هو عليه من الكفر بالله وآياته، ما كانوا يعملون من معاصي الله ليستوجبوا، بذلك من فعلهم، ما لهم عند ربهم من النكال.

وفي هذا أوضحُ البيان على تكذيب الله الزاعمين^(١) أن الله فوَّضَ الأمور إلى خَلْقِهِ في أعمالهم، فلا صُنِعَ له في أفعالهم، وأنه قد سَوَّى بين جميعهم في الأسباب التي بها يصلون إلى الطاعة والمعصية. لأنَّ ذلك لو كان كما قالوا، لكان قد زَيْنَ لأنبيائه وأوليائه من الضلالة والكفر، نظيرَ ما زَيْنَ من ذلك لأعدائه وأهل الكفر به، وزَيْنَ لأهل الكفر به من الإيمان به، نظيرَ الذي زَيْنَ منه لأنبيائه وأوليائه. وفي إخباره جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه زين لكلِّ عاملٍ منهم عمله، ما يُنبئُ عن تزيين الكفر والفسوق والعصيان، وخَصَّ أعداءه وأهل الكفر، بتزيين الكفر لهم والفسوق والعصيان، وَكَرَّهَ إليهم الإيمان به والطاعة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ أَكْبَرَ

(١) الزاعمون هم: القدريّة والمعتزلة والشيعة الإمامية، المعروفون بالمفوضة.

مُجْرِمِيهَا لِيَمْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ



يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وكما زَيَّنَّا للكافرين ما كانوا يعملون، كذلك جعلنا بكلِّ قريةٍ عظماءها مجرميها - يعني أهل الشرك بالله والمعصية له. «ليمكروا فيها»، بغرورٍ من القول أو بباطلٍ من الفعل، بدين الله وأنبيائه. «وما يمكرون»، أي ما يحقق مكرهم ذلك إلا بأنفسهم، لأنَّ الله تعالى ذكَّره من وراء عقوبتهم على صدهم عن سبيله. «وهم لا يشعرون»، يقول: لا يدرون ما قد أعَدَّ اللهُ لهم من اليمِّ عذابه، فهم في غيهم وعتوهم على الله يتمادون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا جاءت هؤلاء المشركين الذين يجادلون المؤمنين بزخرف القول فيما حرم الله عليهم، ليصدوا عن سبيل الله. «آية»، يعني حُجَّةً من الله على صِحَّةِ ما جاءهم به محمدٌ ﷺ من عند الله وحقيقته قالوا لنبي الله وأصحابه: «لن نؤمن»، يقول: لن نُصَدِّقَ بما دعانا إليه محمدٌ ﷺ من الإيمان به، وبما جاء به من تحريم ما ذكر أنَّ الله حَرَّمَهُ علينا. «حتى نُؤْتَىٰ»، يعنون: حتى يُعْطِيَهُم اللهُ من المعجزاتِ مِثْلَ الذي أعطى موسى من فُلْقِ البحر، وعيسى من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص. يقول تعالى ذِكْرُهُ: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ». يعني بذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ: إِنَّ آيَاتِ الأنبياء والرسل لن يُعْطَاهَا من البشر إِلَّا رسولٌ مُرْسَلٌ، وليس العادلون بربهم الأوثان والأصنام منهم فيعطوها. يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فإنا أَعْلَمُ بمواضع رسالاتي، وَمَنْ هو لها أهل،

الأنعام: ١٢٤ - ١٢٥

فليس لكم أيها المشركون أَنْ تَتَخَيَّرُوا ذَلِكَ عَلَيَّ أَنْتُمْ، لِأَنْ تَخَيَّرَ الرَّسُولُ إِلَى الْمُرْسَلِ دُونَ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ إِذَا أَرْسَلَ رَسُولًا بِمَوْضِعِ رِسَالَتِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، مَعْلَمُهُ مَا هُوَ صَانِعٌ بِهَؤُلَاءِ الْمَتَمَرِّدِينَ عَلَيْهِ: «سَيُصِيبُ»، يَامُحَمَّدُ، الَّذِينَ اكْتَسَبُوا الْإِثْمَ بِشُرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَعِبَادَتِهِمْ غَيْرَهُ. «صَغَارٌ»، يَعْنِي: ذِلَّةٌ وَهَوَانٌ.

وقوله: «وعذاب شديد بما كانوا يمكرون»، يقول: يَصِيبُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، الْمُسْتَحْلِينَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَيْتَةِ، مَعَ الصَّغَارِ عَذَابٌ شَدِيدٌ، بِمَا كَانُوا يَكِيدُونَ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ بِالْجِدَالِ بِالْبَاطِلِ، وَالزَّخْرَفِ مِنَ الْقَوْلِ، غُرُورًا لِأَهْلِ دِينِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴿١٢٥﴾

ويقول تعالى ذِكْرَهُ: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ لِلْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ، فَيُوفِّقُهُ لَهُ. «يُشْرَحْ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ»، يَقُولُ: فَسَحَّ صَدْرُهُ لِذَلِكَ وَهُوَ عَلَيْهِ، وَسَهَّلَهُ لَهُ، بِلُطْفِهِ وَمَعُونَتِهِ، حَتَّى يَسْتَتِيرَ الْإِسْلَامُ فِي قَلْبِهِ، فَيُضِيءَ لَهُ، وَيَتَّسِعَ لَهُ صَدْرُهُ بِالْقَبُولِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقًا

حَرْجًا

يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ إِضْلَالَهُ عَنْ سَبِيلِ الْهُدَى، يَشْغَلْهُ بِكَفَرِهِ وَصَدْرُهُ عَنْ سَبِيلِهِ، وَيَجْعَلْ صَدْرَهُ بِخِذْلَانِهِ وَغَلَبَةِ الْكُفْرِ عَلَيْهِ، حَرْجًا.

و«الحرج»، أَشَدُّ الضِّيقِ، وهو الذي لا يَنْفِذُهُ، مِنْ شِدَّةِ ضَيْقِهِ، وهو ههنا الصَّدْرُ الذي لا تَصِلُ إِلَيْهِ الْمَوْعِظَةُ، وَلَا يَدْخُلُهُ نُورُ الْإِيمَانِ، لِزَيْنِ الشَّرِكِ عَلَيْهِ. وَأَصْلُهُ مِنْ «الْحَرْجِ»، و«الحرج» جمع «حَرْجَةٍ»، وهي الشَّجَرَةُ الْمُلْتَفُ بِهَا الْأَشْجَارُ، لَا يَدْخُلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا شَيْءٌ لَشِدَّةِ التَّفَافُهَا بِهَا.

وفي هذه الآية أَبْيَنُ الْبَيَانِ لِمَنْ وُقِفَ لِفَهْمِهَا، عَنْ أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي بِهِ يُوَصَّلُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، غَيْرُ السَّبَبِ الَّذِي بِهِ يُوَصَّلُ إِلَى الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَأَنَّ كِلَا السَّبَبَيْنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاهُ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَشْرَحُ صَدْرَ مَنْ أَرَادَ هِدَايَتَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَيَجْعَلُ صَدْرَ مَنْ أَرَادَ إِضْلَالَهُ ضَيِّقًا عَنْ الْإِسْلَامِ حَرْجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ شَرْحَ الصَّدْرِ لِلْإِيمَانِ خِلَافُ تَضْيِيقِهِ لَهُ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ يُوَصَّلُ بِتَضْيِيقِ الصَّدْرِ عَنِ الْإِيمَانِ إِلَيْهِ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَ تَضْيِيقِهِ عَنْهُ وَبَيْنَ شَرْحِهِ لَهُ فَرْقٌ، وَلَكِنْ مَنْ ضَيَّقَ صَدْرَهُ عَنِ الْإِيمَانِ، قَدْ شُرِّحَ صَدْرُهُ لَهُ، وَمَنْ شَرَحَ صَدْرَهُ لَهُ، فَقَدْ ضَيَّقَ عَنْهُ، إِذْ كَانَ مُوَصَّلًا بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا - أَعْنِي مِنَ التَضْيِيقِ وَالشَّرْحِ - إِلَى مَا يُوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْآخِرِ. وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ كَانَ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي جَهْلٍ لِلْإِيمَانِ بِهِ، وَضَيَّقَ صَدْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْهُ. وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ. وَفِي فُسَادِ ذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ كَذَلِكَ، الدَّلِيلُ الْوَاضِحُ عَلَى أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي بِهِ آمَنَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسَلِهِ، وَأَطَاعَهُ الْمُطِيعُونَ، غَيْرُ السَّبَبِ الَّذِي كَفَرَ بِهِ الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ وَعَصَاهُ

العاصون، وأن كلاً السببين من عند الله وييده، لأنه أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه هو الذي يشرح صدرَ هذا المؤمن به للإيمان إذا أَرَادَ هِدَايَتَهُ، ويضيق صدرَ هذا الكافر عنه إذا أَرَادَ ضَلَالَهُ^(١).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ**

وهذا مثَلٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ، ضربه لقلبِ هذا الكافر في شِدَّةِ تَضْيِيقِهِ إِيَّاهُ عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصُّعود إلى السماء وعجزه عنه، لأنَّ ذلك ليس في وَسْعِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى**

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما يجعلُ اللهُ صدرَ مَنْ أَرَادَ إِضْلَالَهُ ضَيْقًا حَرَجًا، كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ من ضَيْقِهِ عن الإيمان فيجزيه بذلك، كذلك يُسَلِّطُ اللهُ الشَّيْطَانَ عليه وعلى أمثاله مِمَّنْ أَبَى الْإِيمَانَ بالله ورسوله، فيغويه ويصدّه عن سبيلِ الحق.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا**

الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهذا الذي بَيَّنَّا لَكَ، يا محمد، في هذه السورة وغيرها من سورِ القرآن - هو صِرَاطُ رَبِّكَ، يقول: طريق رَبِّكَ، ودينه الذي ارتضاهُ

(١) هذا ردٌ بليغ على المعتزلة، وَمَنْ قال بمقالتهم في هذا.

الأنعام: ١٢٦-١٢٨

لنفسه ديناً، وجعله مستقيماً لا اعوجاج فيه. فاثبت عليه، وحرم ما حرمته عليك، وأحل ما أحلته لك، فقد بينا الآيات والحجج على حقيقة ذلك وصحته. «لقوم يذكرون»، يقول: لمن يتذكر ما احتج الله به عليه من الآيات والعبر فيعتبر بها. وخص بها «الذين يتذكرون»، لأنهم هم أهل التمييز والفهم، وأولو الحجة والفضل.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هَلْمْ دَارَ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «لهم»، للقوم الذين يذكرون آيات الله فيعتبرون بها، ويوقنون بدالاتها على ما دللت عليه من توحيد الله ومن نبوة نبيه محمد ﷺ وغير ذلك، فيصدّقون بما وصلوا بها إلى علمه من ذاك.

وأما «دار السلام»، فهي دار الله التي أعدها لأوليائه في الآخرة، جزاء لهم على ما أبلوا في الدنيا في ذات الله، وهي جنته. و«السلام»، اسم من أسماء الله تعالى.

وأما قوله: «وهو وليهم»، فإنه يقول: والله ناصر هؤلاء القوم الذين يذكرون آيات الله. «بما كانوا يعملون»، يعني: جزاء بما كانوا يعملون من طاعة الله ويتبعون رضوانه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشِرَ الْجَنَّةِ قَدْ أَسْتَكْرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ط

يعني تعالى ذكره بقوله: «ويوم يحشرهم جميعاً»، ويوم يحشر هؤلاء

الأنعام: ١٢٨

العادلين بالله الأوثان والأصنام وغيرهم من المشركين، مع أوليائهم من الشياطين الذين كانوا يُوحون إليهم زُخُوف القول غُروراً ليجادلوا به المؤمنين، فيجمعهم جميعاً في موقف القيامة - يقول للجن: «يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس»، وحذف «يقول للجن» من الكلام، اكتفاءً بدلالة مظهر من الكلام عليه منه.

وعنى بقوله: «قد استكثرتم من الإنس»، استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ

يقول تعالى ذكره: فيجب أولياء الجن من الإنس فيقولون: ربنا استمتع بعضنا ببعض في الدنيا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا

يقول تعالى ذكره: قالوا: بلَّغْنَا الْوَقْتَ الَّذِي وَقَّتْ لِمَوْتِنَا. وإنما يعني جل ثناؤه بذلك: أنهم قالوا: استمتع بعضنا ببعض أيام حياتنا إلى حال موتنا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عما هو قائل لهؤلاء الذين يحشرهم يوم القيامة من العادلين به في الدنيا الأوثان، ولقرنائهم من الجن، فأخرج الخبر

الأنعام: ١٢٨ - ١٣٠

عما هو كائنٌ، مُخْرِجَ الخبر عما كَانَ، لتَقْدُمِ الكلام قَبْلَهُ بمعناه والمراد منه، فقال: قال الله لأُولِيَاءِ الْجَنِّ مِنَ الْإِنْسِ الَّذِينَ قَدْ تَقَدَّمَ خَبْرُهُ عَنْهُمْ: «النَّارُ مَثَوَاكُم»، يعني نار جهنم. «مَثَوَاكُم»، الذي تَثَوُونَ فِيهِ، أَي تُقِيمُونَ فِيهِ.

«خَالِدِينَ فِيهَا»، يقول: لَا بَتَيْنَ فِيهَا. «إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ»، يعني إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ قَدَرٍ مُدَّةٍ مَا بَيْنَ مَبْعَثِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ، إِلَى مَصِيرِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ، فَتِلْكَ الْمُدَّةُ الَّتِي اسْتَنَاهَا اللَّهُ مِنْ خُلُودِهِمْ فِي النَّارِ. «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ»، فِي تَدْبِيرِهِ فِي خَلْقِهِ، وَفِي تَصْرِيفِهِ إِيَّاهُمْ فِي مَشِيئَتِهِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِ. «عَلِيمٌ»، بِعَوَاقِبِ تَدْبِيرِهِ إِيَّاهُمْ، وَمَا إِلَيْهِ صَائِرُ أَمْرِهِمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

معناه: وَكَذَلِكَ نَجْعَلُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ لِبَعْضٍ أُولِيَاءَ. لِأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ مَا كَانَ مِنْ قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وَقَالَ أُولِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ»، وَأَخْبَرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: أَنَّ بَعْضَهُمْ أُولِيَاءُ بَعْضٍ، ثُمَّ عَقَّبَ خَبْرَهُ ذَلِكَ عَنْ أَنَّ وِلَايَةَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِتَوَلِّيَتِهِ إِيَّاهُمْ، فَكَأَنَّا جَعَلْنَا بَعْضَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أُولِيَاءَ بَعْضٍ يَسْتَمْتَعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، كَذَلِكَ نَجْعَلُ بَعْضَهُمْ أُولِيَاءَ بَعْضٍ فِي كُلِّ الْأُمُورِ. «بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»، مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ وَيَعْمَلُونَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَمَعَّشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلْمِيَّاتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَفْقَهُونَ عَلَيْكُمْ عَيْتِي وَيُنْذِرُوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا

وهذا خبر من الله جل ثناؤه عما هو قائل يوم القيامة لهؤلاء العادلين به من مشركي الإنس والجن، يخبر أنه يقول لهم تعالى ذكّره يومئذ: «يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي»، يقول: يُخْبِرُونُكُمْ بما أوحى إليهم من تنبيهي إياكم على مواضع حججي، وتعريفي لكم أدلتي على توحيدِي، وتصديق أنبيائي، والعمل بأمرِي، والانتهاة إلى حدودي. «وينذرونكم لقاء يومكم هذا»، يقول: يُحَذِّرُونُكُمْ لقاء عذابي في يومكم هذا، وعقابي على معصيتكم إِيَّاي، فتنهوا عن معاصي.

وهذا من الله جل ثناؤه تقرير وتوبيخ لهؤلاء الكفرة على ما سلف منهم في الدنيا من الفسوق والمعاصي. ومعناه: قد أتاكم رسل منكم ينبّهونكم على خطأ ما كنتم عليه مقيمين بالحجج البالغة، وينذرونكم وعيد الله على مقامكم على ما كنتم عليه مقيمين، فلم تقبلوا ذلك، ولم تذكروا ولم تعتبروا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ

وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن قول مشركي الجن والإنس عند تقريره إياهم «شهدنا على أنفسنا»، بأن رسلك قد أتتنا بآياتك، وأنذرتنا لقاء يومنا هذا، فكذبناها وجحدنا رسالتها، ولم نتبع آياتك ولم نؤمن بها.

قال الله خبراً مبتدأ: وَغَرَّتْ هَؤُلَاءِ الْعَادِلِينَ بِاللَّهِ الْأَوْثَانُ وَالْأَصْنَامُ، وأولياءهم من الجن. «الحياة الدنيا»، يعني: زينة الحياة الدنيا، وطلب الرياسة فيها والمنافسة عليها، أن يسلّموا لأمر الله فيطيعوا فيها رسله، فاستكبروا وكانوا قوماً عاّلين. فاكتمى بذكر «الحياة الدنيا» من ذكر المعاني التي غرّتهم وحذّتهم فيها، إذ كان في ذكرها. مكتمى عن ذكر غيرها، للدلالة الكلام على ما ترك

ذكره - يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: «وشهدوا على أنفسهم»، يعني: هؤلاء العادلين به يوم القيامة - أنهم كانوا في الدنيا كافرين به وبرزلوه، لِيَتِمَّ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِإِقْرَارِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَا يَوْجِبُ عَلَيْهِمْ عِقَابُهُ وَأَلِيمَ عَذَابُهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم»، أي: إنما أرسلنا الرسل، يامحمد، إلى مَنْ وصفت أمره، وأعلمت خبره من مشركي الإنس والجن، يَقْضُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِي وينذرونهم لقاءَ مَعَادِهِمْ إِلَيَّ، من أجلِ أَنْ رَبُّكَ لَمْ يَكُنْ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ.

وقد يتجه من التأويل في قوله: «بظلم»، وجهان:

أحدهما: «ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم»، أي: بِشْرِكٍ مَنْ أَشْرَكَ، وَكُفْرٍ مَنْ كَفَرَ مِنْ أَهْلِهَا، كما قال لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، [لقمان: ١٣]. «وأهلها غافلون»، يقول: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسلاً تُبَيِّهُهُمْ عَلَى حُجَجِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَتُنْذِرَهُمْ عَذَابَ اللَّهِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ بِالَّذِي يَأْخُذُهُمْ غَفْلَةً فيقولوا: «ما جاءنا من بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ».

والآخر: «ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم»، يقول: لم يكن ليهلكهم دونَ التنبية والتذكير بالرُّسل والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظَلَامٍ لِعَبِيدِهِ^(١).

وأولى القولين بالصوابِ عندي، القول الأول: أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: أَنْ لَمْ

(١) هذه مقالة الفراء في معاني القرآن: ٣٥٥/١.

يكن ليهلكهم بشركهم، دون إرسال الرسل إليهم، والإعذار بينه وبينهم. وذلك أن قوله: «ذلك أن لم يكن ربك مُهلك القرى بظلم»، عقيب قوله: «ألم يأتكم رُسُل منكم يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي»، فكان في ذلك الدليل الواضح على أن نص قوله: «ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم»، إنما هو: إنما فعلنا ذلك من أجل أن لا نهلك القرى بغير تذكير وتنبية.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا

رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

يقول تعالى ذكره: ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته، منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها، ويشبه بها، إن خيراً فخييراً، وإن شراً فشرّاً. «وما ربك بغافل عما يعملون»، يقول جل ثناؤه: وكل ذلك من عملهم، يا محمد، بعلم من ربك، يُحْصِيهَا وَيُثَبِّتُهَا لَهُمْ عِنْدَهُ، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومَعَادِهِمْ إليه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ شَاءَ

يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ

ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾

يقول جل ثناؤه: «وربك»، يا محمد، الذي أمر عباده بما أمرهم به، ونهاهم عما نهاهم عنه، وأثابهم على الطاعة، وعاقبهم على المعصية. «الغني»، عن عباده الذين أمرهم بما أمر، ونهاهم عما نهى، وعن أعمالهم وعبادتهم إياه، وهم المحتاجون إليه، لأنه بيده حياتهم ومماتهم، وأرزاقهم

الأنعام: ١٣٣-١٣٤

وأقواتهم ونفعهم وضرهم. يقول عزَّ ذِكْرُه: فلم أخلقهم، يا محمد، ولم أمرهم بما أمرتهم به، وأنهم عما نهيتمهم عنه، لحاجة لي إليهم، ولا إلى أعمالهم، ولكن لأنفضل عليهم برحمتي، وأتيهم على إحسانهم إن أحسنوا، فأني ذو الرأفة والرحمة.

وأما قوله: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ»، فإنه يقول: إِنْ يَشَأْ رَبُّكَ، يا محمد، الذي خلق خَلْقَهُ لغير حاجةٍ منه إليهم وإلى طاعتهم إياه. «يُذْهِبُكُمْ»، يقول: يهلك خَلْقَهُ هؤلاء الذين خلقهم من ولدِ آدم. «ويستخلف من بعدكم ما يشاء»، يقول: ويأتِ بخلقٍ غيركم وأممٍ سواكم، يخلفونكم في الأرض. «من بعدكم»، يعني: من بعد فنايكم وهلاككم. «كما أنشأكم من ذرية قومٍ آخرين»، كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلقي آخرين كانوا قبلكم.

ومعنى «مِنْ» في هذا الموضع التعقيب، كما يقال في الكلام: «أعطيتك من دينارك ثوباً»، بمعنى: مكانَ الدينار ثوباً، لا أَنَّ الثوبَ من الدينارِ بعضٌ. كذلك الذين خوطبوا بقوله: «كما أنشأكم»، لم يُردَّ بإخبارهم هذا الخبر أنهم أنشؤا من أصلاب قومٍ آخرين، ولكن معنى ذلك ما ذكرنا من أنهم أنشؤا مكانَ خلقي خلف قومٍ آخرين قد هلكوا قبْلهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ

بِمُعْجزِينَ

يقول تعالى ذِكْرُه للمشركين به: أيها العادلون بالله الأوثان والأصنام، إِنْ الذي يُوعَدُكم به رَبُّكم من عقابه على إصراركم على كُفْرِكُمْ، واقعٌ بكم. «وما أنتم بمُعْجزين»، يقول: لن تعجزوا ربُّكم هَرَباً منه في الأرض فتفتوتوه، لأنكم

الأنعام: ١٣٤-١٣٥

حيث كنتم في قبضته، وهو عليكم وعلى عقوبتكم بمعصيتكم إيأه قادر. يقول: فاحذروه وأنبيوا إلى طاعته، قبل نزول البلاء بكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ يَقَوْمِ اَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ اِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

يقول تعالى ذكره لنبية محمد ﷺ: «قل»، يا محمد، لقومك من قريش الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر: «اعملوا على مكانتكم»، يقول: اعملوا على حيالكم وناحيتكم.

«إني عامل»، يقول جل ثناؤه، لنبية: قل لهم اعملوا ما أنتم عاملون، فإني عامل ما أنا عامله مما أمرني به ربي. «فسوف تعلمون»، يقول: فسوف تعلمون عند نزول نعمة الله بكم، أيأنا كان المحق في عمله، والمصيب سبيل الرشد، أنا أم أنتم.

وقوله تعالى ذكره لنبية: قُلْ لقومك، «يا قوم اعملوا على مكانتكم»، أمر منه له بوعيدهم وتهذؤهم، لا إطلاق لهم في عمل ما أرادوا من معاصي الله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

يعني بقوله جل ثناؤه: «من تكون له عاقبة الدار»، فسوف تعلمون، أيأها الكفرة بالله، عند معايتتكم العذاب، من الذي تكون له عاقبة الدار منا ومنكم. يقول: من الذي تُعقبه دنياه ما هو خير له منها أو شر منها بما قدّم فيها من صالح أعماله أو سيئها.

ثم ابتدأ الخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ فقال: «إِنَّه لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ»، يقول: إِنَّه لَا يَنْجُحُ وَلَا يَفُوزُ بِحَاجَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ عَمِلَ بِخِلَافِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعَمَلِ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ مَعْنَى: «ظَلَمَ الظَّالِمُ»، فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَكَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعل هؤلاء العادلون بربهم الأوثان والأصنام لربهم «مما ذَرَأَ» خالقهم، يعني: مما خَلَقَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ. «نصيباً»، يعني: قسماً وجزءاً.

وأما قوله: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ»، فإنه خبرٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَنْ فِعْلِهِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ. يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَقَدْ أَسَاءُوا فِي حُكْمِهِمْ، إِذْ أَخَذُوا مِنْ نَصِيبِي لِشُرَكَائِهِمْ، وَلَمْ يُعْطُونِي مِنْ نَصِيبِ شُرَكَائِهِمْ. وَإِنَّمَا عَنَى بِذَلِكَ تَعَالَى ذِكْرُهُ الْخَبَرَ عَنْ جَهْلِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ، وَذَهَابِهِمْ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ، بِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْضُوا أَنْ عَدَلُوا بِمَنْ خَلَقَهُمْ وَغَذَاهُمْ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالنِّعَمِ الَّتِي لَا تُحْصَى، مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، حَتَّى فَضَّلُوهُ فِي أَقْسَامِهِمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ بِالْقَسَمِ عَلَيْهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَكْسِبُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكما زَيْنَ شركاء هؤلاءِ العادلينَ بربهم الأوثانَ والأصنامَ لهم ما زَيْنُوا لهم، من تصييرهم لربهم من أموالهم قَسَمًا بزعمهم، وتركهم ما وَصَلَ من القَسَم الذي جعلوه لله إلى قسم شركائهم في قسمهم، وردهم ما وَصَلَ من القَسَم الذي جعلوه لشركائهم إلى قسم نصيبِ الله، إلى قسم شركائهم. «كذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم»، من الشياطين، فَحَسَّنُوا لهم وأَدَّ البناتِ. «لِيُرْدُوهُمْ»، يقول ليهلكوهم. «وليلبسُوا عليهم دينهم»، فعلوا ذلك بهم، ليخلطوا عليهم دينهم فيلبس، فَيُضِلُّوا ويهلكوا، بفعلهم ما حَرَّمَ الله عليهم، ولو شاء الله أن لا يفعلوا ما كانوا يفعلون من قتلهم لم يفعلوه، بأن كان يهديهم للحق، ويفوقهم للسداد، فكانوا لا يقتلونهم، ولكن الله خذلهم عن الرشاد فقتلوا أولادهم، وأطاعوا الشياطين التي أغوتهم.

يقول الله لنبيه، مُتَوَعِّدًا لهم على عظيمِ فِرْيَتِهِم على ربهم فيما كانوا يقولون في الأنصباء التي يقسمونها: «هذا لله وهذا لشركائنا»، وفي قتلهم أولادهم. «ذَرُّهُمْ»، يا محمد، «وما يفترون»، وما يَقُولُونَ عليَّ من الكذب والزور، فإني لهم بالمرصاد، ومن وراء العذاب والعقاب.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَأَحْسَنُ مِمَّا كُنَّا نَعْبُدُ أَفَلَا يَظُنُّهُمْ إِلَّا مَن تَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن هؤلاءِ الجَهْلَةِ من المشركين أنهم كانوا يُحَرِّمُونَ ويحلِّلونَ من قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ، من غير أن يكون الله أَذِنَ لهم بشيءٍ من ذلك.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَقَالَ هَؤُلَاءِ الْعَادِلُونَ بِرَبِّهِمْ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، جهلاً

منهم، لأنعام لهم وحرث: هذه أنعام وهذا حرث جحر يعني: بـ«الأنعام» و«الحرث» ما كانوا جعلوه لله ولآلهتهم، التي قد مضى ذكرها في الآية قبل هذه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنْعَمَ حَرَّمَ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ
 أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

يقول تعالى ذكروه: وحرّم هؤلاء الجّهلة من المشركين ظهورَ بعض أنعامهم، فلا يركبون ظهورها، وهم ينتفعون برسلها ونتاجها وسائر الأشياء منها غير ظهورها للركوب، وحرّموا من أنعامهم أنعاماً آخر، فلا يحجّون عليها، ولا يذكرون اسم الله عليها إنّ ركبوها بحال، ولا إنّ حلبوها، ولا إنّ حملوا عليها.

وأما قوله: «افتراء على الله»، فإنه يقول: فعل هؤلاء المشركون ما فعلوا من تحريمهم ما حرّموا، وقالوا ما قالوا من ذلك، كذباً على الله، وتخصّصاً الباطل عليه، لأنهم أضافوا ما كانوا يُحرّمون من ذلك، على ما وصفه عنهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ في كتابه، إلى أنّ الله هو الذي حرّمه، فنفى الله ذلك عن نفسه، وأكذبهم، وأخبر نبيه والمؤمنين أنهم كذّبة فيما يدّعون.

ثم قال عزّ ذكروه: «سيجزيهم»، يقول: سيُثبِّتهم ربهم بما كانوا يفترون على الله الكذب ثوابهم، ويجزيهم بذلك جزاءهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ

اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: «ما في بطون هذه الأنعام».

فقال بعضهم: عني بذلك اللبن.

وقال آخرون: بل عني بذلك ما في بطون البحائر والسواكب من الأجنة.

وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء الكفرة أنهم قالوا في أنعام بأعيانها: «ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا دون إناثنا»، واللبن مما في بطونها، وكذلك أجتتها. ولم يخص الله بالخبر عنهم أنهم قالوا: بعض ذلك حرام عليهن دون بعض.

وإذ كان ذلك كذلك، فالواجب أن يقال إنهم قالوا: ما في بطون تلك الأنعام من لبن وجنين حل لذكورهم - خالصة، دون إناثهم، وإنهم كانوا يؤثرون بذلك رجالهم، إلا أن يكون الذي في بطونها من الأجنة ميتاً، فيشترك حيث في أكله الرجال والنساء.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن هؤلاء المشركين أنهم كانوا يقولون لما في بطون هذه الأنعام - يعني أنعامهم -: «هذا محرم على أزواجنا»، و«الأزواج»، إنما هي نساؤهم في كلامهم، وهن لاشك بنات من هن أولاده، وحلائل من هن أزواجه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ

عَلِيمٌ

يقول جل ثناؤه: «سيجزي»، أي: سيثيب ويكافئ هؤلاء المفترين عليه الكذب في تحريمهم ما لم يحرمه الله، وتحليلهم ما لم يحلله الله، وإضافتهم كذبهم في ذلك إلى الله، وقوله: «وصفهم»، يعني بـ«وصفهم»، الكذب على

الله، وذلك كما قال جل ثناؤه في موضع آخر من كتابه: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ٦٢].

وأما قوله: «إنه حكيم عليهم»، فإنه يقول جل ثناؤه: إن الله في مجازاتهم على وصفهم الكذب وقيلهم الباطل عليه. «حكيم»، في سائر تدبيره في خلقه. «عليهم»، بما يصلحهم، وبغير ذلك من أمورهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٣٩﴾

يقول تعالى ذكره: قد هلك هؤلاء المفترون على ربهم الكذب، العادلون به الأوثان والأصنام، الذين زين لهم شركاؤهم قتل أولادهم، وتحريم ما أنعمت به عليهم من أموالهم، فقتلوا طاعة لها أولادهم، وحرموا ما أحل الله لهم وجعله لهم رزقاً من أنعامهم. «سَفَهًا»، منهم. يقول: فعلوا ما فعلوا من ذلك جهالةً منهم بما لهم وعليهم، ونقص عقول وضعف أحلام منهم، وقلة فهم بعاجل ضره وأجل مكروهه، من عظيم عقاب الله عليه لهم. «افتراء على الله»، يقول: تكذباً على الله وتخربصاً عليه الباطل. «قد ضلوا»، يقول: قد تركوا محجة الحق في فعلهم ذلك، وزالوا عن سواء السبيل. «وما كانوا مهتدين»، يقول: ولم يكن فاعلو ذلك على هدى واستقامة في أفعالهم التي كانوا يفعلون قبل ذلك، ولا كانوا مهتدين للصواب فيها، ولا موفقين له.

ونزلت هذه الآية في الذين ذكر الله خبرهم في هذه الآيات من قوله: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً»، الذين كانوا يُبحرون البحائر، ويُسيبون السوائب، ويثأون البنات.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَّعْرُوشَاتٍ

وهذا إعلالٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ ما أنعمَ به عليهم من فضله، وتنبيةٌ منه لهم على موضعِ إحسانِهِ، وتعريفٌ منه لهم ما أحلَّ وحرَّم وقسمَ في أموالهم من الحقوقِ لمن قسمَ له فيها حقًا.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وربكم، أيها الناس. «أنشأ»، أي أحدثَ وابتدعَ خلقاً، لا الآلهة والأصنام. «جَنَّاتٍ»، يعني بساتين. «معروشات»، وهي ما عَرَّشَ الناسُ من الكروم. «وغير معروشات»، غير مرفوعاتٍ مبنيات، لا ينبتة الناسُ ولا يرفعونه، ولكنَّ الله يرفعه وينبتة وينميهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ

يقول جلَّ ثناؤه: وأنشأ النخلَ والزَّرعَ مختلفاً أَكْلُهُ - يعني بـ«الأكل»، الثمر. يقول: وخلقَ النخلَ والزَّرعَ، مختلفاً ما يخرجُ منه مما يؤكَلُ من الثمرِ والحبِّ. «والزيتونَ والرمانَ متشابهاً وغير متشابه»، في الطَّعمِ، منه الحلوُّ، والحامضُ، والمُرُّ^(١).

وأما قوله: «كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ»، فإنه يقول: كُلُوا مِنْ رطبِهِ ما كَانَ رطباً ثمرةً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ

(١) المز - بضم الميم وبالزاي - ما كان طعمه بين الحلو والحامض.

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: هذا أمرٌ من الله بإيتاء الصدقة المفروضة من الثمر والحب.

وقال آخرون: بل ذلك حقٌّ أوجبه الله في أموال أهل الأموال، غير الصدقة المفروضة.

وقال آخرون: كان هذا شيئاً أمر الله به المؤمنين قبل أن تُفرض عليهم الصدقة المؤقتة. ثم نسختها الصدقة المعلومة، فلا فرض في مال كائناً ما كان، زرعاً كان أو غرساً، إلا الصدقة التي فرضها الله فيه.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: كان ذلك فرضاً فرضه الله على المؤمنين في طعامهم وثمارهم التي تخرجها زروعهم وغروسهم، ثم نسختها الله بالصدقة المفروضة، والوظيفة المعلومة من العشر ونصف العشر. وذلك أن الجميع مُجمِعُونَ لا خلاف بينهم: أن صدقة الحرث لا تؤخذ إلا بعد الدَّيَّاسِ والتَّنْقِيَةِ والتذرية، وأن صدقة التمر لا تؤخذ إلا بعد الإجزاء.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان قوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وآتوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ»، يُنبِئُ عن أنه أمر من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ بإيتاء حقه يوم حصاده، وكان يوم حصاده هو يوم جَدِّه وقطعه، والحب لاشك أنه في ذلك اليوم في سَبِيلِهِ، والتمر وإن كان ثمر نخل أو كرم غير مستحكم جُفُوفُهُ ويُسُّه، وكانت الصدقة من الحب إنما تؤخذ بعد دياسه وتذريته وتنقيته كيلاً، والتمر إنما تؤخذ صدقته بعد استحكام يسسه وجُفُوفه كيلاً - عَلِمَ أَنَّ ما يؤخذ صدقة بعد حين حَصَدِهِ، غير الذي يجب إيتاؤه المساكين يوم حَصَادِهِ.

فإن قال قائل: وما تنكر أن يكون ذلك إيجاباً من الله في المال حقاً سوى الصدقة المفروضة؟

قيل: لأنه لا يخلو أن يكون ذلك فرضاً واجباً، أو نفلاً.

فإن يَكُنْ فَرَضاً واجباً، فقد وجب أن يكون سبيله سبيل الصدقات المفروضات التي مَنْ فَرَطَ في أدائها إلى أهلها كان بره أتماً، ولأمره مُحَالِفاً. وفي قيام الحجة بأن لا فرضَ لله في المالِ بعد الزكاةِ يجبُ وجوبُ الزكاةِ سوى ما يجبُ من النفقة لمن يلزم المرأة نفقته، ما يُثْبِتُهُ عن أن ذلك ليس كذلك.

أو يكون ذلك نفلاً. فإن يكن ذلك كذلك، فقد وجب أن يكون الخيارُ في إعطاء ذلك إلى رَبِّ الحَرْثِ والشمْرِ. وفي إيجابِ القائلين بوجوب ذلك، ما يَنْبِئُ عن أن ذلك ليس كذلك.

وإذا خرجت الآية من أن يكون مُراداً بها التذُّبُ، وكان غير جائز أن يكون لها مخرجٌ في وجوب الفَرَضِ بها في هذا الوقت، عَلِمَ أنها منسوخة.

ومما يؤيد ما قلنا في ذلك من القولِ دليلاً على صحته، أنه جَلُّ ثناؤه أتبع قوله: «وَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ»، «وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ»، ومعلوم أن من حُكِمَ اللهُ في عبادته مُذْ فَرَضَ في أموالهم الصدقة المفروضة الموقته القَدْرَ، أن القائم بأخذ ذلك ساستهم ورعاتهم. وإذا كان ذلك كذلك، فما وجه نهْيِ رَبِّ المالِ عن الإسرافِ في إيتاء ذلك، والأخذ مُجْبِرٌ، وإنما يأخذُ الحَقُّ الذي فَرَضَ اللهُ فيه؟

فإن ظَنُّ ظان أن ذلك إنما هو نهْيٌ من الله القِيمَ بأخذ ذلك من الرعاة عن التعدي في مالِ رَبِّ المالِ، والتجاوز إلى أخذ ما لم يُبَحَّ له أخذه، فإن آخر الآية وهو قوله: «وَلَا تُسْرِفُوا»، معطوف على أوله، وهو قوله: «وَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ». فإن كان المنهْيُ عن الإسرافِ القِيمُ بقبض ذلك، فقد يجب أن يكون المأمور بليتائه، المنهْيُ عن الإسرافِ فيه، وهو السلطان.

وذلك قولُ إِنْ قَالَه قَائِلٌ، كَانَ خَارِجاً مِنْ قَوْلِ جَمِيعِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ، وَمُخَالَفاً الْمَعْهُودَ مِنَ الْخَطَابِ، وَكَفَى بِذَلِكَ شَاهِداً عَلَى خَطِّهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَمَا تُنَكِّرُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ»، وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ كَيْلِهِ، لَا يَوْمَ فَضْلِهِ^(١) وَقَطْعِهِ، وَلَا يَوْمَ جَدَادِهِ وَقِطَافِهِ؟

قِيلَ: لِأَنَّ يَوْمَ كَيْلِهِ غَيْرُ يَوْمِ حَصَادِهِ. وَلَنْ يَخْلُوَ مَعْنَى قَائِلِي هَذَا الْقَوْلِ مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَكُونُوا وَجَّهُوا مَعْنَى «الْحَصَادِ»، إِلَى مَعْنَى «الْكَيْلِ»، فَذَلِكَ مَا لَا يُعْقَلُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، لِأَنَّ «الْحَصَادَ» وَ«الْحَصْدَ» فِي كَلَامِهِمْ: الْجَدُّ وَالْقَطْعُ، لَا الْكَيْلُ - أَوْ يَكُونُوا تَأْوِيلَ قَوْلِهِ: «وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ». إِلَى: وَأَتُوا حَقَّهُ بَعْدَ يَوْمِ حَصَادِهِ إِذَا كَلْتُمُوهُ، فَذَلِكَ خِلَافُ ظَاهِرِ التَّنْزِيلِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْأَمْرَ فِي ظَاهِرِ التَّنْزِيلِ بِإِيتَاءِ الْحَقِّ مِنْهُ يَوْمَ حَصَادِهِ، لَا بَعْدَ يَوْمِ حَصَادِهِ. وَلَا فَرْقَ بَيْنَ قَائِلٍ: إِنَّمَا عَنَى اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «وَأَتُوا يَوْمَ حَصَادِهِ»، بَعْدَ يَوْمِ حَصَادِهِ - وَآخَرَ قَالَ: عَنَى بِذَلِكَ قِيلَ يَوْمِ حَصَادِهِ، لِأَنَّهُمَا جَمِيعاً قَائِلَانِ قَوْلًا، دَلِيلُ ظَاهِرِ التَّنْزِيلِ بِخِلَافِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

اختلف أهل التأويل في «الإسراف»، الذي نهى الله عنه بهذه الآية، ومن المنهيين عنه.

فقال بعضهم: المنهيين عنه: ربُّ النخل والزرع والثمر - و«السرف» الذي

(١) فصل النبات: قَطْعُهُ وهو أخضر، وفي عامية العراق اليوم: القصيل أو «الكصيل» هو قطعُ الشَّعِيرِ وهو أخضر قبل ظهور سنابلهِ تُعْلَفُ به الحيوانات في أول الربيع.

نهى الله عنه في هذه الآية، مجاوزة القدر في العطيّة إلى ما يجحف برّب المال.

وقال آخرون: «الإسراف» الذي نهى الله عنه في هذا الموضع، منع الصدقة والحق الذي أمر الله ربّ المال بإيتائه أهله بقوله: «وآتوا حقه يوم حصاده».

وقال آخرون: إنما خوطب بهذا السلطان. نُهي أن يأخذ من ربّ المال فوق الذي ألزم الله ماله.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى بقوله: «ولا تسرفوا»، عن جميع معاني «الإسراف»، ولم يخص منها معنى دون معنى.

وإذ كان ذلك كذلك، وكان «الإسراف» في كلام العرب: الإخطاء بإصابة الحق في العطيّة، إما بتجاوز حدّه في الزيادة، وإما بتقصير عن حدّه الواجب، كان معلوماً أن المفرق ماله مبارأة، والباذله للناس حتى أجحفت به عطيّته، مسرف بتجاوزه حدّ الله إلى ما ليس له. وكذلك المقصر في بذله فيما ألزمه الله بذله فيه، وذلك كمنعه ما ألزمه إيتاءه منه أهل سُهْمَانِ الصدقة إذا وجبت فيه، أو منعه من ألزمه الله نفقته من أهله وعياله وما ألزمه منها. وكذلك السلطان في أخذه من رعيته ما لم يأذن الله بأخذه. كل هؤلاء فيما فعلوا من ذلك مسرفون، داخلون في معنى من أتى ما نهى الله عنه من الإسراف بقوله: «ولا تُسرفوا»، في عطيّتكم من أموالكم ما يجحف بكم - إذ كان ما قبله من الكلام أمراً من الله بإيتاء الواجب فيه أهله يوم حصاده. فإن الآية قد كانت تنزل على رسول الله ﷺ بسبب خاص من الأمور، والحكم بها على العام، بل عامة أي القرآن كذلك. فكذلك قوله: «ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين».

الأنعام: ١٤٢

ومن الدليل على صِحَّة ما قلنا من معنى: «الإسراف» أنه على ما قلنا، قول الشاعر:

أَعْطَوْا هُبَيْدَةَ يَحْدُوهَا ثَمَانِيَّةٌ مَا فِي عَطَائِهِمْ مِنْ وَلَا سَرَفُ
يعني بـ «السرف»: الخطأ في العطية.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأنشأ من الأنعامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ، مع ما أنشأ من الجناتِ المعروشاتِ وغيرِ المعروشاتِ.

و«الحمولة»، ما حُمِلَ عليه من الإبلِ وغيرها.

و«الفرش»، صِغَارُ الإبلِ التي لم تدرك أن يُحْمَلَ عليها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾

يقول جلُّ ثناؤه: كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، أيها المؤمنون، فأحلَّ لكم ثمراتِ حُرُوبِكُمْ وَغُرُوسِكُمْ، ولحومِ أنعامِكُمْ، إِذْ حَرَّمَ بَعْضَ ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ، فجعلوا لله مما ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً لِلشَّيْطَانِ مثله، فقالوا «هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا». «ولا تتبعوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ»، كما اتبعها باجِرُو البحيرة، ومُتَّبِعُو السَّوَائِبِ، فنجسوا على أنفسهم من طيبِ رِزْقِ اللَّهِ الَّذِي رَزَقَكُمْ ما حرموه، فَتَطِيعُوا بِذَلِكَ الشَّيْطَانَ، وَتَعْصُوا بِهِ الرَّحْمَنَ.

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ يُبْغِي هَلَاكَكُمْ وَصَدَّكُمْ عَنْ سَبِيلِ رَبِّكُمْ. «مبين».

قد أَبَانَ لَكُمْ عَدَاوَتَهُ، بِمَنَاصِبَتِهِ أَبَاكُمْ بِالْعَدَاوَةِ، حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ بِكَيْدِهِ، وَخَدَعَهُ حَسْداً مِنْهُ لَهُ، وَبَغِيّاً عَلَيْهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ نَبَّيْنَا أَزْوَاجَهُ مِنَ الضَّالِّينَ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيَيْنِ أَمْأَ اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾

وهذا تفريع من الله جلُّ ثناءه العادلين به الأوثان من عبادة الأصنام، الذين بحروا البحائر، وسببوا السوائب، ووصلوا الوصائل - وتعليم منه نبيه ﷺ والمؤمنين به، الحجة عليهم في تحريمهم ما حرموا من ذلك. فقال للمؤمنين به وبرسوله: وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، ومن الأنعام أنشأ حمولة وفرشاً. ثم بين جلُّ ثناءه «الحمولة» و«الفرش»، فقال: «ثمانية أزواج».

«من الضأن اثنين ومن المعز اثنين»، فذلك أربعة، لأنَّ كُلَّ واحدٍ من الاثنين من الضأن زوج، فالأنثى منه زوج الذكر، والذكر منه زوج الأنثى، وكذلك ذلك من المعز ومن سائر الحيوان. فذلك قال جلُّ ثناءه: «ثمانية أزواج»، كما قال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، [الذاريات: ٤٩]، لأنَّ الذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر، فهما وإن كانا اثنين فهما زوجان، كما قال جلُّ ثناءه: ﴿وَجَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، [الأعراف: ١٨٩]، وكما قال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، [الأحزاب: ٣٧].

ثم قال لهم: كُلُوا مما رَزَقَكُمُ اللهُ من هذه الثمار واللحوم، واركبوا هذه الحمولة، أيها المؤمنون، فلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ في تحريم ما حَرَّمَ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ بِغَيْرِ أَمْرٍ إِيَّاهُمْ بِذَلِكَ.

قل، يا محمدُ، لهؤلاء الذين حَرَّمُوا ما حرموا من الحرثِ والأُنعامِ اتباعاً للشيطانِ، من عَبَدَةِ الأوثانِ والأَصنامِ الذين زعموا أنَّ اللهَ حَرَّمَ عليهم ما هم مُحَرَّمُونَ من ذلك -: الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ رَبُّكُمْ، أيها الكَذِبَةُ على الله، من الضَّانِ والمعزِ؟ فإنهم إنَّ ادَّعُوا ذلك وأَقْرُوا به، كذبوا أنفسهم وأَبانوا جَهْلَهُمْ. لأنهم إذا قالوا: «يَحْرُمُ الذَّكَرَيْنِ من ذلك»، أوجبوا تحريمَ كُلِّ ذَكَرَيْنِ من وَلَدِ الضَّانِ والمعزِ، وهم يَسْتَمْتَعُونَ بلحومِ الذُّكْرانِ منها وظهورها. وفي ذلك فسادُ دعواهم وتكذيب قولهم. «أم الأَنْثَيْنِ»، فإنهم إنَّ قالوا: «حَرَّمَ ربنا الأَنْثَيْنِ»، أوجبوا تحريمَ لحومِ كُلِّ أَنْثَى من وَلَدِ الضَّانِ والمعزِ على أنفسهم وظهورها. وفي ذلك أيضاً تكذيبُ لهم، ودَخَضُ دعواهم أنَّ رَبَّهُمْ حَرَّمَ ذلك عليهم، إذ كانوا يَسْتَمْتَعُونَ بلحومِ بعضِ ذلك وظهوره. «أم ما اشتملتُ عليه أرحامُ الأَنْثَيْنِ»، يقول: أم حرم ما اشتملتُ عليه أرحامُ الأَنْثَيْنِ، يعني أرحامِ أَنْثَى الضَّانِ وَأَنْثَى المعزِ، فلذلك قال: «أرحامُ الأَنْثَيْنِ»، وفي ذلك أيضاً لو أَقْرُوا به فقالوا: «حرم علينا ما اشتملتُ عليه أرحامُ الأَنْثَيْنِ»، بطُولِ قولهم وبيانُ كَذِبِهِمْ، لأنهم كانوا يُقَرُّونَ بإقرارهم بذلك أنَّ اللهَ حَرَّمَ عليهم ذَكَورَ الضَّانِ وإناثها، أنَّ يَأْكُلُوا لحومها أو يركبوا ظهورها، وقد كانوا يَسْتَمْتَعُونَ ببعضِ ذَكَورِها وإناثها.

«تَبَيَّنُونِي بعلم»، يقول: قُلْ لهم: خَبِّرُونِي بعلمِ ذلك على صحته: أي ذلك حَرَّمَ رَبُّكُمْ عليكم، وكيف حَرَّمَ؟ «إنَّ كُتُمَ صادقين»، فيما تَحْلُونَهُ رَبُّكُمْ من دَعَوَاكم، وتُضَيِّقُونَهُ إليه من تحريمكم.

ولإنما هذا إعلَامٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ نَبِيَّهُ أنَّ كُلَّ ما قاله هؤلاء المشركون في ذلك وأُضافوه إلى الله، فهو كَذِبٌ على الله، وأنه لم يُحَرِّمْ شيئاً من ذلك، وأنهم إنما اتَّبَعُوا في ذلك خُطواتِ الشيطانِ، وخالفوا أمره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ

قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْرَ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتُمْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ
أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى
اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

وتأويل قوله: «ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَم
الأنثيين أما استملت عليه أرحام الأنثيين»، نحو تأويل قوله: «من الضأن اثنين
ومن المعز اثنين»، وهذه أربعة أزواج، على نحو ما بيّنا من الأزواج الأربعة
قَبْلُ من الضأن والمعز، فذلك ثمانية أزواج، كما وصف جَلُّ ثناؤه.

وأما قوله: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ»، فإنه أمرٌ من الله جَلُّ ثناؤه نبيه ﷺ أَنْ
يقول لهؤلاء الجَهْلَةِ من المشركين الذين قَصَّ قَصَصَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي
مَضَتْ. يقول له عَزَّ ذِكْرُهُ: قُلْ لَهُمْ، يَا مُحَمَّدُ: أَيُّ هَذِهِ سَأَلْتَكُمْ عَنْ تَحْرِيمِ
حَرَّمَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَزْوَاجِ الثَّمَانِيَةِ؟ فَإِنْ أَجَابُوكَ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا سَأَلْتَهُمْ
عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ، فَقُلْ لَهُمْ: أَخْبَرْتُكُمْ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا عَلَيْكُمْ»، أَخْبَرَكُمْ بِهِ
رَسُولٌ عَنْ رَبِّكُمْ، أَمْ شَهِدْتُمْ رَبِّكُمْ فَرَأَيْتُمُوهُ فَوَصَّاكُمْ بِهَذَا الَّذِي تَقُولُونَ
وَتَزُورُونَ عَلَى اللَّهِ؟ فَإِنَّ هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ عَنْ اللَّهِ أَنَّهُ حَرَامٌ بِمَا
تَزْعُمُونَ عَلَى مَا تَزْعُمُونَ، لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنْ عِنْدِهِ مَعَ رَسُولٍ يُرْسِلُهُ
إِلَى خَلْقِهِ، أَوْ بِسْمَاعٍ مِنْهُ، فَبِأَيِّ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ عِلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ ذَلِكَ
كَذَلِكَ، بِرَسُولٍ أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ، فَانْبِئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟ أَمْ شَهِدْتُمْ رَبِّكُمْ
فَأَوْصَاكُمْ بِذَلِكَ، وَقَالَ لَكُمْ: «حَرَّمْتُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ»، فَسَمِعْتُمْ تَحْرِيمَهُ مِنْهُ،
وَعَهْدَهُ إِلَيْكُمْ بِذَلِكَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَاحِدٌ مِنْ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ. يقول جَلُّ ثناؤه:
«فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا»، يقول: فَمَنْ أَشَدُّ ظُلْمًا لِنَفْسِهِ، وَأَبْعَدُ

عن الحق ممن تخرّص على الله قِيلَ الكَذِبِ، وأضاف إليه تحريم ما لم يُحرّم، وتحليل ما لم يُحلّل. «ليضل الناسَ بغير علم»، يقول: ليصدّهم عن سبيله. «إن الله لا يهدي القوم الظالمين»، يقول: لا يوفق الله للرشد من افتري على الله وقال عليه الزور والكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يُحرّم، كقراً بالله، وجُحوداً لنبوة نبيه محمد ﷺ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ

يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ لنبيه محمد ﷺ: قُلْ، يا محمد، لهؤلاء الذين جعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، ولشركائهم من الآلهة والأنداد مثله - والقائلين: هذه أنعامٌ وحرثٌ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزْعِمُهُمْ - والمحرمين من أنعامٍ أُخِرَ ظُهورُهَا - والتاركين ذِكْرَ اسمِ اللَّهِ على أُخِرِ منها - والمحرمين بعض ما في بطون بعض أنعامهم على إناثهم وأزواجهم، ومُجْلِيهِ لذكورهم، المحرمين ما رزقهم الله افتراءً على الله، وإضافةً منهم ما يُحرّمون من ذلك إلى أن الله هو الذي حرّمه عليهم -: أجاؤكم من الله رسولٌ بتحريمه ذلك عليكم، فأنبئونا به، أم وصّاكم الله بتحريمه مشاهدةً منكم له، فسمعتم منه تحريمه ذلك عليكم فحرمتموه؟ فإنكم كذّبتُمْ إن ادّعيْتُمْ ذلك، ولا يمكنكم دعواه، لأنكم إذا ادّعيْتُموه علِمَ الناسُ كذِبَكُمْ - فإني لا أجِدُ فيما أُوحي إليّ من كتابي وآي تنزيله، شيئاً مُحَرَّمًا على آكلٍ يأكله مما تذكّرون أَنَّهُ حَرَمُهُ مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ الَّتِي تَصِفُونَ نَحْرِيْمَ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ مِنْهَا بِزْعِمِكُمْ. «إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً»، قد ماتت بغير تذكية. «أو دماً مسفوحاً»، وهو المُنْصَبُ - أو إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَحْمَ خَنْزِيرٍ. «فإنه رِجْسٌ أو فِسْقًا»، يقول: أو إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِسْقًا يَعْنِي، بذلك: أو إِلَّا أَنْ يَكُونَ

مذبوحاً ذَبَحَهُ ذَابِحٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ لِصَنَمِهِ وَالْهَيْتِ، فَذَكَرَ عَلَيْهِ اسْمَ وَثْنِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ الذَّبِيحَ فَسَقَ نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَحَرَّمَهُ، وَنَهَى مَنْ آمَنَ بِهِ عَنْ أَكْلِ مَا ذُبِحَ كَذَلِكَ، لِأَنَّهُ مَيْتَةٌ.

وهذا إعلَامٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ جَادَلُوا نَبِيَّ اللَّهِ وَأَصْحَابَهُ فِي تَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ بِمَا جَادَلُوهُمْ بِهِ، أَنَّ الَّذِي جَادَلُوهُمْ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ هُوَ الْحَرَامُ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ، وَأَنَّ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُ حَلَالٌ قَدْ أَحْلَاهُ اللَّهُ، وَأَنَّهُمْ كَذَبَتْهُ فِي إِضَافَتِهِمْ تَحْرِيمَهُ إِلَى اللَّهِ.

وفي اشتراطه جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي الدَّمِ عِنْدَ إِعْلَامِهِ عِبَادَتُهُ تَحْرِيمَهُ لِإِيَّاهُ، الْمُسْفُوحَ مِنْهُ دُونَ غَيْرِهِ، الدَّلِيلُ الْوَاضِحُ أَنَّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ مُسْفُوحاً، فَحَلَالٌ غَيْرُ نَجَسٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ

عَفُورٌ رَحِيمٌ

وقد ذكرنا اختلاف أهل التأويل في تأويل قوله: «فمن اضطرَّ غير باغٍ ولا عَادٍ»، والصوابُ من القولِ فيه عندنا فيما مضى من كتابنا هذا، في «سورة البقرة»، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع - وأن معناه: فمن اضطرَّ إلى أكل ما حَرَّمَ اللَّهُ مِنْ أَكْلِ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ الْمُسْفُوحِ أَوْ لَحْمِ الْخَنْزِيرِ أَوْ مَا أَهْلُ لَغِيْرِ اللَّهِ بِهِ، غَيْرَ بَاغٍ فِي أَكْلِهِ إِيَّاهُ تَلَدُّذًا، لَا لِمُضْرَرَةٍ حَالَةٍ مِنَ الْجُوعِ، وَلَا عَادٍ فِي أَكْلِهِ بِتَجَاوُزِهِ مَا حَذَّاهُ اللَّهُ وَأَبَاحَهُ لَهُ مِنْ أَكْلِهِ، وَذَلِكَ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ مَا يَدْفَعُ عَنْهُ الْخَوْفُ عَلَى نَفْسِهِ بِتَرْكِ أَكْلِهِ مِنَ الْهَلَاكِ، لَمْ يَتَجَاوَزْ ذَلِكَ إِلَى أَكْثَرِ مِنْهُ، فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي أَكْلِهِ مَا أَكَلَ مِنْ ذَلِكَ. «فإنَّ اللَّهَ غَفُورٌ»، فيما فعلَ مِنْ ذَلِكَ، فَسَاتَرَ عَلَيْهِ بِتَرْكِهِ عَقُوبَتَهُ عَلَيْهِ، وَلَوْ شَاءَ عَاقَبَهُ عَلَيْهِ. «رحيمٌ»، بِإِبَاحَتِهِ إِيَّاهُ أَكَلَ ذَلِكَ عِنْدَ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَلَوْ شَاءَ حَرَّمَهُ عَلَيْهِ وَمَنَعَهُ مِنْهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ^١

قال أبو جعفر:

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَحَرَّمْنَا عَلَى الْيَهُودِ. «كُلَّ ذِي ظُفْرٍ»، وهو من البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والاوز والبط.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا^٢ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا

إن الله أخبر أنه كان حَرَّمَ عَلَى الْيَهُودِ مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ شُحُومَهُمَا، إِلَّا مَا اسْتَنْثَاهُ مِنْهَا مِمَّا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظِيمٍ. فكل شحم سِوَى مَا اسْتَنْثَاهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، فَإِنَّهُ كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْهِمْ.

وينحو ذلك من القولِ تظاهرت الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ، وذلك قوله: «قاتل الله اليهود، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا ثُمَّ بَاعُوهَا وَأَكَلُوا أَمْثَانَهَا»^(١).

وأما قوله: «إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا»، فإنه يعني: إِلَّا شُحُومَ الْجَنْبِ وَمَا عُلِقَ بِالظَّهْرِ، فَإِنَّهَا لَمْ تُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ الْحَوَايَا

(١) هو في الصحيحين من حديث ابن عباس: البخاري (٢٢٢٣) ومسلم (٣٤٦٠)، ومسلم (١٥٨٢)، ومن حديث أبي هريرة: البخاري (٢٢٢٤)، ومسلم (١٥٨٣)، وأخرجه مسلم (١٥٨١) من حديث جابر أيضاً.

و«الحوايا» جَمْعُ، واحدها «حاوية»، و«حاوية»، و«حويّة»، وهي ما تحوى من البطنِ فاجتمع واستدار، وهي بناتُ اللبن، وهي «المباعر»، وتسمى «المرايض»، وفيها الأمعاء.

ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حَرَمْنَا عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظهورُهُمَا، أو ما حملت الحوايا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن البقر والغنم حَرَمْنَا على الذين هَادُوا شحومَهُمَا، سِوَى ما حملت ظهورُهُمَا، أو ما حملت حواياهما، فَإِنَّا أَحَلَّلْنَا ذَلِكَ لَهُمْ، وَإِلَّا مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ، فهو لهم أيضاً حلالٌ.

وَعَنَى بِقَوْلِهِ: «أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ»، شحم الآلية والجنب، وما أشبه ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ



يقول تعالى ذِكْرُهُ: فهذا الذي حَرَمْنَا على الذين هَادُوا من الأنعام والطير ذواتِ الأظافرِ غيرِ المنفرجة، ومن البقر والغنم ما حَرَمْنَا عليهم من شحومهما، الذي ذكرنا في هذه الآية، حَرَمْنَاهُ عليهم عقوبةً مِنَّا لهم، وثواباً على أعمالِهِم السيئة، وَبَغْيِهِمْ على رَبِّهِمْ.

وقوله: «وإنا لصادقون»، يقول: وإنا لصادقون في خبرنا هذا عن هؤلاء اليهودِ عَمَّا حَرَمْنَا عليهم من الشحومِ ولحومِ الأنعامِ والطيرِ التي ذكرنا أَنَّا

حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَخْبَارِنَا، وَهُمْ الْكَافِرُونَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا حَرَّمُوهُ لِتَحْرِيمِ إِسْرَائِيلَ إِيَّاهُ عَلَى نَفْسِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ
وَأَسْعَى وَلَا يَرْدُ بِأَسْأَتِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

يقول جل ثناؤه: لنبية محمد ﷺ: فَإِنْ كَذَّبَكَ، يَا مُحَمَّدُ، هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ أَنَّا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ وَحَلَّلْنَا لَهُمْ، كَمَا بَيَّنَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ. «فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ»، بَنَّا، وَيَمُنْ كَانَ بِهِ مُؤْمِنًا مِنْ عِبَادِهِ، وَبَغَيْرِهِمْ مِنْ خَلْقِهِ. «وَأَسْعَى»، تَسَعُ جَمِيعَ خَلْقِهِ، الْمُحْسِنَ وَالْمُسِيءَ، لَا يَعْجَلُ مَنْ كَفَرَ بِهِ بِالْعُقُوبَةِ، وَلَا مَنْ عَصَاهُ بِالنَّقْمَةِ، وَلَا يَدْعُ كِرَامَةً مَنْ آمَنَ بِهِ وَأَطَاعَهُ، وَلَا يَحْرِمُهُ ثَوَابَ عَمَلِهِ، رَحْمَةً مِنْهُ بِكِلَا الْفَرِيقَيْنِ، وَلَكِنْ بِأَسْأَتِهِ - وَذَلِكَ سَطَوْتُهُ وَعَذَابُهُ - لَا يَرُدُّهُ إِذَا أَخْلَهُ عِنْدَ غَضَبِهِ عَلَى الْمُجْرِمِينَ بِهِمْ عَنْهُمْ شَيْءٌ، «وَالْمُجْرِمُونَ» هُمُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا فَاتَّكَسَبُوا الذُّنُوبَ وَاجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا

يقول جل ثناؤه: «سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا»، وَهُمْ الْعَادِلُونَ بِاللَّهِ الْإِثْنَانِ وَالْأَصْنَانُ مِنْ مُشْرِكِي قَرِيشٍ. «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا»، يَقُولُ: قَالُوا احْتِجَازًا مِنَ الْإِذْعَانِ لِلْحَقِّ بِالْبَاطِلِ مِنَ الْحُجَّةِ، لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ، وَعَلِمُوا بِاطِلَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مُقِيمِينَ مِنْ شُرْكِهِمْ، وَتَحْرِيمِهِمْ مَا كَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنَ الْحُرُوثِ وَالْأَنْعَامِ،

على ما قد بيّن تعالى ذِكْرُهُ في الآياتِ الماضيةِ قَبْلَ ذلكَ : «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً»، وما بعدَ ذلكَ : لو أراد الله منها الإيمانَ به، وإفراذه بالعبادةِ دونَ الأوثانِ والآلهةِ، وتحليلِ ما حَرَّمَ من البحائرِ والسوائبِ وغير ذلك من أموالنا، ما جعلنا لله شريكاً، ولا جعلَ ذلكَ له آباءُونا من قبلنا، ولا حَرَّمنا ما نُحَرِّمُهُ من هذه الأشياءِ التي نحنُ على تحريمها مقيمون، لأنه قادرٌ أن يحول بيننا وبين ذلكَ، حتى لا يكونَ لنا إلى فِعْلِ شيءٍ من ذلكَ سبيلٌ : إما بأن يضطرنا إلى الإيمانِ وتركِ الشركِ به، وإلى القولِ بتحليلِ ما حَرَّمنا - وإما بأن يُلْطَفَ بنا بتوقيفه، فنصيرَ إلى الإقرارِ بوحْدانيتهِ، وتركِ عبادةِ ما دونه من الأندادِ والأصنامِ، وإلى تحليلِ ما حرّمنا، ولكنه رضي منا ما نحنُ عليه من عبادةِ الأوثانِ والأصنامِ واتخاذِ الشريكِ له في العبادةِ والأندادِ، وأراد ما نحرمُ من الحروث والأنعام، فلم يَحُلْ بيننا وبين ما نحنُ عليه من ذلكَ .

قال الله مُكَذِّباً لَهُمْ في قِبَلِهِمْ : «إِنَّ اللهَ رَضِيَ مِنَّا ما نحنُ عليه من الشركِ، وتحريمِ ما نحرمُ» - ورأى عليهم باطل ما احتجوا به من حُجَّتِهِمْ في ذلكَ «كذلكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ»، يقولُ : كما كَذَّبَ هؤلاءُ المشركونَ، يا محمّدُ، ما جِئْتَهُمْ به من الحَقِّ والبيانِ، كَذَّبَ مَنْ قَبْلَهُمْ من فَسَقَةِ الْأُمَمِ الَّذِينَ طَغَوْا على رَبِّهِمْ ما جاءَتْهم به أنبياءُهُمْ من آياتِ اللهِ وواضحِ حُجْجِهِ، وردُّوا عليهم نصائحَهُمْ . «حتى ذاقوا بأسنا»، يقولُ : حتى أسخطونا فغضبنا عليهم، فأحللنا بهم بأسنا فذاقوه، فعطبوا بذوقهم إياهُ، فخابوا وخَسِرُوا الدنيا والآخرةَ . يقولُ : وهؤلاءُ الآخرونَ مَسْلُوكُ بِهِمْ سَبِيلَهُمْ، إِنَّهُمْ لَمْ يُنَبِّئُوا فيومِنوا وَيُصَدِّقُوا بما جِئْتَهُمْ به من عندِ رَبِّهِمْ .

فإن قال قائلُ : وما برهانك على أن الله تعالى إنما كَذَّبَ من قِبَلِ هؤلاءِ المشركين قولهم : «رضي الله منا عبادةِ الأوثانِ، وأراد منا تحريمَ ما حَرَّمنا من الحروث والأنعام»، دونَ أن يكونَ تكذيبه إياهم كان على قولهم : «لو شاء الله

ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ»، وعلى وَصْفِهِمْ إِيَّاهُ بأنه قد شاء شِرْكَهُمْ وشِرْكَ آبَائِهِمْ، وتحريمهم ما كانوا يحرمون؟

قيل له: الدلالة على ذلك قوله: «كذلك كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، فأخبر جَلُّ ثَنَائِهِ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ سَلَكُوا فِي تَكْذِيبِهِمْ نَبِيَّهُمْ مُحَمَّدًا ﷺ فيما اتَّاهَمَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ - مِنَ النَّهْيِ عَنْ عِبَادَةِ شَيْءٍ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ، وتحريم غير ما حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ - مَسْلُكِ أَسْلَافِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ الْمُكْذِبَةِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. والتكذيبُ مِنْهُمْ إِنَّمَا كَانَ لِمُكْذَبٍ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ خَبَرًا مِنْ اللَّهِ عَنْ كَذِبِهِمْ فِي قَبْلِهِمْ: «لو شاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا»، لَقَالَ: «كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، بِتَخْفِيفِ «الذَّالِ»، وَكَانَ يَنْسِبُهُمْ فِي قَبْلِهِمْ ذَلِكَ إِلَى الْكُذْبِ عَلَى اللَّهِ، لَا إِلَى التَّكْذِيبِ مَعَ عِلَلٍ كَثِيرَةٍ يَطُولُ بَذْكُورُهَا الْكِتَابُ، وَفِيمَا ذَكَرْنَا كِفَايَةً لِمَنْ وَفَّقَ لِفَهْمِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ، يَا مُحَمَّدُ، لَهُؤُلَاءِ الْعَادِلِينَ بِرَبِّهِمِ الْأَوْتَانَ وَالْأَصْنَامَ، الْمُحَرَّمِينَ مَا هُمْ مُحَرَّمُونَ مِنَ الْحُرُوثِ وَالْأَنْعَامِ، الْقَائِلِينَ: «لو شاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ»، وَلَكِنَّهُ رَضِيَ مِنَّا مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِكِ وَتَحْرِيمِ مَا نُحَرِّمُ: «هَلْ عِنْدَكُمْ». بِدَعَاكُمْ مَا تَدْعُونَ عَلَى اللَّهِ مِنْ رِضَاةٍ بِإِسْرَاحِكُمْ فِي عِبَادَتِهِ مَا تَشْرَكُونَ، وَتَحْرِيمِكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا تُحَرِّمُونَ - عِلْمُ يَقِينٍ مِنْ خَبَرٍ مَّنْ يَقْطَعُ خَبَرُهُ الْعُدْرَ، أَوْ حُجَّةٌ تُوجِبُ لَنَا الْيَقِينَ، مِنَ الْعِلْمِ. «فَتُخْرِجُوهُ لَنَا»، يَقُولُ: فَتُظْهِرُوا ذَلِكَ لَنَا وَتُبَيِّنُوهُ، كَمَا بَيَّنَّا لَكُمْ مَوَاضِعَ خَطَا قَوْلِكُمْ وَفِعْلِكُمْ، وَتَنَاقَضَ ذَلِكَ وَاسْتِحَالَتِهِ فِي الْمَعْقُولِ وَالْمَسْمُوعِ. «إِنْ

تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ»، يقول له: قُلْ لَهُمْ: إِنَّ تَقُولُونَ مَا تَقُولُونَ، أيها المشركون، وَتَعْبُدُونَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ مَا تَعْبُدُونَ، وَتُحَرِّمُونَ مِنَ الْحُرُوثِ وَالْأَنْعَامِ مَا تُحَرِّمُونَ، إِلَّا ظَنًّا وَحِسَابًا أَنَّهُ حَقٌّ، وأنكم على حق، وهو باطل، وأنتم على باطل. «وإن أنتم إلا تخرصون»، يقول: «وإن أنتم»، وما أنتم في ذلك كله. «إلا تخرصون»، يقول: إلا تَتَّقُولُونَ الباطل على الله، ظنًا بغير يقين عِلْمٍ ولا برهانٍ واضح.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ

لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: قُلْ، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، القائلين على رَبِّهِمِ الْكَذِبَ، في تحريمهم ما حَرَّمُوا مِنَ الْحُرُوثِ وَالْأَنْعَامِ، إِنَّ عَجَزُوا عَنْ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عِنْدَ قِيْلِكَ لَهُمْ: «هل عندكم مِنْ عِلْمٍ بما تَدْعُونَ على رَبِّكُمْ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا»، وعن إخراج عِلْمٍ ذَلِكَ لَكَ وإظهاره، وَهُمْ لَا شَكَّ عَنْ ذَلِكَ عَجْزَةٌ، وعن إظهاره مُقْصَرُونَ، لأنه باطل لا حَقِيقَةً لَهُ. «فَلِلَّهِ»، الذي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنَ الْحُرُوثِ وَالْأَنْعَامِ. «الحجة البالغة»، دونكم أيها المشركون.

ويعني: بـ«البالغة»، أنها تبلغ مراده في ثبوتها على مَنْ احتجَّ بها عليه من خَلْقِهِ، وَقُطِعَ عُذْرُهُ إِذَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ فِيمَا جُعِلَتْ حُجَّةٌ فِيهِ.

«فلو شاء لهداكم أجمعين»، يقول: فلو شاء رَبُّكُمْ لَوْفَّقَكُمْ أَجْمَعِينَ لِلْإِجْمَاعِ عَلَى إِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ، والبراءَةِ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَلِهَةِ، والدينونةِ بِتَحْرِيمِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَتَحْلِيلِ مَا حَلَّلَهُ اللَّهُ، وتركِ اتِّبَاعِ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ، وغيرِ ذَلِكَ

من طاعاته، ولكنه لم يشأ ذلك. فخالف بين خلقه فيما شاء منهم، فمنهم كافرٌ ومنهم مؤمنٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: «قُلْ»، يا محمد، لهؤلاء المفتريين على ربهم من عبدة الأوثان، الزاعمين أن الله حرم عليهم ما هم مُحَرَّمُونَ من حُرُومِهِمْ وأنعامِهِمْ. «هَلُمَّ شهداءكم» يقول: هاتوا شهداءكم الذين يشهدون على الله أنه حرم عليكم ما تزعمون أنه حرمه عليكم.

قال الله لنبيه: «إِنْ شَهِدُوا»، يقول: يا محمد، إِنْ جَاءَوكَ بشهداء يشهدون أن الله حرم ما يزعمون أن الله حرمه عليهم. «فَلَا تَشْهَدْ معهم»، فإنهم كَذَبَةُ، وشهود زور في شهادتهم بما شَهِدُوا به من ذلك على الله. وخاطب بذلك جُلَّ ثَنَائِهِ نَبِيَّهُ ﷺ، والمراد به أصحابه والمؤمنون به. «وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا»، يقول: وَلَا تُتَابِعُهُمْ على ما هُمْ عليه من التكذيب بوحي الله وتنزيله، في تحريم ما حَرَّمَ، وتحليل ما أَحَلَّ لهم، ولكن اتبع ما أَوْحَى إِلَيْكَ من كتابِ رَبِّكَ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ من بين يديه وَلَا من خلفه. «وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ»، يقول: وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، فتكذب بما هُمْ به مكذبون من إحياءِ الله خَلْقَهُ بعد مماتهم، ونشره إياهم بعد فنائهم. «وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ»، يقول: وهم مع تكذيبهم بالبعث بعد الممات، وجحودهم قيام الساعة، بالله يعدلون الأوثان والأصنام، فيجعلونها له عِدْلًا، ويتخذونها له نَدًا، يعبدونها من دونه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ
عَلَيْكُمْ أَلا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنَّا

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: قُلْ، يا محمد، لهؤلاء العادِلين بربهم
الأوثان والأصنام، الزاعمين أنَّ الله حَرَّمَ عليهم ما هم مُحرَّموه من حُرُوبهم
وأنعامهم، على ما ذكرتُ لك في تنزيلي عليك -: تعالوا، أيها القوم، أقرأ
عليكم ما حَرَّمَ رَبِّيكم حقاً يقيناً، لا الباطل تخُصُصاً، تخُصُّصكم على الله الكذب
والفرية ظناً، ولكنَّ وحياً من الله أوحاه إليّ، وتنزيلاً أنزله عليّ: أن لا تُشركوا
بالله شيئاً من خَلْقِهِ، ولا تعدلوا به الأوثان والأصنام، ولا تعبدوا شيئاً سواه.
«وبالوالدين إحساناً»، يقول: وأوصى بالوالدين إحساناً - وَحَذَفَ «أوصى»
و«أمر»، لدلالة الكلام عليه ومعرفته السامع بمعناه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَأْتُمْ بَطْنُكُمْ
نَرْزُقْكُمْ وَإِيَّاهُمْ

يعني تعالى ذِكْرَهُ بقوله: «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق»، ولا تئذوا
أولادكم فتقتلوه من خشية الفقر على أنفسكم بنفقاتهم، فإنَّ الله هو رازقكم
وإياهم، ليس عليكم رِزْقهم، فتخافوا بحياتهم على أنفسكم العجز عن أرزاقهم
وأقواتهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَقْرَبُوا أَلْفَاكُم مَّا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطْنُ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: ولا تقربوا الظاهر من الأشياء المُحرَّمة عليكم التي هي

علانية بينكم لا تنكرون ركوبها، والباطن منها الذي تأتونه سراً في خفاء لا تجاهرون به، فإن كل ذلك حرام.

وقد قيل: إنما قيل: لا تقربوا ما ظهر من الفواحش وما بطن، لأنهم كانوا يستقبحون من معاني الزنا بعضاً دون بعض.

وليس ما قالوا من ذلك بمدفوع، غير أن دليل الظاهر من التنزيل على النهي عن ظاهر كل فاحشة وباطنها، ولا خبر يقطع العذر، بأنه عني به بعض دون جميع. وغير جائز إحالة ظاهر كتاب الله إلى باطن، إلا بحجة يجب التسليم لها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

يقول تعالى ذكره: «قل تعالى أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً»، «ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق»، يعني بالنفس التي حرم الله قتلها، نفس مؤمن أو معاهد - وقوله: «إلا بالحق»، يعني بما أباح قتلها به: من أن تقتل نفساً فتقتل قوداً بها، أو تزني وهي محصنة فتزجم، أو ترتد عن دينها الحق فتقتل. فذلك «الحق» الذي أباح الله جل ثناؤه قتل النفس التي حرم على المؤمنين قتلها به. «ذلكم»، يعني هذه الأمور التي عهد إلينا فيها ربنا أن لا نأتيه وأن لا ندعه، هي الأمور التي وصانا والكافرين بها أن نعمل جميعاً به. «لعلكم تعقلون»، يقول: وصاكم بذلك لتعقلوا ما وصاكم به ربكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ

يعني جَلُّ ثَنَائِهِ بقوله: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»، ولا تقربوا ماله إلا بما فيه صلاحه وتشميره.

وأما قوله: «حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ»، فَإِنَّ «الْأَشَدَّ» جمع «شَدَّ»، كما «الْأَضْرُّ» جمع «ضَرَّ»، وكما «الْأَشْرُّ» جمع «شَرَّ»، و«الشَّد» القوة، وهو استحكامُ قوَّةِ شبابه وسنه، كما «شَدَّ النَّهَارُ» ارتفاعه وامتداده.

وفي الكلام محذوف، تُرِكَ ذِكْرُهُ اكتفاءً بدلالة ما ظهر عما حذف. وذلك أن معنى الكلام: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ»، فإذا بلغ أشده فأنستم منه رُشْدًا، فادفعوا إليه ماله - لأنه جَلُّ ثَنَائِهِ لم يَنْهَ أَنْ يُقَرَّبَ مَالُ الْيَتِيمِ فِي حَالِ يَتَمِّهِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، لِجِلِّ لَوْلِيهِ بَعْدَ بُلُوغِهِ أَشُدَّهُ أَنْ يَقْرَبَهُ بِالَّتِي هِيَ أَسْوَأُ، وَلَكِنَّهُمْ نَهَاوْهُ أَنْ يَقْرَبُوهُ حَيَاطَةً مِنْهُ لَهُ، وَحِفْظًا عَلَيْهِ، لِيَسْلُمُوهُ إِلَيْهِ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» - وَأَنْ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ. يقول: لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمُوهُمْ، وَالْوِزْنَ إِذَا وَزَنْتُمُوهُمْ، وَلَكِنْ أَوْفُوهُمْ حَقُّوهُمْ. وإيفاؤهم ذلك، إعطاؤهم حَقُّوهُمْ تامةً. «بِالْقِسْطِ»، يعني بالعدل.

وأما قوله: «لَا نَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا»، فإنه يقول: لَا نَكْلِفُ نَفْسًا، مِنْ إِيْفَاءِ الْكَيْلِ وَالْوِزْنِ، إِلَّا مَا يَسَعُهَا فَيَحِلُّ لَهَا وَلَا تُخْرَجُ فِيهِ. وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ جَلُّ ثَنَائِهِ، عَلِيمٌ مِنْ عِبَادِهِ أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ تَضَيِّقُ نَفْسُهُ عَنْ أَنْ تَطِيبَ لغيره بما لَا يَجِبُ عَلَيْهَا لَهُ، فَامَرَ الْمُعْطِي بِإِيْفَاءِ رَبِّ الْحَقِّ حَقَّهُ الَّذِي هُوَ لَهُ، وَلَمْ يَكْلِفْهُ الزِّيَادَةَ،

لما في الزيادة عليه من ضيق نفسه بها. وأمر الذي له الحق، بأخذ حقه، ولم يكلفه الرضى بأقل منه، لما في النقصان عنه من ضيق نفسه. فلم يكلف نفساً منهما إلا ما لا حرج فيه ولا ضيق، فلذلك قال: «لا تكلف نفساً إلا وسعها».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ

وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا أَذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «وإذا قلتم فاعدلوا»، وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم فقولوا الحق بينهم، واعدلوا وأنصفوا ولا تجوروا، ولو كان الذي يتوجه الحق عليه والحكم، ذا قرابة لكم، ولا تحملنكم قرابة قريب أو صداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره، أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليكم فيه. «وبعهد الله أوفوا»، يقول: وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ، وذلك هو الوفاء بعهد الله.

وأما قوله: «ذلكم وصاكم به»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل للعادلين بالله الأوثان والأصنام من قومك: هذه الأمور التي ذكرت لكم في هاتين الآيتين، هي الأشياء التي عهد إلينا ربنا، ووصاكم بها ربكم، وأمركم بالعمل بها - لا بالبحائر، والسوائب، والوصائل، والحام، وقتل الأولاد، ووادي البنات، واتباع خطوات الشيطان. «ولعلكم تذكرون»، يقول: أمركم بهذه الأمور التي أمركم بها في هاتين الآيتين، ووصاكم بها وعهد إليكم فيها، لتذكروا عواقب أمركم، وخطأ ما أنتم عليه مقيمون، فتزجروا عنها، وترتدعوا وتنبهوا إلى طاعة ربكم.

وكان ابن عباس يقول: هذه الآيات، هُنَّ الآيات المحكمات.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ط
وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمُ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وهذا الذي وصَّاكم به ربكم، أيها الناس، في هاتين
الآيتين من قوله: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ»، وأمركم بالوفاء به، هو
«صراطه» - يعني: طريقه ودينه الذي ارتضاه لعباده، «مستقيماً»، يعني: قريباً
لا اعوجاج به عن الحق. «فاتبعوه»، يقول: فاعملوا به، واجعلوه لأنفسكم
منهاجاً تسلكونه، فاتبعوه. «ولا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ»، يقول: ولا تَسْلُكُوا طريقاً سواه،
ولا تركبوا منهاجاً غيره، ولا تبغوا ديناً خلافاً، من اليهودية والنصرانية والمجوسية
وعبادة الأوثان، وغير ذلك من الملل، فإنها بدع وضلالات. «فتفرق بكم عن
سبيله»، يقول، فيشتت بكم، إن اتبعتم السبل المحدثه التي ليست لله بسبل
ولا طرق ولا أديان، اتباعكم إياها. «عن سبيله»، يعني: عن طريقه ودينه الذي
شَرَعَهُ لكم وارتضاه، وهو الإسلام الذي وَصَّى به الأنبياء، وأمر به الأمم قبلكم.
«ذلكم وصَّاكم به»، يقول تعالى ذِكْرَهُ: هذا الذي وصَّاكم به ربكم من قوله
لكم: «إِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ»، وصَّاكم به «لعلكم
تتقون»، يقول: لتتقوا الله في أنفسكم فلا تَهْلِكُوهَا، وتَحْذَرُوا رَبُّكُمْ فيها فلا
تسخطوه عليها، فيحل بكم نِقْمَتُهُ وعذابه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ

يعني جُلُّ ثناؤه بقوله: «ثم آتينا موسى الكتاب»، ثم قُلْ بعد ذلك يا
محمد: آتَى رَبُّكَ موسى الكتاب - فترك ذِكْرَ «قُلْ»، إذ كان قد تَقَدَّمَ في أول

القصة ما يدلُّ على أنه مُرَادٌ فيها، وذلك قوله: «قُلْ تعالوا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبِّيَ عليكم»، فَقَصَّ ما حَرَّمَ عليهم وأَحْلَى، ثم قال: ثم قل: «آتينا موسى»، فحذف «قل» للدلالة قوله: «قل» عليه، وأنه مُرَادٌ في الكلام.

وإنما قلنا: ذلك مُرَادٌ في الكلام، لأنَّ محمداً ﷺ لاشك أنه بُعث بعد موسى بدهرٍ طويل، وأنه إنما أَمَرَ بتلاوة هذه الآياتِ على مَنْ أَمَرَ بتلاوتها عليه بعد مبعثه. ومعلومٌ أنَّ موسى أُوتِيَ الكتابَ من قبل أمر الله محمداً بتلاوة هذه الآياتِ على مَنْ أَمَرَ بتلاوتها عليه. و«ثم»، في كلام العرب، حرفٌ يدلُّ على أنَّ ما بعده من الكلام والخبر، بعد الذي قبلها.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى قوله: «تماماً على الذي أحسن».

فقال بعضهم: معناه: تماماً على المحسنين.

وقال آخرون: معنى ذلك: «تماماً على الذي أحسن»، موسى، فيما امْتَحَنَهُ اللهُ به في الدنيا من أمره ونهيه.

وقال آخرون: في ذلك: معناه: ثم آتينا موسى الكتابَ تماماً على إحسانِ الله إلى أنبيائه وأياديه عندهم.

وأولى هذه الأقوالِ عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: معناه: ثم آتينا موسى الكتابَ تماماً لِيَعْمِنَّا عنده، على الذي أحسن موسى في قيامه بأمرنا ونهيِّنا - لأنَّ ذلك أظهرُ معانيه في الكلام، وأنَّ إيتاءَ موسى كتابه نعمةً من الله عليه ومِنَّةٌ عظيمة. فاجترَجَ جُلُّ ثَنائِهِ أنه أنعم بذلك عليه لِمَا سَلَفَ له من صالحِ عملٍ وحُسْنِ طاعةٍ.

وأما قوله: «وتفصيلاً لكل شيء»، فإنه يعني: وتبييناً لكل شيءٍ من أمرِ الدين الذي أُمِرُوا به.

فتأويل الكلام إذاً: ثم آتينا موسى التوراة تماماً لنعمنا عنده وأيادينا قبلة، تَتِمُّ به كرامتنا عليه على إحسانه وطاعته ربُّه وقيامه بما كُلِّفَ من شرائع دينه، وتبييناً لكلِّ ما يقوم به وأتباعه إليه الحاجة من أمر دينهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَالَمِهِمُ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ

١٥٤

يقول تعالى ذِكْرُهُ: آتينا موسى الكتاب تماماً وتفصيلاً لكل شيء. «وهدى»، يعني بقوله: «وهدى»، تقويماً لهم على الطريق المستقيم، وبياناً لهم سُبُلُ الرِّشَادِ لئلا يَضِلُّوا. «ورحمة»، يقول: ورحمة منا بهم ورافة، لِنُنَجِّيَهُمْ مِنَ الضَّلَالَةِ وَعَمَى الْحِيرَةِ.

وأما قوله: «لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ»، فإنما يعني: إيتائي موسى الكتاب تماماً لكرامة الله موسى، على إحسان موسى، وتفصيلاً لشرائع دينه، وهُدًى لمن اتبعه، ورحمة لمن كان منهم ضالاً لينجيه الله به من الضلالة، وليؤمن بقاءً ربه إذا سمع مواعظ الله التي وعظ بها خَلَقَهُ فيه، فيرتدع عما هو عليه مقيم من الكفر به، وبلقائه بعد مماته، فيطيع ربه، ويصدق بما جاء به نبيه موسى ﷺ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ

وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٥٥

يعني جَلَّ ثَنَاهُ بقوله: «وهذا كتاب أنزلناه مبارك»، وهذا القرآن الذي أنزلناه إلى نبينا محمد ﷺ. «كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه»، يقول: فاجعلوه إماماً تَتَّبِعُونَهُ وتعملون بما فيه، أيها الناس. «واتقوا»، يقول: واحذروا الله في

أنفسكم، أَنْ تَضِيعُوا الْعَمَلَ بِمَا فِيهِ، وَتَتَعَدَّوْا حُدُودَهُ، وَتَسْتَحِلُّوا مُحَارِمَهُ.
وقوله: «لعلكم ترحمون»، يقول: لِيُرَحِّمُوا، فتنجوا من عذابِ الله،
واليمِ عقابه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى
طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾

فأما الطائفتان اللتان ذَكَرَهما اللهُ، وأخبرَ أنه إنما أنزل كتابَهُ على نبيه
محمدٍ ﷺ لثلاثين يقول المشركون: «لم ينزل علينا كتابٌ فَتَتَّبِعُهُ، ولم نُؤْمَرْ ولم
نُتَّه، فليس علينا حُجَّةٌ فيما نأتي ونُذَر، إذ لم يأتنا من الله كتابٌ ولا رسول»،
وإنما الحُجَّةُ على الطائفتين اللتين أنزل عليهما الكتاب من قبلنا - فإنهما اليهود
والنصارى، وكذلك قال أهل التأويل.

وأما «وإن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ»، فإنه يعني: أَنْ تقولوا: وقد كُنَّا عَنْ
تلاوةِ الطائفتين الكتاب الذي أنزلَ عليهم. «غافلين»، لا ندري ما هي، ولا
نعلم ما يقرأون، وما أنزل إليهم في كتابهم، لأنهم كانوا أهلَ دُوننا، ولم نُعَنْ
به ولم نُؤْمَرْ بما فيه، ولا هو بلساننا، فيتخذوا ذلك حُجَّةً. فقطع اللهُ بإنزاله
القرآنَ على نبيه محمدٍ ﷺ حجتهم تلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا
أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وهذا كتابٌ أنزلناه مبارك»، لثلاثين يقول المشركون من
عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ من قريش: «إنما أنزل الكتابُ على طائفتين من قبلنا»، أو: لثلاثين
يقولوا: لو أَنَّا أنزلَ علينا الكتابُ كما أنزلَ على هاتين الطائفتين من قبلنا، فأمرنا

فيه ونُهيْنَا، وَبَيَّنَ لَنَا فِيهِ خَطَا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ صَوَابِهِ. «لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ»، أَي: لَكُنَّا أَشَدَّ اسْتِقَامَةً عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ، وَاتِّبَاعاً لِلكِتَابِ، وَأَحْسَنَ عَمَلاً بِمَا فِيهِ، مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أُنْزِلَ عَلَيْهِمَا الْكِتَابُ مِنْ قَبْلِنَا. يَقُولُ اللَّهُ: «فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» يَقُولُ: فَقَدْ جَاءَكُمْ كِتَابٌ بِلِسَانِكُمْ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، حُجَّةٌ عَلَيْكُمْ وَاضِحَةٌ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ. «وَهْدَى»، يَقُولُ: وَبَيَّانٌ لِلْحَقِّ، وَفُرْقَانٌ بَيْنَ الصَّوَابِ وَالْخَطَا، وَرَحْمَةٌ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدَفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدَفُونَ ﴿١٥٧﴾

يَقُولُ جَلَّ ثَنَاهُ: فَمَنْ أَخْطَأُ فِعْلاً وَأَشَدُّ عَدَوَاناً مِنْكُمْ، أَيُّهَا الْمَشْرِكُونَ الْمُكَذِّبُونَ بِحُجَجِ اللَّهِ وَأَدْلَتِهِ - وَهِيَ آيَاتُهُ. «وَصَدَفَ عَنْهَا»، يَقُولُ: وَأَعْرَضَ عَنْهَا بَعْدَ مَا أَتَتْهُ، فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهَا، وَلَمْ يَصْدُقْ بِحَقِيقَتِهَا.

وَأَخْرَجَ جَلَّ ثَنَاهُ الْخَبَرَ بِقَوْلِهِ: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ»، مَخْرَجَ الْخَبَرِ عَنِ الْغَائِبِ، وَالْمَعْنَى بِهِ الْمَخَاطَبُونَ بِهِ مِنْ مُشْرِكِي قَرِيشٍ.

وَقَوْلُهُ: «سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدَفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ»، يَقُولُ: سَيُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ يَعْرِضُونَ عَنْ آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ وَلَا يَتَدَبَّرُونَهَا، وَلَا يَتَعَرَّفُونَ حَقِيقَتَهَا فَيُؤْمِنُوا بِمَا ذَلَّتْهُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَحَقِيقَةِ نُبُوَّةِ نَبِيِّهِ، وَصِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ. «سُوءَ الْعَذَابِ»، يَقُولُ: شَدِيدَ الْعِقَابِ، وَذَلِكَ عَذَابُ النَّارِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِكُفْرَةِ خَلْقِهِ بِهِ. «بِمَا كَانُوا يَصْدَفُونَ»، يَقُولُ: يَفْعَلُ اللَّهُ ذَلِكَ بِهِمْ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يُعْرِضُونَ عَنْ آيَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، فَلَا يَقْبَلُونَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ^١

يقول جل ثناؤه: هل ينتظر هؤلاء العادلون برّبهم الأوثان والأصنام. وإلا أن تأتيهم الملائكة، بالموت فتقبض أرواحهم - أو أن يأتيهم ربك، يا محمد، بين خلقه في موقف القيامة. «أو يأتي بعض آيات ربك»، يقول: أو أن يأتيهم بعض آيات ربك. وذلك فيما قال أهل التأويل: طلوع الشمس من مغربها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنَةً مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا^٢

يقول تعالى ذكره: «يوم يأتي بعض آيات ربك»، لا ينفع من كان قبل ذلك مشركاً بالله، أن يؤمن بعد مجيء تلك الآية.

وقيل: إن تلك الآية التي أخبر الله جل ثناؤه أن الكافر لا ينفعه إيمانه عند مجيئها: طلوع الشمس من مغربها.

وأما قوله: «أو كسبت في إيمانها خيراً»، فإنه يعني: أو عملت في تصديقها بالله خيراً، من عمل صالح يُصدّق قِبله ويُحقّقه، من قبل طلوع الشمس من مغربها. ولا ينفع كافرأ لم يكن آمن بالله قبل طلوعها كذلك، إيمانه بالله إن آمن وصدّق بالله ورسله، لأنها حالة لا تمتنع نفس من الإقرار بالله، لعظيم الهول الوارد عليهم من أمر الله، فحكم إيمانهم، كحكم إيمانهم عند قيام الساعة، وتلك حال لا يمتنع الخلق من الإقرار بوحداية الله، لمعايتهم من أهوال ذلك اليوم ما ترتفع معه حاجتهم إلى الفكر والاستدلال والبحث والاعتبار، ولا ينفع من كان بالله ويرسله مصدّقاً، ولفرائض الله مُضْبِعاً، غير

مكتسب بجوارحه لله طاعة، إذا هي طلعت من مغربها - أعماله إن غمِلَ، وكسبه إن اكتسبَ، لتفريطه الذي سَلَفَ قبل طلوعها في ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قُلِ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

يقول تعالى لنبه محمد ﷺ : قُلْ، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربههم الأوثان والأصنام: انتظروا أن تأتيكم الملائكة بالموت فتقبض أرواحكم، أو أن يأتي ربكم لفصل القضاء بينا وبينكم في موقف القيامة، أو أن يأتيكم طلوع الشمس من مغربها، فتطوى صحف الأعمال، ولا ينفعكم إيمانكم حينئذ إن أمتم، حتى تعلموا حينئذ المحق منا من المبطل، والمسيء من المحسن، والصادق من الكاذب، وتبينوا عند ذلك بمن يحق عذاب الله وأليم نكاله، ومن الناجي منا ومنكم ومن الهالك - إنا مُنْتَظِرُونَ ذلك، ليجز الله لنا ثوابه على طاعتنا إياه، وإخلاصنا العبادة له، وإفراذناه بالربوبية دون ما سواه، ويفصل بيننا وبينكم بالحق، وهو خير الفاصلين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا لَسَتْ

مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

اختلف أهل التأويل في المعنيين بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ».

فقال بعضهم: عَنِ بَذَلِكِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى.

وقال آخرون: عَنِ بَذَلِكِ أَهْلِ الْبَدْعِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، الَّذِينَ اتَّبَعُوا مُتَشَابِهَ الْقُرْآنِ دُونَ مُحْكَمِهِ.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ أخبرَ نبيه ﷺ أنه بريءٌ ممَّنْ فارقَ دينه الحقَّ وفَرَّقَهُ، وكانوا فِرْقاً فيه وأحزاباً شيعاً، وأنه ليس منهم. ولا هُمُ منه، لأنَّ دينَهُ الذي بعثه اللهُ به هو الإسلامُ، دين إبراهيم الحنيفية، كما قال له ربُّه وأمره أن يقولَ: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيماً مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

فكان مَنْ فارقَ دينه الذي بعث به ﷺ من مشركٍ ووثنيٍّ يهوديٍّ ونصرانيٍّ ومتحنفٍ، مبتدعٌ قد ابتدَعَ في الدينِ ما ضلَّ به عن الصراطِ المستقيم والدينِ القيمِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ المسلم، فهو بريءٌ من محمدٍ ﷺ، ومحمدٌ منه بريءٌ، وهو داخلٌ في عمومِ قوله: «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ».

وأما قوله: «لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ»، فَإِنَّ أَهْلَ التَّأْوِيلِ اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: نزلت هذه الآيةُ على نبيِّ الله بالأمرِ بتركِ قتالِ المشركين قبلَ وجوبِ فَرَضِ قتالهم، ثم نسخها الأمرُ بقتالهم في «سورة براءة»، وذلك قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقال آخرون: بَلْ نزلت على النبي ﷺ إعلاماً من الله له أن من أمتِه مَنْ يُحدث بعده في دينه. وليست بمنسوخةٍ، لأنها خبرٌ لا أمرٌ، والنسخُ إنما يكونُ في الأمر والنهي.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ قوله: «لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ»، إعلامٌ من الله نبيه محمداً ﷺ أنه من مُبتدِعةِ أمتِه الملحدة في دينه بريءٌ، ومن الأحزابِ من مشركي قومه، ومن اليهود والنصارى. وليس في إعلامه ذلك ما يوجبُ أن يكونَ نهاهُ عن قتالهم، لأنه غير محالٍ أن يُقالَ في

الكلام: «لست من دين اليهود والنصارى في شيء فقاتلهم، فإن أمرهم إلى الله في أن يفضّل على مَنْ شاء منهم فيتوب عليه، ويهلك مَنْ أراد إهلاكه منهم كافراً فيقبض روحه، أو يقتله يديك على كفره، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون عند مقدمهم عليه». وإذا كان غير مستحيل اجتماع الأمر بقاتلهم، وقوله: «لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله»، ولم يكن في الآية دليل واضح على أنها منسوخة، ولا ورد بأنها منسوخة عن الرسول خبر - كان غير جائز أن يقضى عليها بأنها منسوخة، حتى تقوم حجة موجبة صحة القول بذلك، لما قد بينا من أن المنسوخ هو ما لم يجز اجتماعه وناسخه في حال واحدة، في كتابنا: «كتاب اللطيف من البيان عن أصول الأحكام».

وأما قوله: «إنما أمرهم إلى الله»، فإنه يقول: أنا الذي إليّ أمر هؤلاء المشركين الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً، والمبتدعة من أمتك الذين ضلوا عن سبيلك، دونك ودون كل أحد. إما بالعقوبة إن أقاموا على ضلالتهم وفرتهم دينهم فأهلكهم بها، وإما بالعفو عنهم بالتوبة عليهم والتفضل مني عليهم. «ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون»، يقول: ثم أخبرهم في الآخرة عند ورودهم عليّ يوم القيامة بما كانوا يفعلون، فأجازي كلّاً منهم بما كانوا في الدنيا يفعلون، المحسن منهم بالإحسان، والمسيء بالإساءة. ثم أخبر جُلّ ثنائهم ما مبلغ جزائهم من جازي منهم بالإحسان أو بالإساءة فقال: «مَنْ جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وَمَنْ جاء بالسيسة فلا يُجزى إلا مثلاً وهم لا يظلمون».

القول في تأويل قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ امْتَالِهَا وَمَنْ جَاءَ
بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

يقول تعالى ذكره: مَنْ وَافَى رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَوْقِفِ الْحَسَابِ، مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً، بِالتَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِقْلَاعِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ

مقيمٌ من ضلالتِهِ، وذلك هو الحسنَةُ التي ذَكَرَها الله فقال: مَنْ جاء بالحسنة فله عشرُ أمثالها.

ويعني بقوله: «فله عشر أمثالها»، فله عشر حسناتٍ أمثال حسنتِهِ التي جاء بها. «ومن جاء بالسيئة»، يقول: وَمَنْ وافى يومَ القيامةِ منهم بفراقِ الدِّينِ الحقِّ والكفر بالله، فلا يُجْزَى إلا ما ساءَهُ من الجزاء، كما وافى الله به من عمله السيء. «وَهُمْ لا يَظْلَمُونَ»، يقول: ولا يَظْلَمُ اللهُ الفَريقين، لا فريقَ الإحسان، ولا فريقَ الإساءة، بأنَّ يُجازي المحسنَ بالإساءة، والمسيءَ بالإحسان، ولكنه يجازي كلا الفريقين من الجزاء ما هُوَ له، لأنه جَلَّ ثَناءُهُ حَكِيمٌ لا يَضَعُ شيئاً إلا في موضعه الذي يستحقُّ أن يَضَعَهُ فيه، ولا يجازي أحداً إلا بما يستحقُّ من الجزاء.

فإنَّ قال قائلٌ: فإنَّ كان الأمرُ كما ذكرت، من أنَّ معنى «الحسنة» في هذا الموضع: الإيمان بالله، والإقرار بوحدانِيته، والتصديق برسوله. «والسيئة» فيه: الشرك به، والتكذيب لرسوله - أَفَلَا إيمانٌ أمثالٌ فيُجَازَى بها المؤمن؟ وإنَّ كان له مِثْلٌ، فكيف يُجَازَى به، و«الإيمان»، إنما هو عندك قولٌ وعمل، والجزاء من الله لعباده عليه الكرامة في الآخرة، والإنعام عليه بما أَعَدَّ لأهلِ كرامَتِهِ من النعيم في دارِ الخلود، وذلك أعيانُ تُرَى وتُعَايَنُ وتُحَسُّ ويلتذُّ بها، لا قولٌ يسمع، ولا كسبٌ جوارح؟

قيل: إنَّ معنى ذلك غير الذي ذهبتَ إليه. وإنما معناه: مَنْ جاء بالحسنة فوافى الله بها له مُطِيعاً، فإنَّ له من الثوابِ ثوابَ عشرِ حسناتٍ أمثالها.

فإنَّ قال: قلت فهل لقولِ «لا إله إلا الله» من الحسناتِ مِثْلٌ؟

قبل: له مِثْلٌ هو غيره، ولكنَّ له مِثْلٌ هو قولٌ لا إله إلا الله، وذلك هو الذي وَعَدَ اللهُ جَلَّ ثَناءُهُ مَنْ أتاهُ به أن يجازيه عليه من الثوابِ بمثل عشرة

أضعاف ما يستحقه قائله. وكذلك ذلك فيمن جاء بالسيئة التي هي الشرك، إلا أنه لا يجازى صاحبها عليها إلا ما يستحقه عليها من غير إضعافه عليه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾

يقول تعالى ذكروه لنبية محمد ﷺ: «قُلْ»، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام. «إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، يقول: قُلْ لهم إِنِّي أُرشدني ربي إلى الطريق القويم، هو دينُ الله الذي ابتعثه به، وذلك الحنيفية المسلمة، فوفقني له. «دِينًا قِيمًا»، يقول: مستقيماً. «مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ»، يقول: دين إبراهيم. «حَنِيفًا»، يقول: مستقيماً. «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، يقول: وما كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بالله، يعني إبراهيم صلواتُ الله عليه، لأنه لم يكن ممن يعبدُ الأصنام.

واختلفت القُرْأَةُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ: دِينًا قِيمًا.

فقرأ ذلك عامة قُرْأَةُ الْمَدِينَةِ وبعض البصريين: ﴿دِينًا قِيمًا﴾ بفتح «القاف» وتشديد «الياء»، إلحاقاً منهم ذلك بقول الله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦ / يوسف: ٤٠ / الروم: ٣٠]. ويقول، ﴿ذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقرأ ذلك عامة قُرْأَةُ الْكُوفِيِّينَ: ﴿دِينًا قِيمًا﴾ بكسر «القاف» وفتح «الياء» وتخفيفها. وقالوا «الْقَيِّمُ» و«الْقِيَمُ» بمعنى واحد، وهما لغتان معناهما: الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ.

والصوابُ من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان في قُرْأَةِ الْأَمْصَارِ، متفقتا المعنى، فبأيتهمَا قرأ القاريءُ فهو للصواب مصيبٌ، غير أن

فتح «القاف» وتشديد «الياء» أعجب إليّ، لأنه أفصح اللغتين وأشهرهما.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: «قل»، يا محمد، لهؤلاء العادلين
بربهم الأوثان والأصنام، الذين يسألونك أن تتبّع أهواءهم على الباطل من عبادة
الآلهة والأوثان. «إنّ صلاتي ونسكي»، يقول: وذبحي. «ومحياي»، يقول:
وحياتي. «ومماتي» يقول: ووفاتي. «الله رب العالمين»، يعني: أن ذلك كلّهُ
له خالصاً دون ما أشركتم به، أيها المشركون، من الأوثان. «لا شريك له» في
شيء من ذلك من خلقه، ولا لشيء منهم فيه نصيب، لأنه لا ينبغي أن يكون
ذلك إلّا له خالصاً. «وبذلك أُمِرْتُ»، يقول: وبذلك أمرني ربي. «وأنا أولُ
المسلمين»، يقول: وأنا أولُ من أقرّ وأذعن وخضع من هذه الأمة لربه بأنّ ذلك
كذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَنِي رَبِّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا
تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: «قل»، يا محمد، لهؤلاء العادلين
بربهم الأوثان، الداعيك إلى عبادة الأصنام واتباع خطوات الشيطان. «أغير الله
أبني ربّاً»، يقول: أسوى الله أطلب سيّداً يسودني؟. «وهو ربُّ كل شيء»،
يقول: وهو سيّد كلّ شيء دونه ومدبره ومُصلّحه. «ولا تكسب كلّ نفس إلّا
عليها»، يقول: ولا تجترح نفساً إلّا عليها، أي: لا يؤخذ بما أتت من
معصية الله تبارك وتعالى، وركبت من الخطيئة، سواها، بل كلّ ذي إثم فهو

المعاقب بإثمِهِ والمأخوذ بذنبِهِ. «ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، يقول: ولا تأثم نفسُ آثمةٍ بإثمِ نفسٍ أُخرى غيرها، ولكنها تأثمُ بإثمها، وعليه تُعاقبُ، دون إثمٍ أُخرى غيرها.

وإنما يعني بذلك المشركين الذين أمر الله نبيه ﷺ أن يقولَ هذا القولَ لهم. يقول: قُلْ لهم: إِنَّا لَسْنَا مَأْخُودِينَ بِآثَامِكُمْ، وعليكم عقوبةُ إجرامِكُمْ، ولنا جزاءُ أَعْمَالِنَا. وهذا كما أمره الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ في موضعٍ آخرَ أن يقولَ لهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ لَهُؤَلاءِ الْعَادِلِينَ بِرَبِّهِمُ الْأَوْثَانَ: كُلُّ عَامِلٍ مِنَّا وَمِنْكُمْ فَلَهُ ثَوَابٌ عَمَلِهِ، وعليه وَزْرُهُ، فاعملُوا مَا أَنْتُمْ عَامِلُوهُ. ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ. «مَرْجِعُكُمْ»، يقول: ثُمَّ إِلَيْهِ مَصِيرُكُمْ وَمَنْقَلِبُكُمْ. «فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ»، فِي الدُّنْيَا، «تَخْتَلِفُونَ» مِنَ الْأَدْيَانِ وَالْمِلَلِ، إِذْ كَانَ بَعْضُكُمْ يَدِينُ بِالْيَهُودِيَّةِ، وَبَعْضٌ بِالنَّصْرَانِيَّةِ، وَبَعْضٌ بِالْمَجُوسِيَّةِ، وَبَعْضٌ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَادِّعَاءِ الشُّرَكَاءِ مَعَ اللَّهِ وَالْأَنْدَادِ، ثُمَّ يُجَازِي جَمِيعَكُمْ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فَتَعْلَمُوا حَيْثُ لَكُمْ مِنَ الْمَحْسَنِ مَنَّا وَالْمَسِيءِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وأُمَّتِهِ: وَاللَّهُ الَّذِي جَعَلَكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، «خَلَائِفَ الْأَرْضِ»، بِأَنْ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْقُرُونِ وَالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ،

واستخلفكم، فجعلكم خلائفَ منهم في الأرض، تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم.

وأما قوله: «ورفع بعضكم فوق بعض درجات»، فإنه يقول: وخالف بين أحوالكم، فجعل بعضكم فوق بعض، بأن رفع هذا على هذا، بما بسطَ لهذا من الرزقِ ففضَّلَهُ بما أعطاهُ من المالِ والغنى، على هذا الفقيرِ فيما خَوَّلَهُ من أسبابِ الدنيا، وهذا على هذا بما أعطاهُ من الأيدِ والقوةِ على هذا الضعيفِ الواهنِ القوي. فخالَفَ بينهم بأن رَفَعَ من درجةِ هذا على درجةِ هذا، وخَفَضَ من درجةِ هذا عن درجةِ هذا.

وأما قوله: «ليبلوكم فيما آتاكم»، فإنه يعني ليختبركم فيما خَوَّلَكُم من فضله، ومنحكم من رِزْقِهِ، فيعلم المطيعُ له منكم فيما أَمَرَهُ به ونهاه عنه، والعاصي؛ ومن المؤدِّي مما آتاهُ الحق الذي أمره بأدائه منه، والمفرط في أدائه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

يقول جَلَّ ثَنَاهُ لنبية محمد ﷺ: «إِنَّ رَبَّكَ»، يا محمد، لسريع العقاب لمن أسخطه بارتكابه معاصيه، وخلافه أَمْرَهُ فيما أَمَرَهُ به ونهاه، ولمن ابتلى منه فيما مَنَحَهُ من فَضْلِهِ وطَوَّلَهُ تَوَلَّيًّا وإِدْبَاراً عنه، مع إِنْعامِهِ عليه، وتمكينِهِ إِيَّاهُ في الأرض، كما فعلَ بالقرونِ السالفة. «وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ»، يقول: وإنه لَسَاتِرُ ذُنُوبٍ من ابتلى منه إِقْبَالاً إِيَّاهُ بالطاعةِ عند ابتلائِهِ إِيَّاهُ بنعمته، واختباره إِيَّاهُ بأمره ونهيهِ، فَمَغْطٍ عَلَيْهِ فيها، وتاركٌ فُضِيحَتَهُ بها في موقفِ الحساب. «رَحِيمٌ» بتركِهِ عقوبته على سالفِ ذُنُوبِهِ التي سَلَفَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، إِذْ تَابَ وَأَنَابَ إِيَّاهُ قَبْلَ لِقَائِهِ ومُصِيرِهِ إِلَيْهِ.

نَفْسِي سَوْنَةُ الْأَعْبَرِافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَوْلِ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: **الْمَصَّ** ﴿١﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قول الله تعالى ذِكْرُهُ: «المص». فقال بعضهم: معناه: أنا الله أفصل.

وقال آخرون: هو هجاء حروف اسم الله تبارك وتعالى الذي هو «المُصَوَّر».

وقال آخرون: هي اسم من أسماء الله، أقسم ربنا به.

وقال آخرون: هو اسم من أسماء القرآن.

وقال آخرون: هي حروف هجاء مُقَطَّعة.

وقال آخرون: هي من حساب الجمل.

وقال آخرون: هي حروف تحوي معاني كثيرة، دَلَّ اللهُ بِهَا خَلْقَهُ عَلَى مُرَادِهِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ.

وقال آخرون: هي حروف اسم الله الأعظم.

وقد ذكرنا الصواب من القول عندنا في ذلك فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع^(١).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ

يعني تعالى ذِكْرُهُ: هذا القرآن، يا محمد، كتاب أنزله الله إليك.

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ:

يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: فلا يَضِقْ صَدْرُكَ، يا محمد، من الإنذارِ بِهِ مَنْ أَرْسَلْتُكَ لِإِنْذَارِهِ بِهِ، وإبلاغِهِ مَنْ أَمَرْتُكَ بِإِبْلَاغِهِ إِيَّاهُ، ولا تُشْكُ في أنه من عندي، واصبرْ لِلْمُضِيِّ لِأَمْرِ اللَّهِ وَاتَّباعِ طَاعَتِهِ فيما كَلَّفَكَ وَحَمَلَكَ من عِبَاءِ أَثْقَالِ النُّبُوَّةِ، كما صَبَرَ أَوَّلُو الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِنُذِرْ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرَهُ: هذا كتابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ، يا محمد، لِنُذِرَ بِهِ مَنْ أَمَرْتُكَ بِإِنْذَارِهِ، «وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» - وهو من الْمُؤَخَّرِ الَّذِي معناه التَّقْدِيمُ. ومعناه: «كتابُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ لِنُذِرَ بِهِ»، و«ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ»، «فلا يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا

مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك الذين يعبدون الأوثانَ والأصنام: اتبعوا، أيها الناس، ما جاءكم من عند رَبِّكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، واعملوا بما أَمَرَكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ، ولا تتبعوا شيئاً من دونه - يعني: شيئاً غيرَ ما أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ رَبُّكُمْ. يقول: لا تتبعوا أَمْرَ أَوْلِيائِكُم الَّذِينَ يَأْمُرُونَكُمْ بِالشِّرْكِ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَإِنَّهُمْ يُضِلُّونَكُمْ وَلَا يَهْدُونَكُمْ.

فإنَّ قَالاً قَائِلٌ: وكيف قلتَ: «معنى الكلام: قل اتبعوا»، وليس في

الكلام موجوداً ذِكْرُ «القول»؟

قيل: إنه وإن لم يكن مذكوراً صريحاً، فإن في الكلام دلالة عليه، وذلك قوله: «فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به»، ففي قوله «لتنذر به»، الأمر بالإنذار، وفي الأمر بالإنذار، الأمر بالقول، لأن الإنذار قول. فكان معنى الكلام: أنذر القوم وقُلْ لهم: اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم من رَبِّكم.

ولو قيل: معناه: لَتُنْذِرَ به وتذكَّرَ به المؤمنون فتقول لهم: اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم - كان غير مدفوع.

وقوله: «قليلًا ما تذكرون»، يقول: قليلًا ما تتعظون وتعتبرون فتراجعون الحق.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَ هَابًا أَسْنًا
بَيِّنَاتٍ أَوْهَمَ قَائِلُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: حَذَرُ هَوْلَاءِ الْعَابِدِينَ غَيْرِي، وَالْعَادِلِينَ بِي الْأَلْهَةِ وَالْأَوْتَانِ، سَخَطِي لَا أُحِلُّ بِهِمْ عَقُوبَتِي فَأَهْلَكْتُهُمْ، كَمَا أَهْلَكْتُ مَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ مِنَ الْأَمَمِ قَبْلَهُمْ، فَكَثِيرًا مَا أَهْلَكْتُ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ قُرَى عَصَوْنِي وَكَذَّبُوا رُسُلِي وَعَبَدُوا غَيْرِي. «فجاءها بأسنا بيئاتاً»، يقول: فجاءتهم عقوبتنا ونقمتنا ليلاً قبل أن يُصْبِحُوا - أو جاءتهم «قائلين»، يعني: نهراً في وقت القائلة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» ﴿٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فلم يكن دعوى أهل القرية التي أهلكتها، إذ جاءهم

بأسنا وسوطنا بياتاً أو هم قائلون، إلا اعترفهم على أنفسهم بأنهم كانوا إلى أنفسهم مُسيئين، وبربهم آثمين، ولأمره ونهيه مخالفين.

وعنى بقوله جل ثناؤه: «دَعَاَهُمْ»، في هذا الموضع دَعَاءَهُمْ.

ولـ «الدعوى» في كلام العرب وجهان: أحدهما: الدعاء، والآخر: الإِدْعَاءُ للحق. ومن «الدعوى» التي معناها الدعاء، قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٥].

فإن قال قائل: وكيف قيل: «فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين»؟ وكيف أمكنتهم الدعوى بذلك، وقد جاءهم بأسُ الله بالهلاك؟ أقالوا ذلك قبل الهلاك؟ فإن كانوا قالوه قبل الهلاك، فإنهم قالوا قبل مجيء البأس، والله يخبرُ عنهم أنهم قالوه حين جاءهم، لا قبل ذلك؟ أو قالوه بعد ما جاءهم، فتلك حالة قد هلكوا فيها، فكيف يجوز وَصْفُهُمْ بِقِيلِ ذلك إذا عاينوا بأسَ الله، وحقيقة ما كانت الرسل تَعُدُّهُمْ من سطوة الله؟

قيل: ليس كُلُّ الأمرِ كان هلاكها في لحظةٍ ليس بين أوله وآخره مهلٌ، بل كان منهم مَنْ غرق بالطوفان. فكان بين أولِ ظهورِ السببِ الذي علموا أنهم به هالكون، وبين آخره الذي عَمَّ جميعَهُمْ هلاكه، المدة التي لا خفاءَ بها على ذي عقل. ومنهم مَنْ مُتَّعَ بالحياة بعد ظهورِ علامةِ الهلاك لأعينهم أياماً ثلاثة، كقومٍ صالح وأشباههم. فحينئذ لما عاينوا أوائلِ بأسِ الله الذي كانت رُسُلُ الله تَتَوَعَّدُهُمْ به، وأيقنوا حقيقةَ نزولِ سطوةِ الله بهم، دَعَا: «يا وَلَنَّا إِنَّا كُنَّا ظالمين»، فلم يَكْ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ مع مجيءِ وعيدِ الله وحلولِ نِقْمَتِهِ بساحتهم. فَحَذَّرَ رَبُّنَا جَلَّ ثَنَاؤُهُ الَّذِينَ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ نبيه محمداً ﷺ من سَطْوَتِهِ وعقابه على كُفْرِهِمْ به وتكذيبِهِمْ رسوله، ما حَلَّ بِمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ من الأمرِ إذ عصوا رُسُلَهُ، واتبَعوا أمرَ كُلِّ جبارٍ عنيد.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ

الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: لنسألنَّ الأمم الذين أرسلت إليهم رُسلي: ماذا عملت فيما جاءتهم به الرُّسل من عندي من أمري ونهيي؟ هل عملوا بما أمرتهم به، وانتهوا عما نهيتهم عنه، وأطاعوا أمري، أم عصوني فخالفوا ذلك؟ «ولنسألنَّ المُرسَلين»، يقول: ولنسألنَّ الرُّسل الذين أرسلتهم إلى الأمم: هل بلغتهم رسالاتي، وأدَّت إليهم ما أمرتهم بأدائه إليهم، أم قصَّروا في ذلك فقرطوا ولم يبلغوهم؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ عِلْمَهُمْ وَمَا كُنَّا عَائِدِينَ

﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فلنخبرن الرُّسلَ ومَن أرسلتهم إليه بيقين علم بما عملوا في الدنيا فيما كنتم أمرتهم به، وما كنتم نهيتهم عنه. «وما كنا غائبين»، عنهم وعن أفعالهم التي كانوا يفعلونها.

فإنَّ قالَ قائلٌ: وكيف يسأل الرُّسل، والمرسل إليهم، وهو يخبر أنه يُقصُّ عليهم بعلمٍ بأعمالهم وأفعالهم في ذلك؟

قيل: إنَّ ذلك منه تعالى ذِكْرُهُ ليس بمسألة استرشادٍ، ولا مسألة تعرفٍ منهم ما هو به غير عالمٍ، وإنما هو مسألة توبيخٍ وتقريرٍ معناها الخبر، كما يقول الرجل للرجل: «ألم أحسن إليك فأسأت؟»، و«ألم أصلك فقطعت؟». فكَذلك مسألة الله المرسل إليهم، بأن يقول لهم: «ألم يأتكم رُسلي بالبينات؟ ألم أبعث إليكم النذر فتندركم عذابي وعقابي في هذا اليوم من كفر بي وعبدَ

غيري؟ كما أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه قاتل لهم يومئذ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، ونحو ذلك من القول الذي ظاهره ظاهرُ مسألة، ومعناه الخبر والقصص، وهو بعدُ توبيخ وتقرير.

وأما مسألة الرسل الذي هو قَصَصٌ وَخَبَرٌ، فَإِنَّ الْأَمَمَ الْمُشْرَكَةَ لَمَّا سُئِلَتْ فِي الْقِيَامَةِ قِيلَ لَهَا: «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ؟» أنكر ذلك كثيرٌ منهم وقالوا: «ما جاءنا من بشير ولا نذير». ف قيل للرسل: «هل بَلَّغْتُمْ ما أُرْسِلْتُمْ بِهِ؟» أو قيل لهم: «أَلَمْ تُبَلِّغُوا إِلَى هَؤُلَاءِ مَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ؟»، كما جاء الخبرُ عن رسول الله ﷺ، وكما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ لأمّة نبينا محمد ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. فكلُّ ذلك من الله مسألة للرسل على وجه الاستشهاد لهم على مَنْ أُرْسِلُوا إِلَيْهِ مِنَ الْأَمَمِ، وللمرسل إليهم على وجه التقرير والتوبيخ، وكلُّ ذلك بمعنى القصص والخبر.

فأما الذي هو عن الله منفي من مسألته خَلْقُهُ، فالمسألة التي هي مسألة استرشادٍ واستنبات فيما لا يعلمه السائل عنها ويعلمه المسؤول، ليعلم السائل عِلْمَ ذلك من قِبَلِهِ، فذلك غيرُ جائزٍ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِهِ، لأنه العالمُ بِالأشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها، وهي المسألة التي نفاها جَلَّ ثَنَاؤُهُ عن نفسه بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وبقوله: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، يعني: لا يسأل عن ذلك أحدٌ منهم مسألة مستتبّة، ليعلم عِلْمَ ذلك من قبل من سأل منه، لأنه العالمُ بذلك كله وبكل شيءٍ غيره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالْوِزْنَ يَوْمَ يَمِيزُ الْهَقَّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾

معنى الكلام: والوزن يوم نسال الذين أرسل إليهم والمرسلين، الحق ويعني به «الحق»، العدل.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «فمن ثقلت موازينه».

فقال بعضهم: معناه: فمن كثرت حسناته.

وقال آخرون: معنى ذلك: فمن ثقلت موازينه التي توزن بها حسناته وسيئاته. قالوا: وذلك هو «الميزان» الذي يعرفه الناس، له لسان وكفتان. والصواب من القول في ذلك عندي، أن ذلك هو «الميزان» المعروف الذي يُوزن به، وأن الله جل ثناؤه يزن أعمال خلقه الحسنات منها والسيئات، كما قال جل ثناؤه: «فمن ثقلت موازينه»، موازين عمله الصالح. «فأولئك هم المفلحون»، يقول: فأولئك هم الذين ظفروا بالنجاح، وأدركوا الفوز بالطلبات، والخلود والبقاء في الجنات، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ بقوله: «ما وُضع في الميزان شيء أثقل من حسن الخلق»^(١)، ونحو ذلك من الأخبار التي تحقق أن ذلك ميزان يوزن به الأعمال، على ما وصفت.

فإن أنكر ذلك جاهل بتوجيه معنى خبر الله عن الميزان وخبر رسوله ﷺ عنه، وجهته، وقال: أو بالله حاجة إلى وزن الأشياء، وهو العالم بمقدار كل شيء قبل خلقه إياه ويعدده، وفي كل حال؟ - أو قال: وكيف توزن الأعمال،

(١) حديث صحيح أخرجه ابن أبي شيبة: ٥١٦/٨، وعبد الرزاق (٢٠١٥٧)، وأحمد:

٤٤٦/٦ و ٤٤٨ و ٤٥١، وأبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢) وقال: حسن

صحيح، وابن حبان (٤٨١) و (٥٦٩٣) و (٥٦٩٥) من حديث أبي الدرداء. وفي الباب

عن عائشة وأبي هريرة وأنس وأسامة بن شريك.

والأعمال ليست بأجسامٍ تُوصَفُ بالثقلِ والخِفَّةِ، وإنما توزنُ الأشياءُ لِيُعْرَفَ ثقلها من خفتها، وكثرتها من قلتها، وذلك لا يجوزُ إلا على الأشياء التي تُوصَفُ بالثقل والخفة، والكثرة والقلّة.

قيل له في قوله: «وما وَجَهُ وزنِ الله الأعمال، وهو العالمُ بمقاديرها قبل كَوْنِهَا»: وَزَنَ ذلك، نظيرُ إثباته إِيَّاهُ في أمِّ الكتابِ واستنساخه ذلك في الكتب، من غيرِ حاجةٍ به إليه، ومن غيرِ خوفٍ من نسيانه، وهو العالمُ بكلِّ ذلك في كُلِّ حالٍ ووقتٍ قبل كونه وبعد وجوده، بل ليكون ذلك حُجَّةً على خَلْقِهِ، كما قال جَلَّ ثَنَاهُ في تنزيله: ﴿كُلُّ أُمَةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ [الجاثية: ٢٨، ٢٩] الآية. فكَذَلِكَ وَزَنَهُ تَعَالَى أَعْمَالَكُمْ خَلَقَهُ بِالْمِيزَانِ، حجة عليهم ولهم، إما بالتقصير في طاعته والتضييع، وإما بالتكميل والتمميم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿١٠﴾

يقول جَلَّ ثَنَاهُ: وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُ أَعْمَالِهِ الصالحة، فلم تَثْقُلْ بِإِقْرَارِهِ بتوحيدِ الله، والإيمانِ به وبرسوله، واتباعِ أمره ونهيه، فأُولَئِكَ الَّذِينَ غَبَنُوا أَنْفُسَهُمْ حَظْوْظُهَا من جزيلِ ثوابِ الله وكرامته. «بما كانوا بآياتنا يظلمون»، يقول: بما كانوا بحججِ الله وأدلته يجحدون، فلا يُقَرُّونَ بصحتها، ولا يوقنون بحقيقتها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد وطأنا لكم، أيها الناس، في الأرض، وجعلناها لكم قراراً تستقرون فيها، ومهاداً تمتهدونها، وفراشاً تفتشونها. «وجعلنا لكم فيها معاش»، تعيشون بها أيام حياتكم، من مطاعم ومشارب، نعمة مني عليكم، وإحساناً مني إليكم. «قليلاً ما تشكرون»، يقول: وأنتم قليل شُكْرُكُمْ على هذه النعم التي أنعمتها عليكم لعبادتيكم غيري، واتخاذكم إلهاً سواي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾

يعني جَلَّ ثَنَاهُ بقوله: «ولقد خلقناكم»، ولقد خلقنا آدم. ثم صورناكم، بتصويرنا آدم، كما قد بينّا فيما مضى من خطاب العرب الرجل بالأفعال تُصِفُهَا إليه، والمعني في ذلك سلفه، وكما قال جَلَّ ثَنَاهُ لمن بين أظهر المؤمنين من اليهود على عهد رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، [البقرة: ٦٣]. وما أشبه ذلك من الخطاب الموجّه إلى الحيّ الموجود، والمراد به السلفُ المعدوم، فكذلك ذلك في قوله: «ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم»، معناه: ولقد خلقنا أباكم آدم ثم صوّرناه.

ولنما قلنا هذا القول، لأنّ الذي يتلو ذلك قوله: «ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم»، ومعلوم أنّ الله تبارك وتعالى قد أمر الملائكة بالسجود لآدم، قبل أن يُصوّر ذريته في بطون أمهاتهم، بل قبل أن يخلق أمهاتهم.

وأما قوله للملائكة: «اسجدوا لآدم»، فإنه يقول جَلَّ ثَنَاهُ: فلما صوّرنا آدم، وجعلناه خلقاً سَوِيّاً، ونفخنا فيه من روحنا، قلنا للملائكة: «اسجدوا

لآدم»، ابتلاءً منا واختباراً لهم بالأمْرِ، ليعلم الطائع منهم من العاصي، .
«فسجدوا»، يقول: فسجد الملائكة، إلا إبليس فإنه لم يكن من الساجدين
لآدم، حين أمره الله مع مَنْ أمر من سائر الملائكة غيره بالسجود.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ
مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكَّره عن قِبَلِهِ لإبليس، إِذْ عَصَاهُ فلم يسجد لآدم
إِذْ أمره بالسجود له. يقول: قال الله لإبليس: «ما منعك»، أي شيء منعك.
«أَنْ لَا تَسْجُدَ»، أَنْ تَدْعَ السجودَ لآدم «إِذْ أَمَرْتُكَ» أَنْ تَسْجُدَ. «قال أنا خيرٌ
منه»، يقول: قال إبليس: أنا خيرٌ من آدم. «خلقتني من نارٍ وخلقته من طين».

فإن قال قائل: أخبرنا عن إبليس، أَلْحَقَّتْهُ الملامَةُ على السجود، أم على
تَرْكِ السجود؟ فإن تكن لحقته الملامَةُ على تركِ السجود، فكيف قيل له: «ما
منعك أَنْ لَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟» وإن كان النكير على السجود، فذلك خلافُ
ما جاء به التنزيلُ في سائرِ القرآن، وخلاف ما يعرفه المسلمون!

قيل: إن الملامَةَ لم تَلْحَقْ إبليسَ إلا على معصيته رَبُّهُ بتركِهِ السجودَ لآدم
إِذْ أَمَرَهُ بالسجود له.

وأما قوله: «أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين»، فإنه خبر من
الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ عن جوابِ إبليسَ إياه إِذْ سَأَلَهُ: ما الذي منعه من السجود لآدم،
فأحوجه إلى أَنْ لَا يسجدَ له، واضطره إلى خِلافِهِ أَمْرُهُ بِهِ، وتركه طاعته - أَنْ
المانعُ كان له من السجود، والداعي له إلى خِلافِهِ أَمْرُ رَبِّهِ فِي ذلك: أنه أشدَّ
منه أَيْدًى^(١)، وأقوى منه قُوَّةً، وأفضل منه فضلاً، لفضلِ الجنسِ الذي منه خُلِقَ،

الأعراف: ١٢

وهو النار، على الذي خُلِقَ منه آدم، وهو الطين. فَجَهَلَ عَدُوُّ الله وجهَ الحقِّ، وأخطأ سبيلَ الصواب. إذ كان معلوماً أنَّ من جوهرِ النارِ الخِفَّةَ والطيشَ والاضطراب والارتفاعَ عُلوًّا، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حملَ الخبيثَ بعد الشقاء الذي سَبَقَ له من الله في الكتابِ السابق، على الاستكبار عن السجودِ لآدم، والاستخفافِ بأمرِ ربه، فأورثه العَطَبَ والهلاكَ. وكان معلوماً أنَّ من جوهرِ الطينِ الرزانةُ والأناةُ والحلمُ والحياةُ والثبُتُ، وذلك الذي هو في جوهره من ذلك، كان الداعي لآدم بعدَ السعادةِ التي كانت سبقت له من رَبِّهِ في الكتابِ السابق، إلى التوبةِ، من خطيئته، ومسألته رَبَّهُ العفو عنه والمغفرة. ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان: «أولُ مَنْ قاسَ إبليسُ»، يعنيان بذلك: القياسَ الخطأ^(١)، وهو هذا الذي ذكرنا من خطأ قوله، ويُعَدُّه من إصابةِ الحقِّ، في الفضل الذي خَصَّ اللهُ به آدم على سائرِ خَلْقِهِ: من خَلَقَهُ إياهُ بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاده له الملائكة، وتعليمه أسماءَ كُلِّ شيءٍ، مع سائرِ ما خَصَّهُ به من كرامته. فضرب عن ذلك كُلَّهُ الجاهلُ صَفْحاً، وقَصَدَ إلى الاحتجاجِ بأنه خُلِقَ من نارٍ وخُلِقَ آدم من طين!! وهو في ذلك أيضاً له غيرُ كفو، لو لم يكن لآدم من الله جَلُّ ذِكْرِهِ تَكْرَمَةً شيءٍ غيره، فكيف والذي خَصَّ به من كرامته يكثرُ تعداده، ويُمَلُّ إحصاؤه.

وهذا الذي قاله عَدُوُّ الله ليس لما سألَه عنه بجواب. وذلك أنَّ الله تعالى ذَكَرَهُ قال له: ما منعَكَ من السجود؟ فلم يُجِبْ بأنَّ الذي منعه من السجود أنه خُلِقَ من نارٍ وخُلِقَ آدم من طين، ولكنه ابتداءً خيراً عن نفسه، فيه دليلٌ على موضعِ الجوابِ فقال: «أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين».

(١) هذه التفاتةٌ فقيه عارف، فليس المقصود به كل قياس كما يفسره الجَهْلَةُ، هذا إذا

صَحَّ عنهما رحمهما الله أنهما قالا ذلك!

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾

يعني بذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ: قال الله لإبليسَ عند ذلك: «فاهبط منها». «فما يكونُ لكُ أَنْ تتكبرَ فيها»، يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: فقال الله له: «اهبطُ منها»، يعني من الجنة. «فما يكونُ لكُ»، يقول: فليس لكُ أَنْ تستكبرَ في الجنة عن طاعتي وأمري.

فإن قال قائل: هل لأحدٍ أَنْ يتكبرَ في الجنة؟

قيل: إنَّ معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبَ، وإنما معنى ذلك: فاهبطُ من الجنة، فإنه لا يسكنُ الجنةَ متكبرٌ عن أمرِ الله، فأما غيرها، فإنه يسكنها المستكبرُ عن أمرِ الله، والمستكينُ لطااعته.

وقوله: «فاخرجُ إنك من الصاغرين»، يقول: فاخرج من الجنة، إنك من الذين قد نالَهُم من الله الصغارُ والذلُّ والمهانة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾

وهذه أيضاً جهلةٌ أخرى من جهلاتِهِ الخبيثة. سأل رَبَّهُ ما قد عَلِمَ أنه لا سبيلَ لأحدٍ من خَلْقِ الله إليه. وذلك أنه سأل النُّظرةَ إلى قيام الساعة، وذلك هو يوم يبعث فيه الخلق. ولو أُعطيَ ما سألَ من النُّظرة، كان قد أُعطيَ الخلودَ وبقاءً لا فناءَ معه، وذلك أنه لا موتَ بعد البعثِ. فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿[سورة الحجر: ٣٧، ٣٨] / سورة ص: ٨٠، ٨١﴾، وذلك إلى اليومِ الذي قد كتبَ اللهُ عليه فيه الهلاكُ والموتُ

والفناء، لأنه لا شيء يبقى فلا يفنى، غير رَبَّنَا الحي الذي لا يموت. يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، [آل عمران: ١٨٥ / الأنبياء: ٣٥ / العنكبوت: ٥٧]. و«الإنظار» في كلام العرب، التأخير. يقال منه: «أَنْظَرْتُهُ بحقي عليه أَنْظَرُهُ به إنظاراً»^(١).

فإن قال قائل: فإن الله قد قال له إذ سأله الإنظار إلى يوم يُبعثون: «إنك من المنظرين» في هذا الموضع، فقد أجابه إلى ما سأل؟

قيل له: ليس الأمر كذلك، وإنما كان مُجيباً له إلى ما سأل لو كان قال له: «إنك من المنظرين إلى الوقت الذي سألت - أو: إلى يوم البعث - أو: إلى يوم يبعثون»، أو ما أشبه ذلك، مما يدل على إجابته إلى ما سأل من النظر. وأما قوله: «إنك من المنظرين»، فلا دليل فيه لولا الآية الأخرى التي قد بين فيها مدة إنظاره إياه إليها، وذلك قوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ إلى يوم الوقت المعلوم، [الحجر: ٣٧، ٣٨ / ص: ٨٠، ٨١]، كم المدة التي أنظره إليها، لأنه إذا أنظره يوماً واحداً أو أقل منه أو أكثر، فقد دخل في عداد المنظرين، وتم فيه وعْدُ الله الصادق، ولكنه قد بين قَدْرَ مُدَّةِ ذلك بالذي ذكرناه، فعلم بذلك الوقت الذي أنظر إليه.

فتأويل الكلام: قال إبليسُ لربه: «أنظرني»، أي أخرني وأجلني، وأنسى في أجلي، ولا تُمتني. «إلى يوم يبعثون»، يقول: إلى يوم يُبعث الخلق. فقال تعالى ذِكْرُهُ: «إنك من المنظرين»، إلى يوم يُنفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله.

فإن قال قائل: فهل أحد مُنْظَرٌ إلى ذلك اليوم سوى إبليس، فيقال له: «إنك منهم»؟

(١) انظر مفردات الراغب: ٨١٣ ففيه مزيد دلالات على ذلك من الآيات الكريمات.

قيل: نعم، مَنْ لم يقبض الله روحه من خَلْقِهِ إلى ذلك اليوم، ممن تقوم عليه الساعة، فهم من المُنْظَرِينَ بِأَجَالِهِمْ إِلَيْهِ. ولذلك قيل لإِبْلِيسَ: «إنك من المنظرين»، بمعنى: إنك مِمَّنْ لَا يُمِيتُهُ اللهُ إِلَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ

الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾

يقول جَلُّ ثَنَائِهِ: قال إبليسُ لربه: «فبما أغويتني»، يقول: فَبِمَا أَضَلَلْتَنِي.

وفي هذا بيانٌ واضح على فسادِ ما يقولُ الْقَدَرِيَّةُ، من أَنَّ كُلَّ مَنْ كَفَرَ أو آمَنَ فبتفويضِ الله أسبابَ ذلك إليه، وأنَّ السببَ الذي به يصلُ المؤمنُ إلى الإيمان، هو السببُ الذي به يصلُ الكافرُ إلى الكفر. وذلك أنَّ ذلك لو كان كما قالوا: لكان الخبيثُ قد قال بقوله: «فبما أغويتني»، «فبما أصلحتني»، إذ كان سببُ «الإغواء» هو سببُ «الإصلاح»، وكان في إخبارِهِ عن الإغواءِ إخبارٌ عن الإصلاحِ، ولكن لما كان سبباهما مختلفين، وكان السببُ الذي به غَوَى وهلك من عند الله. أضافَ ذلك إليه فقال: «فبما أغويتني».

وأما قوله: «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ»، فإنه يقول: لأَجْلِسَنَّ لبني آدَمَ «صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ»، يعني: طريقَكَ الْقَوِيمَ، وذلك دِينُ الله الْحَقِّ، وهو الإسلامُ وشرائعه. وإنما معنى الكلام: لأَصُدُّنُ بني آدمَ عن عبادتِكَ وطاعتِكَ، ولأَغْوِيَهُمْ كما أغويتني، ولأَضِلُّهُمْ كما أضَلَلْتَنِي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ

أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

يعني بذلك جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ثم لَا تَتَيْنَهُمْ من جميع وجوه الحقِّ والباطلِ، فَأَصْدُهُمْ عن الحقِّ، وأَحْسَنَ لَهُم الباطلَ. وذلك أَنَّ ذلكَ عَقِيبَ قوله: «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ»، فأخبر أنه يَقْعُدُ لِبَنِي آدَمَ على الطريقِ الذي أَمَرَهُم اللهُ أَنْ يَسْلُكُوهُ، وهو ما وصفنا من دينِ الله دينِ الحقِّ، فيأتيهم في ذلك من كُلِّ وجوهِهِ، من الوجهِ الذي أَمَرَهُم اللهُ بِهِ، فيَصْدُهُم عنه، وذلك «مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ» - ومن الوجهِ الذي نَهَاَهُم اللهُ عَنْهُ، فيزَيِّنُهُ لَهُمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، وذلك «مِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ».

وأما قوله: «وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ». فإنه يَقُولُ: وَلَا تَجِدُ، رَبُّ، أَكْثَرَ بَنِي آدَمَ شَاكِرِينَ لَكَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، كَتَرَمَتِكَ أَبَاهُمْ آدَمَ بِمَا أَكْرَمْتَهُ بِهِ، مِنْ إِسْجَادِكَ لَهُ مَلَائِكَتَكَ، وَتَفْضِيلِكَ إِيَّاهُ عَلَيَّ - «وَشَكَرَهُمْ إِيَّاهُ»، طَاعَتُهُمْ لَهُ بِالْإِقْرَارِ بِتَوْحِيدِهِ، وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُورًا^ط

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عَنْ إِحْلَالِهِ بِالْخَبِيثِ عَدُوَّ الله ما أُحْلَ بِهِ مِنْ نِقْمَتِهِ وَلَعْنَتِهِ، وَطَرِدِهِ إِيَّاهُ عَنْ جَنَّتِهِ، إِذْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ، وَرَاجَعَهُ مِنَ الْجَوَابِ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَرَاجَعَتُهُ بِهِ. يَقُولُ: قَالَ اللهُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ: «أَخْرِجْ مِنْهَا»، أَيِ مِنَ الْجَنَّةِ. «مَذْمُورًا مَذْحُورًا»، يَقُولُ: مَعِيًا.

وَالذَّامُ الْعَيْبُ. يَقَالُ مِنْهُ: «ذَامُهُ يَذَامُهُ ذَامًا فَهُوَ مَذْمُومٌ»، وَيَتْرَكُونَ الْهَمْزَ فَيَقُولُونَ: «ذِمَّتُهُ أَذِيْمُهُ ذَيْمًا وَذَامًا»، وَالذَّامُ وَالذَّيْمُ، أَبْلَغُ فِي الْعَيْبِ مِنَ «الذَّمِّ».

وأما «المدحور»، فهو المُقَصَّى، يقال: «دَحَرَهُ يَدْحَرُهُ دَحْرًا وَدُحُورًا»، إذا أقصاه وأخرجَهُ، ومنه قولهم: «ادْحَرْ عَنْكَ الشَّيْطَانُ»^(١).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَمَنْ يَعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

وهذا قَسَمٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ. أقسم أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ من بني آدَمَ عَدُوَّ الله إبليس وأطاعَهُ وَصَدَّقَ ظَنَّهُ عَلَيْهِ، أَنَّ يَمْلَأُ من جميعهم - يعني: من كَفَرَةِ بني آدَمَ تَبَاعِ إبليسَ، ومن إبليسَ وذريته - جهنم. فَرَحِمَ الله امرأً كَذَبَ ظَنُّ عَدُوَّ الله في نفسه، وَخَيَّبَ فيها أمله وأمنيته، ولم يَمَكُنْ من طَمَعٍ طَمَعٍ فيها عَدُوَّهُ، واستغشَّه ولم يستنصحه، فَإِنَّ الله تعالى ذَكَرَهُ إِنَّمَا نَبَّهَ بهذه الآياتِ عِبَادَهُ على قَدَمِ عداوةِ عَدُوِّهِ وعدوهم إبليسَ لهم، وسالفٍ ما سَلَفَ من حَسَدِهِ لأبيهم، وَبَغْيِهِ عليه وعليهم، وَعَرَفَهُمْ مَوَاقِعَ نِعْمِهِ عليهم قديمًا في أنفسهم ووالدهم لِيَذْبُرُوا آيَاتِهِ، وليتذكَّرَ أَوَّلُو الألباب، فينزعروا عن طاعةِ عَدُوِّهِ وعدوهم إلى طاعته وَيُنِيبُوا إِلَيْهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَتَكَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَا مِنْ

حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾

يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: وقال الله لآدَمَ: «يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا»، فاسْكُنْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ الْجَنَّةَ بعد أَنْ أَهْبَطَ منها إبليسَ وأخرجَهُ منها، وأباحَ لهما أَنْ يَأْكُلَا من ثَمَارِهَا من أَيِّ مكانٍ شَاءَا منها،

(١) أنظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٢١٢/١.

وَنَهَايَهُمَا أَنْ يَنْقَرَبَا ثَمَرَ شَجَرَةٍ بَعَيْنَهَا.

«فتكونا من الظالمين»، يقول: فتكونا ممن خالف أمر ربّه، وفعل ما ليس له فعله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءٍ إِلَهُمَا

معنى الكلام: فاجذب إبليسُ إلى آدم حواء، وألقى إليهما: ما نهأكما ربُّكما عن أكلِ ثمر هذه الشجرة، إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين - ليبدّي لهما ما واره الله عنهما من عوراتهما فغطّاه بستره الذي ستره عليهما.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٩﴾

يقول جلّ ثناؤه: وقال الشيطان لأدم وزوجته حواء: ما نهأكما ربُّكما عن هذه الشجرة أن تأكلا ثمرها، إلا لثلا تكونا ملكتين.

وأسقطت «لا» من الكلام، لدلالة ما ظهر عليها، كما أسقطت من قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾، [النساء: ١٧٦]. والمعنى: يبينُ الله لكم أن لا تضلُّوا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَاسَمَهُمَا إِنْ كُنَّا لِنَنْصَحِيكَ



يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «وَقَاسَمَهُمَا»، وَحَلَفَ لهما، كما قال في موضع آخر: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾، [النمل: ٤٩]، بمعنى تحالفوا بالله.

وقوله: «إني لكما لمن الناصحين» أي: لِمَنْ يَنْصَحُ لكما في مشورته لكما، وأمره إياكما بأكل ثمرِ الشجرة التي نُهيْتُمَا عن أكلِ ثمرها، وفي خبري إياكما بما أخبركما به، من أنكما إن أكلتماه كنتما مَلَكَيْنِ أو كنتما من الخالدين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَذَلَّلَهُمَا بَغْرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «فَذَلَّلَهُمَا بَغْرُورٍ»، فَخَذَّعَهُمَا بَغْرُورٍ. «فلما ذاقا الشجرة»، يقول: فلما ذاقَ آدَمُ وَحَوَاءَ ثَمَرَ الشَّجَرَةِ، يقول: طَعَمَاهُ. «بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا»، يقول: انكشفتَ لهما سَوَاتُهُمَا، لأنَّ الله أعراهما من الكسوة التي كان كسَاهُمَا قَبْلَ الذَّنْبِ وَالْخَطِيئَةِ، فسلبهما ذلك بِالْخَطِيئَةِ التي أَخْطَاَ وَالْمَعْصِيَةِ التي رَكَّبَا. «وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ»، يقول: أَقْبَلَا وَجَعَلَا يَشْدَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، ليواريا سَوَاتَهُمَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَفَادَهُمَا رَبُّهُمَا ألَمْ أَرْأَيْتُكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَنَادَى آدَمَ وَحَوَاءَ رَبُّهُمَا: أَلَمْ أُنْهَيْكُمَا عَنْ أكلِ ثَمَرَةِ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَكَلْتُمَا ثَمَرَهَا، وَأَعْلِمْتُكُمَا أَنَّ إِبْلِيسَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ - يقول: قد أَبَانَ عداوته لكما، بترك السجود لآدم حسداً وبغياً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ عن آدمَ وحواءَ فيما أجاباهُ به، واعترافهما على أنفسهما بالذنب، ومسالتهما إياهُ المغفرةَ منه والرحمة، خِلافَ جوابِ اللعينِ إبليسَ إياه.

ومعنى قوله: «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا»، قال آدمُ وحواءُ لربهما: يا رَبَّنَا، فعلنا بأنفسنا من الإساءةِ إليها بمعصيتك وخِلافِ أمرك، وبطاعتنا عَدُوَّنَا وعدوكَ فيما لم يكنْ لنا أَنْ نُطِيعه فيه، من أكلِ الشجرةِ التي نَهَيْتَنَا عَنْ أَكْلِهَا. «وإنْ لم تغفرْ لنا»، يقول: «وإنْ أَنْتَ لم تَسْتُرْ علينا ذُنُوبَنَا فتغْطيه علينا، وتتركْ فضيحتَنَا به بعقوبتك إِيَّانَا عليه. «وترحمنا»، بتعْطِفِكَ علينا، وتَرْكِكَ أَخْذَنَا به. «لنكوننَّ من الخاسرين»، يعني: لنكوننَّ من الهالكين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعَةٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن فعله بإبليسَ وذُرِّيَّتِهِ، وآدمَ وولده، والحية.

يقول تعالى ذِكْرُهُ لآدمَ وحواءَ وإبليسَ والحية: اهْبِطُوا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ.

وقوله: «ولكم في الأرضِ مستقرٌّ»، يقول: ولكم، يا آدمُ وحواءَ، وإبليسَ والحية - في الأرضِ قَرَارٌ تستقرونه، وفرَاشٌ تَمْتَدُونَهُ.

وأما قوله: «ومتاع إلى حين»، فإنه يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «ولكم فيها متاع»، تستمتعون به إلى انقطاع الدنيا، وذلك هو الحِينُ الذي ذكره.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال الله للذين أهبَطَهُمْ من سَمَوَاتِهِ إلى أرضه: «فيها تَحْيَوْنَ»، يقول: في الأرض تحيون، يقول: تكونون فيها أيامَ حياتِكُمْ. «وفيها تموتون»، يقول: في الأرض تكون وفاتِكُمْ. «ومنها تُخْرَجُونَ»، يقول: ومن الأرض يُخْرِجُكُمْ رَبُّكُمْ ويحشركم إليه لبعثِ القيامةِ أحياءَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لُبَاسًا يُؤَرِّى سَوَآتِكُمْ

يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِلْجَهْلَةِ من العرب الذين كانوا يَتَعَرَّوْنَ للطوافِ، أتباعاً منهم أمرَ الشيطان، وتركاً منهم طاعة الله، فَعَرَّفَهُمْ انخداعَهُمْ بغروره لهم، حتى تَمَكَّنَ منهم فَسَلَبَهُمْ من سِتْرِ الله الذي أنعمَ به عليهم، حتى أبدى سَوَاتِهِمْ وأظهرها من بعضهم لبعض، مع تَفَضُّلِ الله عليهم بتمكينهم مما يسترونها به، وأنه قد سار بهم سِيرَتَهُ في أبويهم آدم وحواء اللذين دَلَّاهُمَا بغرورٍ حتى سَلَبَهُمَا سِتْرَ الله الذي كان أنعمَ به عليهما حتى أبدى لهما سَوَاتِهِمَا فَعَرَّاهُمَا منه: «يا بني آدم قد أنزلنا عليك لباساً»، يعني بإنزاله عليهم ذلك، خَلَقَهُ لهم، وَرَزَقَهُ إياهم - «واللباس» ما يلبسون من الثياب. «يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ»، يقول: يستُرُ عوراتِكُمْ عن أعينِكُمْ - وَكُنِيَ بـ«السَوَاتِ»، عن العورات.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَرِيشًا

و«الرياش» في كلام العرب، الأثاث، وما ظهر من الثياب من المتاع مما يُلبَسُ أو يُحشى من فراشٍ أو دثار.

و«الريش» إنما هو المتاع والأموال عندهم. وربما استعملوه في الثياب والكسوة دون سائر المال. يقولون: «أعطاء سرجاً بريشه»، و«رحلاً بريشه»، أي بكسوته وجهازه. ويقولون: «إنه لحسن ريش الثياب»، وقد يستعمل «الرياش» في الخِصْبِ ورفاهة العيش.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ

اختلفت القراءَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامة قراءِ المكيين والكوفيين والبصريين: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، برفع «ولباس».

وقرأ ذلك عامة قراءِ المدينة: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾، بنصب «اللباس»، وهي قراءة بعض قراءِ الكوفيين.

فتأويل - الكلام - إذا رفع «لباس التقوى» -: «لباس التقوى ذلك الذي قد عَلِمْتُمُوهُ، خيرٌ لكم يا بني آدم، من لباسِ الثياب التي تُؤاري سواتكم، ومن الرياش التي أنزلناها إليكم، هكذا فالبسوه.

وأما تأويل مَنْ قرأه نصباً، فإنه: «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يُؤاري سواتكم وريشاً ولباس التقوى»، هذا الذي أنزلنا عليكم من اللباس الذي يُؤاري سواتكم والريش، ولباسُ التقوى خيرٌ لكم من التعري والتجرد من الثياب في طوافكم بالبيت، فاتقوا الله والبسوا ما رَزَقَكُم اللهُ من الرياش، ولا تطيعوا

الشیطان بالتجرد والتعري من الثياب، فإن ذلك سخرية منه بكم وخدعة، كما فعل بأبويكم آدم وحواء، فخذعهما حتى جردتهما من لباس الله الذي كان لبسهما بطاعتهما له، في أكل ما كان الله نهاهما عن أكله من ثمر الشجرة التي عصاه بأكلها.

وهذه القراءة أولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب، أعني نصب قوله: ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾، لصحة معناه في التأويل على ما بينت، وأن الله إنما ابتداء الخبر عن إنزاله للباس الذي يوارى سواتنا والرياش، توبيخاً للمشركين الذين كانوا يتجردون في حال طوافهم بالبيت، ويأمرهم بأخذ ثيابهم والاستتار بها في كل حال، مع الإيمان به واتباع طاعته - ويعلمهم أن كل ذلك خير من كل ما هم عليه مقيمون من كفرهم بالله، وتعريهم، لا أنه أعلمهم أن بعض ما أنزل إليهم خير من بعض.

ومما يدل على صحة ما قلنا في ذلك، الآيات التي بعد هذه الآية، وذلك قوله: «يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما» وما بعد ذلك من الآيات إلى قوله: «وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون»، فإنه جل ثناؤه يأمر في كل ذلك بأخذ الزينة من الثياب، واستعمال اللباس، وترك التجرد والتعري، وبالإيمان به، واتباع أمره والعمل بطاعته، وينهى عن الشرك به واتباع أمر الشيطان، مؤكداً في كل ذلك ما قد أجمله في قوله: «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سواتكم وريشاً ولباساً التقوى ذلك خير».

وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: «ولباس التقوى»، استشعار النفوس تقوى الله، في الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته، وذلك يجمع الإيمان، والعمل الصالح، والحياء، وخشية الله، والسمت الحسن. لأن من اتقى الله كان به مؤمناً، وبما أمره به عاملاً، ومنه

خائفاً، وله مراقباً، ومن أن يُرى عندما يكرهه من عباده مُستَحْيياً. ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فَحَسَنَ سَمَتَهُ وَهَذِيهِ، وَرُبِّيَتْ عَلَيْهِ بِهِجَةُ الْإِيمَانِ وَنُورُهُ.

وإنما قلنا عَنَى بـ«لباس التقوى»، استشعار النفس والقلب ذلك - لأنّ «اللباس»، إنما هو أدراع ما يلبس، واجتياّب^(١) ما يكتسى، أو تغطية بدنه أو بعضه به. فكل من أدرع شيئاً واجتياّبهُ حتى يُرى عَيْنُهُ أو أثرُهُ عليه، فهو له «لابس». ولذلك جعلَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الرجالَ للنساءِ لباساً، وهُنَّ لَهُنَّ لباساً، وجعل الليل لعباده لباساً^(٢).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ



يقول تعالى ذِكْرُهُ: ذلك الذي ذكرتُ لكم أني أنزلته إليكم، أيها الناس، من اللباس والرياش، من حججِ الله وأدلته التي يعلمُ بها مَنْ كَفَرَ صَحَّةَ توحيدِ الله، وخطأ ما هُم عليه مقيمون من الضلالة. «لعلهم يذكرون»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: جعلتُ ذلك لهم دليلاً على ما وصفتُ، ليذكروا فيعتبروا وَيُنَبِّئُوا إِلَى الْحَقِّ وَتَرْكِ الْبَاطِلِ، رَحْمَةً مِنِّي بَعَادِي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَبْقَىٰ آدَمَ لَا يَفْنَىٰ نَفْسُكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰ تَيْمَانًا

(١) اجتناب الثوب اجتياّباً: لَبَسَهُ.

(٢) في قوله تعالى: «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ» [البقرة: ١٨٧]، وفي قوله

سبحانه: «وجعلنا الليل لباساً» [النبا: ١٠].

الأعراف: ٢٧

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يَا بَنِي آدَمَ: لَا يَخَذَعَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ فَيُبَيِّدِي سَوَاتِكُمْ لِلنَّاسِ بِطَاعَتِكُمْ إِيَّاهُ عِنْدَ اخْتِبَارِهِ لَكُمْ، كَمَا فَعَلَ بِأَبَوَيْكُم آدَمَ وَحَوَاءَ عِنْدَ اخْتِبَارِهِ إِيَّاهُمَا فَاطَاعَاهُ وَعَصَيَا رَبَّهُمَا، فَأَخْرَجَهُمَا بِمَا سَبَّبَ لَهُمَا مِنْ مَكْرِهِ وَخُدْعِهِ، مِنَ الْجَنَّةِ، وَنَزَعَ عَنْهُمَا مَا كَانَ الْبَسَهُمَا مِنَ اللِّبَاسِ، لِئَرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا بِكَشْفِ عَوْرَتِهِمَا، وَإِظْهَارِهَا لَأَعْيُنِهِمَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُسْتَرَّةً.

وقد اختلف أهل التأويل في صفة «اللباس» الذي أخبر الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّهُ نَزَعَهُ عَنْ أَبَوَيْنَا، وَمَا كَانَ.

فقال بعضهم: كَانَ ذَلِكَ أَظْفَاراً.

وقال آخرون: كَانَ لِبَاسَهُمَا نوراً.

وقال آخرون: إِنَّمَا عَنَى اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «يَنْزَعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا»، يَسْلُبُهُمَا تَقْوَى اللَّهِ.

والصوابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ عِنْدِي أَنْ يَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَذَرَ عِبَادَهُ أَنْ يَفْتَنَهُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا فَتَنَ أَبَوَيْهِمْ آدَمَ وَحَوَاءَ، وَأَنْ يُجَرِّدَهُمَ مِنَ لِبَاسِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَيْهِمْ، كَمَا نَزَعَ عَنْ أَبَوَيْهِمْ لِبَاسَهُمَا. «اللباس» المطلق من الكلامِ بغيرِ إِضَافَةٍ إِلَى شَيْءٍ فِي مَتَعَارِفِ النَّاسِ، وَهُوَ مَا اجْتَنَبَ فِيهِ اللَّابِسُ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُتْسَى، أَوْ غَطَّى بِهِهُ أَوْ بَعْضُهُ.

وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَالْحَقُّ أَنْ يَقَالَ: إِنَّ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهَ عَنْ آدَمَ وَحَوَاءَ مِنَ لِبَاسِهِمَا الَّذِي نَزَعَهُ عَنْهُمَا الشَّيْطَانُ، هُوَ بَعْضُ مَا كَانَا يُؤَارِيَانِ بِهِ أَبْدَانَهُمَا وَعَوْرَتَهُمَا.

وقد يجوز أن يكون ذلك كان ظفراً - ويجوز أن يكونَ كَانَ ذَلِكَ نوراً - ويجوز أن يكون غير ذلك - ولا خبرَ عِنْدَنَا بِأَيِّ ذَلِكَ ثَبِتَ بِهِ الْحُجَّةُ، فَلَا قَوْلَ فِي ذَلِكَ أَصَوِّبُ مِنْ أَنْ يَقَالَ كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «يَنْزَعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا».

وأضاف جَلُّ ثَنَاؤُهُ إلى إبليس إخراج آدمَ وحواء من الجنة، ونزع ما كان عليهما من اللباسِ عنهما، وإن كان الله جَلُّ ثَنَاؤُهُ هو الفاعلُ ذلك بهما عقوبةً على معصيتهما إياه، إذ كان الذي كان منهما في ذلك عن تَسْنِيَةٍ^(١) ذلك لهما بمكرهٍ وخداعه، فأضيفَ إليه أحياناً بذلك المعنى، وإلى الله أحياناً بفعله ذلك بهما.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّهُمْ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ

إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

يعني جَلُّ ثَنَاؤُهُ بذلك: إنَّ الشيطانَ يراكم هو - و«الهاء» في «إنه» عائدةٌ على الشيطان - و«قبيله»، يعني: وصنْفُه وجنسُه الذي هُوَ منه واحدٌ جَمْعُه قبل، وهم الجن.

وقوله: «من حيث لا ترونهم» يقول: من حيث لا ترون أنتم، أيها الناس، الشيطانَ وقبيله. «إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون»، يقول: جعلنا الشياطين نُصْرَاءَ الكفار الذين لا يُوحِدُونَ الله ولا يُصَدِّقُونَ رُسُلَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلُوبًا إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَنْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

قال: كان نساؤهم يَطْفَنُ بالبيتِ عُرَاءَ، فتلك الفاحشة التي وجدوا عليها آباءهم: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ»، الآية.

(١) سَنَى له الأمر: سَهَّلَهُ وَيَسَّرَهُ وفتح.

(يعني): وإذا فعلَ الذين لا يؤمنونَ بالله، الذين جعلَ الله الشياطينَ لهم أولياء، قبيحاً من الفعل، وهو «الفاحشة»، وذلك تَعْرِيفُهم للطوافِ بالبيتِ وتجردهم له، فَعُدُّوا على ما أتوا من قبيحِ فِعْلِهِم وَعُوتُوا عليه، قالوا: «وجدنا على مِثْلِ ما نفعلُ آبَاءنا، فنحنُ نفعلُ مِثْلَ ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم، ونستنُ بسنتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبعُ أمره فيه».

يقول الله جَلَّ ذِكْرُهُ لِنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ، يا محمدُ، لهم: «إِنَّ الله لا يَأْمُرُ بالفحشاء»، يقول: لا يَأْمُرُ خَلْقَهُ بقبائحِ الأفعالِ ومساوئِها. «أتقولون»، أيها الناسُ، «على الله ما لا تعلمون»، يقول: أترَوُونَ على الله أنه أَمَرَكُم بالتعري والتجردِ من الثيابِ واللباسِ للطوافِ، وأنتم لا تعلمون أنه أَمَرَكُم بذلك؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا
وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء الذين يزعمون أن الله أمرهم بالفحشاء كَذِباً على الله: ما أمرَ ربي بما تقولون، بَلْ «أمرَ ربي بالقسط»، يعني: بالعدل.

وأما قوله: «وأقيموا وُجُوهَكُمْ عند كُلِّ مسجدٍ»، فَإِنَّ أَهْلَ التَّوِيلِ اخذوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: وَجَّهُوا وُجُوهَكُمْ حَيْثُ كُنْتُمْ فِي الصَّلَاةِ إِلَى الْكَعْبَةِ.

وقال آخرون: بَلْ عَنَى بِذَلِكَ: واجعلوا سُجُودَكُمْ لِلَّهِ خَالِصاً، دُونَ ما سواه من الآلهةِ والأنداد.

وأولى هذين التأويلين بتأويل الآية: أَنَّ الْقَوْمَ أَمَرُوا أَنْ يَتَوَجَّهُوا بِصَلَاتِهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ، لَا إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، وَأَنْ يَجْعَلُوا دَعَاءَهُمْ لِلَّهِ خَالِصاً، لَا مُكَاءً وَلَا تَصَدِيقاً.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية، لأنَّ الله إنما خاطبَ بهذه الآية قوماً من مشركي العرب، لم يكونوا أهلَ كُنَائْسٍ وَبَيْعٍ، وإنما كانت الكُنَائْسُ وَالبَيْعُ لأهل الكتابين. فغير معقولٍ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ لَا يَصْلِي فِي كَنِيسَةٍ وَلَا بَيْعَةٍ: «وَجَّهْ وَجْهَكَ إِلَى الْكُعْبَةِ فِي كَنِيسَةٍ أَوْ بَيْعَةٍ».

وأما قوله: «وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»، فإنه يقول: واعمِلُوا لِرَبِّكُمْ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَالطَّاعَةَ، لَا تَخْلُطُوا ذَلِكَ بِشْرِكٍ، وَلَا تَجْعَلُوا فِي شَيْءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ لَهُ شَرِيكاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «كما بدأكم تعودون».

فقال بعضهم: تأويله: كما بدأكم أشقياء وسُعداء، كذلك تُبعثون يوم القيامة.

وقال آخرون: معنى ذلك: كما خلقكم ولم تكونوا شيئاً، تَعُودُونَ بعد الفناء.

وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، القول الذي قاله مَنْ قال: معناه: كما بدأكم الله خلقاً بعد أَنْ لَمْ تَكُونُوا شيئاً، تَعُودُونَ بعد فَنَائِكُمْ خَلْقاً مثله، يحشركم إلى يوم القيامة - لأنَّ الله تعالى ذَكَرَهُ: أَمْرَ نَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يُعْلِمَ

بما في هذه الآية قوماً مشركين أهل جاهلية، لا يؤمنون بالمعاد، ولا يُصدّقون بالقيامة. فأمره أن يدعوهم إلى الإقرار بأن الله باعثهم يوم القيامة، ومثيب من أطاعه، ومعاقب من عصاه. فقال له: قُلْ لهم: أمر ربي بالقسط، وأن أقيموا وجوهكم عند كل مسجد، وإن ادعوه مخلصين له الدين، وأن أقرؤا بأن كما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ - فترك ذِكْرَ «وَأَنْ أقرؤا بأن»، كما ترك ذِكْرَ «أن» مع «أقيموا»، إذ كان فيما ذكر دلالة على ما حذف منه.

وإذ كان ذلك كذلك، فلا وجه لأن يؤمر بدعاء من كان جاحداً للنشور بعد الممات، إلى الإقرار بالصفة التي عليها يُنشر من نُشر، وإنما يؤمر بالدعاء إلى ذلك من كان بالبعث مُصدّقاً، فأما من كان له جاحداً، فلنما يُدعى إلى الإقرار به، ثم يُعرَف كيف شرائط البعث.

ثم ابتداء الخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ عما سَبَقَ من عِلْمِهِ في خَلْقِهِ، وجرى به فيهم قضاؤه، فقال: هَدَى اللَّهُ مِنْهُمْ فَرِيقًا فَوْقَهُمْ لَصَالِحِ الْأَعْمَالِ فَهُمْ مُهْتَدُونَ، وَحَقٌّ عَلَى فَرِيقٍ مِنْهُمْ الضَّلَالَةُ عَنِ الْهُدَى وَالرُّشَادِ، باتخاذهم الشيطان من دون الله ولياً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ

اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إن الفريق الذي حَقَّ عليهم الضلالة، إنما ضَلُّوا عن سبيل الله وجاروا عن قَصْدِ المحجة، باتخاذهم الشياطين نُصراء من دون الله، وظُهراء، جهلاً منهم بخطأ ما هُم عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدى وَحَقٍّ، وأن الصواب ما أتوه وركبوا.

وهذا من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يُعَذِّب أحداً

على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علمٍ منه بصواب وجهها، فيركبها عناداً منه لربه فيها. لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضلّ وهو يحسب أنه هادي وفريق الهدى، فرق. وقد فرق الله بين اسمائهما وأحكامهما في هذه الآية.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَبْنِيْءَ آدَمَ خُدُوًا زِيْنَتَكَرْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين يتعرون عند طوافهم بيته الحرام، ويبدون عوراتهم هنالك من مشركي العرب، والمُحَرَّمِينَ منهم أكل ما لم يحرمه الله عليهم من حلال رزقه، تبرأ عند نفسه لربه: «يا بني آدم خذوا زينتكم»، من الكساء واللباس. «عند كل مسجد وكلوا»، من طيبات ما رزقنكم، وحللتكم لكم. «واشربوا»، من حلال الأشرية، ولا تُحَرِّمُوا إلا ما حرمت عليكم في كتابي أو على لسان رسولي محمد ﷺ.

وقوله: «إنه لا يحب المسرفين»، يقول: إن الله لا يحب المتعدين خذه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل الله أو حرم، بإحلال الحرام وتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يُحلَّل ما أُحِلَّ ويُحرَّم ما حُرِّم، وذلك العدل الذي أمر به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء الجَهْلَةِ من العرب الذين يتعرون عند طوافهم بالبيت، ويحرمون على أنفسهم ما أحللت

لهم من طيبات الرزق: مَنْ حَرَّمَ، أيها القوم، عليكم زينة الله التي خَلَقَهَا لعباده أَنْ تَتَزَيَّنُوا بها وتَجَمَّلُوا بلباسها، والحلال من رزقِ الله الذي رَزَقَ خَلْقَهُ لمطاعمهم ومشاربهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبیه محمد ﷺ: قُلْ، يا محمد - لهؤلاء الذين أمرتُكَ أَنْ تَقُولَ لهم: «مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَطَيِّبَاتِ الرِّزْقِ»، إِذْ عَيُّوا بِالْجَوَابِ، فلم يَذَرُوا مَا يُجِيبُونَكَ -: زينة الله التي أَخْرَجَ لعباده وطيبات رزقه، لِلَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَاتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ شَرَكَهُمْ فِي ذَلِكَ فِيهَا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَخَالَفَ أَمْرَ رَبِّهِ، وَهِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَشْرِكُهُمْ فِي ذَلِكَ يَوْمُنَّ أَحَدٌ كَفَرَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَخَالَفَ أَمْرَ رَبِّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ



يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما يَبَيِّنُ لَكُمْ الْوَاجِبَ عَلَيْكُمْ فِي اللِّبَاسِ وَالزَّيْنَةِ، وَالْحَلَالِ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْحَرَامِ مِنْهَا، وَمَيَّزْتُ بَيْنَ ذَلِكَ لَكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، كَذَلِكَ أَبَيَّنُّ جَمِيعَ أَدْلَتِي وَحُجْجِي، وَأَعْلَامَ حَلَالِي وَحَرَامِي وَأَحْكَامِي، لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ مَا يُبَيِّنُ لَهُمْ، وَيَفْقَهُونَ مَا يُمَيِّزُ لَهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ

يقول تعالى ذكّره لنبيه محمد: قُلْ، يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يتجرّدون من ثيابهم للطواف بالبيت، ويحرمون أكل طيبات ما أحل الله لهم من رزقه: أيها القوم، إن الله لم يُحرّم ما تحرمونه، بل أحلّ ذلك لعباده المؤمنين وطيبه لهم، وإنما حرّم ربّي القبائح من الأشياء - وهي «الفواحش» «ما ظهر منها»، فكان علانية. «وما بطن»، منها فكان سراً في خفاء.

وأما «الإثم»، فإنه المعصية. «والبغي»، الاستطالة على الناس. يقول تعالى ذكّره: إنما حرّم ربّي الفواحش مع الإثم والبغي على الناس.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾

يقول جلّ ثناؤه: إنما حرّم ربّي الفواحش والشرك به، أن تعبدوا مع الله إلهاً غيره. «ما لم يُنزل به سلطاناً»، يقول: حرّم ربكم عليكم أن تجعلوا معه في عبادته شركاً لشيء لم يجعل لكم في إشراككم إياه في عبادته حجة ولا برهاناً - وهو «السلطان». «وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون»، يقول: وأن تقولوا إن الله أمركم بالتعري والتجرّد للطواف بالبيت، وحرّم عليكم أكل هذه الأنعام التي حرّمتموها وسيّئتموها وجعلتموها وصائل وحوامي، وغير ذلك مما لا تعلمون أن الله حرّمه، أو أمر به، أو أباحه، فتضيفوا إلى الله تحريمه وحظره والأمر به، فإن ذلك هو الذي حرّمه الله عليكم دون ما تزعمون أن الله حرّمه، أو تقولون إن الله أمركم به، جهلاً منكم بحقيقة ما تقولون وتضيفونه إلى الله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا
يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: تَهْدُوا لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَخْبَرَ جَلُّ ثَنَائِهِ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا
إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا: «وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا». وَوَعِيدُوا مِنْهُمْ لَهُمْ عَلَى
كَذِبِهِمْ عَلَيْهِ، وَعَلَى إِصْرَارِهِمْ عَلَى الشَّرِكِ بِهِ وَالْمَقَامِ عَلَى كُفْرِهِمْ - وَمَذْكُرًا لَهُمْ
مَا أَحَلَّ بِأَمْثَلِهِمْ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُمْ: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ»، يَقُولُ: وَلِكُلِّ
جَمَاعَةٍ اجْتَمَعَتْ عَلَى تَكْذِيبِ رُسُلِ اللَّهِ، وَرَدِّ نَصَائِحِهِمْ، وَالشَّرِكِ بِاللَّهِ، مَعَ
مَتَابَعَةِ رَبِّهِمْ حُجْجَهُ عَلَيْهِمْ. «أَجَلٌ»، يَعْنِي: وَقْتُ لِحُلُولِ الْعُقُوبَاتِ بِسَاحَتِهِمْ،
وَنَزُولِ الْمَثَلَاتِ بِهِمْ عَلَى شِرْكِهِمْ. «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ»، يَقُولُ: فَإِذَا جَاءَ الْوَقْتُ
الَّذِي وَقَّعَهُ اللَّهُ لِهَلاَكِهِمْ، وَحُلُولِ الْعِقَابِ بِهِمْ. «لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ»، يَقُولُ: لَا يَتَأَخَّرُونَ بِالْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَمْتَمِعُونَ بِالْحَيَاةِ فِيهَا عَنْ
وَقْتِ هَلَاكِهِمْ وَحِينَ حُلُولِ أَجَلِ فَنَائِهِمْ، سَاعَةً مِنْ سَاعَاتِ الزَّمَانِ. «وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ»، يَقُولُ: وَلَا يَتَقَدِّمُونَ بِذَلِكَ أَيْضًا عَنْ الْوَقْتِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُمْ
وَقْتًا لِلْهَلَاكِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَبْنِيءَ آدَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ
عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مُعْرِفًا خَلْقَهُ مَا أَعَدَّ لِحَزْبِهِ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ
وَبِرَسُولِهِ، وَمَا أَعَدَّ لِحَزْبِ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَائِهِ وَالْكَافِرِينَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ: «يَا بَنِي آدَمَ
إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ»، يَقُولُ: إِنَّ يَجِيئَكُمْ رُسُلِي الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ إِلَيْكُمْ
بَدْعَائِكُمْ إِلَى طَاعَتِي، وَالْإِنْتِهَاءِ إِلَى أَمْرِي وَنَهْيِي. «مِنْكُمْ»، يَعْنِي: مِنْ أَنْفُسِكُمْ

ومن عشائركم وقبائلكم. «يَقْصُونَ عَلَيْكَ آيَاتِي»، يقول: يتلون عليكم آياتِ كتابي، ويُعَرِّفُونَكُمْ أَدْلَتِي وأعلامي على صِدْقِ ما جاؤوكم به من عندي، وحقيقة ما دعوكم إليه من توحيدي. «فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ»، يقول: فَمَنْ آمَنَ مِنْكُمْ بما أتاه به رُسلي مما قص عليه من آياتي وصدق، واتقى الله فَخَافَهُ بالعمل بما أمره به والانتهاه عما نهاه عنه على لسانِ رسوله. «وَأَصْلَحَ»، يقول: وأصلح أعماله التي كان لها مفسداً قبل ذلك من معاصي الله بالتحوُّبِ منها. «فلا خوفٌ عليهم»، يقول: فلا خوفٌ عليهم يومَ القيامةِ من عقابِ الله إذا وردوا عليه. «ولا هم يحزنون»، على ما فَاتَهُمْ من دُنْيَاهُمْ التي تركوها، وشهواتهم التي تَجَنَّبُوهَا، اتباعاً منهم لنهي الله عنها، إذا عاينوا من كرامةِ الله ما عاينوا هنالك.

فإن قال قائل: ما جوابُ قوله: «إِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ؟»

قيل: قد اختلف أهلُ العربية في ذلك.

فقال بعضهم في ذلك: الجوابُ مضمرٌ، يدلُّ عليه ما ظهرَ من الكلام، وذلك قوله: «فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ». وذلك لأنه حين قال: «فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ»، كأنه قال: فأطيعوهم.

وقال آخرون منهم: الجواب: «فَمَنْ اتَّقَى»، لأنَّ معناه: فَمَنْ اتَّقَى مِنْكُمْ وَأَصْلَحَ. قال: ويدلُّ على أنَّ ذلك كذلك، تبعيةُ الكلام. فكان في التبعيةِ اكتفاء من ذكر «مِنْكُمْ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾

يقول جلُّ ثناؤه: وأما مَنْ كَذَّبَ بآياتٍ رُسلي التي أرسلتها إليه، وجحدَ

(١) في المطبوع: «بليتاء» كأنه من غلط الطبع.

توحيدى، وكفر بما جاء به رُسلى، واستكبر عن تصديق حُججى وأدلتى. «فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»، يقول: هم في نار جهنم ماكثون لا يخرجون منها أبداً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ

يقول تعالى ذكره: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وأبعدُ ذهاباً عن الْحَقِّ والصواب. «مِمَّنْ افترى على الله كذباً»، يقول: ممن اختلق على الله زوراً من القول، فقال إذا فعل فاحشة: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنَا بِهَا. «أو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ»، يقول: أو كَذَّبَ بِأَدْلَتِهِ وَأَعْلَامِهِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَنُبُوَّةِ أَنْبِيَائِهِ، فجحدَ حَقِيقَتَهَا ودافعَ صِحَّتَهَا. «أولئك»، يقول: مَنْ فعل ذلك، فافتري على الله الكذب وكذبَ بآيَاتِهِ. «أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب»، يقول: يَصِلُ إِلَيْهِمْ حَظُّهُمْ مِمَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُمْ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ.

ثم اختلف أهل التأويل في صفة ذلك «النصيب»، الذي لهم في «الكتاب»، وما هو؟

فقال بعضهم: هو عذابُ الله الذي أعدَّهُ لأهل الكفر به.

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم مما سَبَقَ لَهُمْ مِنَ الشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ.

وقال آخرون: معنى ذلك، أولئك ينالهم نصيبهم من كتابهم الذي كتب لهم أو عليهم، بأعمالهم التي عَمِلُوهَا فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ينالهم نصيبهم مما وَعِدُوا فِي الْكِتَابِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب الذي كتبه الله على من افترى عليه.

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم مما كتب لهم من الرزق والعمر والعمل.

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب، مما كتب لهم من خيرٍ وشرٍ في الدنيا، ورزقٍ وعملٍ وأجل. وذلك أن الله جل ثناؤه أتبع ذلك قوله: «حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله»، فأبان باتباعه ذلك قوله: «أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب»، أن الذي ينالهم من ذلك إنما هو ما كان مقضيًا عليهم في الدنيا أن ينالهم، لأنه قد أخبر أن ذلك ينالهم إلى وقت مجيئهم رسله لتقبض أرواحهم. ولو كان ذلك نصيبهم من الكتاب، أو مما قد أعد لهم في الآخرة، لم يكن محدوداً بأنه ينالهم إلى مجيء رسل الله لوفاتهم، لأن رسل الله لا تجيئهم للوفاة في الآخرة، وأن عذابهم في الآخرة لا آخر له ولا انقضاء، فإن الله قد قضى عليهم بالخلود فيه. فبين بذلك أن معناه ما اخترنا من القول فيه.

القول في تأويل قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آيِنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: «حتى إذا جاءتهم رسلنا»، إلى أن جاءتهم رسلنا. يقول جل ثناؤه: وهؤلاء الذين افتروا على الله الكذب، أو كذبوا بآيات ربهم، ينالهم حظوظهم التي كتب الله لهم، وسبق في علمه لهم من رزقٍ وعملٍ وأجلٍ

وخيرٍ وشرٍ في الدنيا، إلى أن تأتيهم رُسُلُنَا لِقَبْضِ أرواحهم. فإذا جاءتهم رُسُلُنَا، يعني مَلَكُ الموت وجُنْدُه. «يَتَوَفَّوْنَهُمْ»، يقول: يستوفون عددهم من الدنيا إلى الآخرة. «قالوا أين ما كنتم تَدْعُونَ من دون الله»، يقول: قالت الرسل: أين الذين كنتم تَدْعُونَهُمْ أولياء من دون الله وتعبدونهم، لا يدفعون عنكم ما قد جاءكم من أمرِ الله الذي هو خالقكم وخالقهم، وما قد نزل بساحتكم من عظيم البلاء؟ وهلا يُغِيثُكُمْ من كرب ما أنتم فيه فينقذونكم منه؟ فأجابهم الأشقياء فقالوا: ضلَّ عنا أولياؤنا الذين كنا ندعو من دون الله. يعني بقوله: «ضلوا»، جَارُوا وأخذوا غير طريقنا، وتركنا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا. يقول الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وشهد القوم حينئذ على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بالله، جاحدين وحدانيته.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا

وهذا خبر من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ عن قِيلِهِ لهؤلاء المفترين عليه، المُكذِّبِينَ آيَاتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. يقول الله تعالى ذِكْرُهُ، قال لهم حين وَرَدُوا عليه يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ادخلوا، أيها المفترون على رَبِّكُمْ، المُكذِّبُونَ رُسُلَهُ، في جماعاتٍ من ضُرَبَائِكُمْ. «قد خَلَتْ من قبلكم»، يقول: قد سَلَفَتْ من قبلكم «من الجن والإنس في النار»، ومعنى ذلك: ادخلوا في أمم هي في النار، قد خَلَتْ من قبلكم من الجن والإنس - وإنما يعني بـ«الأمم»، الأحزاب وأهل الملل الكافرة. «كلما دخلت أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: كلما دخلت النار جماعة من أهل مِلَّةٍ. «لعنت أختها»، يقول: شتمت الجماعة الأخرى من أهل ملتها، تَبَرَّأَ منها.

وإنما عني بـ«الأخت»، الأُخُوَّةُ في الدِّينِ والمِلَّةِ، وقيل: «أختها»، ولم

يقول: «أخاها»، لأنه عَنَى بها «أمة» وجماعة أخرى، كأنه قيل: كلما دخلت أمة لعنت أمة أخرى من أهل ملتها ودينها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَتَّى إِذَا تَدَارَكَُوا فِيهَا جَمِيعًا

يقول تعالى ذِكْرُهُ: حتى إذا تداركتِ الأممُ في النارِ جميعاً، يعني اجتمعت فيها.

يقول: اجتمع فيها الأولونَ من أهل المللِ الكافرةِ والآخرين منهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَتْ أَخْرِبْهُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْمَاءَهُمْ وَلَهُمْ رِبِّيٌّ وَقَالَتْ أَخْرِبْهُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْمَاءَهُمْ عَذَابٌ ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثَنَاهُ عن محاورَةِ الأحزابِ من أهلِ المللِ الكافرةِ في النارِ يومَ القيامةِ. يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: فإذا اجتمع أهلُ المللِ الكافرةِ في النارِ فادُّرِكُوا، قالت أخرى أهلُ كُلِّ مِلَّةٍ دخلتِ النارَ - الذين كانوا في الدنيا بعد أولى منهم تَقَدُّمَتِها وكانت لها سَلَفًا وإماماً في الضلالة والكفر - لأولَها الذين كانوا قَبْلَهُمْ في الدنيا: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا عَنْ سَبِيلِكَ، ودعونا إلى عبادةِ غيرِكَ، وَرَبُّنَا لَنَا طَاعَةُ الشَّيْطَانِ، فَآتِهِمُ الْيَوْمَ مِنْ عَذَابِكَ الضَّعْفَ عَلَى عَذَابِنَا.

وأما قوله: «قال لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ»، فإنه خبرٌ من الله عن جوابه لهم. يقول: قال الله للذين يَدْعُونَهُ فيقولون: «رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ» -: لِكُلِّكُمْ، أولَكم وآخِرَكم، وتابعوكم ومُتَّبِعوكم - «ضِعْفٌ»، يقول: مكرر عليه العذاب.

وقوله: «ولكن لا تعلمون»، يقول: ولكنكم، يا معشر أهل النار، لا تعلمون ما قَدَرُ ما أعدَّ الله لكم من العذاب، فلذلك تسأل الضَّعْفُ منه الأمة الكافرة الأخرى لأختها الأولى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَتْ أُولَهُنَّ لِأَخْرَجْنَهُنَّ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٨﴾

يقول جل ثناؤه: وقالت أولى كل أمة وملة سبقت في الدنيا، لأخراها الذين جاؤوا من بعدهم، وحذثوا بعد زمانهم فيها، فسلكوا سبيلهم واستنوا سنتهم: «فما كان لكم علينا من فضل»، وقد علمتم ما حل بنا من عقوبة الله جل ثناؤه بمعصيتنا إياه وكُفْرنا بآياته، بعدما جاءتنا وجاءتكم بذلك الرسل والنذُر، فهل أنبئتم إلى طاعة الله، وارتدعتم عن غوايتكم وضلالكم؟ فانقضت حجة القوم وخُصِمُوا ولم يُطِيقُوا جواباً بأن يقولوا: «فُضِّلْنَا عليكم إذ اعتبرنا بكم فأما بالله وصدَّقنا رسله»، قال الله لجميعهم: فذوقوا جميعكم، أيها الكفرة، عذاب جهنم، بما كنتم في الدنيا تكسبون من الآثام والمعاصي، وتَجَرَّحُونَ من الذنوب والإجرام.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِحُجَجِنَا وَأَدْبَتْنَا فَلَمْ يُصَدِّقُوا بِهَا، وَلَمْ يَتَّبِعُوا رِسْلَنَا. «واستكبروا عنها»، يقول: وتكبروا عن التصديق بها وأنفوا من اتباعها والانقياد لها تكبراً. «لا تُفْتَحُ لَهُم»، لأرواحهم إذا خرجت من

اجسادهم. «أبواب السماء»، ولا يصعدُ لهم في حياتهم إلى الله قولٌ ولا عملٌ، لأن أعمالهم خبيثة، وإنما يُرْفَعُ الكَلِمُ الطيبُ والعملُ الصالح، كما قال جلُّ ثناؤه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾

يقول جلُّ ثناؤه: ولا يدخل هؤلاء الذين كَذَّبُوا بآياتنا واستكبروا عنها، الجنة التي أعدها الله لأوليائه المؤمنين أبداً، كما لا يلجُ الجملُ في سَمِّ الْخِيَاطِ أبداً، وذلك ثَقْبُ الإبرة.

«وكذلك نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ»، يقول: وكذلك نثيبُ الذين أجزمُوا في الدنيا ما استحقُّوا به من الله العذابَ الأليمَ في الآخرة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

يقول جلُّ ثناؤه: لهؤلاء الذين كَذَّبُوا بآياتنا واستكبروا عنه. «من جهنم مِهَادٌ» - وهو ما امتهدوه مما يقعدُ عليه ويضطجع، كالفراش الذي يفرش، والبساط الذي يبسط.

«ومن فوقهم غَوَاشٍ». وهو جمعُ «غاشية»، وذلك ما غَشَاهُمْ فَنَظَّاهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ.

وإنما معنى الكلام: لهم من جهنم مِهَادٌ من تحتهم قُرْشٌ، ومن فوقهم منها لُحْفٌ، وإنهم بين ذلك.

وأما قوله: «وكذلك نجزي الظالمين»، فإنه يقول: وكذلك نُثِيبُ ونكافئ مَنْ ظلم نفسه، فأكسبها من غضبِ الله ما لا قِبَل لها به بِكُفْرِهِ برَبِّه، وتكذيبه أنبيائه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤١﴾

يقول جَلَّ ثَنَاوُهُ: «والذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وأَقْرَبُوا بما جاءهم به من وحيِ الله وتنزيله وشرائعِ دينه، وعملوا ما أمرهم الله به فاطاعوه، وَتَجَنَّبُوا ما نهاهم عنه. «لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا»، يقول: لا نُكَلِّفُ نَفْسًا مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا ما يَسْعُهَا فلا تَحْرِجُ فيه. «أُولَٰئِكَ»، يقول: هؤلاء الذين آمَنُوا وعملوا الصالحات. «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ»، يقول: هم أَهْلُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، دُونَ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وعَمِلَ بِسَيِّئَاتِهِمْ. «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»، يقول: هم فِي الْجَنَّةِ مَاكُثُونَ، دَائِمٌ فِيهَا مَكُثُهُمْ، لا يَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَلا يُسَلَّبُونَ نَعِيمَهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ يُخَرِّجُ مِنْ حَتِّهِمْ لَا تُنْهَرُ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَذْهَبْنَا مِنْ صُدُورِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ، وأخبر أنهم أَصْحَابُ الْجَنَّةِ، ما فيها من حَقْدٍ وَغَمْرٍ^(١) وَعَدَاوَةٍ كان من بعضهم فِي الدُّنْيَا عَلَى بعضٍ، فجعلهم فِي الْجَنَّةِ إِذَا أُدْخِلَهُمُوهَا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ، لا

(١) الغمر: الحقد الذي يغمر القلب.

يَحْسُدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى شَيْءٍ خَصَّ اللَّهُ بِهِ بَعْضَهُمْ وَفَضَّلَهُ مِنْ كَرَامَتِهِ عَلَيْهِ،
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وقال هؤلاء الذين وَصَفَ جَلَّ ثَنَاهُ، وهم الذين آمنوا
وعملوا الصالحات، حين أُدْخِلُوا الْجَنَّةَ ورأوا ما أكرمهم الله به من كرامته، وما
صَرَفَ عَنْهُمْ مِنَ الْعَذَابِ المَهِينِ الذي ابتلى به أهل النار بكفرهم بربهم،
وتكذيبهم رُسُلَهُ: «الحمد لله الذي هدانا لهذا»، يقول: الحمد لله الذي وَفَّقَنَا
لِلْعَمَلِ الذي أكسبنا هذا الذي نَحْنُ فِيهِ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ، وصرف عذابه
عنا. «وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله»، يقول: وما كنا لترشد لذلك، لولا
أن أرشدنا الله له ووفَّقنا بِمَنِّهِ وَطَوْلِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ بِرَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَتْلُوا
الْجَنَّةَ أَوْرِثَتْهُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّهُمْ
يَقُولُونَ عِنْدَ دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ، وَرُؤْيَيْهِمْ كَرَامَةَ اللَّهِ الَّتِي أَكْرَمَهُمْ بِهَا، وَهُوَ أَنْ أَعْدَاءَ
اللَّهِ فِي النَّارِ: وَاللَّهُ لَقَدْ جَاءَنَا فِي الدُّنْيَا، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي النَّارِ، رُسُلُ رَبِّنَا
بِالْحَقِّ مِنَ الْأَخْبَارِ عَنْ وَعْدِ اللَّهِ أَهْلَ طَاعَتِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَوَعِيدِهِ أَهْلَ
مَعَاصِيهِ وَالْكَفْرِ بِهِ.

وأما قوله: «وَنُودُوا أَنْ تَتْلُوا الْجَنَّةَ أَوْرِثَتْهُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، فَإِنَّ
مَعْنَاهُ: وَنَادَى مُنَادٍ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفَ اللَّهُ صِفَتَهُمْ، وَأَخْبَرَ عَمَّا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ

كرامته: أن يا هؤلاء، هذه تلکم الجنة التي كانت رُسُلي في الدنيا تُخبرُکم عنها، أُوْرثُکُمُوهَا اللهُ عن الذين کَذَّبُوا رُسْلَهُ، لتَصْدِيقِکُمْ لِإِيَاهُمْ وَطَاعَتِکُمْ رَبِّکُمْ. وذلك هو معنى قوله: «بما کنتم تعلمون».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ونادى أهل الجنة أهل النار بعد دُخُولِهِمُوهَا: يا أهل النار، قد وجدنا ما وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا في الدنيا على السن رُسْلِهِ، من الثواب على الإيمان به وبهم، وعلى طاعته، فهل وجدتم ما وَعَدَ رَبُّكُمْ على السَّيِّئَةِ على الكُفْرِ وعلى معاصيه من العقاب؟ فأجابهم أهل النار: بأن نعم، قد وجدنا ما وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا.

وأما قوله: «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ»، يقول: فنادى مُنَادٍ، وأعلم مُعْلِمٌ بينهم - «أن لعنة الله على الظالمين»، يقول: غَضِبَ اللهُ وسَخَطَهُ وعقوبته على مَنْ كَفَرَ به.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: إِنَّ الْمُؤَذِّنَ بين أهل الجنة والنار يقول: «أن لعنة الله على الظالمين»، الذين كفروا بالله وصدُّوا عن سبيله. «ويبغونها عوجاً»، يقول: حاولوا سبيل الله - وهو دينه. «أن يُغَيِّرُوهُ وَيُبَدِّلُوهُ عما جعله الله له من استقامته.

«وهم بالآخرة كافرون»، يقول: وهم لقيام الساعة والبعث في الآخرة والثواب والعقاب فيها جاحدون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَبْنِيهِمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَانِهِمْ

يعني جَلُّ ثَنَائِهِ بقوله: «وبينهما حجاب»، وبين الجنة والنار حجاب، يقول: حاجز، وهو: السور الذي ذكره الله تعالى فقال: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾، [الحديد: ١٣]. وهو «الأعراف» التي يقول الله فيها: «وعلى الأعراف رجال»، كذلك.

وأما قوله: «وعلى الأعراف رجال»، فإن «الأعراف» جمع، واحداها «عُرف»، وكل مُرتَفَعٍ من الأرض عند العرب فهو «عُرف»، وإنما قيل لعُرف الديك «عرف»، لارتفاعه على ما سواه من جسده.

وكان السُّدِّيُّ يقول: إنما سُمِّيَ «الأعراف» أعرافاً، لأن أصحابه يعرفون الناس.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَانِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَعَلَّيْدْ خُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وعلى الأعراف رجال يعرفون أهل الجنة بسيماهم، وذلك بياض وجوههم، ونضرة النعيم عليها - ويعرفون أهل النار كذلك بسيماهم، وذلك سواد وجوههم، وزرقة أعينهم. فإذا رأوا أهل الجنة نادوهم: «سلام عليكم».

وأما قوله: «ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون»، أي: حَلَّتْ عليكم أَمَنَةُ الله من عقابه وأليم عذابه.

واختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: «لم يدخلوها وهم يطمعون».

فقال بعضهم: هذا خبرٌ من الله عن أهل الأعراف: أنهم قالوا لأهل الجنة ما قالوا قبل دخول أصحاب الأعراف، غير أنهم قالوه وهم يطمعون في دخولها.

وقال آخرون: إنما عَنَى بذلك أهل الجنة، وأن أصحاب الأعراف يقولون لهم قبل أن يدخلوا الجنة: «سلام عليكم»، وأهل الجنة يطمعون أن يدخلوها، ولم يدخلوها بعد.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ
قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذكره: وإذا صُرِفَتْ أَبْصَارُ أصحاب الأعراف تِلْقَاءَ أصحاب النار - يعني: حِيَالَهُمْ ووجاههم - فنظروا إلى تشويه الله لهم. «قالوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»، الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها من سخطك ما أورثهم من عذابك ما هُمْ فيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا لَا يَمُرُّونَهُمْ
بِسْمِئِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾

يقول جَلُّ ثَنَاهُ: «ونادى أصحاب الأعراف رجالاً، من أهل الأرض».

«يعرفونهم بسيماهم»، سيمًا أهل النار. «قالوا ما أغنى عنكم جمعكم»، ما كنتم تجمعون من الأموال والعَدَد في الدنيا. «وما كنتم تستكبرون»، يقول: وتكبركم الذي كنتم تكبرون فيها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَهْوََاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ
أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

اختلف أهل التأويل في المعنيين بهذا الكلام.

فقال بعضهم: هذا قيل الله لأهل النار، توبيخاً على ما كان من قبلهم في الدنيا، لأهل الأعراف، عند إدخاله أصحاب الأعراف الجنة.

فتأويل الكلام على هذا التأويل: قال الله لأهل التكبر عن الإقرار بوحداية الله، والإذعان لطاعته وطاعة رُسُلِهِ، الجامعين في الدنيا الأموال مُكاثرةً ورياءً: أيها الجبابرة كانوا في الدنيا، أهؤلاء الضعفاء الذين كنتم في الدنيا أقسمتم لا ينالهم الله برحمة؟ قال: قد غفرت لهم ورحمتهم بفضلِي ورحمتي، ادخلوا يا أصحاب الأعراف الجنة لا خوف عليكم بعدها من عقوبة تعاقبون بها على ما سَلَفَ منكم في الدنيا من الآثام والأجرام، ولا أنتم تحزنون على شيء فاتكم في دنياكم.

وقال أبو مجلز^(١): بَلَّ هذا القول خبرٌ من الله عن قِيلِ الملائكة لأهل النار، بعد ما دخلوا النار، تعبيراً منهم لهم على ما كانوا يقولون في الدنيا للمؤمنين الذين أدخلهم الله يوم القيامة جَنَّتَهُ. وأما قوله: «ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون»، فخيرٌ من الله عن أمرِهِ أهل الجنة بدخولها.

(١) أبو مجلز لاحق بن حميد السدوسي البصري، الإمام التابعي الثقة المتوفى بعيد سنة ١٠٠ (تهذيب الكمال: ١٧٦/٣١-١٨٠).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذَكَرَهُ عن استغاثةِ أهلِ النارِ بأهلِ الجنة، عند نزولِ عظيمِ البلاءِ بهم من شِدَّةِ العطشِ والجوع، عقوبةً من الله لهم على ما سَلَفَ منهم في الدنيا من تركِ طاعةِ الله، وأداءِ ما كان قَرَضَ عليهم فيها في أموالهم من حقوقِ المساكين من الزكاةِ والصدقة.

يقول تعالى ذَكَرَهُ: «ونادى أصحابُ النار»، بعد ما دخلوها. «أصحابُ الجنة»، بعد ما سكنوها. «أَنْ»، يا أهلَ الجنة. «أفِيضُوا علينا من الماءِ أو مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ»، أي: أطعمونا مما رزقكم الله من الطعام. فأجابهم أهلُ الجنة، إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْمَاءَ وَالطَّعَامَ عَلَى الَّذِينَ جَحَدُوا تَوْحِيدَهُ، وَكَذَّبُوا فِي الدُّنْيَا رُسُلَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥٢﴾

وهذا خبرٌ من الله عن قِيلِ أهلِ الجنة للكافرين.

يقول تعالى ذَكَرَهُ: فأجاب أهلُ الجنة أهلَ النار: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ»، الذين كفروا بالله ورسله، الذين اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا. يقول: سخريَّةٌ ولعباً.

«وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا»، يقول: وَخَدَعَهُمْ عَاجِلُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعِيشِ والخَفْضِ والدُّعَا، عَنِ الْآخِذِ بِنَصِيحِهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ، حَتَّى أَتَتْهُمْ الْمَنِيَةُ - يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاهُ: «فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا»، أَيِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «نَنسَاهُمْ»، يَقُولُ: نَتْرَكُهُمْ فِي الْعَذَابِ الْمُبِينِ جِيَاعاً عَطِاشاً بِغَيْرِ طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ، كَمَا تَرَكُوا الْعَمَلَ لِلْقَاءِ يَوْمِهِمْ هَذَا، وَرَفَضُوا الْإِسْتِعْدَادَ لَهُ بِاتِّعَابِ أَعْدَانِهِمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ.

وأما قوله: «وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ»، فَإِنَّ مَعْنَاهُ: «الْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا»، وَكَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ.

وتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: فَالْيَوْمَ نَتْرَكُهُمْ فِي الْعَذَابِ، كَمَا تَرَكُوا الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا لِلْقَاءِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَمَا كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ - وَهِيَ حُجْجُهُ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا عَلَيْهِمْ، مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالْكِتَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. «يَجْحَدُونَ»، يُكَذِّبُونَ وَلَا يُصَدِّقُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى أَعْيُنِهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَقْسَمُ، يَا مُحَمَّدُ، لَقَدْ جِئْنَا هَؤُلَاءِ الْكَافِرَةَ بِكِتَابِ - يَعْنِي الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْهِ. يَقُولُ: لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ هَذَا الْقُرْآنَ، مَفْصَّلاً مَبِيناً فِيهِ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ. «عَلَى عِلْمٍ»، يَقُولُ: عَلَى عِلْمٍ مِنَّا بِحَقِّ مَا فَصَّلَ فِيهِ، مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي مَيَّزَ فِيهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَقِّ. «هُدًى وَرَحْمَةً»، يَقُولُ: بَيَّنَّاهُ لِيُهْدِيَ وَيُرْحَمَ بِهِ قَوْمٌ يُصَدِّقُونَ بِهِ، وَبِمَا فِيهِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، وَأَخْبَارِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَيَنْقِذُهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى الْهُدَى.

وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ

حَرَجَ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [الأعراف: ٢]. «ولقد جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «هل ينظرون إلا تأويله»، هل ينتظر هؤلاء المشركون الذين يُكَذِّبُونَ بآياتِ الله ويَجْحَدُونَ لقاءه. «إلا تأويله»، يقول: إلا ما يؤولُ إليه أمرهم، من ورودهم على عذابِ الله، وصِلِيهِمْ جَحِيمُهُ، وأشباه هذا مما أوعدهم الله به.

وأما قوله: «يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل»، فإنَّ معناه: يومَ يجيء ما يؤولُ إليه أمرهم من عقابِ الله. «يقول الذين نسوه من قبل»، أي: يقول الذين ضيَّعوا وتركوا ما أمروا به من العملِ الْمُنْجِيهِمْ مما آلَ إليه أمرهم يومئذٍ من العذابِ، من قبل ذلك في الدنيا. «لقد جاءت رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ»، أقسم المساكينَ حين عاينوا البلاءَ وحلَّ بهم العقاب: أنْ رُسُلُ الله التي أتتهم بالْإِنذَارَةِ وبلغَتْهم عن الله الرسالة، قد كانت نَصَحَتْ لهم وصدَّقَتْهم عن الله، وذلك حين لا ينفعهم التصديقُ. ولا يُنْجِيهِمْ مِنْ سَخَطِ الله وأليمِ عقابه كثرةُ القولِ والقليلِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكَّره عن هؤلاء المشركين الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ، أنهم يقولون عند حلولِ سَخَطِ الله بهم، وورودِهِم أليمِ عذابه، ومُعَابَيْتِهِمْ تأويلٌ ما كانت رسلُ الله تَعِدُّهُمْ: هل لنا من أصدقاء وأولياء اليوم فيشفعوا لنا عند ربِّنا، فَنُنَجِّينَا شَفَاعَتَهُمْ عنده مما قد حَلَّ بنا من سوءِ فِعالنا في الدنيا - أو نردَّ إلى الدنيا مرةً أخرى، فنعمل فيها بما يُرْضِيهِ وَيُعْتِبُهُ من أنفسنا؟ قال هذا القولُ المساكينُ هنالك، لأنهم كانوا عَهْدُوا في الدنيا أنفسهم لها شفعاء تشفعُ لهم في حاجاتهم، فيذكروا ذلك في وقتٍ لا خُلَّةَ فيه لهم ولا شفاعة.

يقول الله جَلَّ ثَنَاهُ وتقدست أسماؤه: «قد خسروا أنفسهم»، يقول: غَبَوُوا أنفسهم حظوظها، ببيعهم ما لا خطرَ له من نعيمِ الآخرةِ الدائمِ، بالخسيسِ من عَرَضِ الدنيا الزائلِ. «وَضَلُّ عَنْهُمْ ما كانوا يفترون»، يقول: وَأَسْلَمَهُمْ لعذابِ الله، وحارَ عنهم أولياؤهم، الذين كانوا يعبدونهم من دونِ الله، ويزعمون كَذِبًا وافتراءً أنهم أربابهم من دونِ الله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إِنَّ سَيِّدَكُمْ وَمُصْلِحَ أُمُورِكُمْ، أيها الناسُ، هو المعبودُ الذي له العبادةُ من كل شيء. «الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ»، وذلك يومَ الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة.

«ثم استوى على العرش». وقد ذكرنا معنى «الاستواء» بما أَغْنَى عن إعادته.

وأما قوله: «يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا»، فإنه يقول: يُورِدُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ فَيَلْبِسُهُ إِيَّاهُ، حَتَّى يَذْهَبَ نَضْرَتُهُ وَنَوْرُهُ. «يَطْلُبُهُ»، يقول: يَطْلُبُ اللَّيْلُ النَّهَارَ «حَثِيثًا»، يعني: سريعاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ

بِأَمْرِ رَبِّهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: إِنَّ رَبِّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ، كُلُّ ذَلِكَ بِأَمْرِهِ، أَمْرُهُنَّ اللَّهُ فَاطْعَنَ أَمْرَهُ، أَلَا اللَّهُ الْخَلْقُ كُلُّهُ، وَالْأَمْرُ الَّذِي لَا يَخَالِفُ وَلَا يَرُدُّ أَمْرَهُ، دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَدُونَ مَا عَبَدَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْأَلْهَةِ وَالْأَوْتَانِ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تَخْلُقُ وَلَا تَأْمُرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ مَعْبُودُنَا الَّذِي لَهُ عِبَادَةٌ كُلُّ شَيْءٍ، رَبُّ الْعَالَمِينَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا

يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: ادْعُوا، أَيُّهَا النَّاسُ، رَبَّكُمْ وَحْدَهُ، فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ، دُونَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَلْهَةِ وَالْأَصْنَامِ. «تَضَرُّعًا»، يقول: تَذَلُّلاً وَاسْتِكَانَةً لَطَاعَتِهِ. «وَخُفْيَةً»، يقول بخشوعِ قُلُوبِكُمْ، وَصِحَّةِ الْيَقِينِ مِنْكُمْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، لَا جَهَاراً وَمِرَاءَةً، وَقُلُوبِكُمْ غَيْرُ مُوقِنَةٍ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَرَبُوبِيَّتِهِ، فَعَلَّ أَهْلَ النِّفَاقِ وَالْخِدَاعِ اللَّهَ وَلِرَسُولِهِ.

وأما قوله: «إنه لا يحب المعتدين»، فإنَّ معناه: إِنَّ رَبَّكُمْ لَا يُحِبُّ مَنْ اعْتَدَى فَتَجَاوَزَ حَدَّهُ الَّذِي حَدَّهُ لِعِبَادِهِ فِي دَعَائِهِ وَمَسْأَلَتِهِ رَبَّهُ، وَرَفَعَهُ صَوْتَهُ فَوْقَ الْحَدِّ الَّذِي حَدَّ لَهُمْ فِي دَعَائِهِمْ إِيَّاهُ، وَمَسْأَلَتِهِمْ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

يعني تعالى ذكّره بقوله: «ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها»، لا تُشركوا بالله في الأرض ولا تَعْصوه فيها، وذلك هو الفساد فيها. «بعد إصلاحها» يقول: بعد إصلاح الله إياها لأهل طاعته، بابتعائه فيهم الرُّسُلَ دُعَاةً إِلَى الْحَقِّ، وَإِبْصَاحِهِ حُجَجَهُ لَهُمْ. «وادعوه خَوْفًا وَطَمَعًا»، يقول: وَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ وَالْعَمَلَ، وَلَا تَشْرِكُوا فِي عَمَلِكُمْ لَهُ شَيْئًا غَيْرَهُ مِنَ الْأَلْهَةِ وَالْأَصْنَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلِيَكُنْ مَا يَكُونُ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ. وَإِنْ مَنْ كَانَ دَعَاؤُهُ إِيَّاهُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَهُوَ بِالْآخِرَةِ مِنَ الْمَكْذُبِينَ، لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَخَفْ عِقَابَ اللَّهِ وَلَمْ يَرْجُ ثَوَابَهُ، لَمْ يُيَالِ مَا رَكِبَ مِنْ أَمْرٍ يَسْخَطُهُ اللَّهُ وَلَا يَرْضَاهُ. «إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»، يقول تعالى ذكّره: إِنَّ ثَوَابَ اللَّهِ الَّذِي وَعَدَ الْمُحْسِنِينَ عَلَى إِحْسَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا، قَرِيبٌ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ هُوَ رَحْمَتُهُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْ يَصِيرُوا إِلَى ذَلِكَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ كَرَامَتِهِ إِلَّا أَنْ تَفَارِقَ أَرْوَاحُهُمْ أَجْسَادَهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَقَّ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيْمَنٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى ذكّره: إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ، هُوَ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا^(١) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ.

(١) إنما قال ذلك لأنه لم يستجز إلا قراءتها بالنون، وهي في مصحفنا بالياء كما ترى.

و«النشر» بفتح «النون» وسكون «الشين»، في كلام العرب، من الرياح الطيبة اللينة الهبوب، التي تنشئ السحاب. وكذلك كُلُّ رِيحٍ طيبة عندهم فهي «نشر».

وبهذه القراءة قرأ ذلك عامة قُرَأة الكوفيين، خلاَ عاصم بن أبي النجود، فإنه كان يقرؤه: «بشراً» على اختلافٍ عنه فيه.

فروى ذلك بعضهم عنه: «بُشْراً»، بالباء وضمها، وسكون الشين. وبعضهم، بالباء وضمها وضم الشين.

وكان يتأول في قراءته ذلك كذلك قوله: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ» [الروم: ٤٦]، تُبَشِّرُ بالمطر، وأنه جمع «بشير» يبشر بالمطر، جُمع «بُشْراً»، كما يجمع «النذير» نُذْراً.

وأما قُرَأة المدينة وعامة المكيين والبصريين، فإنهم قرأوا ذلك: «وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ نُشْراً»، بضم «النون»، و«الشين» بمعنى جمع «نُشور» جمع «نُشْرًا»، كما يجمع «الصبور» «صُبْراً» و«الشكور» «شُكْراً».

وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يقول: معناها إذا قرئت كذلك: أنها الرياح التي تهبُّ من كُلِّ ناحية، وتجيء من كُلِّ وجه.

وكان بعضهم يقول: إذا قرئت بضم النون، فينبغي أن تُسَكَّنَ شِينُهَا، لأن ذلك لغة بمعنى «النُشْر» بالفتح. وقال: العرب تضم النون من «النُشْر» أحياناً، وتفتح أحياناً بمعنى واحد. قال: باختلاف القُرَأة في ذلك على قدر اختلافها في لغتها فيه. وكان يقول: هو نظير «الحَسَف»، و«الخُسْف»، بفتح الخاء وضمها.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن قراءة مَنْ قرأ ذلك: «نُشْراً»

و«نُشْرَأُ»، بفتح «النون» وسكون «الشين»، وبضم «النون» و«الشين» قراءة ثان مشهورتان في قِراءة الأمصار.

أما «بُشْرَأُ»^(١) بالباء وضمها فلا أَحِبُّ القراءةَ بها، وإن كان لها معنى صحيح ووجه مفهوم في المعنى والإعراب.

وأما قوله: «بين يدي رحمته»، فإنه يقول: قُدَّامَ رَحْمَتِهِ وأمامها.

و«الرحمة» التي ذكرها جَلُّ ثَنَائِهِ في هذا الموضع، المطر.

فمعنى الكلام إذاً: والله الذي يرسلُ الرياحَ لِينَا هَبُوبَهَا، طَيِّباً نَسِيمَهَا، أَمَامَ غَيْثِهِ الذي يسوقه بها إلى خَلْقِهِ، فينشئُ بها سَحَاباً ثِقَالاً حتى إذا أَقْلَتَهَا. و«الإقلال» بها، حَمَلُهَا، كما يقال: «استقلَّ البعير بحمله»، و«أقله»، إذا حمّله فقام به - ساقَهُ اللهُ لإِحْيَاءِ بَلَدٍ مَيِّتٍ، قد تَعَفَّتْ مزارِعُهُ، وَدَرَسَتْ مشاربه، وأجذبَ أهلُهُ، فَأَنْزَلَ به المطرَ، وأخرجَ به من كُلِّ الشمرات.

وأما قوله: «كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذْكُرُونَ»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما نحْيي هذا البلدَ المَيِّتَ بما ننزلُ به من المَاءِ الذي ننزله من السحابِ، فنخرجُ به من الشمراتِ بعد موتِهِ وجدوبتِهِ وَقُحُوطِ أَهْلِهِ، كذلك نخرجُ الموتى من قبورِهِم أَحْيَاءَ بعد فَنَائِهِم وَدُرُوسِ آثَارِهِم. «لَعَلَّكُمْ تَذْكُرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ للمُشْرِكِينَ به من عَبَدَةِ الأصنام، المَكْذِبِينَ بالبعثِ بعد المماتِ، المنكرين للثوابِ والعقابِ: ضَرَبْتُ لَكُمْ، أَيُّهَا الْقَوْمُ، هذا المثل الذي ذَكَرْتُ لَكُمْ: من إحياءِ البلدِ المَيِّتِ بِقَطْرِ الْمَطَرِ الذي يَأْتِي به السحابُ الذي تنشرُهُ الرياحُ التي وصفتُ صِفَتَهَا، لتعتبروا فتذكروا وتعلموا أَنَّ مَنْ كان ذلك من

(١) سقط في هذا الموضع وقبله من المخطوط والمطبوع كلام، فوضعنا العبارة التي بين القوسين ليكونَ الكلام متصلاً.

قدرته، فيسير في قدرته إحياء الموتى بعد فنائها، وإعادتها خلقاً سوياً بعد دروسها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ
وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ



يقول تعالى ذكره: والبلد الطيبة تربته، العذبة مشاربه، يخرج نباته إذا أنزل الله الغيث وأرسل عليه الحيا، بإذنه، طيباً ثمره في حينه ووقته. والذي خبت فردوت تربته، وملحت مشاربه، لا يخرج نباته إلا نكداً - يقول: إلا عسراً في شدة.

وقوله: «كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون»، يقول: كذلك: نبين آية بعد آية، وندلي بحجة بعد حجة، ونضرب مثلاً بعد مثل، لقوم يشكرون الله على إنعامه عليهم بالهداية، وتبصيره إياهم سبيل أهل الضلالة، باتباعهم ما أمرهم باتباعه، وتجنبهم ما أمرهم بتجنبه من سبيل الضلالة. وهذا مثل ضربته الله للمؤمن والكافر، فالبلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه، مثل للمؤمن - والذي خبت فلا يخرج نباته إلا نكداً، مثل للكافر.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

أقسم ربنا جل ثناؤه للمخاطبين بهذه الآية: أنه أرسل نوحاً إلى قومه، منذرهم بأسه، ومخوِّفهم سخطه، على عبادتهم غيره، فقال لمن كفر منهم:

يا قوم، اعبدوا الله الذي له العبادَةُ، وذِلُّوا له بالطاعة، واخضعوا له بالاستكانة، ودَعُوا عبادةَ ما سواه من الأندادِ والآلهة، فإنه ليس لكم معبودٌ يستوجبُ عليكم العبادةَ غيره، فإني أخافُ عليكم إنْ لم تفعلوا ذلك «عذابَ يومٍ عظيمٍ»، يعني: عذابَ يومٍ يَعْظُمُ فيه بلاؤُكم بمجيئِهِ إياكم بسَخَطِ رَبِّكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثَنَاهُ، عن جواب مشركي قومِ نوحٍ لنوحٍ، وهم «المَلَأُ»، و«المَلَأُ»، الجماعةُ من الرجالِ، لا امرأةٌ فيهم - أنهم قالوا له حين دعاهم إلى عبادةِ الله وحده لا شريكَ له: «إِنَّا لَنَرُّكَ»، يا نوحُ. «في ضلالٍ مبينٍ»، يعنون في أمرٍ زائلٍ عن الحقِّ، مبين زواله عن قَصْدِ الحقِّ لمن تأملَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ بِضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي

رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال نوحٌ لقومه مجيباً لهم: يا قوم، لم أَمُرُّكم بما أَمَرْتُكم به من إخلاصِ التوحيدِ لله، وإفراذه بالطاعةِ دونَ الأندادِ والآلهة، وزوالاً مني عن مَحَبَّةِ الحقِّ، وضلالاً لسبيلِ الصوابِ، وما بي ما تَظُنُّونَ من الضلالِ، ولكِنِّي رسولٌ إليكم من رَبِّ العالمين بما أَمَرْتُكم به: من إفراذه بالطاعة، والإقرارِ له بالوحدانية، والبراءةِ من الأندادِ والآلهة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَكَ رَبِّي وَأَنْصَحُكُمْ وَأَعْلَمُ

مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثَنَاهُ عن نبيه نوح عليه السلام أنه قال لقومه الذين كفروا بالله وكذبوه: «ولكني رسولٌ من رَبِّ العالمين»، أرسلني إليكم، فانا أبلغكم رسالاتِ ربي، وأنصح لكم في تحذيري إياكم عقابَ الله على كُفْرِكُمْ به، وتكذيبكم إياي، وردكم نصيحتي. «وأعلم من الله ما لا تعلمون»، من أن عقابه لا يَرُدُّ عن القومِ المجرمين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْعَيْبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾

وهذا أيضاً خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُهُ عن قَبْلِ نوحٍ لقومه أنه قال لهم، إِذْ رَدُّوا عليه النصيحة في الله، وأنكروا أن يكونَ الله بعثه نبياً، وقالوا له: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْنَا بُدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾، [هود: ٢٧]: «أَوْعَيْبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ»، يقول: أوعجبتم أن جاءكم تذكيرٌ من الله وعِظَةٌ، يُذَكِّرْكُمْ بما أنزلَ رَبُّكُمْ. «على رجلٍ»، قيل: معنى قوله «على رجلٍ منكم»، مع رجلٍ منكم. «لينذركم»، يقول: لينذركم بأسَ الله وَيُخَوِّفْكُمْ عِقَابَهُ على كُفْرِكُمْ به. «ولتتقوا»، يقول: وكي تَتَّقُوا عِقَابَ الله وبِأَسْهُ، بتوحيده وإخلاصِ الإيمانِ به، والعملِ بطاعته. «ولعلكم ترحمون»، يقول: وليرحمكم رَبُّكُمْ إِنْ اتَّقَيْتُمْ اللَّهَ، وَخِفْتُمُوهُ وَخَذِرْتُمْ بِأَسْهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَكَذَّبَ نُوحًا قَوْمُهُ إِذْ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ رَسُولٌ إِلَيْهِمْ، يَأْمُرُهُمْ بِخُلْعِ الْأَنْدَادِ، وَالْإِقْرَارِ بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، وَخَالَفُوا أَمْرَ رَبِّهِمْ، وَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْصُونَ، فَأَنْجَاهُ اللَّهُ فِي الْفُلِّ الَّذِينَ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَكَانُوا بَنُوخَ عَلَيْهِ السَّلَامِ أَنْفُسًا عَشْرَةَ.

وكان حَمَلَ معه في الفلك من كل زوجين اثنين، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].
و«الْفُلُّ»، هو السفينة.

«وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا»، يقول: وَأَغْرَقَ اللَّهُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِحُجَجِهِ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا رُسُلَهُ، وَلَمْ يَقْبَلُوا نَصِيحَتَهُ إِيَّاهُمْ فِي اللَّهِ بِالطُّوفَانِ.
«إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ»، يقول: عَمِينَ عَنِ الْحَقِّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلِإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا - وَلِذَلِكَ نَصَبَ «هُودًا»، لَأَنَّهُ مَعْطُوفٌ بِهِ عَلَى «نُوحٍ» عَلَيْهِ السَّلَام - قَالَ هُودٌ: يَا قَوْمِ، اعْبُدُوا اللَّهَ فَأَفْرَدُوا لَهُ الْعِبَادَةَ، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَهُ إِلَهًا غَيْرَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُمْ إِلَهٌ غَيْرُهُ. «أَفَلَا تَتَّقُونَ»، رَبِّكُمْ فَتَحَذَّرُونَهُ، وَتَخَافُونَ عِقَابَهُ بِعِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ، وَهُوَ خَالِقُكُمْ وَرَازِقُكُمْ دُونَ كُلِّ مَا سِوَاهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَنْظُرُكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْقُومِ لَيْسَ

بِ سَفَاهَةٍ وَلِكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مُخْبِرًا عما أجاب هوداً به قومه الذين كفروا بالله: «قال الملا الذين كفروا»، يعني: الذين جحدوا توحيد الله وأنكروا رسالة الله هوداً إليهم. «إنا لنراك»، يا هود «في سفاهة»، يعنون: في ضلالةٍ عن الحق والصواب بترك ديننا وعبادة آلهتنا. «وإنا لنظنك من الكاذبين»، في قيلك: «إني رسول من رب العالمين» قال: «يا قوم ليس بي سفاهة»، يقول: أي ضلالةٍ عن الحق والصواب. «ولكني رسول من رب العالمين»، أرسلني، فإنا أبلغكم رسالات ربي، وأؤذيها إليكم كما أمرني أن أؤذيها.

القول في تأويل قوله تعالى: أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

يعني بقوله: «أبلغكم رسالات ربي»، أؤدي ذلك إليكم، أيها القوم. «وأنا لكم ناصح»، يقول: وأنا لكم في أمري إياكم بعبادة الله دون ما سواه من الأنداد والآلهة، ودعائكم إلى تصديقي فيما جئتكم به من عند الله، ناصح، فاقبلوا نصيحتي، فإني أمين على وحي الله، وعلى ما أئتمنني الله عليه من الرسالة، لا أكذب فيه ولا أزيد ولا أبذل، بل أبلغ ما أمرت كما أمرت. «أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم»، يقول: أو عجبتم أن أنزل الله وحيه بتذكيركم وعظمتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة، على رجل منكم لينذركم بأس الله ويخوفكم عقابه. «واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح»، يقول: فاتقوا الله في أنفسكم، واذكروا ما حلّ بقوم نوح.

من العذابِ إِذْ عَصَوْا رَسُولَهُمْ، وكفروا بربهم، فإنكم إنما جعلكم رُبُكُم خلفاءَ في الأرضِ منهم لَمَّا أَهْلَكْتُمُهم أَبدلُكم منهم فيها، فاتقوا الله أَنْ يَحْلُ بِكُمْ نظير ما حَلَّ بِهِم من العقوبةِ، فَيُهْلِكُكم ويبدل منكم غيركم، سُنَّتُهُ في قومِ نوحٍ قَبْلُكم، على معصيتكم إِيَّاهُ وكفركم به. «وزادكم في الخَلْقِ بَسْطَةً»، زاد في أجسامكم طولاً وعِظْماً على أجسامِ قومِ نوحٍ، وفي قُواكُم على قواهم، نعمةٌ منه بذلك عليكم، فاذكروا نِعْمَهُ وفضله الذي فَضَّلَكم به عليهم في أجسامكم وقُواكم، واشكروا الله على ذلك بإخلاصِ العبادَةِ له، وتركِ الإشراكِ به، وهجرِ الأوثانِ والأندادِ. «لعلكم تفلحون»، يقول: كي تَفْلِحُوا فتدركوا الخلودَ والبقاءَ في النعيمِ في الآخرة، وتنجحوا في طلباتكم عنده.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا أَاجْتَنَّا لِلْعَبْدِ اللَّهِ وَحَدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنبِئْنَا بِمَا نَعْبُدُ إِنَّ كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: قَالَتْ عَادُ لَهُ: أَاجْتَنَّا تَتَوَعَّدُنَا بِالْعِقَابِ مِنْ اللَّهِ عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ، كي نَعْبُدَ اللَّهَ وحده، وندينَ له بالطاعةِ خالصاً، ونهجرَ عبادةَ الآلهةِ والأصنامِ التي كان آبَاؤُنَا يعبدونها، ونتبرأَ منها؟ فلسنا فاعِلِي ذلك، ولا نَحْنُ مُتَّبِعُوهُ عَلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا مِنَ الْعِقَابِ وَالْعَذَابِ عَلَى تَرْكِنَا إِخْلَاصَ التَّوْحِيدِ لِلَّهِ، وعبادتنا ما نَعْبُدُ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَوْثَانِ، إِنَّ كُنتَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ عَلَى مَا تَقُولُ وَتَعِدُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ قَدِ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ مِّمَّا أَتَجَدَّوْنِي فِيهِ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَتُورَاءَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعْكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قَالَ هُوَ لِقَوْمِهِ: قَدْ خَلَّ بِكُمْ عَذَابٌ وَغَضَبٌ مِنْ اللَّهِ.

وأما قوله: «أتجادلونني في أسماء سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ»، فإنه يقول: اتخاصمونني في أسماء سَمَّيْتُمُوهَا أصناماً، لا تَضُرُّ ولا تنفَعُ. «أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ»، يقول: مَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فِي عِبَادَتِكُمْ إِيَّاهَا مِنْ حُجَّةٍ تَحْتِجُونَ بِهَا، ولا معذرة تعتذرون بها، لِأَنَّ الْعِبَادَةَ إِنَّمَا هِيَ لِمَنْ ضَرَّ وَنَفَعَ، وَأَثَابَ عَلَى الطَّاعَةِ وَعَاقَبَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَرَزَقَ وَمَنَعَ. فأما الجمادُ من الحجارة والحديد والنحاس، فإنه لا نَفْعَ فِيهِ ولا ضَرَّ، إِلَّا أَنْ تَتَخَذَ مِنْهُ آلَةً، وَلَا حُجَّةَ لِعَابِدِ عَبْدَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي عِبَادَتِهِ إِيَّاهُ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْذَنْ بِذَلِكَ، فَيَعْتَذِرُ مَنْ عَبْدُهُ بِأَنَّهُ يَعْبُدُهُ اتِّبَاعاً مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فِي عِبَادَتِهِ إِيَّاهُ. ولا هو - إِذْ كَانَ اللَّهُ لَمْ يَأْذَنْ فِي عِبَادَتِهِ - مِمَّا يُرْجَى نَفْعُهُ، أَوْ يُخَافُ ضَرُّهُ، فِي عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ، فَيُعْبَدُ رَجَاءً نَفْعِهِ، أَوْ دَفْعَ ضَرِّهِ - «فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ»، يقول: فانتظروا حُكْمَ اللَّهِ فِينَا وَفِيكُمْ. «إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ»، حُكْمُهُ وَفَصْلُ قَضَائِهِ فِينَا وَفِيكُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأُنْجِيَنَّهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا

وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَأُنْجِيَنَّا هُوداً وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنْ اتِّبَاعِهِ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَالتَّصَدِيقِ بِهِ وَبِمَا دَعَا إِلَيْهِ، مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَتَجَرُّدِ الْإِلَهَةِ وَالْأَوْثَانِ. «بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا»، يقول: وَأَهْلَكْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا مِنْ قَوْمِ هُودٍ بِحُجَّتِنَا جَمِيعاً عَنْ آخِرِهِمْ، فَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا.

«وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ»، يقول: لَمْ يَكُونُوا مُصَدِّقِينَ بِاللَّهِ وَلَا بِرَسُولِهِ هُودَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومُ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ. قَدْ جَاءَ تَكْمِيلُ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: ولقد أرسلنا إلى ثمودَ أخاهم صالحاً.

«قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ»، يقول: قال صالح لثمود:
يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له، فما لكم إله يجوزُ لكم أن تعبدوه غيره،
وقد جاءكم حُجَّةٌ وبرهانٌ على صِدْقِ ما أقول، وحقيقة ما إليه أدعو، من
إخلاص التوحيد لله، وإفراده بالعبادة دون ما سِواه، وتصديقي على أنني له
رسولٌ. وَبَيَّنَّتِي على ما أقول وحقيقة ما جِئْتُكم به من عند ربي، وحجتي عليه،
هذه الناقة التي أخرجها الله من هذه الهَضْبَةِ، دليلاً على بُرْهَانِي وَصِدْقِ مَقَالَتِي،
فقد عَلِمْتُمْ أَنَّ ذلك من المعجزات التي لا يقدرُ على مثلها أحدٌ إلا الله.

وإنما استشهد صالح، فيما بلغني، على صِحَّةِ بُرْهَانِهِ عند قومه ثمود
بالناقة، لأنهم سألوه إِيَّاهَا آيَةً ودلالةً على حقيقة قوله.

وأما قوله: «وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ»، فإنه يقول: وَلَا تَمْسُوهَا نَاقَةَ اللَّهِ بِعَقْرِ وَلَا
نَحْرٍ. «فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ»، يعني: موجع.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ
عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
الْجِبَالَ يَبُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَنْعَتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: مخبراً عن قَبْلِ صالحٍ لقومه، واعظاً لهم: واذكروا،

أيها القوم، نعمة الله عليكم. «إذ جعلكم خلفاء»، يقول: تَخْلِفُونَ عَادًا فِي الْأَرْضِ بعد هلاكها.

وأما قوله: «وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ»، فإنه يقول: وأنزلكم في الأرض، وجعل لكم فيها مساكنَ وأزواجاً. «تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا»، ذكر أنهم كانوا يَنْقُبُونَ الصَّخَرَ مساكن.

وقوله: «فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ»، يقول: فاذكروا نعمة الله التي أنعم بها عليكم. «وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَتَكْذِبُونَ أَمْ لَكُمْ أَلْمُونَ أَنْ صَلَحَ حَامِرُ سَلٍّ مِنْ رَبِّهِ قَالَوَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «قال الملأ الذين استكبروا من قومه»، قال: الجماعة الذين استكبروا من قوم صالح عن اتباع صالح والإيمان بالله وبه. «لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا»، يعني: لأهل المسكنة من تَبَاعِ صالح والمؤمنين به منهم، دون ذوي شرفهم وأهل السُّود منهم. «أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ»، أرسله الله إلينا وإليكم، قال الذين آمنوا بصالح من المُستضعفين منهم: إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ اللَّهُ بِهِ صَالِحًا مِنَ الْحَقِّ وَالْهُدَى مُؤْمِنُونَ، يقول: مُصَدِّقُونَ مُقَرَّرُونَ أَنَّهُ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهِ، وَعَنْ أَمْرِ اللَّهِ دَعَانَا صَالِحٌ إِلَيْهِ. «قال الذين استكبروا»، عن أمر الله وأمر رسوله صالح - «إِنَّا»، أيها القوم، «بالذي آمنتم به»، يقول: صَدَقْتُمْ بِهِ مِنْ نُبُوءَةِ صَالِحٍ، وَأَنَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. «كافرون»، يقول: جَاحِدُونَ مُنْكَرُونَ، لَا نُصَدِّقُ بِهِ وَلَا نُقَرُّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوَاعَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحْ أَثْنَانَا بِمَا نَعِدُكَ إِنَّا كُنَّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَعَقَرَتْ ثَمُودُ النَّاقَةَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لَهُمْ آيَةً. «وَعَتَوَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ»، يقول: تَكَبَّرُوا وَتَجَبَّرُوا عَنْ اتِّبَاعِ اللَّهِ، وَاسْتَعْلَوْا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَقَمَتِهِ، اسْتَعْجَلُوا مِنْهُمْ لِلْعَذَابِ. «إِنَّا كُنَّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ»، يقول: إِنَّا كُنَّا مِنْ رُسُلِ اللَّهِ إِلَيْنَا، فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ رُسُلَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ، فَجَعَلَ ذَلِكَ لَهُمْ كَمَا اسْتَعْجَلُوهُ، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَدِيمِينَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَأَخَذَتْ الَّذِينَ عَقَرُوا النَّاقَةَ مِنْ ثَمُودَ «الرِّجْفَةُ»، وَهِيَ الصَّيْحَةُ.

وقوله: «فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ»، يقول: فَأَصْبَحَ الَّذِينَ أَهْلَكَ اللَّهُ مِنْ ثَمُودَ-. «فِي دَارِهِمْ»، يَعْنِي فِي أَرْضِهِمْ الَّتِي هَلَكُوا فِيهَا وَبَلَدَتِهِمْ. وقوله: «جَائِمِينَ» يَعْنِي: سُقُوطًا صَرَغَى لَا يَتَحَرَّكُونَ، لِأَنَّهُمْ لَا أَرْوَاحَ فِيهِمْ، قَدْ هَلَكُوا. وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلْبَارِكِ عَلَى الرِّكْبَةِ: «جَائِمٌ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أُنْبِغْتُكُمْ إِرْسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَأَدْبَرَ صَالِحٌ عَنْهُمْ حِينَ اسْتَعْجَلُوهُ الْعَذَابَ وَعَقَرُوا نَاقَةَ

الله، خارجاً عن أرضهم من بين أظهرهم، لأن الله تعالى ذكره أوحى إليه: إني مهلكهم بعد ثلاثة.

وقيل: إنه لم تهلك أمةٌ ونبيُّها بين أظهرها^(١).

فأخبر الله جل ثناؤه عن خروج صالح من بين قومه الذين عتوا على ربهم حين أراد الله إحلال عقوبته بهم، فقال: «فتولّى عنهم» صالح - وقال لقومه ثمود: «لقد ابغتكم رسالة ربي»، وأدبّت إليكم ما أمرني بأدائه إليكم ربي من أمره ونهيه. «ونصحت لكم»، في أدائي رسالة الله إليكم، في تحذيركم بأسه بإقامتكم على كفركم به وعبادتكم الأوثان. «ولكن لا تحبون الناصحين»، لكم في الله، الناهين لكم عن اتباع أهوائكم، الصادّين لكم عن شهوات أنفسكم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَوْ طَإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أرسلنا لوطاً.

ولو قيل: معناه: «اذكُرْ لوطاً، يا محمدُ، «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ» إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي الْكَلَامِ صَلَةُ «الرَّسَالَةِ»، كَمَا كَانَ فِي ذِكْرِ عَادٍ وَثَمُودَ - كَانَ مَذْهَباً.

وقوله: «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ»، يقول: حين قال لقومه من سدوم، وإليهم كان أرسلَ لوط. «أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ»، وكانت فاحشتهم التي كانوا يأتونها، التي عاقبهم الله عليها، إتيانَ الذكور. «مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ»، يقول: ما سبقكم بفعل هذه الفاحشة أحدٌ من العالمين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ

(١) أنظر معانى القرآن للفراء: ٣٨٥/١.

النِّسَاءُ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

يخبر بذلك تعالى ذِكْرَهُ عن لوط أنه قال لقومه، توبيحاً منه لهم على فعلهم: إنكم، أيها القوم، لتأتون الرجال في أدبارهم، شهوةً منكم لذلك، من دون الذي أباحه الله لكم وأحلّه من النساء. «بل أنتم قوم مسرفون»، يقول: إنكم لقوم تأتون ما حَرَّمَ الله عليكم، وتعصونه بفعلكم هذا.

وذلك هو «الإسراف»، في هذا الموضع

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ: إِلَّا أَنْ قَالُوا: أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وما كان جواب قوم لوط للوط، إذ وَبَّحَهُمْ على فعلهم القبيح، وركوبهم ما حَرَّمَ الله عليهم من العمل الخبيث، إلا أن قال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطاً وأهله - ولذلك قيل: «أخرجوهم»، فجمع، وقد جرى قبل ذِكْرُ «لوط» وحده دون غيره.

وقد يحتمل أن يكون إنما جمع بمعنى؛ أخرجوا لوطاً وَمَنْ كان معه على دينه من قريتهم - فاكتفى بذكر «لوط» في أول الكلام عن ذِكْرِ أَتْبَاعِهِ، ثم جمع في آخر الكلام كما قيل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، [الطلاق: ١].
«إنهم أناسٌ يتطهرون»، يقول: إن لوطاً وَمَنْ تَبِعَهُ، أناسٌ يَتَزَهَّوْنَ عَمَّا نفعله نحن من إتيان الرجال في الأدبار.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَتَجَنَّبُنَّهُ وَأَهْلَهُ: إِلَّا أَمَرَ أَتَاهُ، كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما أبى قومُ لوط - مع توبيخِ لوطِ إياهم على ما يأتون من الفاحشة، وإبلاغه إياهم رسالةَ رَبِّه بتحريمِ ذلك عليهم - إلا التمادي في غيِّهم، أنجينا لوطاً وأهله المؤمنينَ به، إلا امرأته، فإنها كانت للوطِ خاتنةً، وبالله كافرةً.

وقوله: «من الغابرين»، يقول: من الباقين.

فإن قال قائل: فكانت امرأة لوطِ ممن نجا من الهلاك الذي هلكَ به قومُ لوط؟

قيل: لا، بل كانت فيمن هلك.

فإن قال: فكيف قيل: «إلا امرأته كانت من الغابرين»، وقد قلت إن معنى «الغابر»، الباقي؟ فقد وَجِبَ أَنْ تكونَ قد بقيت؟

قيل: إن معنى ذلك غير الذي ذهبَ إليه، وإنما عَنَى بذلك، إلا امرأته كانت من الباقين قبلَ الهلاكِ، والمعمَّرينَ الذين قد أتى عليهم دهرٌ كبيرٌ، ومَرُّ بهم زمنٌ كثيرٌ، حتى هَرِمَتْ فيمن هَرِمَ من الناس، فكانتِ ممنَ غَبَرَ الدهرَ الطويلَ قبلَ هلاكِ القومِ، فهلكتْ مع مَنْ هلكَ من قومِ لوطِ حينَ جاءهم العذاب.

وقيل: معنى ذلك: من الباقين في عذابِ الله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأمطرنا على قومِ لوطِ الذينَ كَذَّبُوا لوطاً ولم يؤمنوا به، مَطَرًا من حجارةٍ من سِجِّيلٍ أهلكناهم به. «فانْظُرْ كيف كان عاقبةُ

المجرمين»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فانظر، يا محمد، إلى عاقبة هؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله من قوم لوط، فاجتروا معاصي الله، وركبوا الفواحش، واستحلوا ما حَرَّمَ الله من أَدْبَارِ الرجال، كيف كانت؟ وإلى أي شيء صارت؟ هل كانت إلا البوار والهلاك؟ فإن ذلك أو نظيره من العقوبة، عاقبة مَنْ كَذَّبَكَ واستكبر عن الإيمان بالله وتصديقك إن لم يتوبوا، من قومك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرُ
 أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ
 رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ
 وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

(يعني): ولقد أرسلنا إلى ولدِ مَدْيَنَ، أَخَاهُمْ شُعَيْبَ بْنِ مَيْكِلَ، يَدْعُوهُمْ إلى طاعة الله، والانتهاز إلى أمره، وترك السعي في الأرضِ بالفساد، والصدُّ عن سبيله، فقال لهم شعيب: يا قوم، اعبُدوا الله وحده لا شريك له، ما لكم من إله يستوجب عليكم العبادة غير الإله الذي خلقكم، وبيده نفعكم وضرركم. «قد جاءكم بَيِّنَةٌ من ربكم»، يقول: قد جاءكم علامةٌ وحجةٌ من الله بحقيقة ما أقول، وصدق ما أدعوكم إليه. «أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ»، يقول: أتموا للناسِ حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به، وبالوزن الذي تزنون به. «ولا تبخسوا الناسَ أشياءَهُمْ»، يقول: ولا تظلموا الناسَ حقوقهم، ولا تنقصوهم إياها.

وقوله: «ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها»، يقول: ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه، وما كنتم تعملونه قبل أن يبعث الله إليكم نبيه، من عبادة غير الله، والإشراك به، وبخس الناس في الكيل والوزن. «بعد إصلاحها»، يقول بعد أن قد أصلح الله الأرض بابتعاث النبي عليه السلام فيكم، ينهاكم

عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكُمْ، وما يكرهه الله لكم. «ذلكم خيرٌ لكم»، يقول: هذا الذي ذكرتُ لكم وأمرتكم به، من إخلاصِ العبادةِ لله وحدهُ لا شريكَ له، وإيفاءِ الناسِ حقوقهم من الكيلِ والوزنِ، وتركِ الفسادِ في الأرضِ، خيرٌ لكم في عاجلِ دنياكم وآجلِ آخرتكم عند الله يوم القيامة. «إن كنتم مؤمنين»، إن كنتم مُصَدِّقِي فيما أقولُ لكم، وأؤدِّي إليكم عن الله من أمره ونهيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ ۖ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾

يعني بقوله: «ولا تقعدوا بكل صراطٍ تُوعِدُونَ»، ولا تجلسوا بكل طريقٍ - وهو «الصراط» - تُوعِدُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقَتْلِ.

وكانوا، فيما ذكّر، يقعدون على طريق من قصَدَ شُعبياً وأراده ليؤمنَ به، فيتوعِدُونَهُ وَيُخَوِّفُونَهُ، ويقولون: إنه كَذَّاب!

وأما قوله: «وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ»، فإنه يقول: وترُدُّونَ عن طريقِ الله، وهو الرُّدُّ عن الإيمانِ بالله والعملِ بطاعته. «مَنْ آمَنَ بِهِ»، يقول: تَرُدُّونَ عن طريقِ الله مَنْ صَدَّقَ بالله ووَحَّدَهُ. «وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا»، يقول: وتلتبسون لِمَنْ سَلَكَ سَبِيلَ اللَّهِ وَآمَنَ بِهِ وَعَمَلَ بِطَاعَتِهِ. «عِوَجًا». عن القصدِ والحق، إلى الزيف والضلال.

وقوله: «واذكروا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ»، يُذَكِّرُهُمْ شُعَيْبُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَنْدهُمْ بِأَن كَثُرَ جَمَاعَتُهُمْ بَعْدَ أَن كَانُوا قَلِيلًا عِنْدَهُمْ، وَأَن رَفَعَهُمْ مِنَ الذُّلِّ وَالْخُسَاسَةِ، يَقُولُ لَهُمْ: فَاشْكُرُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ، وَأَخْلَصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ، وَاتَّقُوا عَقِبَتَهُ بِالطَّاعَةِ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ بِتَرْكِ الْمَعْصِيَةِ، - وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

المفسدين»، يقول: وانظروا ما نزلَ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ حِينَ عَتَوْا عَلَى رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، مِنَ الْمَثَلَاتِ وَالنَّقِمَاتِ، وكيف وجدوا عُقْبَى عَصِيَانِهِمْ! إياه؟ ألم يهلك بعضهم غَرَقًا بِالطُوفَانِ، وبعضهم رجماً بالحجارة، وبعضهم بالصيحة؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُهُ: «وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ»، وَإِنْ كَانَتْ جَمَاعَةٌ مِنْكُمْ وَفَرَقَةٌ. «آمَنُوا»، يَقُولُ: صَدَّقُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ مِنْ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ، وَتَرْكِ مَعَاصِيهِ، وَظَلَمِ النَّاسِ، وَبُخْسِهِمْ فِي الْمَكَايِلِ وَالْمَوَازِينِ، فَاتَّبِعُونِي عَلَى ذَلِكَ. «وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا»، يَقُولُ: وَجَمَاعَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَدِّقُوا بِذَلِكَ وَلَمْ يَتَّبِعُونِي عَلَيْهِ. «فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا»، يَقُولُ: فَاحْتَسِبُوا عَلَى قِضَاءِ اللَّهِ الْفَاصِلِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ. «وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ»، يَقُولُ: وَاللَّهُ خَيْرٌ مِّنْ يَفْصِلُ وَأَعْدِلُ مَن يَقْضِي، لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ فِي حُكْمِهِ مِثْلٌ إِلَى أَحَدٍ، وَلَا مُحَابَاةٌ لِأَحَدٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ: لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا»، يَعْنِي بِالْمَلَأِ، الْجَمَاعَةُ مِنَ الرِّجَالِ، وَيَعْنِي بِالَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا، الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالْإِنْتِهَاءِ إِلَى أَمْرِهِ، وَاتَّبَاعِ رَسُولِهِ شُعَيْبٍ، لَمَّا حَذَّرَهُمْ شُعَيْبٌ بِأَسْمِ اللَّهِ، عَلَى خِلَافِهِمْ أَمْرَ رَبِّهِمْ، وَكَفَرَهُمْ بِهِ. «لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ»، وَمَنْ تَبِعَكَ وَصَدَّقَكَ وَأَمَّنَ بِكَ

وبما جئتُ به معك . «من قرئتنا أو لنعوذُ في ملتنا» ، يقول : لترجعن أنتَ وهُم في ديننا وما نحنُ عليه . قال شعيبُ مجيباً لهم : «أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ» .
ومعنى الكلام : أن شعيباً قال لقومه : أخرجِجُونَا من قرئتكم ، وتصلُّونَا عن سبيلِ الله ، ولو كُنَّا كَارِهِينَ لذلك ؟ - ثم أدخلت «ألف» الاستفهام على «واو» . ولو .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِدْجَائِنَا إِلَى اللَّهِ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ



يقول جُلُّ ثنَائِهِ : قال شعيب لقومه إذ دَعَوُهُ إِلَى الْعُودِ إِلَى مِلَّتِهِمْ ، والدخول فيها ، وتوعُّدوه بطرده وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ قَرِيَّتِهِمْ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ هُوَ وَهُمْ : «قد افترينا على الله كذباً» ، يقول : قد اختلقنا على الله كذباً ، وتخرُّصنا عليه من القولِ باطلاً - إِنْ نَحْنُ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ، فرجعنا فيها بعد إذ أنقذنا الله منها ، بَأْنْ بَصَرْنَا خَطَايَاهَا وَصَوَابَ الْهَدْيِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ - وما يكونُ لَنَا أَنْ نَرْجِعَ فِيهَا فَنُتَدِينَ بِهَا ، وَنَتْرِكَ الْحَقَّ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ . «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا» ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ سَبَقَ لَنَا فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّا نَعُودُ فِيهَا ، فَيَمْضِي فِينَا حَيْثُذِ قَضَاءُ اللَّهِ ، فَيَنْفِذْ مَشِيئَتَهُ عَلَيْنَا . «وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا» ، يقول : فَإِنَّ عِلْمَ رَبِّنَا وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ فَاحَاطَ بِهِ ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ كَانَ ، وَلَا شَيْءٌ هُوَ كَائِنٌ . فَإِنْ يَكُنْ سَبَقَ لَنَا فِي عِلْمِهِ أَنَّا نَعُودُ فِي مِلَّتِكُمْ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ كَانَ وَلَا شَيْءٌ هُوَ كَائِنٌ ، فَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَا قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ ، وَإِلَّا فَإِنَّا غَيْرُ عَائِدِينَ فِي مِلَّتِكُمْ .

وقوله: «على الله توكلنا»، يقول: على الله نعتمدُ في أمورنا، وإليه نستندُ فيما نَعِدُونَا به من شَرِّكم، أيها القومُ، فإنه الكافي مَنْ تَوَكَّلَ عليه.

ثم فزع صلواتُ الله عليه إلى رَبِّه بالدعاءِ على قَوْمِه إِذْ أَيْسَ من فَلَاحِهِمْ، وانقطع رجاءُه من إِذْعَانِهِمْ لله بالطاعة، والإقرارِ له بالرسالة، وخافَ على نفسه وعلى مَنْ أَتْبَعَهُ من مؤمني قَوْمِه من فَسَقَتِهِمْ العطبَ والهلكةَ بتعجيلِ النعمة، فقال: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ»، يقول احكم بيننا وبينهم بِحُكْمِكَ الْحَقِّ الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ وَلَا حَيْفَ وَلَا ظُلْمَ، ولكنه عَذْلٌ وحق. «وأنت خيرُ الفاتحين»، يعني: خير الحاكمين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيْنَ أَتَّبِعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذْ لَخَاسِرُونَ ﴿٨٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الجماعةُ من كَفَرَةِ رجالِ قومِ شعيب - وهم «الملأ» - الذين جَحَدُوا آيَاتِ الله، وَكَذَّبُوا رِسْوَلَه، وتمادوا في غِيهِمْ، لِأَخْرِيْنَ منهم: لَيْتَ أَنْتُمْ أَتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا عَلَى مَا يَقُولُ، وَأَجَبْتُمُوهُ إِلَى مَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ الله، وَالْإِنْتِهَاءِ إِلَى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَأَقْرَرْتُمْ بِنُبُوَّتِهِ. «إنكم إِذَا لَخَاسِرُونَ»، يقول: لمغبونونَ فِي فِعْلِكُمْ، وَتَرَكْتُمْ مِلَّتَكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا مُقِيمُونَ، إِلَى دِينِهِ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ - وَهَالِكُونَ بِذَلِكَ مِنْ فَعْلِكُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا ﴿٩٠﴾

يقول: فَأَخَذَتْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِ شعيب، الرَّجْفَةُ. وقد بَيَّنْتُ معنى «الرجفة» قَبْلُ، وَأَنَّهَا الزَّلْزَلَةُ الْمُحَرَّكَةُ لِعَذَابِ الله.

«فأصبحوا في دارهم جاثمين»، على رُكَبِهِمْ، مَوْتَى هَلَكَى.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا
الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فأهلك الذين كَذَبُوا شُعَيْبًا فلم يؤمنوا به، فأبادهم، فصارت قريتهم منهم خاويةً خلاءً. «كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا»، يقول: كَأَن لَّمْ يَنْزِلُوا قَطُّ ولم يعيشوا بها حِينَ هَلَكُوا.

وقوله: «الذين كَذَبُوا شُعَيْبًا كانوا هم الخاسرين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لم يكن الذين اتَّبَعُوا شُعَيْبًا الخاسرين، بل الذين كَذَّبُوهُ كانوا هم الخاسرين الهالكين. لأنه أَخْبَرَ عَنْهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: أَنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا قَالُوا لِلَّذِينَ أَرَادُوا اتِّبَاعَهُ: «لئن اتبعتم شُعَيْبًا إنكم إذا لخاسرون»، فكذَّبَهُم اللهُ بما أَحْلَلَ بِهِمْ مِنْ عَاجِلِ نَكَالِهِ، ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ما خسر تَبَاعُ شُعَيْبٍ، بَلْ كَانَ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا لَمَّا جَاءَتْ عِقَابُهُ اللهُ، هُمُ الْخَاسِرِينَ، دُونَ الَّذِينَ صَدَّقُوا وَأَمَنُوا بِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رُبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

فأدبرَ شُعَيْبٌ عَنْهُمْ، شَاخِصًا مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ حِينَ أَنَاهُمْ عَذَابُ اللهِ، وَقَالَ لَمَّا أَيْقَنَ بِنَزُولِ نِقْمَةِ اللهِ بِقَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ، حَزَنًا عَلَيْهِمْ: «يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي»، وَأَدْبَتُ إِلَيْكُمْ مَا بَعَثَنِي بِهِ إِلَيْكُمْ، مِنْ تَحْذِيرِكُمْ غَضَبُهُ عَلَى إِقَامَتِكُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِهِ، وَظَلَمِ النَّاسِ أَشْيَاءَهُمْ. «وَنَصَحْتُ لَكُمْ»، بِأَمْرِي

إياكم بطاعة الله، ونهيكم عن معصيته. «فكيف آسى»، يقول: فكيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله، وأتوجع لهلاكهم؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾

يقول تعالى ذكره: لنبيه محمد ﷺ، معرفته سنته في الأمم التي قد خلّت من قبل أمته، ومذكّر من كفر به من قريش، لينزجروا عما كانوا عليه مقيمين من الشرك بالله، والتكذيب لنبيه محمد ﷺ: «وما أرسلنا في قرية من نبي: قبلك. إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء»، وهو البؤس وشطفت المعيشة وضيقها، «والضراء»، وهي الضر وسوء الحال في أسباب دنياهم. «لعلهم يضرعون»، يقول: فعلنا ذلك ليتضرعوا إلى ربهم، ويستكينوا إليه، وينبوا، بالإقلاع عن كفرهم، والتوبة من تكذيب أنبيائهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

يقول تعالى ذكره: «ثم بدّلنا»، أهل القرية التي أخذنا أهلها بالبأساء والضراء. «مكان السيئة»، وهي البأساء والضراء - وإنما جعل ذلك سيئة، لأنه مما يسوء الناس - ولا تسوؤهم «الحسنة»، وهي الرخاء والنعمة والسعة في المعيشة. «حتى عفاوا»، يقول: حتى كثروا.

وأما قوله: «وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء»، فإنه خبر من الله عن هؤلاء القوم الذين أبدلهم مكان الحسنة السيئة التي كانوا فيها، استدراجاً

وابتلاء، أنهم قالوا إذ فعل ذلك بهم: هذه أحوال قد أصابت من قبلنا من آباءنا، ونالت أسلافنا، ونحن لا نعدو أن نكون أمثالهم يصيبنا ما أصابهم من الشدة في المعاش والرخاء فيها - وهي «السراء»، لأنها تسر أهلها.

وجهل المساكين شكر نعمة الله، وأغفلوا من جهلهم استدامة فضله بالإنابة إلى طاعته، والمصارعة إلى الإقلاع عما يكرهه بالتوبة، حتى أتاهم أمره وهم لا يشعرون.

يقول جل جلاله: «فأخذناهم بَغْتَةً وهم لا يشعرون»، يقول: فأخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة، أتاهم على غرة منهم بمجيئه، وهم لا يدرُونَ ولا يعلمون أنه يجيئهم، بل هم بأنه آتِيهم مُكْذِبُونَ حتى يُعَايِنُوهُ وَيَرَوْهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٨﴾ وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٩﴾

(١) يعني: ولو أن أهل القرى الذين كذبوا فأهلكوا آمنوا واتقوا الشُّرك فكان ارتكابه «لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض»، يقول: لأنهم الغيث من السماء، والنبات من الأرض، وجعل ذلك زاكياً كثيراً. «ولكن كذبوا» الله ورسوله. «فأخذناهم بما كانوا يكسبون»، يعني: بكفرهم وسوء كسبهم.

(١) سقط تفسير الآيات الثلاث من المخطوط والمطبوعات، وهو كما استرجع العلامة محمود شاكر نقص قديم. وقد وضعنا بين قوسين تفسيراً مختصراً صنفناه من معاني القرآن للزجاج: ٣٦٠/٢، وتفسير النسفي: ٦٦/٢ وغيرهما، لئلا يبقى خالياً من تفسير.

وقوله «أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ» يعني: أَفَأَمِنَتِ الأُمّةُ التي كَذَّبَتْ اللهَ وَرَسُولَهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُنَا لَيْلاً وَهُمْ نَائِمُونَ. «أَوْ ضَحَى وَهُمْ يَلْعَبُونَ»، يقول: نهاراً وَهُمْ فِي غَيْرِ مَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ مَشْغُولُونَ).

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٨﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: أَفَأَمِنَ، يَا مُحَمَّدُ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَجْحَدُونَ آيَاتِهِ، اسْتَدْرَاجَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ مِنْ صَحَّةِ الْأَبْدَانِ وَرِخَاءِ الْعَيْشِ، كَمَا اسْتَدْرَجَ الَّذِينَ قَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَصَهُمْ مِنَ الْأَمَمِ قَبْلَهُمْ، فَإِنَّ مَكْرَ اللَّهِ لَا يَأْمَنُهُ، يَقُولُ: لَا يَأْمَنُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ اسْتَدْرَاجاً، مَعَ مَقَامِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ. «إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ»، وَهُمْ الْهَالِكُونَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُوكَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٩٩﴾

يقول: أَوَلَمْ يَبَيِّنْ لِلَّذِينَ يُسْتَخْلَفُونَ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ هَلَاكِ آخِرِينَ قَبْلَهُمْ كَانُوا أَهْلِهَا، فَسَارُوا سَبِيلَهُمْ، وَعَمَلُوا أَعْمَالَهُمْ، وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ. «أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ»، يَقُولُ: أَنْ لَوْ نَشَاءُ فَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا فَعَلْنَا بِمَنْ قَبْلَهُمْ، فَأَخَذْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَعَجَّلْنَا لَهُمْ بِأَسْنَا كَمَا عَجَّلْنَاهُ لِمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِمَّنْ وَرَثُوا عَنْهُ الْأَرْضَ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ. «وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ»، يَقُولُ: وَنَخْتُمُ عَلَى قُلُوبِهِمْ. «فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ»، مَوْعِظَةٌ وَلَا تَذْكِيرٌ، سَمَاعٌ مُتَنَفِعٌ بِهِمَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قِيلَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذه القرى التي ذكرت لك، يا محمد، أمرها وأمر أهلها - يعني: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب. «نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا»، فنخبرك عنها وعن أخبار أهلها، وما كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَأَمْرِ رُسُلِ اللَّهِ التي أَرْسَلْتُ إِلَيْهِمْ، لتعلم أنا نَصَرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى أَعْدَائِنَا وَأَهْلِ الْكُفْرِ بِنَا، ويعلم مُكَذِّبُوكَ مِنْ قَوْمِكَ مَا عَاقِبَهُ أَمْرٌ مَنْ كَذَّبَ رُسُلَ اللَّهِ، فيرتدعوا عن تكذيبك، وَيُؤْيِبُوا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ. «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ»، يقول: ولقد جاءتْ أَهْلَ الْقُرَى التي قَصَصْتُ عَلَيْكَ نَبَأَهَا، «رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ»، يعني بالحجج البَيِّنَاتِ. «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ»، يقول: فما كانوا لِيُؤْمِنُوا عِنْدَ مَجِيءِ الرُّسُلِ، بما سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ بِهِ يَوْمَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وأما قوله: «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ الَّتِي قَصَصْنَا عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ، يا محمد، في هذه السورة، حتى جاءهم بِأُسُ اللَّهِ فَهَلَكُوا بِهِ. «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ»، الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا مِنْ قَوْمِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَلَمْ نَجِدْ لَأَكْثَرِ أَهْلِ هَذِهِ الْقُرَى الَّتِي أَهْلَكْنَاهَا وَاقْتَضَصْنَا عَلَيْكَ، يَا مُحَمَّدُ، نَبَأَهَا «مِنْ عَهْدٍ»، يقول: مَنْ وَفَاءٍ بِمَا وَصَّيْنَاهُمْ بِهِ، مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَاتِّبَاعِ رِسَالِهِ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، وَهَجْرِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ.

«وَأَنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ»، يقول: وَمَا وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ إِلَّا فَسَقَةً عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ، تَارِكِينَ عَهْدَهُ وَوَصِيَّتَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَهُودَ وَصَالِحَ وَلُوطَ وَشُعَيْبَ، مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ.

«بِآيَاتِنَا» يقول: بِحُجَجِنَا وَأَدَلَّتِنَا. «إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ»، يعني: إِلَى جَمَاعَةِ فِرْعَوْنَ مِنَ الرِّجَالِ. «فَظَلَمُوا بِهَا»، يقول: فَكَفَرُوا بِهَا.

وَمَعْنَى ذَلِكَ: فَظَلَمُوا بِآيَاتِنَا الَّتِي بَعَثْنَا بِهَا مُوسَى إِلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا جَازَ أَنْ يُقَالَ: «فَظَلَمُوا بِهَا»، بِمَعْنَى: كَفَرُوا بِهَا، لِأَنَّ الظُّلْمَ وَضَعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

وَالْكَفَرُ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَضَعُ لَهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَصَرَفُ لَهَا إِلَى غَيْرِ وَجْهِهَا الَّذِي عُيِّنَتْ بِهِ. «فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ»، يقول جَلَّ ثَنَاهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: فَانْظُرْ، يَا مُحَمَّدُ، بَعِينَ قَلْبِكَ، كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ؟ - يَعْنِي فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ، إِذْ ظَلَمُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي جَاءَهُمْ بِهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ عَاقِبَتُهُمْ أَنَّهُمْ أُغْرِقُوا جَمِيعاً فِي الْبَحْرِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ مُوسَى يَكْفِرُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

يقول جل ثناؤه: وقال موسى لفرعون: يا فرعون إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العالمين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾

اختلفت القراءَةُ في قراءة قوله: «حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ».

فقرأه جماعةٌ من قُرَأةِ المكيين والمدنيين والبصرة والكوفة: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ﴾، بإرسالِ «الباء» من «على»، وترك تشديدها، بمعنى: أَنَا حَقِيقٌ بِأَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ - فوجهوا معنى «على» إلى معنى «الباء» كما يقال: «رَمِيتُ بالقوس» و«على القوس» - و«جِئْتُ عَلَى حَالٍ حَسَنَةٍ» و«بحال حَسَنَةٍ»^(١).

وكان بعضُ أهلِ العلم بكلامِ العرب يقول: إِذَا قُرِئَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فمعناه: حَرِصْتُ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ، أَوْ: فَحَقُّ أَنْ لَا أَقُولَ^(٢).

وقرأ ذلك جماعةٌ من أهلِ المدينة: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَلَّا أَقُولَ﴾، بمعنى: وَاجِبٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ، وَحَقُّ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ.

(١) انظر معاني القرآن للقرطبي: ٣٨٦/١.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة: ٢٢٤/١.

والصوابُ من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى ،
قد قرأ بكل واحدٍ منهما أئمة من القراء ، فبأبيتهما قرأ القارئ فمصيبٌ في قراءته
الصواب .

وقوله : «قد جئكم ببينة من ربكم» ، يقول : قال موسى لفرعون ومَلِكِهِ :
قد جئكم ببرهانٍ من ربكم ، يشهدُ ، أيها القومُ ، على صِحَّة ما أقولُ ، وصِدْقِ
ما أذكرُ لكم من إرسالِ الله إليَّ إليكم رسولاً ، فأرسل يا فرعونُ معي بني
إسرائيل . فقال له فرعونُ : «إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ» ، يقول : بحجةٍ وعلامةٍ شاهدةٍ
على صِدْقِ ما تقولُ . «فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ
﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

يقول جل ثناؤه : فألقى موسى عَصَاهُ . «فإذا هي ثعبانٌ مبين» ، يعني حية .
«مبين» ، يقول : تَتَبَيَّنُ لمن يراها أنها حية .

وأما قوله : «ونزع يده فإذا هي بيضاء للنظرين» ، فإنه يقول : وأخرج يده ،
فإذا هي بيضاء تلوح لمن نظرَ إليها من الناس .

وكان موسى ، فيما ذُكِرَ لنا ، آدم^(٧) ، فجعل الله تحوُّل يده بيضاء من غير
برصٍ ، له آيةٌ ، وعلى صِدْقِ قوله : «إني رسولٌ من رب العالمين» ، حُجَّةٌ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ
عَلَيْهِمْ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قَالَتِ الْجَمَاعَةُ مِنْ رِجَالِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَالْأَشْرَافُ مِنْهُمْ. «إِنَّ هَذَا»، يَتَعَوَّنَ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ. «لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ»، يعنون أنه يأخذُ بِأَعْيُنِ النَّاسِ بِخَدَاعِهِ إِيَّاهُمْ، حَتَّى يُخَيِّلَ إِلَيْهِمُ الْعَصَا حَيَّةً، وَالْأَدَمَ أبيض، وَالشَّيْءَ بِخِلَافِ مَا هُوَ بِهِ.

وقوله: «عليم»، يقول: سَاحِرٌ عَلِيمٌ بالسحر. «يُرِيدُ أَنْ يَخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ»، أَرْضِ مِصْرَ، مَعَشَرَ الْقِبْطِ السَّحَرَةَ، وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِلْمَلَأَ: «فَمَاذَا تَأْمُرُونَ»، يقول: فَأَيُّ شَيْءٍ تَأْمُرُونَ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْرِهِ؟ بَأَيِّ شَيْءٍ تُشِيرُونَ فِيهِ؟

وقيل: «فَمَاذَا تَأْمُرُونَ»، والخبرُ بِذَلِكَ عَنْ فِرْعَوْنَ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِرْعَوْنَ، وَقَلَّمَا يَجِيءُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْكَلَامِ، وَذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنَهُ بِالْغَيْبِ، [يوسف: ٥١، ٥٢]. فقيل: ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنَهُ بِالْغَيْبِ، مِنْ قَوْلِ يَوْسُفَ، وَلَمْ يَذْكُرْ يَوْسُفَ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ: «قُلْتُ لَزِيدٍ قُمْ، فَإِنِّي قَائِمٌ»، وَهُوَ يُرِيدُ: «فَقَالَ زَيْدٌ إِنِّي قَائِمٌ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا أَرْجَاهُ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ

حَاشِرِينَ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ لِفِرْعَوْنَ: أَرْجَاهُ، أَيُّ: آخِرُهُ.

وَاخْتَلَفَتْ الْقِرَاءَةُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ.

فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قِرَاءَةِ الْمَدِينَةِ وَبَعْضُ الْعِرَاقِيِّينَ: ﴿أَرْجَاهُ﴾ بِغَيْرِ الْهَمْزِ، وَبَجَرٍّ

«الهاء».

وقرأه بعض قَرَاءَةِ الكوفيين: ﴿أَرْجَهُ﴾ بترك الهمز وتسكين «الهاء»، على لغة مَنْ يقف على الهاء في المكتبي في الوصل، إذا تحرك ما قَبْلَهَا.

وقرأه بعض البصريين: ﴿أَرْجُهُ﴾ بالهمز وضم «الهاء»، على لغة قيس.

وأولى القراءات في ذلك بالصواب، أشهرها وأفصحها في كلام العرب، وذلك ترك الهمز وجرُّ «الهاء»، وإن كانت الأخرى جائزة، غير أن الذي اخترنا أفصح اللغات وأكثرها على ألسن فصحاء العرب.

وأما قوله: «وأرسل في المدائن حاشرين»، يقول: مَنْ يحشُر السَّحَرَةَ فيجمعهم إليك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّ سِحْرٍ عَلِيمٌ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ
فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثَنَاهُ عن مشورة الملأ من قومِ فرعون على فرعون، أن يرسل في المدائن حاشرين يحشرون كُلَّ ساحرٍ عليم.

وفي الكلام محذوف، اكتفى بدلالة الظاهر من إظهاره، وهو: فأرسل في المدائن حاشرين، يحشرون السحرة.

«فجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً»، يقول: إن لنا لثواباً على غلبتنا موسى عندك. «إن كنا»، يا فرعون، «نحن الغالبين».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾

يقول جَلْ ثَنَاؤُهُ: قال فرعونٌ للسحرة، إذ قالوا له: إِنَّ لَنَا عِنْدَكَ ثَوَابًا إِنْ نَحْنُ غَلَبْنَا مُوسَى؟ قال: نعم، لَكُمْ ذَلِكَ، وَإِنْ كُمْ لَمِمْزَنٌ أَقْرَبُهُ وَأُذْنِيهِ مِنِّي. «قالوا يا موسى»، يقول: قالتِ السحرة لموسى: يا موسى، اختر أَنْ تُلْقِي عَصَاكَ، أَوْ نُلْقِي نَحْنُ عَصِينَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ الْقَوَّامُ فَلَمَّا الْقَوَّاسُ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال موسى للسحرة: أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ! فالقَتِ السحرةُ ما معهم، فلما أَلْقَوْا ذَلِكَ. «سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ»، خَيَّلُوا إِلَى أَعْيُنِ النَّاسِ بِمَا أَحْدَثُوا مِنَ التَّخْيِيلِ وَالْخُدَعِ أَنَّهَا تَسْعَى. «وَاسْتَرْهَبُوهُمْ»، يقول: وَاسْتَرْهَبُوا النَّاسَ بِمَا سَحَرُوا فِي أَعْيُنِهِمْ، حَتَّى خَافُوا مِنَ الْعَصِيِّ وَالْحَبَالِ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهَا حَيَاتٌ. «وَجَاءُوا»، كَمَا قَالَ اللَّهُ، «بِسِحْرِ عَظِيمٍ»، بِتَخْيِيلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ مِنَ التَّخْيِيلِ وَالْخُدَاعِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ، فَالْقَاهَا فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ وَتَبْتَلِعُ مَا يَسْحَرُونَ كَذِبًا وَبَاطِلًا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَظَهَرَ الْحَقُّ وَتَبَيَّنَ لِمَنْ شَهِدَهُ وَحَضَرَهُ فِي أَمْرِ مُوسَى،
وَأَنَّهُ اللَّهُ رَسُولٌ يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ. «وَبَطَّلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، مِنْ إِفْكِ السَّحْرِ
وَكُذْبِهِ وَمَخَايِلِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ



يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَغُلِبَ مُوسَى فِرْعَوْنَ وَجَمُوعَهُ. «هُنَالِكَ»، عِنْدَ ذَلِكَ
«وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ»، يَقُولُ: وَانصَرَفُوا عَنْ مَوْطِنِهِمْ ذَلِكَ بِصَغَرٍ مَقْهُورِينَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا أَمَنَا

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَالْقِيَ السَّحَرَةُ عِنْدَ مَا عَابَنُوا مِنْ عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ،
سَاقِطِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ سُجْدًا لِرَبِّهِمْ، يَقُولُونَ: «أَمَنَا رَبُّ الْعَالَمِينَ»، يَقُولُونَ:
صَدَّقْنَا بِمَا جَاءَنَا بِهِ مُوسَى، وَأَنَّ الَّذِي عَلَيْنَا عِبَادَتَهُ، هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ الْجَنِّ
وَالْإِنْسَ وَجَمِيعَ الْأَشْيَاءِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَيُدَبِّرُ ذَلِكَ كُلَّهُ. «رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ»،
لَا فِرْعَوْنَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فِرْعَوْنُ أَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ

إِنَّ هَذَا الْمَكْرُ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قَالَ فِرْعَوْنُ لِلْسَّحَرَةِ إِذْ آمَنُوا بِاللَّهِ - يَعْنِي صَدَّقُوا رَسُولَهُ

موسى عليه السلام، لما عاينوا من عظيم قُدْرَةِ الله وسلطانه: «آمتم به»، يقول: أَصَدَّقْتُمْ بِمُوسَى وَأَقْرَرْتُمْ بِنَبِيِّتِهِ. «قَبِلَ أَنْ أَذَنَ لَكُمْ»، بالإيمانِ به. «إِنْ هَذَا»، يقول: تَصْدِيقُكُمْ إِيَّاهُ، وإقراركم بنبوتِهِ. «لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ»، يقول: لخدعةٌ خَدَعْتُمْ بِهَا مَنْ فِي مَدِينَتِنَا، لِنُخْرِجُوهُمْ مِنْهَا. «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ»، ما أَفْعَلُ بِكُمْ، وما تَلْفُونُ من عقابي إياكم على صنيعكم هذا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا قُطْعَنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ
ثُمَّ لَأَصْلَبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مخبراً عن قِبَلِ فرعونَ للسحرة إِذْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ مُوسَى: «لَأَقُطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ»، وذلك أَنْ يَقُطَعَ مِنْ أَحَدِهِمْ يَدُهُ الْيُمْنَى وَرِجْلُهُ الْيُسْرَى، أَوْ يَقُطَعَ يَدُهُ الْيُسْرَى وَرِجْلُهُ الْيُمْنَى، فَيُخَالَفُ بَيْنَ الْعُضْوَيْنِ فِي الْقُطْعِ، فمخالفته في ذلك بينهما هو «الْقُطْعُ مِنْ خِلَافٍ».

ويقال: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ هَذَا الْقُطْعَ فرعون. «ثُمَّ لَأَصْلَبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ»، وإنما قال هذا فرعونُ، لما رَأَى مِنْ خِذْلَانِ اللَّهِ إِيَّاهُ، وَغَلَبَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَهْرِهِ لَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنْقِمُ مِنْ آلِ آلَتِ آمَنَّا بِثَانِتِ رَبِّنَا لَمَجَاءِ تَنَارِ رَبِّنَا أَفَرِحَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال السحرةُ مُجِيبَةً لفرعونَ، إِذْ تَوَعَّدَهُمْ بِقُطْعِ الْأَيْدِي

والأرجل من خلاف، والصلب: «إنا إلى رَبِّنا منقلبون»، يعني بالانقلاب إلى الله، الرجوع إليه والمصير. وقوله: «وما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنا»، يقول ما تَنْكُرُ منا، يا فرعون، وما تَجِدُ علينا، إِلَّا من أجل أَنْ آمَنَّا، أَي صَدَّقْنَا. «بآيَاتِ رَبِّنا»، يقول: بحججِ رَبِّنا وأعلامِهِ وأدَلَّتِهِ التي لا يقدِرُ على مِثْلِها أَنْتَ ولا أَحَدٌ، سِوَى الله الذي له مَلِكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ. ثم فزعوا إلى الله بِمَسْأَلَتِهِ الصَّبْرَ على عذابِ فرعونَ، و قبض أرواحهم على الإسلام، فقالوا: «رَبُّنا أَفْرَغَ علينا صَبْرًا»، يعنون بِقولهم: «أفْرَغَ»، أَنْزَلَ علينا حَسَبًا يَحْبُسُنَا عن الكفْرِ بِكَ، عند تعذيب فرعونَ إِيَّانا. «وَتَوَفَّنا مسلمينَ»، يقول: وأقبضنا إليك على الإسلامِ دِينِ خَلِيلِكَ إبراهيمَ ﷺ، لا على الشُّرْكِ بِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ الْمَلَأِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُمُوسَى وَقَوْمَهُ لِيَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ فَتُسَبِّحُهُمْ وَنَسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقالت جماعةُ رجالٍ من قومِ فرعونَ لفرعونَ: أَتَدْعُ موسى وقومَهُ من بني إسرائيلَ. «ليفسدوا في الأرضِ»، يقول: كي يفسدوا خَدَمَكَ وعبيدَكَ عليك في أرضِكَ من مصر. «ويَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ»، يقول: «ويَذَرَكَ»، ويدع خِدْمَتَكَ موسى وعبادَتَكَ وعبادَةَ آلِهَتِكَ. وفي قوله: «ويَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ»، وجهان من التأويل.

أحدهما: أَتَدْرُ موسى وقومَهُ لِيَفْسِدُوا في الأرضِ، وقد تركَكَ وتركَ عبادَتَكَ وعبادَةَ آلِهَتِكَ - وإذا وَجَّهَ الكلامُ إلى هذا الوجهِ من التأويلِ، كان النصبُ في قوله: «ويَذَرَكَ»، على الصرفِ، لا على العطفِ به على قوله: «ليفسدوا».

والثاني: أَتَدْرُ موسى وقومَهُ لِيَفْسِدُوا في الأرضِ، وليَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ كالتوبيخ

الأعراف: ١٢٧-١٢٨

منهم لفرعونَ على تركِ موسى ليفعلَ هذينِ الفِعْلَيْنِ. وإذا وَجَّهَ الكلامَ إلى هذا الوجه، كان نصب «ويدرك» على العطف على «ليفسدوا».

والوجه الأول أَوْلَى الوجهين بالصواب، وهو أن يكون نصب «ويدرك» على الصرف، لأنَّ التأويلَ من أهلِ التأويلِ به جاء.

كأنه وَجَّهَ تأويله إلى: أنذر موسى وقومه، ويدرك وآلهتك، ليفسدوا في الأرض.

وقد تحتل هذه القراءة أن يكون معناها: أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وهو يَذْرُكُ وآلهتك - فيكون «يدرك» مرفوعاً بابتداء الكلام والسلامة من الحوادث.

وأما قوله: «وآلهتك»، فإنَّ قَرَأَةَ الأمصارِ على فتح «الألف» منها ومُدَّها، بمعنى: وقد ترك موسى عبادتك وعبادة آلهتك التي تعبدها.

وقوله: «قال سنقتل أبناءهم»، يقول: قال فرعون: سنقتل أبناءهم الذكور من أولاد بني إسرائيل. «ونستحيي نساءهم»، يقول: ونستحيي إناثهم. «وإنا فوقهم قاهرون»، يقول: وإنا عَالُونَ عليهم بالقهر، يعني بقهر الملك والسلطان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ
وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ

يقول تعالى ذِكْرُه: «قال موسى لقومه»، من بني إسرائيل، لما قال فرعون للملأ من قومه: «سنقتل أبناء بني إسرائيل ونستحيي نساءهم». «استعينوا بالله»،

على فرعون وقومه فيما يُنوبكم من أمركم. «واصبروا»، على ما نالكم من المكاره في أنفسكم وأبنائكم من فرعون.

وقوله: «إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»، يقول: إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يورثكم - إِنَّ صبرتم على ما نالكم من مكروه في أنفسكم وأولادكم من فرعون، واختسبتم ذلك، واستقمتم على السداد - أَرْضَ فرعون وقومه، بَأَنْ يُهْلِكُهُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِيهَا، فَإِنَّ اللَّهَ يورثُ أَرْضَهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. «والعاقبة للمتقين»، يقول: والعاقبة المحمودّة لمن اتقى الله وراقبه، فخافه باجتناب معاصيه، وأدى فرائضه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى، حِينَ قَالَ لَهُمْ: «استعينوا بالله واصبروا». «أَوْزِينَا»، بقتلِ أبنائنا. «مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا»، يقول: مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا بِرِسَالَةِ اللَّهِ إِلَيْنَا، لِأَنَّ فرعونَ كَانَ يَقْتُلُ أولادهم الذكور حينَ أَظْلَهُ زَمَانُ مُوسَى عَلَى مَا قَدْ بَيَّنْتُ فِيمَا مَضَى مِنْ كِتَابِنَا هَذَا.

وقوله: «وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا»، يقول: وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا بِرِسَالَةِ اللَّهِ، لِأَنَّ فرعونَ لَمَّا غُلِبَتْ سَحَرَتُهُ، وَقَالَ لِلْمَلَأِ مِنْ قَوْمِهِ مَا قَالَ، أَرَادَ تَجْدِيدَ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ بِقَتْلِ أبنائهم واستحياءِ نسائهم.

وقيل: إِنَّ قَوْمَ مُوسَى قَالُوا لِمُوسَى ذَلِكَ، حِينَ خَافُوا أَنْ يُدْرِكَهُمْ فرعونُ وَهُمْ مِنْهُ هَارِبُونَ، وَقَدْ تَرَأَى الْجَمْعَانِ، فَقَالُوا لَهُ: «يَا مُوسَى أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ

تَأْتِينَا، كانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا. «ومن بعد ما جئتنا»، اليوم يُدْرِكُنَا فرعونُ فيقتلنا.

وقوله: «قال عسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ»، يقول جَلْ ثَنَاؤُهُ: قال موسى لقومه: لعلَّ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عدوكم فرعون وقومه. «ويستخلفكم»، يقول: يجعلكم تَخْلُفُونَهُمْ في أرضهم بعد هلاكهم، لا تخافونهم ولا أحداً من الناس غيرهم. «فينظر كيف تعملون»، يقول: يرى رَبُّكُمْ ما تعملون بعدهم، من مسارعَتِكُمْ في طاعته، وثناقلكم عنها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: ولقد اخترنا قومَ فرعونَ وأتباعه على ما هُم عليه من الضلالة. «بالسنين»، يقول: بالجدوبِ سنةً بعد سنة، والقحوط. «ونقص من الثمرات»، يقول: واختبرناهم مع الجدوبِ بذهابِ ثمارهم وغلاتهم إلا القليل. «لعلهم يذكرون»، يقول: عِظَةً لهم، وتذكيراً لهم، ليتزجروا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى رَبِّهِمْ بالتوبة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطْفِرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فإذا جاءت آل فرعونَ العافية والخصبُ والرخاء وكثرة الثمار، ورأوا ما يحبون في دُنْيَاهُمْ. «قالوا لنا هذه»، نحنُ أولى بها. «وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ»، يعني جدوبٌ وقحوطٌ وبلاء. «يَظْفِرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ»، يقول:

يتشاءموا بهم، ويقولوا: ذهبَ حُطُوطُنَا وأنصباؤُنَا من الرخاءِ والخِصْبِ والعافية، مُذْ جاءنا موسى عليه السلام.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَا إِنَّمَا طَأْتَهِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ألا ما طائر آل فرعون وغيرهم - وذلك أنصباؤهم من الرخاءِ والخِصْبِ وغير ذلك من أنصباء الخير والشر - «إلا عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون»، أن ذلك كذلك، فَلِجَهْلِهِمْ بذلك كانوا يُطَيِّرُونَ بموسى وَمَنْ معه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا

فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال آل فرعون لموسى: يا موسى، مهما تَأْتِنَا به من علامة ودلالة. «لتسحرنا»، يقول: لِنَلْفِتْنَا بِهَا عَمَّا نَحْنُ عليه من دين فرعون. «فما نحنُ لك بمؤمنين»، يقول: فما نحنُ لك في ذلك بمصدقين على أنك مُحِقٌّ فيما تَدْعُونَا إليه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ

وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَاءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ

اختلف أهل التأويل في معنى «الطوفان».

فقال بعضهم: هو الماء.

وقال آخرون: بل هو الموت.

الأعراف: ١٣٣

وقال آخرون: بل ذلك كان أمراً من الله طاف بهم.

وقال بعضهم: هو كثرة المطر والريح.

والصواب من القول في ذلك عندي: أنه أمر من الله طاف بهم، وأنه مصدر من قول القائل: «طاف بهم أمر الله يطوف طوفاناً»، كما يقال: «نقص هذا الشيء ينقص نقصاناً».

وإذا كان ذلك كذلك، جاز أن يكون الذي طاف بهم المطر الشديد وجاز أن يكون الموت الذريع.

وأما «القمل»، فإن أهل التأويل اختلفوا في معناه.

فقال بعضهم: هو السوس الذي يخرج من الحنطة.

وقال آخرون: بل: هو الدبى، وهو صغار الجراد الذي لا أجنحة له.

وقال آخرون: بل «القمل»، البراغيث.

وقال بعضهم: هي دواب سود صغار.

وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم^(١): أن «القمل» عند العرب الحمنان. و«الحمنان» ضرب من القردان^(٢)، وأحدثها «حمنانة»، فوق القمقامة^(٣).

وأما قوله: «آيات مفصلات»، فإن معناه: علامات ودلالات على صحة

(١) هو أبو عبيدة في مجاز القرآن: ٢٢٦/١.

(٢) القردان: جمع قراد.

(٣) القمقامة: صغار القردان، لا يكاد يرى من صغره، شديد التشبث بأصول الشعر، وهو ضرب من القمل أيضاً.

نُبُوَّةِ موسى، وحقيقة ما دعاهم إليه. «مفصلات»، قد فصل بينها، فجعل بعضها يتلو بعضاً، وبعضها في إثر بعض.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ



يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَاسْتَكْبَرُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الآيَاتِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْحُجُجِ، عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَتَصَدِيقِ رَسُولِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاتِّبَاعِهِ عَلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، وَتَعْظُمُوا عَلَى اللَّهِ وَعَتَوْا عَلَيْهِ. «وكانوا قوماً مجرمين»، يقول: كانوا قوماً يعملون بما يكرهه الله من المعاصي والفِسَقِ، عُتَوْا وَتَمَرَّدُوا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمَ يُسَىِّدُكَ رَبُّكَ لِمَا عَاهَدْتُمْ بِمَا عَهِدْتُمْ لَنَا رَبُّكَ لَمَّا كَشَفْنَا عَنْكَ الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّكَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ولما وقع عليهم الرجز»، ولما نزل بهم عذاب الله، وَحَلَّ بِهِمْ سَخَطُهُ.

«قالوا يا موسى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدْتَ عِنْدَكَ»، يقول: بما أوصاك وأمرتك به.

«لئن كشفنا عن الرجز»، يقول: لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه. «لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ»، يقول: لَنُصَدِّقَنَّ بِمَا جِئْتَ بِهِ وَدَعَوْتَ إِلَيْهِ، وَلَنُتَقَرَّنَ بِهِ لَكَ

«وَلْتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، يقول: وَلْتُخَلِّينَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فلا تمنعهم أَنْ يذهبوا حيث شاؤوا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ يَلْعُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فدعا موسى رَبَّهُ فَأَجَابَهُ، فلما رفع الله عنهم العذاب الذي أنزله بهم. «إلى أَجَلٍ هُمْ يَلْعُوهُ»، ليستوفوا عذابَ أَيَّامِهِم التي جعلها الله لهم من الحياة أَجْلاً، إلى وقتِ هلاكِهِمْ. «إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ»، يقول: إِذَا هُمْ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُم التي عاهدوا رَبَّهُمْ وموسى، ويقيمون على كُفْرِهِمْ وضلالِهِمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِنَا كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فلما نَكُثُوا عَهْدَهُمْ. «انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» يقول: انتصرنا منهم بِإِحْلَالِ نَقْمَتِنَا بِهِمْ، وذلك عذابه. «فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ»، وهو البحر. «بأنهم كذبوا بِآيَاتِنَا»، يقول: فعلنا ذلك بهم بِتَكْذِيبِهِمْ بِحُجَجِنَا وَأَعْلَامِنَا التي أَرْزَيْنَاهُمُوهَا. «وكانوا عنها غافلين»، يقول: وكانوا عن النعمة التي أحللتناها. بهم، غافلين قَبْلَ حلولها بهم أَنَّها بهم حالة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَكَرْنَا فِيهَا وَقَمَتَ

كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ
فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «وأورثنا القوم الذين كان فرعون وقومه يَسْتَضَعِفُونَهُمْ فيذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءَهُمْ، ويستخدمونهم تسخييراً واستعباداً من بني إسرائيل. «مشارك الأرض»، الشأم، وذلك ما يلي الشرق منها. «ومغارِبها التي باركنا فيها»، يقول: التي جعلنا فيها الخير ثابتاً دائماً لأهلها.

وإنما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وأورثنا»، لأنه أورث ذلك بني إسرائيل بِمَهْلِكِ مَنْ كان فيها من العمالقة.

وأما قوله: «وتمت كلمة رَبِّكَ الحسنَى»، فإنه يقول: وَفَى وَعْدُ اللَّهِ الذي وَعَدَ بني إسرائيل بتمامه على ما وَعَدَهُمْ، من تمكينهم في الأرض، ونصره إياهم على عَدُوِّهِمْ فرعون. «وكلمته الحسنَى» قوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ وَنُمْكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿١٣٨﴾ [القصص: ٥، ٦].

وأما قوله: «ودَمَّرْنَا ما كان يصنع فرعون وقومه»، فإنه يقول: وأهلكنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العِمَارَاتِ والمَزَارِعِ. «وما كانوا يعرشون». يقول: وما كانوا يَبْنُونَ من الأبنية والقصور، وأخرجناهم من ذلك كُلِّهِ، وخَرَّبْنَا جميع ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقطعنا بني إسرائيل البحرَ بعد الآياتِ التي أَرَيْنَاهُمُوهَا، والعبر التي عاينوها على يدي نبيِّ الله موسى، فلم تَزَجُرْهُمْ تِلْكَ الآياتُ، ولم تَعْظُهُمْ تِلْكَ الْعِبَرُ والبيّناتُ! حتى قالوا مع مُعَايِنَتِهِمْ من الحججِ ما يَحِقُّ أَنْ يُذَكَّرَ معها البهائمُ، إِذْ مَرُّوا على قومٍ يعكفونَ على أصنامٍ لهم، يقول: يقومون على مُثُلٍ لهم يعبدونها من دون الله. «اجعل لنا» يا موسى «إلهاً»، يقول: مثلاً نعبده وصنماً نَتَّخِذُهُ إلهاً، كما لهؤلاءِ القومِ أصنامٌ يعبدونها. ولا تنبغي العبادةُ لشيءٍ سوى الله الواحد القهار. وقال موسى صلواتُ الله عليه: إنكم، أيها القومُ، قومٌ تَجْهَلُونَ عِظَمَةَ الله وواجبَ حَقِّهِ عليكم، ولا تعلمونَ أنه لا تجوزُ العبادةُ لشيءٍ سوى الله الذي له ملكُ السمواتِ والأرضِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن قِبَلِ موسى لقومه من بني إسرائيل. يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال لهم موسى: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْعُكُوفُ على هذه الأصنامِ، الله مُهْلِكٌ ما هُمْ فِيهِ من العملِ، ومُفْسِدُهُ ومُخْسِرُهُمْ فِيهِ، بِإِثَابَتِهِ إِيَاهُمْ عليه العذابُ المِهينَ. «وباطلٌ ما كانوا يعملون»، من عبادَتِهِمْ إِيَاهَا، فَمُضْمَحِلٌّ، لِأَنَّهُ غَيْرُ نَافِعِهِمْ عند مجيء أمرِ الله وحلولِهِ بساحتِهِمْ، ولا مَدَافِعَ عَنْهُمْ بِأَمْرِ الله إِذَا نَزَلَ بِهِمْ، ولا مُنْقِذَهُمْ من عَذَابِهِ إِذَا عَذَّبَهُمْ فِي الْقِيَامَةِ، فهو في معنى ما لم يكن.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغْيَكُمْ إِلَهَهَا وَهُوَ

فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال موسى لقومه: أَسَوَى الله أَلْتَمِسُكُمْ إلهاً، وأجعل

لكم معبوداً تعبدونه، والله الذي هو خالقكم فضلكم على عالمي دهركم وزمانكم؟ يقول: أفأبغيتكم معبوداً لا ينفعكم ولا يضركم تعبدونه، وتركون عبادة من فضلكم على الخلق؟ إن هذا منكم لجهل!

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴿١٤٢﴾

يقول تعالى ذكره لليهود من بني إسرائيل الذين كانوا بين ظهрани مهاجر رسول الله ﷺ: واذكروا - مع قيلكم هذا الذي قُلتُموه لموسى بعد رؤيتكم من الآيات والعبر، وبعد النعم التي سلفت مني إليكم، والأيادي التي تقدّمت - فعلكم ما فعلتم. «إذ أنجيناكم من آل فرعون»، وهم الذين كانوا على منهاجه وطريقته في الكفر بالله من قومه. «يسومونكم سوء العذاب»، يقول: إذ يحملونكم أفبح العذاب وسيئه.

«يقتلون أبناءكم»، الذكور من أولادهم. «ويستحيون نساءكم»، يقول: يستبقون إنائهم. «وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم»، يقول: وفي سومهم إياكم سوء العذاب، اختبار من الله لكم ونعمة عظيمة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً

يقول تعالى ذكره: ووعدنا موسى لِمُنَاجَاتِنَا ثلاثين ليلة. وقيل إنها ثلاثون ليلة من ذي القعدة.

«وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ» ، يقول : وَأَتَمَمْنَا الثَّلاثِينَ اللَّيْلَةَ بِعَشْرِ لَيَالٍ تَتِمَّةً أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .

وقيل : إِنَّ العشر التي أتمها به أَرْبَعِينَ ، عشر ذي الحجة .
وأما قوله : «فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» ، فإنه يعني : فأكمل الوقت الذي واعدَ الله موسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وبلغها .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ : لما مضى لموعِدِ رَبِّهِ قال لِأَخِيهِ هَارُونَ : «اخْلَفْنِي فِي قَوْمِي» ، يقول : كُنْ خَلِيفَتِي فِيهِمْ إِلَى أَنْ أَرْجِعَ .

«وأصلح» ، يقول : وأصلحهم بحملك إياهم على طاعةِ الله وعبادته .
وقوله : «وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» ، يقول : وَلَا تَسْلُكْ طَرِيقَ الَّذِينَ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ ، بِمَعْصِيَتِهِمْ رَبَّهُمْ ، وَمَعُونَتِهِمْ أَهْلَ الْمَعَاصِي عَلَى عَصِيَانِهِمْ رَبَّهُمْ ، وَلَكِنْ اسْلُكْ سَبِيلَ الْمُطِيعِينَ رَبَّهُمْ .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي

يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِلْوَقْتِ الَّذِي وَعَدْنَا أَنْ يَلْقَانَا فِيهِ . «وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ» ، وَنَاجَاهُ - «قَالَ» موسى لربه - «أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» ، قَالَ اللهُ لَهُ مُجِيبًا : «لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ» .

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا
رَخَّرَ مُوسَى صَبْعًا

يقول تعالى ذكره: فلما اطلع الرب للجبلى، جعل الله الجبل دكاً، أي: مستوياً بالأرض. «وخر موسى صبعاً»، أي: مغشياً عليه.

واختلفت القراءة في قراءة قوله: ﴿دَكَّا﴾.

فقرأته عامة قُرْأَةً أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ: «دَكَّا»، مقصوراً بالتنوين بمعنى: «دك الله الجبل دكاً»، أي: فتنه، واعتباراً بقول الله: ﴿كَأَلَا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، [الفجر: ٢١] وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، واستشهد بعضهم على ذلك بقول حميد:

يَدُكْ أَرْكَانَ الْجِبَالِ هَزُمَهُ تَخْطُرُ بِالْبَيْضِ الرِّقَاقِ بُهْمُهُ
وقرأته عامة قُرْأَةً الْكُوفِيِّينَ: ﴿جَعَلَهُ دَكَاءً﴾، بالمد وترك الجر والتنوين. مثل «حمراء»، و«سوداء».

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب عندي، قراءة مَنْ قَرَأَ: ﴿جَعَلَهُ دَكَاءً﴾، بالمد وترك الجر، للدلالة الخبر الذي روينا عن رسول الله ﷺ على صحته. وذلك أنه رُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «فَسَاخَ الْجَبَلُ»^(١)، ولم يقل: «فَتَفَتَّتْ»، ولا «تَحَوَّلَ تَرَاباً». ولا شك أنه إذا ساخ فذهب، ظهر وجه الأرض، فصار بمنزلة الناقة التي قد ذهب سنمها، وصارت دكاء بلا سنام. وأما إذا دك بعضه، فإنما يكسر بعضه بعضاً ويتفتت ولا يسوخ.

(١) يعني حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس، حينما سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (١٥٠٨٧) وَ(١٥٠٨٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٠٧٤) وَصَحَّحَهُ، وَالحَاكِمُ ٣٢٠/٢، وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ.

الأعراف: ١٤٣-١٤٤

فمعنى الكلام إذا: فلما تَجَلَّى رُؤْهُ للجبلِ ساخ، فجعلَ مكانَهُ أرضاً ذُكَّاءً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا آفَقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فلما ثابَ إلى موسى عليه السلام فَهَمَهُ من غَشِيَتِهِ، وذلك هو الإِفاقَةُ من الصَّعَقَةِ التي خَرَّ لها موسى ﷺ. «قال سبحانه»، تنزيهاً لك، يا رب، وتبرئةً أَنْ يراك أَحَدٌ في الدنيا، ثم يعيش. «بُنْتُ إِلَيْكَ»، من مسألتِي إِيَّاكَ ما سألْتُكَ من الرُّؤية. «وأنا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ»، بكَ من قومي، أَنْ لا يراك في الدنيا أَحَدٌ إلا هَلَكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَاءً آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ، قال الله لموسى: يا موسى: «إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ»، يقول: اخْتَرْتُكَ عَلَى النَّاسِ. «برسالاتي»، إلى خلقي، أرسلتك بها إليهم. «وبكلامي»، كَلَّمْتُكَ وناجيتُكَ دُونَ غَيْرِكَ من خَلْقِي. «فَخُذْ ما آتَيْتُكَ» يقول: فخذ ما أعطيتُكَ من أَمْرِي ونَهْيِي وَتَمَسُّكَ بِهِ، واعملْ به (بجدٍ) ^(١) «وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ»، لله على ما آتَاكَ من رِسالَتِهِ، وَخَصَّكَ بِهِ من النِّجْوَى، بِطَاعَتِهِ في أَمْرِهِ ونَهْيِهِ، والمِساوَةِ إلى رِضاءِهِ.

(١) في الأصل نقص يُرْجَحُ أَنَّهُ «واعملْ به بجدٍ»، كما جاء بعدُ في تفسير الآية ١٤٥: «خُذْهَا بجدٍ في العمل بما فيها واجتهاد».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ

يقول تعالى ذكره: وكتبنا لموسى في ألواح.

وقوله: «من كل شيء»، يقول: من التذكير والتنبية على عظمة الله وعِزُّ سلطانه. «موعظة»، لقومه ومن أمر بالعمل بما كُتِبَ في الألواح. «وتفصيلاً لكل شيء»، يقول: وتبييناً لكل شيء من أمر الله ونهيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ

يقول تعالى ذكره: وقلنا لموسى، إذ كتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلاً لكل شيء: خذ الألواح بقوة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا

يقول تعالى ذكره: قلنا لموسى: «وأمر قومك»، بني إسرائيل «يأخذوا بأحسنها»، يقول: يعملوا بأحسن ما يجدون فيها.

فإن قال قائل: وما معنى قوله: «وأمر قومك يأخذوا بأحسنها»، أكان من خصالهم ترك بعض ما فيها من الحسن؟

قيل: لا، ولكن كان فيها أمر ونهي، فأمرهم الله أن يعملوا بما أمرهم بعمله، ويتركوا ما نهاهم عنه، فالعمل بالمأمور به، أحسن من العمل بالمنهي عنه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِمُوسَى، إِذْ كَتَبَ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: خُذْهَا بِجَدِّ فِي الْعَمَلِ بِمَا فِيهَا وَاجْتِهَادٍ، وَأُمِّرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِ مَا فِيهَا، وَانْتَهَهُمْ عَنْ تَضْيِيعِهَا وَتَضْيِيعِ الْعَمَلِ بِمَا فِيهَا وَالشَّرْكَ بِي، فَإِنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِي مِنْهُمْ وَمَنْ غَيْرِهِمْ، فَإِنِّي سَأَرِيهِ فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ مُصِيرِهِ إِلَيَّ، «دَارَ الْفَاسِقِينَ»، وَهِيَ نَارُ اللَّهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِأَعْدَائِهِ.

وإنما قال: «سَأَرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ»، كما يقول القائل لمن يخاطبه: «سَأَرِيكَ غَدًا إِلَّا مَن يَصِيرُ إِلَيْهِ حَالٌ مَن خَالَفَ أَمْرِي!»، عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعْدِ لِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

اختلف أهل التأويل في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناه: سَأَنْزِعُ عَنْهُمْ فَهَمَ الْكِتَابِ.

وقال آخرون في ذلك: معناه: سَأَصْرِفُهُمْ عَنِ الْإِعْتِبَارِ بِالْحُجَجِ.

وَأَوَّلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَصْرِفُ عَنْ آيَاتِهِ، وَهِيَ أَدِلَّتُهُ وَأَعْلَامُهُ عَلَى حَقِيقَةٍ مَا أَمَرَ بِهِ عِبَادُهُ وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَتِهِ فِي تَوْحِيدِهِ وَعَدْلِهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ فَرَائِضِهِ. وَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكُلِّ مَوْجُودٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَمِنْ آيَاتِهِ، وَالْقُرْآنَ أَيْضًا مِنْ آيَاتِهِ، وَقَدْ عَمَّ بِالْخَبَرِ أَنَّهُ يَصْرِفُ عَنْ آيَاتِهِ الْمُتَكَبِّرِينَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَهُمْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللَّهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَهُمْ عَنْ فَهَمِ جَمِيعِ آيَاتِهِ وَالْإِعْتِبَارِ وَالْإِدْكَارِ بِهَا مُصْرَفُونَ، لِأَنَّهُمْ لَوْ وَفَّقُوا لِفَهَمِ بَعْضِ ذَلِكَ فَهَدُّوا لِلْإِعْتِبَارِ بِهِ، اتَّعَظُوا وَأَنَابُوا إِلَى الْحَقِّ، وَذَلِكَ غَيْرُ

كائن منهم، لانه جَلْ ثَنَاؤُهُ قَالَ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، فلا تبديل لكلمات الله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾

يقول، تعالى ذِكْرُهُ: وَإِنْ يَرَوْا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ - «وتكبرهم فيها بغير الحق»، تَجَبَّرَ فِيهَا، واستكبارهم عن الإيمان بالله ورسوله، والإذعانِ لأمره ونهيه، وَهُمْ لَهِ عِبَادٌ يَغْذُوهُمْ بِنِعْمَتِهِ، ويرى عليهم رزقه بَكْرَةً وَعَشِيًّا، «كُلَّ آيَةٍ»، يقول: كُلُّ حُجَّةٍ لَهِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُونَتِهِ، وَكُلُّ دَلَالَةٍ عَلَى أَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ خَالِصَةً دُونَ غَيْرِهِ. «لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا»، يقول: لَا يُصَدِّقُوا بِتِلْكَ الْآيَةِ أَنَّهُا دَالَّةٌ عَلَى مَا هِيَ فِيهِ حُجَّةٌ، ولكنهم يقولون: «هِيَ سِحْرٌ وَكَذِبٌ». «وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا»، يقول: وَإِنْ يَرَوْا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ طَرِيقَ الْهُدَى وَالسَّدَادِ الَّذِي إِنْ سَلَكَوْهُ نَجَّوْا مِنَ الْهَلَكَةِ وَالْعَطَبِ، وصاروا إلى نعيمِ الأبد، لَا يَسْلُكُوهُ وَلَا يَتَّخِذُوهُ لَأَنْفُسِهِمْ طَرِيقًا، جهلاً منهم وحيرة. «وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ»، يقول: وَإِنْ يَرَوْا طَرِيقَ الْهَلَاكِ الَّذِي إِنْ سَلَكَوْهُ ضَلُّوا وَهَلَكُوا.

«يتخذوه سبيلاً»، يقول: يَسْلُكُوهُ وَيَجْعَلُوهُ لَأَنْفُسِهِمْ طَرِيقًا، لِصَرْفِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَنْ آيَاتِهِ، وَطَبْعِهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فهم لَا يُقْلِحُونَ وَلَا يَنْجَحُونَ. «ذلك بأنهم كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: صرفناهم عن آيَاتِنَا أَنْ يَعْقِلُوهَا وَيَفْهَمُوهَا فَيَعْتَبَرُوا بِهَا وَيَذْكُرُوا فَيَنْبِشُوا، عَقُوبَةً مِنَّا لَهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِنَا. «وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ»، يقول: وَكَانُوا عَنْ آيَاتِنَا وَأَدِلَّتِنَا الشَّاهِدَةِ عَلَى

حقيقة ما أمرناهم به ونهيناهم عنه. «غافلين»، لا يتفكرون فيها، لاهين عنها، لا يعتبرون بها، فحق عليهم حينئذ قول ربنا فعطبوا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

يقول تعالى ذكره: وهؤلاء المستكبرون في الأرض بغير الحق، وكل مكذب حجج الله ورسله وآياته، وجاحد أنه يوم القيامة مبعوث بعد مماته، وشكرك لقاء الله في آخرته - ذهبت أعمالهم فبطلت، وحصلت لهم أوزارها فثبتت، لأنهم عملوا لغير الله، وأتبعوا أنفسهم في غير ما يرضي الله، فصارت أعمالهم عليهم وبالأ. يقول الله جل ثناؤه: «هل يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، يقول: هل يُثَابَرُونَ إِلَّا ثَوَابَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟ فصار ثواب أعمالهم الخلود في نار أحاط بهم سرادقها، إذ كانت أعمالهم في طاعة الشيطان، دون طاعة الرحمن، نعوذ بالله من غضبه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾

يقول تعالى ذكره: واتخذ بنو إسرائيل قوم موسى، من بعد ما فارقهم موسى ماضياً إلى ربه لمناجاته، ووفاء للوعد الذي كان ربه وعده. «من حُلِيِّهِمْ عِجْلًا»، وهو ولد البقرة، فعبده. ثم بين تعالى ذكره ما ذلك العجل فقال: «جسد له خوار» - و«الخوار» صوت البقر - يُخْبِرُ جَلَّ ذِكْرُهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ضَلُّوا بِمَا لَا يَضِلُّ بِمِثْلِهِ أَهْلُ الْعَقْلِ. وذلك أَنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

والأرض، ومُدَبَّرُ ذلك، لا يجوزُ أَنْ يَكُونَ جَسَداً له خُوار، لا يَكَلِّمُ أحداً، ولا يرشُدُ إلى خَيْرٍ. وقال هؤلاء الذين قَصَّ اللهُ قَصَصَهُمْ لذلك: «هذا إلهنا وإلهُ موسى»، فعكفوا عليه يعبدونه، جهلاً منهم، وذهاباً عن الله وضلالاً.

وقوله: «الْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا»، يقول: أَلَمْ يَرِ الَّذِينَ عَكَفُوا عَلَى الْعَجَلِ الَّذِي اتَّخَذُوهُ مِنْ حُلِيِّهِمْ يَعْبُدُونَهُ، أَنَّ الْعَجَلَ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا؟ يقول: وَلَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى طَرِيقٍ؟ وليس ذلك مِنْ صِفَةِ رَبِّهِمْ الَّذِي لَهُ الْعِبَادَةُ حَقًّا، بَلْ صِفَتُهُ أَنَّهُ يَكَلِّمُ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ، وَيُرْشِدُ خَلْقَهُ إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ سَبِيلِ الْمَهَالِكِ وَالرَّدَى.

يقول الله جَلَّ ثَنَاهُ: «اتَّخَذُوهُ»، أي: اتَّخَذُوا الْعَجَلَ إِلَهًا، وكانوا باتِّخَاذِهِمْ إِيَّاهُ رَبًّا مَعْبُودًا ظَالِمِينَ لِنَفْسِهِمْ، لِعِبَادَتِهِمْ غَيْرَ مَنْ لَهُ الْعِبَادَةُ، وإِضَافَتِهِمُ الْأُلُوهَةَ إِلَى غَيْرِ الَّذِي لَهُ الْأُلُوهَةُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ



يقول تعالى ذِكْرَهُ بِقَوْلِهِ: «ولما سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ»، ولما نَدِمَ الَّذِينَ عَبَدُوا الْعَجَلَ الَّذِي وَصَفَ جَلَّ ثَنَاهُ صِفَتَهُ، عِنْدَ رَجُوعِ مُوسَى إِلَيْهِمْ، وَاسْتَسْلَمُوا لِمُوسَى وَحُكْمِهِ فِيهِمْ.

وكذلك تقول العربُ لِكُلِّ نَادِمٍ عَلَى أَمْرٍ فَاتَ مِنْهُ أَوْ سَلَفَ، وَعَاجَزٍ عَنْ شَيْءٍ: «قَدْ سَقَطَ فِي يَدَيْهِ» و«أَسْقَطَ»، لَغَتَانِ فَصِيحَتَانِ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْاسْتِشَارِ، وَذَلِكَ أَنَّ يَضْرِبَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ أَوْ يَصْرَعُهُ، فَيَرْمِي بِهِ مِنْ يَدَيْهِ إِلَى الْأَرْضِ لِيَأْسِرَهُ، فَيَكْتَفِهِ. فَالْمَرْمِيُّ بِهِ مَسْقُوطٌ فِي يَدَيِ السَّاقِطِ بِهِ. فَقِيلَ لِكُلِّ عَاجِزٍ عَنْ

شيء، وضارعٍ لِعَجْزِهِ، متتدِمٌ على ما قاله: «سُقِطَ في يديه» وأسقط^(١).
وعنى بقوله: «ورأوا أنهم قد ضلُّوا»، ورأوا أنهم قد جأروا عن قُصْدِ
السبيل، وذهبوا عن دين الله، وكفروا بربهم، قالوا تائبين إلى الله مُنِيبِينَ إليه
من كُفْرِهِم به: «لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

ومعنى قوله: «لئن لم يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا»، لئن لم يَتَعَطَّفْ علينا رَبُّنَا
بِالتَّوْبَةِ بِرَحْمَتِهِ، وَيَتَغَمَّدْ بِهَا ذُنُوبَنَا، لَنَكُونَنَّ مِنَ الْهَالِكِينَ الَّذِينَ خَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنَ أَسِفًا قَالَ
يٰٓأَسْمَا خَلَقْتُنِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجَلْتُمَا أَمْرَ رَبِّكُمْ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: ولما رجع موسى إلى قومه من بني إسرائيل، رجع
غَضَبَانِ أَسِفًا، لأنَّ الله كان قد أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قد فَتَنَ قَوْمَهُ، وَأَنَّ السَّامِرِيَّ قد
أَضَلَّهُمْ، فكان رجوعه غَضَبَانِ أَسَفًا لذلك.

و«الأسف» شِدَّةُ الغَضَبِ، والتَّغَيُّطُ به على مَنْ أَغْضَبَهُ.

وقال آخرون: الحزن.

وقوله: «قال يٰأَسْمَا خَلَقْتُنِي مِن بَعْدِي»، يقول: بشئ الفعل فَعَلْتُمَا بَعْدَ
فِرَاقِي إِيَّاكُمْ وَأَوَلَيْتُمُونِي فِيمَنْ خَلَفْتُ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي فَيْكُمْ، وَدِينِي الَّذِي أَمَرَكُمُ
بِهِ رَبُّكُمْ.

وقوله: «أَعَجَلْتُمَا أَمْرَ رَبِّكُمْ»، يقول: أَسْبَقْتُمَا أَمْرَ رَبِّكُمْ فِي نَفُوسِكُمْ وَذَهَبْتُمْ
عَنْهُ؟

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٣٩٣/١، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: ٢٢٨/١.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴿١٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: **وَأَلْقَى مُوسَى الْأَلْوَحَ.**

وسبب إلقاء موسى الألواح كان من أجل غَضَبِهِ عَلَى قَوْمِهِ لِعِبَادَتِهِمُ الْعَجَل، لَأَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاهُ بِذَلِكَ أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ».

وقوله: «إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي»، يعني بالقوم، الذين عكفوا عَلَى عِبَادَةِ الْعَجَلِ وَقَالُوا: «هَذَا إِلَهُنَا وَإِلَهُ مُوسَى»، وخالفوا هَارُونَ. وكان استضعافهم إِيَّاهُ: تركهم طاعته واتباع أمره. «وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي»، يقول: قاربوا ولم يفعلوا.

وأما قوله: «وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»، فإنه قول هَارُونَ لِأَخِيهِ مُوسَى. يقول: لَا تَجْعَلْنِي فِي مَوْجِدَتِكَ عَلَيَّ وَعَقُوبَتِكَ لِي وَلَمْ أَخَالَفْ أَمْرَكَ، مَحَلٌّ مَنْ عَصَاكَ فَخَالَفَ أَمْرَكَ، وَعَبَدَ الْعَجَلَ بَعْدَكَ، فَظَلَمَ نَفْسَهُ، وَعَبَدَ غَيْرَ مَنْ لَهُ الْعِبَادَةُ، وَلَمْ أَشَاعِيهِمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴿١٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: قال موسى، لما تَبَيَّنَ لَهُ عُذْرُ أَخِيهِ، وَعِلْمُ أَنَّهُ لَمْ يُفْرِطْ فِي الْوَاجِبِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، فِي ارْتِكَابِ مَا فَعَلَهُ الْجَهْلَةُ مِنْ عِبَادَةِ

العجل: «رَبِّ اغْفِرْ لِي»، مستغفراً من فعله بأخيه، ولأخيه من سالفِ سَلَفٍ له بينه وبين الله: تَعَمَّدَ ذُنُوبَنَا بَسْتَرِ مِنْكَ تَسْتُرُهَا بِهِ. «وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِكَ»، يقول: وارحمنا برحمتك الواسعة عبادك المؤمنين، فإنك أنت أرحمُ بعبادك من كُلِّ مَنْ رَحِمَ شَيْئاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ» إلهاً. «سينالهم غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ»، بتعجيلِ الله لهم ذلك. «وَذِلَّةٌ»، وهي الهوانُ، لعقوبةِ الله إياهم على كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ. «في الحياة الدنيا»، في عاجلِ الدنيا قبل آجلِ الآخرة.

ويعني بقوله: «وكذلك نجزي المفتريين»، وكما جَزِيتُ هؤلاء الذين اتخذوا العجلَ إلهاً، من إحلالِ الغضبِ بهم، والإدلالِ في الحياة الدنيا على كُفْرِهِمْ رَبِّهِمْ، وردَّتْهم عن دينهم بعد إيمانهم بالله، كذلك نجزي كُلَّ مَنْ افترى على الله، فكذبَ عليه، وأقرَّ بالوَهْيَةِ غَيْرِهِ، وَعَبَدَ شَيْئاً سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ، بعد إقرارِهِ بوحْدانيةِ الله، وبعد إيمانه به وبأنبيائه ورُسُلِهِ وَقَبِلَ ذلك، إذا لم يَتُبْ من كُفْرِهِ قبل قتله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه أنه قابِلٌ من كُلِّ تائبٍ إليه من ذَنْبٍ أَتَاهُ، صغيرةٌ كانت معصيته أو كبيرةً، كُفْراً كانت أو غيرَ كفرٍ، كما قبل من عبدةِ العجلِ توبَتَهُمْ بعدَ كفرِهِمْ به بعبادتهم العجلَ وارتدادِهِمْ عن دينهم.

يقول جَلْ ثَنَاؤُهُ: والذين عملوا الأعمال السيئة، ثم رجعوا إلى طَلَبِ رِضَى الله بإنبائهم إلى ما يحبُّ ممَّا يكره، وإلى ما يرضى مما يسخط، من بعد سيء أعمالهم، وَصَدَّقُوا أَنَّ الله قَابِلٌ تَوْبَةَ المذنبين، وتائبٌ على المُنيبين، بإخلاصِ قلوبهم ويقينٍ منهم بذلك.. «لَغُفُورٌ»، لهم، يقول: لسانُهم عليهم أعمالهم السيئة، وغير فاضحهم بها.. «رَحِيمٌ»، بهم، ويكلُّ مَنْ كان مثْلَهُمْ من التائبين.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ^ط فِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً ^ط لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

يعني تعالى ذِكرُهُ بقوله: «ولما سكَّت عن موسى الغضبُ»، ولما كفَّ عنه وسكَّن.

«أخذ الألواح»، يقول: أخذها بعد ما ألقاها، وقد ذهب منها ما ذهب. «وفي نسختها هُدى ورحمة»، يقول: وفيما نسخ فيها، أي كتب فيها. «هُدى» بيان للحق. «ورحمة للذين هم لربِّهم يَرْهَبُونَ»، يقول: للذين يخافون الله ويخشون عقابَهُ على معاصيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ^ط فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي

يقول تعالى ذِكرُهُ: واختار موسى من قومه سبعين رجلاً، للوقت والأجل الذي وَعَدَهُ اللهُ أَنْ يَلْقَاهُ فيه بهم، للتوبة مما كان من فِعْلِ سُفْهَائِهِمْ في أمرِ العجل.

وقد بينا معنى «الرجفة» فيما مضى وأنها: ما رجفَ بالقومِ وزَعَزَعَهُمْ وحَرَكَهُمْ، أهلكهم بعدُ فاماتهم، أو أصعقهم فسلبَ أفهامَهُمْ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنِ اشَاءَ وَتَهْدِي مَنْ نَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ



(يعني): إِنْ موسى إنما حزنَ على هلاكِ السبعينَ بقوله: «أتهلكنا بما فعل السفهاء منا»، وأنه إنما عَنَى بـ«السفهاء» عبدةَ العجلِ . وذلك أنه محالٌ أن يكونَ موسى ﷺ كان تخيّرَ من قومه لمسألةِ ربِّه ما أراه أن يسألَ لهم إلا الأفضلَ فالأفضلَ منهم، ومحالٌ أن يكونَ الأفضلُ كان عنده مَنْ أشركَ في عبادةِ العجلِ واتخذَه دونَ اللهِ إلهاً.

قال: فإن قال قائل: فجائزٌ أن يكونَ موسى عليه السلام كان معتقداً أن الله سبحانه يعاقبُ قوماً بذنوبٍ غيرهم، فيقول: أتهلكنا بذنوبِ مَنْ عبدَ العجلَ، ونحنُ من ذلك برآء؟

قيل: جائزٌ أن يكونَ معنى «الإهلاك» قبضُ الأرواحِ على غير وجهِ العقوبة، كما قال جلُّ ثناؤه: ﴿إِنْ أَمْرُو هَٰلِكَ﴾، [النساء: ١٧٦] - يعني: مات - فيقول: أتميتنا بما فعل السفهاء منا؟

وأما قوله: «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ»، فإنه يقولُ. جلُّ ثناؤه: ما هذه الفعلةُ التي فعلها قومي، من عبادتهم ما عبدوا دونك، إلا فتنةً منك أصابتهم - ويعني بـ«الفتنة»، الابتلاء والاختبار - يقول: ابتليتهم بها، ليتبينَ الذي يضلُّ عن الحقِ بعبادته إياه، والذي يهتدي بتركِ عبادته. وأضاف إضلالَهُمْ وهدايَتَهُمْ إلى الله، إذ كان ما كانَ منهم من ذلك عن سببٍ منه جلُّ ثناؤه.

وقوله: «أَنْتَ وَلَيْنَا»، يقول: أَنْتَ نَاصِرُنَا. «فاغفرْ لنا»، يقول: فاسترْ علينا ذُنُوبَنَا بتركك عقابنا عليها. «وارحمنا»، تَعَطَّفَ علينا برحمتك «وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ»، يقول: خَيْرُ مَنْ صَفَحَ عَنْ جُرْمٍ، وَسَتَرَ عَلَى ذَنْبٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَآكُتِبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُذُنَا إِلَيْكَ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: مُخْبِرًا عَنْ دَعَاءِ نَبِيِّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ فِيهِ: «وَاكْتُبْ لَنَا»، أَي: اجعلنا مِمَّنْ كُتِبَ لَهُ. «فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً»، وَهِيَ الصَّالِحَاتُ مِنَ الْأَعْمَالِ. «وَفِي الْآخِرَةِ»، مِمَّنْ كُتِبَ لَهُ الْمَغْفِرَةُ لِدُنُوبِهِ. وقوله: «إِنَّا هُذُنَا إِلَيْكَ»، يقول: إِنَّا تُبْنَا إِلَيْكَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: قَالَ اللَّهُ لِمُوسَى: هَذَا الَّذِي أُصِيبَ بِهِ قَوْمُكَ مِنَ الرَّجْفَةِ، عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ خَلْقِي، كَمَا أُصِيبُ بِهِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أُصِيبَتْ بِهِمْ مِنْ قَوْمِكَ. «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ»، يقول: وَرَحْمَتِي عَمَّتْ خَلْقِي كُلَّهُمْ.

وأما قوله: «فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ»، فَإِنَّهُ يَقُولُ: فَسَأَكْتُبُ رَحْمَتِي الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ - وَمَعْنَى «أَكْتُبُ» فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: أَكْتُبُ فِي اللُّوحِ الَّذِي كُتِبَ فِي التَّوْرَةِ. «لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ»، يَقُولُ: لِلْقَوْمِ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ وَيَخْشَوْنَ

عقابه على الكفر به والمعصية له في أمره ونهيه، فيؤدون فرائضه، ويجتنبون معاصيه.

وأما قوله: «والذين هم بآياتنا يؤمنون»، فإنه يقول: وللقوم الذين هم بأعلامنا وإدلتنا يصدقون ويقرّون.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ
الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

وهذا القول لإبانه من الله جل ثناؤه عن أن الذين وعد موسى نبية عليه السلام أن يكتب لهم الرحمة التي وصفها جل ثناؤه بقوله: «ورحمتي وسعت كل شيء»، هم أمة محمد ﷺ، لأنه لا يعلم الله رسولاً وصف بهذه الصفة - أعني «الأمي» - غير نبينا محمد ﷺ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَيُحِبُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ
إَصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ

يقول تعالى ذكره: يأمر هذا النبي الأمي أتباعه بالمعروف - وهو الإيمان بالله ولزوم طاعته فيما أمر ونهى، فذلك «المعروف» الذي يأمرهم به. «ورينهاهم عن المنكر»، وهو الشرك بالله، والانتهاه عما نهاهم الله عنه.

وقوله: «ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ»، وذلك مما كانت الجاهلية تحرمه من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي. «ويُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ»، وذلك لحم الخنزير والرُّبَا وما كانوا يستحلونه من المطاعم والمشارب التي حرمها الله.

وأما قوله: «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ»، فإنه العهد والميثاق الذي كان أخذه على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة.

فمعنى الكلام: ويضع النبي الأمي العهد الذي كان الله أخذه على بني إسرائيل، من إقامة التوراة والعمل بما فيها من الأعمال الشديدة، كقطع الجلد من البول، وتحريم الغنائم، ونحو ذلك من الأعمال التي كانت عليهم مفروضة، فنسخها حكم القرآن.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

يقول تعالى ذكره: فالذين صدّقوا بالنبي الأمي وأقرّوا بنبوته. «وعزّروه»، يقول: وقوّوه وعظّموه وحمّوه من الناس.

وقوله: «ونصروه»، يقول: وأعانوه على أعداء الله وأعدائه، بجهادهم ونصب الحرب لهم. «واتّبعوا النور الذي أنزل معه»، يعني القرآن والإسلام. «أولئك هم المفلحون»، يقول: الذين يفعلون هذه الأفعال التي وصّف بها جلّ ثناؤه أتباع محمد ﷺ، هم المنجحون المدركون ما طلبوا ورَجَوْا بفعلهم ذلك.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رِسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: «قل»، يا محمد للناس كلهم. «إني رسول الله إليكم جميعاً»، لا إلى بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي من

الرُّسُلِ مُرْسَلًا إِلَىٰ بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ فَمَن كَانَ مِنْهُمْ أَرْسِلَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ رِسَالَتِي لَيْسَتْ إِلَىٰ بَعْضِكُمْ دُونَ بَعْضٍ، وَلَكِنهَا إِلَىٰ جَمِيعِكُمْ.

وقوله: «الذي» من نعت اسم «الله» وإنما معنى الكلام: قل: يا أيها الناس إني رسولُ الله، الذي له مُلْكُ السمواتِ والأرض، إليكم.

وعني جَلُّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «الذي له مُلْكُ السمواتِ والأرض»، الذي له سلطانُ السمواتِ والأرض وما فيهما، وتدبيرُ ذلك وتصريفه. «لا إله إلا هو»، يقول: لا ينبغي أن تكون الألوهة والعبادة إلاَّ له جَلُّ ثَنَاؤُهُ، دُونَ سَائِرِ الأشياءِ غيره من الاتِّدَادِ والأوثان، إلاَّ لمن له سلطانُ كُلِّ شيءٍ، والقادرُ على إنشاءِ خَلْقِ كُلِّ ما شاء وإحيائه، وإفنائِه إذا شاء إِمَاتَتِه. «فآمنوا بالله ورسوله»، يقول جَلُّ ثَنَاؤُهُ: قُلْ لَهُمْ: فَصِّدُّوا بآيَاتِ اللَّهِ الَّذِي هَذِهِ صِفَتُهُ، وَأَقْرُوا بِوَحْدَانِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ الَّذِي لَهُ الْأَلُوهُةُ وَالْعِبَادَةُ، وَصَدِّقُوا بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَىٰ خَلْقِهِ، دَاعٍ إِلَىٰ تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

أما قوله: «النبي الأمي»، فإنه من نعتِ رسولِ الله ﷺ. «الذي يؤمن بالله»، يقول: الذي يُصَدِّقُ بالله وكلماته.

ثم اختلف أهل التأويل في تأويلِ قوله: «وكلماته».

فقال بعضهم: معناه: وآياته.

وقال آخرون: بل عَنَى بِذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ

يُصَدِّقُوا بِنَبْوَةِ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ الَّذِي يَزْمُنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَلَمْ يَخْصُصِ الْخَبَرَ جَلًّا ثَنًاؤُهُ عَنْ إِيْمَانِهِ مِنْ «كَلِمَاتِ اللَّهِ» بِبَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ، بَلْ أَخْبَرَهُمْ عَنْ جَمِيعِ «الْكَلِمَاتِ»، فَالْحَقُّ فِي ذَلِكَ أَنَّ يَعْصِمَ الْقَوْلَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَزْمُنُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ كُلِّهَا، عَلَى مَا جَاءَ بِهِ ظَاهِرُ كِتَابِ اللَّهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»، فَاهْتَدُوا بِهِ، أَيُّهَا النَّاسُ، وَاعْمَلُوا بِمَا أَمَرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ. «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»، يَقُولُ: لَكِي تَهْتَدُوا فَتَرْشِدُوا وَتَصِيبُوا الْحَقَّ فِي اتِّبَاعِكُمْ إِيَّاهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: «وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى»، يَعْنِي بَنِي إِسْرَائِيلَ. «أُمَّةٌ»، يَقُولُ: جَمَاعَةٌ. «يَهْدُونَ بِالْحَقِّ»، يَقُولُ: يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ، أَيُّ يَسْتَقِيمُونَ عَلَيْهِ وَيَعْمَلُونَ. «وَبِهِ يَعْدِلُونَ»، أَيُّ: وَبِالْحَقِّ يُعْطُونَ وَيَأْخُذُونَ، وَيُنْصِفُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَلَا يَجُورُونَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَرَّقْنَاهُمْ - يَعْنِي قَوْمَ مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَّقَهُمُ اللَّهُ فَجَعَلَهُمْ قِبَائِلَ شَتَّى، اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قَبِيلَةً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ

أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ

وَالسَّلَوَىٰ كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَتٍ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وأوحينا إلى موسى»، إِذْ فَرَقْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ قَوْمَهُ انْتِثِي
عَشْرَةَ فِرْقَةً، وَتَبَيَّنَّا لَهُمْ فِي التَّيْبَةِ، فَاسْتَسْقَوْا مُوسَى مِنَ الْعَطَشِ وَغَوَّرَ الْمَاءَ. «أَنْ
أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ».

«فَانْبَجَسَتْ» فَانصَبَّتْ وَانْفَجَرَتْ مِنَ الْحَجَرِ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا مِنَ الْمَاءِ، «قَدْ
عَلِمَ كُلُّ أَنْاسٍ»، يَعْنِي كُلَّ أَنْاسٍ مِنَ الْأَسْبَاطِ الْإِثْنَتِي عَشْرَةَ. «مَشْرَبُهُمْ»، لَا
يَدْخُلُ سَبْطٌ عَلَى غَيْرِهِ فِي شَرْبِهِ. «وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ»، يُكْنِهُمُ مِنْ حَرِّ
الْشَّمْسِ وَأَذَاهَا.

«وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوَى»، طَعَامًا لَهُمْ. «كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ»، يَقُولُ: وَقُلْنَا لَهُمْ: كُلُّوْا مِنْ حَلَالٍ مَا رَزَقْنَاكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، وَطَيِّبَاتُهُ
لَكُمْ. «وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»، وَفِي الْكَلَامِ مُحذُوفٌ، تَرَكَ
ذِكْرَهُ اسْتِغْنَاءً بِمَا ظَهَرَ عَمَّا تَرَكَ، وَهُوَ: «فَاجْمُؤْا»^(١) ذَلِكَ، وَقَالُوا: لَنْ نَصْبِرَ عَلَى
طَعَامٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَبَدَّلُوا الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ. «وَمَا ظَلَمُونَا»، يَقُولُ:
وَمَا أَدْخَلُوا عَلَيْنَا نَقْصًا فِي مَلِكِنَا وَسُلْطَانِنَا بِمَسْأَلَتِهِمْ مَا سَأَلُوا، وَفِعْلُهُمْ مَا فَعَلُوا.
«وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»، أَيُّ: يَنْقُصُونَهَا حُظُوظَهَا بِاسْتِبْدَالِهِمُ الْأَدْنَى
بِالْخَيْرِ، وَالْأَرْدَلُ بِالْأَفْضَلِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ
وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ

(١) يقال: «أَجِمَ الطَّعَامُ يَأْجِمُهُ أَجْمًا»، إِذَا كَرِهَهُ وَتَلَّاهُ مِنْ طَوْلٍ الْمَدَامَةِ عَلَيْهِ.

لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: «واذكر أيضاً، يا محمد، من خطأ فعل هؤلاء القوم، وخلافهم على ربهم، وعصيانهم نبيهم موسى عليه السلام، وتبديلهم القول الذي أمروا أن يقولوه حين قال الله لهم: «اسكنوا هذه القرية»، وهي قرية بيت المقدس. «فكلوا منها»، يقول: من ثمارها وحبوبها ونباتها. «حيث شئتم»، منها، يقول: أنى شئتم منها. «وقولوا حطّة»، يقول: وقولوا: هذه الفعل «حطّة»، تحطّ ذنوبنا. «نغفر لكم»، يتعمّد لكم ربكم. «ذنوبكم»، التي سلفتم منكم، فيعفو لكم عنها، فلا يؤاخذكم بها. «سنزيد المحسنين»، منكم، وهم المطيعون لله، على ما وعدتكم من غفران الخطايا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَاسُكُونَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فَعَيَّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ مِنْهُمْ مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْقَوْلِ، فَقَالُوا - وقد قيل لهم: قولوا: هذه حطة -: «حنطة في شعيرة». وقولهم ذلك كذلك، هو غير القول الذي قيل لهم قولوه. يقول الله تعالى: «فأرسلنا عليهم رِجْزًا من السماء»، بعثنا عليهم عذاباً، أهلكناهم بما كانوا يُغَيِّرُونَ ما يُؤْمَرُونَ به، فيفعلون خلاف ما أمرهم الله بفعله، ويقولون غير الذي أمرهم الله بفعله.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ

يَمَّا كَانُوا يَقْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: واسأل، يا محمد، هؤلاء اليهود، وهم مُجَاوِرُونَكَ، عن أمرِ «القرية التي كانت حاضرة البحر»، يقول: كانت بحضرة البحر، أي بقرب البحر وعلى شاطئه.

وقوله: «إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ»، يعني به أهله، إذ يعتدون في السبت أمر الله، ويتجاوزونه إلى ما حَرَّمَهُ الله عليهم.

وكان اعتداؤهم في السبت: أَنَّ الله كَانَ حَرَّمَ عَلَيْهِمُ السَّبْتَ، فكانوا يصطادون فيه السمك.

«إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا»، يقول: إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمُ الَّذِي نُهَوْا فِيهِ الْعَمَلُ. «شُرْعًا»، يقول: شارعة ظاهرة على الماء من كُلِّ طريقٍ وناحية، كشوارع الطرق.

وقوله: «وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ»، يقول: ويوم لا يعظمونه تعظيمهم السَّبْتَ، وذلك سائر الأيام غير يوم السبت. «لَا تَأْتِيهِمُ»، الحيتان. «كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ»، يقول: كما وصفنا لكم من الاختبار والابتلاء الذي ذكرنا، بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليومِ الْمُحَرَّمِ عليهم صَيْدُهُ، وإخفائه عنهم في اليومِ الْمُحَلَّلِ صَيْدُهُ. «كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ»، ونختبرهم. «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا لَّا

مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمد ﷺ: وَادَّكَّرْ أَيْضًا، يَا مُحَمَّدُ. «إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ

منهم»، جماعةٌ منهم لجماعةٍ كانت تَعْظُ المَعْتَدِينَ في السَّبْتِ، وتَنْهَاهُمْ عن معصيةِ الله فيه. «لَمْ تَعْظُونْ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ»، في الدنيا بمعصيتهم إِيَّاهُ، وخلافِهم أَمْرُهُ، واستحلالهم ما حرم عليهم. «أو مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا»، في الآخرة، قال الذين كانوا يَنْهَوْنَهُمْ عن معصيةِ الله مُجِيبِينَهم عن قولهم: عَظَّمْنَا إِيَّاهُمْ مَعْدَرَةً إِلَى رَبِّكُمْ، نُوَدِّي فَرَضَهُ عَلَيْنَا فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. «ولعلمهم يتقون»، يقول: ولعلمهم أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ فيخافوه، فَيُنِيبُوا إِلَى طَاعَتِهِ، ويتوبوا من معصيتهم إِيَّاهُ، وتَعَذِّبَهُمْ عَلَى مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ اعْتِدَائِهِمْ فِي السَّبْتِ.

«ولعلمهم يتقون»، أي: يَنْزِعُونَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِصَمٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ



يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما تركت الطائفةُ التي اعتدت في السَّبْتِ ما أَمَرَهَا اللَّهُ بِهِ مِنْ تَرْكِ الْإِعْتِدَاءِ فِيهِ، وَضِيْعَتْ مَا وَعَظَتْهَا الطَّائِفَةُ الرَّاعِظَةُ وَذَكَّرَتْهَا بِهِ، مِنْ تَحْذِيرِهَا عَقُوبَةَ اللَّهِ عَلَى مَعْصِيَتِهَا، فَتَقَدَّمَتْ عَلَى اسْتِحْلَالِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهَا، أَنْجَى اللَّهُ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ مِنْهُمْ عَنِ «السُّوءِ» - يعني عن معصيةِ الله واستِحْلَالِ جَزْمِهِ^(١). «وأخذنا الذين ظلموا»، يقول: وأخذَ اللَّهُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي السَّبْتِ، فَاسْتَحْلَوْا فِيهِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنْ صَيْدِ السَّمَكِ وَأَكْلِهِ، فَأَحْلَ بِهَمْ بِأَسْءُ، وَأَهْلَكَهُمْ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ بَيْسٍ بِمَا كَانُوا يَخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ، فَيُخْرِجُونَ مِنْ طَاعَتِهِ إِلَى مَعْصِيَتِهِ، وَذَلِكَ هُوَ «الْفِسْقُ».

(١) الْجَزْمُ: هُوَ الْحَرَامُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فلما تَمَرَّدُوا، فيما نهوا عنه من اعتدائهم في السبت، واستحلالهم ما حَرَّمَ اللهُ عليهم من صيد السمك وأكله، وتمادوا فيه. «قلنا لهم كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ»، أي: بُعْدَاء من الخير.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ

يعني جَلَّ ثَنَاهُ بقوله: «وَإِذْ تَأَذَّنَ»، واذكُرْ، يا محمد، إِذْ أَذَّنَ رَبُّكَ، وأعلم.

وقوله: «لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ»، يعني: أعلم ربك ليعثنَّ على اليهود مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ. قيل: إِنَّ ذَلِكَ، العربُ، بَعَثَهُمُ اللهُ على اليهودِ، يقاتلون مَنْ لم يُسَلِّمْ منهم ولم يُعْطِ الجزيةَ، وَمَنْ أعطى منهم الجزيةَ كان ذلك له صَغَارًا وَذِلَّةً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: إِنَّ رَبَّكَ، يا محمد، لسريع عقابه إلى مَنْ استوجب منه العقوبة على كُفْرِهِ به ومعصيته. «وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»، يقول: وإنه لَذُو صَفْحٍ عن ذنوبِ مَنْ تَابَ من ذنوبه، فأنابَ وراجعَ طاعته، يستر عليها بعفوه عنها.

«رحيم»، له، أن يعاقبه على جُرمه بعد توبته منها، لأنه يقبل التوبة ويُقبل الغُفرة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمَاءَ مِنْهُمْ الصَّالِحِينَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

يقول تعالى ذكره: وفرّقنا بني إسرائيل في الأرض. «أممًا» يعني: جماعاتٍ شتى مُتفرّقين.

وقوله: «منهم الصالحون»، يقول: من هؤلاء القوم الذين وصفهم الله من بني إسرائيل. «الصالحون»، يعني: من يؤمن بالله ورُسُلِهِ. «ومنهم دون ذلك»، يعني: دون الصالح.

وإنما وصفهم الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ بأنهم كانوا كذلك قبل ارتدادهم عن دينهم، وقبل كُفْرِهِم بربهم، وذلك قبل أن يُبعثَ فيهم عيسى بن مريم صلوات الله عليه.

وقوله: «وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون»، يقول: واختبرناهم بالرخاء في العيش، والخَفْضِ في الدنيا والدُّعَةِ، والسَّعَةِ في الرزق، وهي «الحسنات» التي ذكرها جَلَّ ثَنَاؤُهُ - ويعني بـ«السيئات»، الشدة في العيش، والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال. «لعلهم يرجعون»، يقول: ليرجعوا إلى طاعة رَبِّهِمْ وَيُنبِئُوا إِلَيْهَا، ويتوبوا من معاصيه.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ

يقول تعالى ذِكْرَهُ: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ. «خَلَفَ»، يعني: خَلَفَ سَوْءٌ. يقول: حَدَّثَ بعدهم وخلافهم، وتبدل منهم، بَدَّلَ سَوْءٌ.

فتأويل الكلام إذا: فَبَدَّلَ مِنْ بعدهم بَدَّلَ سَوْءٌ، ورثوا كتابَ الله فَعَلَّمُوهُ، وَضَيَّعُوا العملَ به، فخالقوا حُكْمَهُ، يُرْشَوْنَ في حكم الله، فيأخذون الرشوة فيه من عَرَضَ هذا العاجلِ «الأدنى»، - يعني بـ«الأدنى» الأقرب من الأجل الأبعد. ويقولون إذا فعلوا ذلك: إِنَّ الله سَيَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا، تَمَنِّيًّا على الله الأباطيل، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِيهِمْ: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. «وإن يأتهم عَرَضٌ مثله يأخذوه»، يقول: وإن شرع لهم ذَنْبٌ حَرَامٌ مثله من الرشوة بعد ذلك، أخذوه واستحلوه ولم يَرْتَدُّوا عنه. يخبرُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ عنهم أنهم أهلُ إصرارٍ على ذُنُوبِهِمْ، وليسوا بأهلٍ إنابةٍ ولا تَوْبَةٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ



يقول تعالى ذِكْرَهُ: «أَلَمْ يَأْخُذْ»، على هؤلاء المرتشين في أحكامهم، القائلين: «سَيَغْفِرُ الله لَنَا فَعَلْنَا هَذَا»، إِذَا عُوْتُبُوا على ذلك. «ميثاقُ الكتاب»، وهو أَخَذَ الله الْعَهْدَ على بني إِسْرَائِيلَ، بِإِقَامَةِ التَّوْرَةِ، وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهَا. فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَهُوَلَاءِ الَّذِينَ قَصَّ قِصَّتَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، مُؤَبِّخًا على خِلَافِهِمْ أَمْرَهُ، وَنَقِضِهِمْ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ: أَلَمْ يَأْخُذْ اللهُ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ كِتَابِهِ، أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ

إِلَّا الْحَقَّ، وَلَا يُضِيفُوا إِلَيْهِ إِلَّا مَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُوسَى ﷺ فِي التَّوْرَةِ، وَأَنْ لَا يَكْذِبُوا عَلَيْهِ؟

وأما قوله: «وَدَرَسُوا مَا فِيهِ»، فإنه معطوفٌ على قوله: «وَرِثُوا الْكِتَابَ»، ومعناه: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ»، «وَدَرَسُوا مَا فِيهِ» - ويعني بقوله: «وَدَرَسُوا مَا فِيهِ»، قَرَأُوا مَا فِيهِ، يقول: ورثوا الكتابَ فعلموا ما فيه ودرَسُوهُ، فضيَعُوهُ وتركوا العملَ به، وخالفوا عهدَ الله إليهم في ذلك.

«وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ»، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وما في الدارِ الآخرةِ، وهو ما في المَعَادِ عندَ الله، مما أَعَدَّ لِأَوْلِيَائِهِ، وَالْعَامِلِينَ بِمَا أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ، الْمُحَافِظِينَ عَلَى حُدُودِهِ. «خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ»، وَيَخَافُونَ عِقَابَهُ، فَيَرِاقِبُونَهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَيَطِيعُونَهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ فِي دُنْيَاهُمْ. «أَفَلَا يَعْقِلُونَ»^(١)، يقول: أفلا يعقل هؤلاء الذين يأخذونَ عَرَضَ هَذَا الدُّنْيَا عَلَى أَحْكَامِهِمْ، ويقولون: «سَيَغْفِرُ لَنَا»، أَنْ مَا عِنْدَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لِلْمُتَّقِينَ الْعَادِلِينَ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَحْكَامِهِمْ، خَيْرٌ مِنْ هَذَا الْعَرَضِ الْقَلِيلِ الَّذِي يَسْتَعِجِلُونَهُ فِي الدُّنْيَا عَلَى خِلَافِ أَمْرِ اللَّهِ، وَالْقَضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْجَوْرِ؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا

الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

واختلفت القُرْآنَةُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ.

فقرأ بعضهم: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ وَتَسْكِينِهَا، مِنْ «أَمْسَكَ يُمَسِّكُ».

(١) «أَفَلَا يَعْقِلُونَ» - بِالْيَاءِ - فَهَذِهِ قِرَاءَتُهُ لَهَا خِلَافًا لِمَا جَاءَ فِي الْمَصْحَفِ، لِذَلِكَ تَرَكْنَاهَا

كَمَا هِيَ.

وقراه آخرون: ﴿يُمَسْكُونَ﴾، بفتح الميم وتشديد السين، من «مَسَكَ يُمَسِكُ»^(١).

وعني بذلك: والذين يعملون بما في كتاب الله. «وأقاموا الصلاة»، بحدودها، ولم يُضَيِّعُوا أوقاتها. «إنا لا نُضَيِّعُ أَجَرَ الْمُصْلِحِينَ». يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ خَلْقِي، فَإِنِّي لَا أَضَيِّعُ أَجَرَ عَمَلِهِ الصَّالِحِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعُ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنبيه محمد ﷺ: واذكُرْ، يا محمد، إِذِ اقْتَلَعْنَا الْجَبَلَ فَرَفَعْنَاهُ فَوْقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ غَمَامٍ مِنَ الظَّلَالِ - وَقَلْنَا لَهُمْ: «خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ»، مِنْ فَرَائِضِنَا، وَالزَّمَانِكُمْ مِنْ أَحْكَامِ كِتَابِنَا، فَاقْبَلُوهُ، اْعْمَلُوا بِاجْتِهَادٍ مِنْكُمْ فِي آدَائِهِ، مِنْ غَيْرِ تَقْصِيرٍ وَلَا تَوَانٍ. «وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ»، يَقُولُ: مَا فِي كِتَابِنَا مِنَ الْيَهُودِ وَالْمَوَائِقِ الَّتِي أَخَذْنَا عَلَيْكُمْ بِالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ. «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»، يَقُولُ: كَيْ تَتَّقُوا رَبَّكُمْ، فَتَخَافُوا عِقَابَهُ بِتَرْكِكُمْ الْعَمَلِ بِهِ إِذَا ذَكَّرْتُمْ مَا أَخَذَ عَلَيْكُمْ فِيهِ مِنَ الْمَوَائِقِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنَّا نَقُولُوا يَوْمَئِذٍ إِنَّا لَعَلَّمُوا أَنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾

(٢) لم يُرْجَعْ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبْرِي إِحْدَى الْقَرَاءَتَيْنِ، وَمَعْنَى ذَلِكَ جَوَازُهُمَا عِنْدَهُ، فَبَايَهُمَا قَرَأَ الْقَارِئُ فَهُوَ مُصِيبٌ.

يقول تعالى ذِكْرُهُ لَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: «وَاذْكُرْ، يَا مُحَمَّدُ، رَبَّكَ إِذْ اسْتَخْرَجَ وَلَدَ آدَمَ مِنْ أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، فَقَرَّرَهُمْ بِتَوْحِيدِهِ، وَأَشْهَدَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ شَهَادَتَهُمْ بِذَلِكَ وَإِقْرَأَهُمْ بِهِ.

(وَأَمَّا قَوْلُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ): «شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ»، فَالظَاهِرُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ خَبِرَ مِنْ اللَّهِ عَنْ قِيلِ بَنِي آدَمَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، لِأَنَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قَالَ: «وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمُ الَّتِي بَرَكْتُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا»، فَكَانَهُ قِيلَ: فَقَالَ الَّذِينَ شَهِدُوا عَلَى الْمُقَرَّرِينَ حِينَ أَقْرَأُوا فَقَالُوا: «بَلَى» -: شَهِدْنَا عَلَيْكُمْ بِمَا أَقْرَأْتُمْ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، كَيْلَا تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ» ﴿١٧٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: شَهِدْنَا عَلَيْكُمْ، أَيُّهَا الْمُقَرَّرُونَ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ، كَيْلَا تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ»، إِنَّا كُنَّا لَا نَعْلَمُ ذَلِكَ، وَكُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْهُ. «أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ»، اتَّبَعْنَا مِنْهَا جَهْلَهُمْ. «أَفَتُهْلِكُنَا»، بِإِشْرَاكِ مَنْ أَشْرَكَ مِنْ آبَائِنَا، وَاتَّبَاعِنَا مِنْهَا جَهْلَهُمْ عَلَى جَهْلٍ مِنَّا بِالْحَقِّ؟

ويعني بقوله: «بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ»، بِمَا فَعَلَ الَّذِينَ أَبْطَلُوا، فِي دَعْوَاهُمْ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَكَمَا فَضَّلْنَا، يَا مُحَمَّدُ، لِقَوْمِكَ آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَبَيَّنَّا فِيهَا مَا فَعَلْنَا بِالْأَسْمِ السَّالِفَةِ قَبْلَ قَوْمِكَ، وَأَحْلَلْنَا بِهِمْ مِنَ الْمَثَلَاتِ بِكُفْرِهِمْ وَإِشْرَاكِهِمْ فِي عِبَادَتِي غَيْرِي، كَذَلِكَ نُفَضِّلُ الْآيَاتِ غَيْرَهَا وَنُبَيِّنُهَا لِقَوْمِكَ، لِيَنْزَجِرُوا وَيُتَدَعُوا، فَيَنْبِيئُوا إِلَى طَاعَتِي، وَيَتُوبُوا مِنْ شُرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، فَيَرْجِعُوا إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِقْرَارِ بِتَوْحِيدِي، وَإِفْرَادِ الطَّاعَةِ لِي، وَتَرْكِ عِبَادَةِ مَا سِوَايَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا أَفَاتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: «وَآتَلْ»، يَا مُحَمَّدُ، عَلَى قَوْمِكَ. «نَبَأَ» الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا، يَعْنِي خَبْرَهُ وَقِصَّتَهُ.

وكَانَتْ آيَاتُ اللَّهِ لِلَّذِي آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا فِيمَا يُقَالُ: اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ - وَقِيلَ: النَّبُوءَةُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «فَانْسَلَخَ مِنْهَا»، فَإِنَّهُ يَعْنِي: خَرَجَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي كَانَ اللَّهُ آتَاهَا إِيَّاهُ، فَتَبَرَّأَ مِنْهَا.

وَقَوْلُهُ: «فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ»، يَقُولُ: فَصَيَّرَهُ لِنَفْسِهِ تَابِعاً يَنْتَهِي إِلَى أَمْرِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَيُخَالِفُ أَمْرَ رَبِّهِ فِي مَعْصِيَةِ الشَّيْطَانِ وَطَاعَةِ الرَّحْمَنِ.

وَقَوْلُهُ: «فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ»، يَقُولُ: فَكَانَ مِنَ الْهَالِكِينَ، لِضَلَالِهِ وَخِلَافِهِ أَمْرَ رَبِّهِ، وَطَاعَةَ الشَّيْطَانِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُكَلِّمَهُ أَهْلًا إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَا هَذَا الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا بآيَاتِنَا الَّتِي آتَيْنَاهُ. «ولكنه أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ»، يقول: سَكَنَ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَرْضِ، وَمَا إِلَيْهَا، وَاتَّرَلَذَّتْهَا وَشَهَوَاتِهَا عَلَى الْآخِرَةِ. «وَاتَّبَعَ هَوَاهُ»، وَرَفَضَ طَاعَةَ اللَّهِ وَخَالَفَ أَمْرَهُ.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَا بِهَا».

فقال بعضهم: معناه: لَرَفَعْنَا بِعِلْمِهِ بِهَا.

وقال آخرون: معناه: لَرَفَعْنَا عَنْهُ الْحَالَ الَّتِي صَارَ إِلَيْهَا مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ، بآيَاتِنَا.

وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إِنَّ اللَّهَ عَمَّ الْخَبَرَ بِقَوْلِهِ: «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَا بِهَا»، أَنَّهُ لَوْ شَاءَ رَفَعَهُ بآيَاتِهِ الَّتِي آتَاهُ إِيَّاهَا، وَ«الرَّفْعُ»، يَعْمُ مَعَانِي كَثِيرَةً: مِنْهَا الرَّفْعُ فِي الْمَنْزِلَةِ عِنْدَهُ، وَمِنْهَا الرَّفْعُ فِي شَرَفِ الدُّنْيَا وَمَكَارِمِهَا، وَمِنْهَا الرَّفْعُ فِي الذِّكْرِ الْجَمِيلِ وَالثَّنَاءِ الرَّفِيعِ. وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَنَى كُلِّ ذَلِكَ: أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَرَفَعَهُ، فَأَعْطَاهُ كُلَّ ذَلِكَ، بِتَوْفِيقِهِ لِلْعَمَلِ بآيَاتِهِ الَّتِي كَانَ آتَاهَا إِيَّاهُ. وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا، فَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِيهِ أَنْ لَا يُخَصَّصَ مِنْهُ شَيْءٌ، إِذْ كَانَ لَا دَلَالََةَ عَلَى خُصُوصِهِ مِنْ خَبَرٍ وَلَا عَقْلِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَشَلُّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَهْ يَلْهَثْ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَمَثَلُ هَذَا الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا، مَثَلُ الْكَلْبِ الَّذِي يَلْهَثُ، طَرَدَتْهُ أَوْ تَرَكَتُهُ.

ثم اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله جَعَلَ اللَّهُ مَثَلَهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ.

فقال بعضهم: مثلهُ به في اللهث، لتركه العمل بكتاب الله وآياته التي آتاه إياه، وإعراضه عن مواعظ الله التي فيها إعراضٌ مَنْ لم يؤتِ الله شيئاً من ذلك. فقال جلُّ ثناؤه فيه، إذ كان سواء أمره، وعظُ بآياتِ الله التي آتاه إياه أو لم يُوعظ، في أنه لا يتعظُ بها، ولا يتركُ الكفرَ به: فمثله مثل الكلب الذي سواء أمره في لهثه، طُرِدَ أو لم يُطَرَّد، إذ كان لا يتركُ اللهثَ بحالٍ.

وقال آخرون: إنما مثلهُ جلُّ ثناؤه بالكلب، لأنه كان يلهثُ كما يلهثُ الكلبُ.

وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويلٌ مَنْ قال: إنما هو مثلٌ لتركه العمل بآياتِ الله التي آتاه إياه، وأنَّ معناه: سواء وعظٌ أو لم يُوعظ، في أنه لا يترك ما هو عليه من خلافه أمرَ ربِّه، كما سواء حُمِلَ على الكلبِ وطُرِدَ أو ترك فلم يُطَرَّد، في أنه لا يدعُ اللهثَ في كلِّتا حالتيه.

وإنما قلنا: ذلك أولى القولين بالصواب، لدلالة قوله تعالى: «ذلك مثلُ القومِ الذين كَذَّبُوا بآياتِنَا»، فجعل ذلك مثلُ المكذِّبين بآياته. وقد علمنا أن اللُّهات ليس في خِلقة كُلِّ مُكذِّبٍ كُتِبَ عليه تركُ الإنابة من تكذيبه بآياتِ الله، وأنَّ ذلك إنما هو مثلُ ضربه الله لهم. فكان معلوماً بذلك أنه للذي وصفه الله صِفَتُهُ في هذه الآية، كما هو لسائر المكذِّبين بآياتِ الله، مثلُ.

القولُ في تأويلِ قوله تعالى: ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

يقول تعالى ذكره: هذا المثل الذي ضربته لهذا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، مثلُ القومِ الذين كَذَّبُوا بِحُجَجِنَا وأعلامِنَا وأدَلَّتِنَا، فَسَلَكُوا في ذلك سبيلَ هذا المُنسلخِ من آياتنا الذي آتيناه إياه، في تركه العمل بما آتيناه من ذلك.

وأما قوله: «فَاقْصُصِ الْقَصَصَ»، فإنه يقول لنبيه محمد ﷺ: فاقصص، يا محمد، هذا القصص الذي اقتصصته عليك - من نبأ الذي آتيناها وأخبار الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصصت عليك نبأهم ونبأ أشباههم، وما حل بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رسلنا من نعمتنا - على قومك من قريش، ومن قبلك من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا وينبئوا إلى طاعتنا، لئلا يحل بهم مثل الذي حل بمن قبلهم من النقم والمثلات، ويتدبره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقة أمرك وصحة نبوتك، إذ كان نبأ «الذي آتيناها آياتنا»، من خفي علومهم، ومكنون أخبارهم، لا يعلمه إلا أخبارهم، ومن قرأ الكتاب ودرسها منهم. وفي علمك بذلك - وأنت أمي لا تكتب، ولا تقرأ، ولا تدرس الكتاب، ولم تجالس أهل العلم - الحجة البينة لك عليهم بأنك لله رسول، وأنك لم تعلم ما علمت من ذلك وحالك الحال التي أنت بها، إلا بوحي من السماء.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا

يقول تعالى ذكره: ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بحجج الله وأدلته فجدوها، وأنفسهم كانوا ينقصون حظوظها ويبخسونها منافعتها، بتكذيبهم بها، لا غيرها.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ

يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

يقول تعالى ذكره: الهداية والإضلال بيد الله، و«المهتدي» - وهو السالك

سبيل الحق، الراكب قصد المحجة - في دينه، من هده الله لذلك فوقه لإصابته، والضال من خذله الله فلم يوفقه لطاعته. ومن فعل الله ذلك به فهو «الخاسر»، يعني الهالك.

القول في تأويل قوله تعالى: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا

يقول تعالى ذكره: ولقد خلقنا للجهنم كثيراً من الجن والإنس. وقال جل ثناؤه: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس»، لنفاذ عليهم فيهم بأنهم يصيرون إليها بكفرهم ربهم.

وأما قوله: «لهم قلوب لا يفقهون بها»، فإن معناه: لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم من خلقه، قلوب لا يتفكرون بها في آيات الله، ولا يتدبرون بها أدلته على وحدانيته، ولا يعتبرون بها حججه لرسوله، فيعلموا توحيد ربهم، ويعرفوا حقيقة نبوة أنبيائهم. فوصفهم ربنا جل ثناؤه بأنهم: «لا يفقهون بها»، لإعراضهم عن الحق، وتركهم تدبر صحة نبوة الرسل، وطول الكفر.

وكذلك قوله: «ولهم أعين لا يبصرون بها»، معناه: ولهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلتها، فيتأملوها، ويتفكروا فيها، فيعلموا بها صحة ما تدعوههم إليه رسلهم، وفساد ما هم عليه مقيمون، من الشرك بالله، وتكذيب رسله. فوصفهم الله بتركهم أعمالها في الحق، أنهم لا يبصرون بها.

وكذلك قوله: «ولهم آذان لا يسمعون بها»، آيات كتاب الله، فيعتبروها ويتفكروا فيها، ولكنهم يعرضون عنها ويقولون: «لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» [فصلت: ٢٦].

وذلك نظير وَصَفِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِقَوْلِهِ: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. والعربُ تقول ذلك للتاركِ استعمالَ بعضِ جوارحه فيما يصلحُ له.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ

الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ: «أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ»، هؤلاء الذين ذَرَأَهُمْ لَجَنَّهُمْ، هُمْ كَالْأَنْعَامِ، وهي البهائم التي لا تفقه ما يُقَالُ لها، ولا تفهم ما أبصرته، لما يَصْلُحُ ولما لا يَصْلُحُ، ولا تعقلُ بقلوبها الخيرَ من الشرِّ، فتُمَيِّزُ بينهما. فَشَبَّهَهُمُ اللَّهُ بها، إِذْ كَانُوا لَا يَتَذَكَّرُونَ مَا يَرَوْنَ بِأَبْصَارِهِمْ مِنْ حُجَجِهِ، وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي مَا يَسْمَعُونَ مِنْ آيِ كِتَابِهِ. ثم قال: «بَلْ هُمْ أَضَلُّ»، يقول: هؤلاء الكُفَرَةُ الَّذِينَ ذَرَأَهُمْ لَجَنَّهُمْ، أَشَدُّ ذَهَابًا عَنِ الْحَقِّ، وَالزَّمْ لَطَرِيقِ الْبَاطِلِ، مِنَ الْبِهَائِمِ، لِأَنَّ الْبِهَائِمَ لَا اخْتِيَارَ لَهَا وَلَا تَمَيِّزَ فَتَخْتَارُ وَتُمَيِّزُ، وَإِنَّمَا هِيَ مُسَخَّرَةٌ، وَمَعَ ذَلِكَ تَهْرُبُ مِنَ الْمَضَارِّ، وَتَطْلُبُ لِنَفْسِهَا مِنَ الْغِذَاءِ الْأَصْلَحَ. وَالَّذِينَ وَصَفَ اللَّهُ صِفَتَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، مَعَ مَا أُعْطُوا مِنَ الْإِنْفِهَامِ وَالْعُقُولِ الْمُمَيِّزَةِ بَيْنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَضَارِّ، تَرَكَ مَا فِيهِ صَلَاحٌ دُنْيَاها وَآخِرَتِها، وَتَطْلُبُ مَا فِيهِ مَضَارُّها، فَالْبِهَائِمُ مِنْهَا أَشَدُّ، وَهِيَ مِنْهَا أَضَلُّ، كَمَا وَصَفَهَا بِهِ رَبُّنَا جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

وقوله: «أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» يقول تعالى ذِكْرَهُ: هؤلاء الذين وصفتُ صِفَتَهُمُ، الْقَوْمُ الَّذِينَ غَفَلُوا - يعني: سهوا - عَنِ آيَاتِي وَحُجَجِي، وَتَرَكُوا تَذَبُّرَها وَالْإِعْتِبَارَ بِها وَالِاسْتِدْلَالَ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ رَبِّها، لَا الْبِهَائِمِ الَّتِي قَدْ عَرَفَها رَبُّها مَا سَخَرَهَا لَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «ولله الأسماء الحسنى»، وهي كما قال ابن عباس: ومن أسمائه: «العزیز الجبار» وكلُّ أسمائه حَسَنٌ. (وما رواه) أبو هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِثْلُ إِلا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا كُلَّهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ^(١)

وأما قوله: «وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ»، فإنه يعني به المشركين. وكان إلحادهم في أسماء الله، أنهم عدَّلوا بها عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ، فَسَمَّوْا بِهَا آلِهَتَهُمْ وَأَوْثَانَهُمْ، وَزَادُوا فِيهَا، وَنَقَصُوا مِنْهَا، فَسَمَّوْا بَعْضُهَا «اللات»، اشتقاقاً منهم لها من اسم الله الذي هو «الله»، وَسَمَّوْا بَعْضُهَا «العُزَّى»، اشتقاقاً لها من اسم الله الذي هو «العزیز».

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «يلحدون».

فقال بعضهم: يُكْذِبُونَ.

وقال آخرون: معنى ذلك: يُشْرِكُونَ.

وأصل «الإلحاد» في كلام العرب، العدولُ عن القَصْدِ، والجورُ عنه، والإعراضُ. ثم يستعملُ في كلِّ مُعَوَّجٍ غَيْرِ مُسْتَقِيمٍ. ولذلك قِيلَ لِلْحَدِّ الْقَبْرِ: «لَحْدٌ»، لأنه في ناحية منه، وليس في وسطه. يقال منه: «أَلَحَدَ فَلَانٌ يُلْحِدُ إِلْحَادًا»، «وَلَحَدَ يُلْحِدُ لَحْدًا وَلُحُودًا».

(١) أخرجه المؤلف من طريق ابن سيرين عن أبي هريرة (١٥٤٥٢)، وكذلك مسلم (وأخرجه البخاري (٦٤١٠) ومسلم () من طريق الأعرج عن أبي هريرة.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ

يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَمِنَ الْخَلْقِ الَّذِينَ خَلَقْنَا «أُمَّةً»، يعني جماعةً. «يَهْدُونَ»، يقول: يهتدون بِالْحَقِّ. «وبِهِ يَعْدِلُونَ»، يقول: وبِالْحَقِّ يَقْضُونَ وَيُنْصِفُونَ النَّاسَ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ

حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآدِلَتِنَا وَأَعْلَامِنَا فَجَحَدُوا، وَلَمْ يَتَذَكَّرُوا بِهَا، سَنَمُهِلُهُ بِغُرَّتِهِ، وَنُزَيِّنُ لَهُ سَوْءَ عَمَلِهِ، حَتَّى يَحْسَبَ أَنَّهُ فِيمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ تَكْذِيبِهِ بِآيَاتِ اللَّهِ إِلَى نَفْسِهِ مُحْسِنٌ، وَحَتَّى يَبْلُغَ الْغَايَةَ الَّتِي كُتِبَتْ لَهُ مِنَ الْمَهْلِ، ثُمَّ يَأْخُذْهُ بِأَعْمَالِهِ السَّيِّئَةِ، فَيَجَازِيهِ بِهَا مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا قَدْ أَعَدَّ لَهُ. وَذَلِكَ اسْتِدْرَاجُ اللَّهِ إِيَّاهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأُمْلِي لَهُمْ إِيَّاكَ كِيدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: وَأَوْخِرْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا.

وَأَصْلُ «الْإِمْلَاءِ» مِنْ قَوْلِهِمْ: «مَضَى عَلَيْهِمْ مَلِيٌّ، وَمِلَاوَةٌ وَمِلَاوَةٌ وَمِلَاوَةٌ» بِالْكَسْرِ وَالضَّمِّ وَالْفَتْحِ - «مِنَ الدَّهْرِ»، وَهِيَ الْحِينُ، وَمِنْهُ قِيلَ: «انْتَظَرْتُكَ مَلِيًّا». لِيَبْلُغُوا بِمَعْصِيَتِهِمْ رَبَّهُمْ، الْمَقْدَارَ الَّذِي كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الْعِقَابِ وَالْعَذَابِ. «إِنْ كِيدِي»، وَالْكَيْدُ هُوَ الْمَكْرُ. وَقَوْلُهُ: «مَتِينٌ»، يَعْنِي: قَوِي شَدِيدٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» ﴿١٨٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا هَؤُلَاءِ (الذين كَذَّبُوا بآياتنا، فيتدبرُوا بعقولهم ويعلموا أَنَّ رَسُولَنَا الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْهِمْ لَا جِنَّةَ بِهِ وَلَا خَبَلَ، وَأَنَّ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَيْهِ هُوَ الرَّأْيُ الصَّحِيحُ، وَالِدِينُ الْقَوِيمُ، وَالْحَقُّ الْمُبِينُ؟) وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: «إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ»، مَا هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ يُنذِرُكُمْ عِقَابَ اللَّهِ عَلَى كُفْرِكُمْ بِهِ، إِنَّ لَمْ تُنَبِّئُوا إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ. وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ: «مُبِينٌ»، قَدْ أَبَانَ لَكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنْذَارَهُ مَا أَنْذَرَكُمْ بِهِ مِنْ بَاسِ اللَّهِ عَلَى كُفْرِكُمْ بِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ» ﴿١٨٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: «أَوَلَمْ يَنْظُرُوا هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ بآيَاتِ اللَّهِ، فِي مَلِكِ اللَّهِ وَسُلْطَانِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ، وَفِيمَا خَلَقَ جَلَّ ثَنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فِيهِمَا، فَيَتَدَبَّرُوا ذَلِكَ، وَيَعْتَبِرُوا بِهِ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ لِمَنْ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ، وَمِنْ فِعْلٍ مَنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ وَالِدِينُ الْخَالِصُ إِلَّا لَهُ، فَيُؤْمِنُوا بِهِ، وَيُصَدِّقُوا رَسُولَهُ وَيُنَبِّئُوا إِلَى طَاعَتِهِ، وَيَخْلَعُوا الْأَنْدَادَ وَالْأَوْتَانَ، وَيَحْذَرُوا أَنْ تَكُونَ أَجَالُهُمْ قَدْ اقْتَرَبَتْ، فَيَهْلِكُوا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَيَصِيرُوا إِلَى عَذَابِ اللَّهِ وَالْإِيمِ عِقَابَهُ.

وقوله: «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ»، يقول: فَبِأَيِّ تَخْوِيفٍ وَتَحْذِيرٍ تَرْهَبُ بَعْدَ تَحْذِيرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَرْهَبِيهِ الَّذِي أَتَاهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فِي آيِ كِتَابِهِ،

يُصَدِّقُونَ، إِنْ لَمْ يُصَدِّقُوا بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي

طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: إِنْ إِعْرَاضَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، التَّارِكِي النَّظَرَ فِي حَجَجِ اللَّهِ وَالْفِكْرِ فِيهَا، لِإِضْلَالِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ، وَلَوْ هَدَاهُمُ اللَّهُ لَاعْتَبَرُوا وَتَذَبَّرُوا فَأَبْصَرُوا رُشْدَهُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَضَلَّهُمْ، فَلَا يُبْصِرُونَ رُشْدًا وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا، وَمَنْ أَضَلَّهُ عَنِ الرِّشَادِ فَلَا هَادِيَ لَهُ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَدْعُهُمْ فِي تَمَادِيهِمْ فِي كُفْرِهِمْ، وَتَمَرُّدِهِمْ فِي شُرُكِهِمْ، يَتَرَدَّدُونَ، لِيَسْتَوْجِبُوا الْغَايَةَ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُمْ مِنْ عِقَابِهِ وَأَلِيمٍ نَكَالَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا

عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ

(يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ): يَسْأَلُكَ الْقَوْمُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ: «أَيَّانَ

مُرْسَاهَا؟» يَقُولُ: مَتَى قِيَامُهَا؟

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ»، فَإِنَّهُ أَمْرٌ

مِنَ اللَّهِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَنْ يُجِيبَ سَائِلِيهِ عَنِ السَّاعَةِ بِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ وَقْتُ قِيَامِهَا إِلَّا اللَّهُ الَّذِي يَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَأَنَّهُ لَا يُظْهِرُهَا لِوَقْتِهَا وَلَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُقُلْتَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ الْإِلَآ

بَغْلَةً

معنى ذلك: ثَقُلَتِ السَّاعَةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى أَهْلِهَا، أَنْ يَعْرِفُوا وَقْتُهَا وَقِيَامَهَا، لِأَنَّ اللَّهَ أَخْفَى ذَلِكَ عَنْ خَلْقِهِ، فَلَمْ يُطْلَعْ عَلَيْهِ مِنْهُمْ أَحَدًا. وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ بِذَلِكَ بَعْدَ قَوْلِهِ: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ»، وَأَخْبَرَ بَعْدَهُ أَنَّهَا لَا تَأْتِي إِلَّا بَغْتَةً، فَالَّذِي هُوَ أَوْلَى: أَنْ يَكُونَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ أَيْضًا خَبْرًا عَنْ خَفَاءِ عِلْمِهَا عَنِ الْخَلْقِ، إِذْ كَانَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ كَذَلِكَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً»، فَإِنَّهُ يَقُولُ: لَا تَجِيءُ السَّاعَةُ إِلَّا فَجْأَةً، لَا تَشْعُرُونَ بِمَجِيئِهَا.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: يَسْأَلُكَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَنِ السَّاعَةِ، كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا، يَعْنِي: كَأَنَّكَ خَفِيٌّ^(١) بِالسَّأَلَةِ عَنْهَا فَتَعْلَمُهَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ»، فَإِنْ مَعْنَاهُ: قُلْ، يَا مُحَمَّدُ، لِسَائِلِكَ عَنِ وَقْتِ السَّاعَةِ وَحِينَ مَجِيئِهَا: لَا عِلْمَ لِي بِذَلِكَ، وَلَا عِلْمَ بِهِ إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»، يَقُولُ: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، بَلْ يَحْسِبُونَ أَنَّ عِلْمَ ذَلِكَ يَوْجَدُ عِنْدَ بَعْضِ خَلْقِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

(١) الْخَفِيُّ: الْعَالِمُ الْمُسْتَقْصِي، وَمِنَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي خَفِيًّا﴾.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لَنَبِيٍّ مِّنْكُمْ مِّمَّنْكَ: قُلْ، يا محمدُ، لسائلكَ عن الساعةِ: «أَيَّانَ مُرْسَاها؟» «لا أملكُ لِنَفْسِي نَفْعاً ولا ضَرّاً»، يقول: لا أقدرُ على اجتلابِ نفعٍ إلى نفسي، ولا دفعِ ضَرٍّ يحلُّ بها عنها، إلا ما شاء الله أنْ أملكه من ذلك، بأنْ يُقَوِّيني عليه ويُعِينِي. «ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ»، يقول: لو كنتُ أعلمُ ما هو كائنٌ مما لم يَكُنْ بعد. «لاستكثرْتُ من الخيرِ»، يقول: لأعددتُ الكثيرَ من الخيرِ.

ثم اختلف أهلُ التأويل في معنى «الخير» الذي عناه اللهُ بقوله: «لاستكثرْتُ من الخير».

فقال بعضهم: معنى ذلك: لاستكثرْتُ من العملِ الصالحِ.

وقال آخرون: معنى ذلك: «ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ»، لأعددتُ للسنَةِ المجيدةِ من المُخَصِّبَةِ، ولعرفتُ الغلاءَ من الرُّخصِ، واستعددتُ له في الرُّخصِ.

وقوله: «وما مَسَّنِي السُّوءُ»، يقول: وما مَسَّنِي الضُّرُّ. «إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ»، يقول: ما أنا إلا رسولُ اللهِ أرسلني إليكم، أنذرَ عِقَابَهُ مَنْ عَصَاهُ منكم وخالف أمره، وأبشِّرْ بِثوابِهِ وكرامته مَنْ آمَنَ به وأطاعه منكم.

وقوله: «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول: يُصَدِّقُونَ بآني اللهُ رسولٌ، ويُقِرُّونَ بحقيقةِ ما جئتُهم به من عنده.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَامْرَأَتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَبْلاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ»، يعني بـ«النفس الواحدة»، آدم.

ويعني بقوله: «وَجَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا»، وجعل من النفس الواحدة، وهو آدم. «زوجها»، حواء.

ويعني بقوله: «لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا»، ليأوي إليها، لقضاء حاجته ولذته.

ويعني بقوله: «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا»، فلما تَذَرَّهَا لقضاء حاجته منها، ففُضِيَ حاجته منها. «حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً»، وفي الكلام محذوف، ترك ذكره استغناءً بما ظهر عما حذف، وذلك قوله: «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ»، وإنما الكلام: فلما تغشاهَا - ففُضِيَ حاجته منها - حَمَلَتْ.

وقوله: «حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً»، يعني بـ«خفة الحمل»، الماء الذي حملته حواء في رَحِمِهَا من آدم، أنه كان حَمَلاً خَفِيفاً، وكذلك هو حمل المرأة ماء الرجل، خفيف عليها.

وأما قوله: «فَمَرَّتْ بِهِ»، فإنه يعني: استمرت بالماء، قامت به وَقَعَدَتْ، وَأَتَمَّتَ الحمل.

ويعني بقوله: «فَلَمَّا أَثْقَلَتْ»، فلما صار ما في بطنها من الحمل الذي كان خفيفاً، ثَقِيلاً، وَذَنَتْ وَلَازَتْهَا.

«دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا»، يقول: نادى آدم وحواء رَبَّهُمَا وقالَا: يَا رَبَّنَا، «لَيْتَ آتَيْنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ».

واختلف أهل التأويل في معنى «الصالح»، الذي أقسم آدم وحواء عليهما السلام أنه إن آتاها صالِحاً في حَمَلٍ حواء: لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ.

فقال بعضهم: ذلك هو أن يكون الحمل غلاماً.

وقال آخرون: بل هو أن يكون المولود بشراً سويّاً مثلهما، ولا يكون

بهيمة.

والصواب من القول في ذلك أن يُقال: إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما دَعَوَا الله رَبَّهُمَا بِحَمَلِ حواء، وأقسما لئن أعطاهما ما في بطنِ حواء، صالحاً، ليكونانِ لله من الشاكرين.

و«الصلاح»، قد يشمل معاني كثيرة: منها «الصلاح» في استواء الخلق، ومنها «الصلاح» في الدين، و«الصلاح» في العقل والتدبير.

وإذ كان ذلك كذلك، ولا خبر عن الرسول يُوجبُ الحجةَ بأن ذلك على بعض معاني «الصلاح» دون بعض، ولا فيه من العقل دليل، وَجَبَ أن يُعْمَ كما عَمَّهُ اللهُ فيقال: إنهما قالا: «لئن آتَيْتَنَا صَالِحاً»، بجميع معاني «الصلاح».

وأما معنى قوله: «لنكوننَّ من الشاكرين»، فإنه: لنكوننَّ مِنْ مَنْ يَشْكُرُكَ على ما وهبتَ له من الولدِ صالحاً.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَلَحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا
ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما رَزَقَهُمَا اللهُ ولداً صالحاً كما سألا «جعلاً له شركاءَ فيما آتاهما»، ورَزَقَهُمَا.

ثم اختلف أهل التأويل في «الشركاء» التي جعلها فيما أُوتِيَا من المولود.

فقال بعضهم: جعلاً له شركاء في الاسم.

وقال آخرون: بل المعني بذلك: رجلٌ وامرأةٌ من أهل الكفر من بني آدم، جعلاً لله شركاء من الآلهة والأوثان حين رَزَقَهُمَا ما رَزَقَهُمَا من الولد. وقالوا: معنى الكلام: «هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وجعلَ منها زوجَها ليسكنَ إليها فلما تَغَشَّاهَا»، أي هذا الرجل - «حملت حملاً خفيفاً فلما أثقلت»، دَعَوْتُمَا اللهَ رَبُّكُمَا. قالوا: وهذا مما ابتدئ به الكلام على وجه الخطاب، ثم رُدُّ إلى الخبر عن الغائب، كما قيل: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرَمَ بِكُمْ بِرِيحٌ طَوِيَّةٌ﴾ [يونس: ٢٢] وقد بيَّنا نظائر ذلك بشواهد فيما مضى قَبْلُ.

وأولى القولين بالصواب، قول مَنْ قَالَ: عَنَى بقوله: «فلما آتَاهُمَا صالحاً جعلاً له شركاء» في الاسم، لا في العبادة - وأن المعني بذلك آدم وحواء، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك.

فإن قال قائل: فما أنت قائل - إذ كان الأمر على ما وصفت في تأويل هذه الآية، وأن المعني بها آدم وحواء - في قوله: «فتعالى الله عما يشركون»؟ أهو استنكاف من الله أن يكون له في الأسماء شريك، أو في العبادة؟ فإن قلت: «في الأسماء»، دل على فسادِ قوله: «أُشْرِكُونَ ما لا يخلق شيئاً وهم يُخْلَقُونَ»؟ فإن قلت: «في العبادة»، قيل لك: أفكان آدم أشرك في عبادة الله غيره؟

قيل له: إن القول في تأويل قوله، «فتعالى الله عما يشركون»، ليس بالذي ظننت. وإنما القول فيه: فتعالى الله عما يُشْرِكُ به مشركو العرب من عبدة الأوثان. فأما الخبر عن آدم وحواء، فقد انقضى عند قوله: «جعلاً له شركاء فيما آتاهما»، ثم استؤنف قوله: «فتعالى الله عما يشركون».

وأما قوله: «فتعالى الله عما يشركون»، فتتزيه من الله تبارك وتعالى نفسه، وتعظيم لها عما يقول فيه المبطلون، ويدعون معه من الآلهة والأوثان.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ



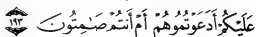
يقول تعالى ذِكْرَهُ: أَيْشْرِكُونَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، فَيَعْبُدُونَ مَعَهُ «مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا»، وَاللَّهُ يَخْلُقُهَا وَيُنْشِئُهَا؟ وَإِنَّمَا الْعِبَادَةُ الْخَالِصَةُ لِلْخَالِقِ لَا لِلْمَخْلُوقِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ



يقول تعالى ذِكْرَهُ: أَيْشْرِكُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْصُرَهُمْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ سُوءًا أَوْ أَحْلَ بِهِمْ عَقِيبَةً، وَلَا هُوَ قَادِرٌ إِنْ أَرَادَ بِهِ سُوءًا نَصْرَ نَفْسِهِ وَلَا دَفْعَ ضَرِّ عَنْهَا؟ وَإِنَّمَا الْعَابِدُ يَعْبُدُ مَا يَعْبُدُهُ لاجْتِلَابِ نَفْعٍ مِنْهُ أَوْ لِدَفْعِ ضَرٍّ مِنْهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَالْهَتَمُ الَّذِي يَعْبُدُونَهَا وَيَشْرِكُونَهَا فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، لَا تَنْفَعُهُمْ وَلَا تَضُرُّهُمْ، بَلْ لَا تَجْتَلِبُ إِلَى نَفْسِهَا نَفْعًا وَلَا تَدْفَعُ عَنْهَا ضَرًّا، فَهِيَ مِنْ نَفْعٍ غَيْرِ أَنْفُسِهَا أَوْ دَفْعِ الضَّرِّ عَنْهَا أَبْعَدُ؟ يُعْجَبُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلْقُهُ مِنْ عَظِيمِ خَطَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِمْ اللَّهُ غَيْرَهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْتَعِزُّوكمُ سَوَاءً



يقول تعالى ذِكْرَهُ فِي وَصْفِهِ وَعَيْبِهِ مَا يَشْرِكُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِمْ رَبَّهُمْ إِيَّاهُ. وَمِنْ صِفَتِهِ أَنْكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ وَالْأَمْرِ الصَّحِيحِ السَّيِّدِ لَا يَتَّبِعُوكُمْ، لِأَنَّهُ لَا تَعْقِلُ شَيْئًا، فَتَتْرَكَ مِنَ الطَّرِيقِ مَا كَانَ عَنِ الْقَصْدِ مُنْعَدًّا جَائِزًا، وَتَرْكِبَ مَا كَانَ مُسْتَقِيمًا سَيِّدًا.

وإِنَّمَا أَرَادَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِوَصْفِ آلِهَتِهِمْ بِذَلِكَ مِنْ صِفَتِهَا، تَنْبِيهِهُمْ عَلَى عَظِيمِ خَطِيئَتِهِمْ وَقُبْحِ اخْتِيَارِهِمْ. يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فَكَيْفَ يَهْدِيكُمْ إِلَى الرِّشَادِ مَنْ إِنْ دُعِيَ إِلَى الرِّشَادِ وَعَرَفَهُ لَمْ يَعْرِفْهُ، وَلَمْ يَفْهَمْ رِشَادًا مِنْ ضَلَالٍ، وَكَانَ سَوَاءَ دَعَاءٍ دَاعِيهِ إِلَى الرِّشَادِ وَسَكَوَتِهِ، لِأَنَّهُ لَا يَفْهَمْ دَعَاءَهُ، وَلَا يَسْمَعُ صَوْتَهُ، وَلَا يَعْقِلُ مَا يَقَالُ لَهُ. يَقُولُ: فَكَيْفَ يُعْبَدُ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ، أَمْ كَيْفَ يُشْكِلُ عَظِيمُ جَهْلٍ مَنْ اتَّخَذَ مَا هَذِهِ صِفَتُهُ إِلَهًا؟ وَإِنَّمَا الرَّبُّ الْمَعْبُودُ هُوَ النَّافِعُ مَنْ يَعْْبُدُهُ، الضَّارُّ مَنْ يَعْصِيهِ، النَّاصِرُ وَلِيِّهُ، الْخَازِلُ عَدُوُّهُ، الْهَادِي إِلَى الرِّشَادِ مَنْ أَطَاعَهُ، السَّامِعُ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهُ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا

أَمْثَالَكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٣﴾

يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ عَبِيدَةِ الْأَوْثَانِ، مُؤَنِّخُهُمْ عَلَى عِبَادَتِهِمْ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ: «إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ»، أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ، آلِهَةٌ - «مِنْ دُونِ اللَّهِ»، وَتَعْبُدُونَهَا، شِرْكًا مِنْكُمْ وَكُفْرًا بِاللَّهِ. «عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ»، يَقُولُ: هُمْ أَمْثَالُكُمْ لِرَبِّكُمْ، كَمَا أَنْتُمْ لَهُ مِمَالِيكُ. فَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَنَّهَا تَضُرُّ وَتَنْفَعُ، وَأَنَّهَا تَسْتَوْجِبُ مِنْكُمْ الْعِبَادَةَ لِنَفْعِهَا إِيَّاكُمْ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِدُعَائِكُمْ إِذَا دَعَوْتُمُوهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ، لِأَنَّهُ لَا تَسْمَعُ دُعَاءَكُمْ، فَأَيَّقِنُوا بِأَنَّهَا لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، لِأَنَّ الضَّرَّ وَالنَّفْعَ إِنَّمَا يَكُونَانِ مِمَّنْ إِذَا سُئِلَ سَمِعَ مَسْأَلَةَ سَائِلِهِ وَأَعْطَى

وَأَفْضَلُ، وَمَنْ إِذَا شَكِيَ إِلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ سَمِعَ، فَضَرَّ مِنْ اسْتَحَقَّ الْعُقُوبَةَ، وَنَفَعَ
مَنْ لَا يَسْتَوْجِبُ الضَّرَّ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلْهَمَ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ
يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا
شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ مِنْ دُونِهِ، مُعْرِفَهُمْ جَهْلَ مَا
هُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ: الْأَصْنَامُ هَذِهِ، أَيُّهَا الْقَوْمُ. «أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا»، فَيَسْعُونَ
مَعَكُمْ وَلَكُمْ فِي حَوَائِجِكُمْ، وَيَتَصَرَّفُونَ بِهَا فِي مَنَافِعِكُمْ. «أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ
بِهَا»، فَيَدْفَعُونَ عَنْكُمْ وَيَنْصُرُونَكُمْ بِهَا عِنْدَ قَصْدٍ مَنْ يَقْصِدُكُمْ بِشَرٍّ وَمَكْرٍ. «أَمْ
لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا»، فَيَعْرِفُونَكُمْ مَا عَانُوا وَأَبْصَرُوا مِمَّا تَغْيِبُونَ عَنْهُ فَلَا
تُرُونَهُ. «أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا»، فَيَخْبِرُونَكُمْ بِمَا سَمِعُوا دُونَكُمْ مِمَّا لَمْ
تَسْمَعُوهُ. يَقُولُ جَلُّ ثَنَائِهِ: فَإِنْ كَانَتْ آلِهَتُكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ
هَذِهِ الْأَلَاتِ الَّتِي ذَكَرْتُمَا، وَالْمُعْظَمُ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِنَّمَا يُعْظَمُ لِمَا يُرْجَى مِنْهُ مِنَ
الْمَنَافِعِ الَّتِي تَوْصِلُ إِلَيْهِ بَعْضُ هَذِهِ الْمَعَانِي عِنْدَكُمْ، فَمَا وَجْهُ عِبَادَتِكُمْ
أَصْنَامَكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا، وَهِيَ خَالِيَةٌ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا يُوَصَّلُ إِلَى
اجْتِلَابِ النِّفَعِ وَدَفْعِ الضَّرِّ؟

وقوله: «قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا»، قُلْ، يَا مُحَمَّدُ، لِهَؤُلَاءِ
الْمَشْرِكِينَ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ: أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ جَعَلْتُمُوهُمْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ فِي
الْعِبَادَةِ. «ثُمَّ كِيدُوا»، أَنْتُمْ وَهِيَ. «فَلَا تُنْظِرُونِ»، يَقُولُ: فَلَا تُؤَخِّرُونِ بِالْكِيدِ
وَالْمَكْرِ، وَلَكِنْ عَجِّلُوا بِذَلِكَ. يُعْلِمُهُ جَلُّ ثَنَائِهِ بِذَلِكَ أَنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوهُ، وَأَنَّهُ قَدْ
عَصَمَهُ مِنْهُمْ، وَيَعْرِفُ الْكَفَرَةَ بِهِ عَجَزَ أَوْثَانِهِمْ عَنْ نُصْرَةِ مَنْ بَنَى أَوْلِيَاءَهُمْ

بسوء.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنْ وَلَّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنبيه محمدٍ: قُلْ، يا محمد، للمشركين من عِبَادَةِ الْأَوثَانِ. «إِنْ وَلَّيَ»، نصيري ومُعِيني وظهيري عليكم. «الله الذي نَزَلَ الْكِتَابُ» عليّ بالحق، وهو الذي يتولّى مَنْ صلح عمله بطاعته من خَلْقِهِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾

وهذا أيضاً أمرٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِنبيه أن يقولهُ للمشركين. يقول تعالى ذِكْرَهُ: قُلْ لَهُمْ: إِنْ الله نصيري وظهيري، والذين تدعون أنتم، أيها المشركون، من دُونِ الله من الْأَلْهَةِ، لا يستطيعون نَصْرَكُمْ، ولا هُمْ مع عَجْزِهِمْ عن نُصْرَتِكُمْ يقدرون على نصرَةِ أَنْفُسِهِمْ. فأي هذين أَوْلَى بِالْعِبَادَةِ وَأَحَقُّ بِالْأُلُوهَةِ؟ أَمَنْ يَنْصُرُ وَلِيُّهُ وَيَمْنَعُ نَفْسَهُ مِمَّنْ أَرَادَهُ، أَمْ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ نَصْرَ وَلِيهِ وَيَعْجُزُ عَنْ مَنَعِ نَفْسِهِ مِمَّنْ أَرَادَهُ وَيَغَاهُ بِمَكْرِهِ؟

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ للمشركين: وَإِنْ تَدْعُوا، أيها المشركون، آلِهَتِكُمْ إِلَى الْهُدَى - وهو الاستقامة إِلَى السَّدادِ - «لَا يَسْمَعُوا»، يقول: لا يسمعون دُعَاءَكُمْ. «وتراهم ينظرونَ إِلَيْكَ وهم لا يبصرون».

وهذا خطابٌ من الله نَبِيَّهِ ﷺ. يقول: وتَرَى، يا محمد، آلِهَتَهُمْ ينظرونَ

إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ - وَلِذَلِكَ وَحَّدَ. ولو كان أمر النبي ﷺ بخطاب المشركين، لقال: «وترونهم ينظرون إليكم».

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فما معنى قوله: «وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ»؟ وهل يجوزُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ يَنْظُرُ إِلَى شَيْءٍ وَلَا يَرَاهُ؟

قيل: إِنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ إِذَا قَابَلَ شَيْئًا أَوْ حَاذَاهُ: «هُوَ يَنْظُرُ إِلَى كَذَا»، وَيُقَالُ: «مَنْزَلُ فَلَانٍ يَنْظُرُ إِلَى مَنْزِلِي»، إِذَا قَابَلَهُ، وَحَكَى عَنْهَا: «إِذَا أَتَيْتَ مَوْضِعَ كَذَا وَكَذَا فَنَظَرُ إِلَيْكَ الْجَبَلِ، فَخَذَّ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا»، وَحَدَّثَ عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ قَالَ: قَالَ الْكَسَائِيُّ: «الْحَائِطُ يَنْظُرُ إِلَيْكَ»، إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْكَ حَيْثُ تَرَاهُ.

فمعنى الكلام: وترى، يا محمد، آلهة هؤلاء المشركين من عبدة الأوثان، يقابلونك ويحاذونك، وهم لا يبصرونك، لأنه لا أبصارَ لهم.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: تأويله: «خُذِ الْعَفْوَ» من أخلاق الناس، وهو الفضل وما لا يجهدهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: خُذِ الْعَفْوَ من أموال الناس، وهو الفضل. قالوا: وأمر بذلك قبل نزول الزكاة، فلما نزلت الزكاة نُسخ.

وقال آخرون: بل ذلك أمر من الله نبيه ﷺ بالعفو عن المشركين، وترك الغلظة عليهم، قبل أن يفرض قتالهم عليه.

وأولى هذه الأقوال بالصواب، قول مَنْ قَالَ: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم - وقال: أمر بذلك نبيُّ الله ﷺ في المشركين.

ولإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَتَبَعَ ذلك تعليمه نبيه ﷺ محاجته المشركين في الكلام، وذلك قوله: «قُلْ اذْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَمَا تَنْظُرُونَ»، وعقبه بقوله: «وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ*» وإذا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّتَةٌ قَالُوا لَوْلَا أَعْجَبْتَنَاهَا»، فما بين ذلك، بأنَّ يكون من تأديبه نبيه ﷺ في عشرتهم به، أشبه وأولى من الاعتراض بأمره بأخذ الصدقة من المسلمين.

فإنَّ قال قائل: أفسوخ ذلك؟

قيل: لا دلالة عندنا على أنه منسوخ، إذ كان جائزاً أَنْ يكون - وإنَّ كان الله أنزله على نبيه عليه السلام في تعريفه عشرة مَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بقتاله من المشركين - مُرَاداً به تأديب نبيِّ الله والمسلمين جميعاً في عشرة الناس، وأمرهم بأخذ عفو أخلاقهم، فيكون وإن كان من أجلهم نزل، تعليماً من الله خَلَقَهُ صِفَةً عشرة بعضهم بعضاً، إذا لم يجب استعمال الغلظة والشدَّة في بعضهم. فإذا وجب استعمال ذلك فيهم، استعمل الواجب، فيكون قوله: «خذ العفو»، أمراً بأخذه ما لم يجب غير العفو، فإذا وجب غيره أخذ الواجب وغير الواجب إذا أمكن ذلك. فلا يحكم على الآية بأنها منسوخة، لما قد بيَّنَّا ذلك في نظائره في غير موضع من كتبنا.

وأما قوله: «وأمر بالعرف» فإنه يعني: أنَّ الله أمر نبيه ﷺ أَنْ يَأْمَرَ الناسَ بِالْعُرْفِ - وهو المعروف في كلام العرب، مصدر في معنى: «المعروف».

فإذْ كَانَ معنى «العرف» ذلك فمن «المعروف»: «صِلَّةُ رَحِمٍ مَنْ قَطَعَ، وإِعْطَاءُ مَنْ حَرَّمَ، والعفو عمن ظلم. وكُلُّ ما أمر الله به من الأعمالِ أو نَدَبَ

إليه، فهو من «الْعُرْفِ». ولم يخصص الله من ذلك معنىً دون معنى، فالحقُّ فيه أن يقال: قد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف كله، لا ببعض معانيه دون بعضٍ.

وأما قوله: «وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ»، فإنه أمرٌ من الله تعالى نبيه ﷺ أن يُعْرَضَ عَمَّنْ جَهْلٍ. وذلك وإن كان أمراً من الله نبيه، فإنه تأديبٌ منه عزَّ ذِكْرُه لخلقِه باحتمالِ مَنْ ظَلَمَهُمْ أو اعتدى عليهم، لا بالإعراضِ عَمَّنْ جَهْلٍ الواجبِ عليه من حقِّ الله، ولا بالصفحِ عَمَّنْ كَفَرَ بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حربٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠١﴾

يعني جُلُّ ثَنَائِهِ بقوله: «وإما ينزغنك من الشيطانِ نزغٌ»، وإما يُغْضِبَنَّكَ من الشيطانِ غضبٌ يَصُدُّكَ عن الإعراضِ عن الجاهلين، ويحملك على مجازاتهم. «فاستعذ بالله»، يقول: فاستجِرْ بالله من نزغِه. «إنه سميعٌ عليمٌ»، يقول: إن الله الذي تستعِذُّ به من نزغِ الشيطانِ. «سميعٌ»، لجهلِ الجاهلِ عليك، ولاستعاذتك به من نزغِه، ولغير ذلك من كلامِ خلقِه، لا يخفى عليه منه شيءٌ. «عليمٌ»، بما يُدْهِبُ عنكَ نَزْغُ الشيطانِ، وغير ذلك من أمورِ خلقِه. وأصل «النزغ»، الفساد، يقال: «نزغ الشيطانُ بين القومِ»، إذا أفسدَ بينهم، وحَمَلَ بعضهم على بعضٍ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا اللَّهَ مِنْ خَلْقِهِ، فَخَافُوا عِقَابَهُ، بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ. «إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا»، ويقول: إذا أَلَمَ بِهِمْ لَمَمٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، مِنْ غَضَبٍ أَوْ غَيْرِهِ مَا يَصُدُّ عَنْ وَاجِبِ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، تَذَكَّرُوا عِقَابَ اللَّهِ وَثَوَابَهُ، وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ، وَأَبْصَرُوا الْحَقَّ فَعَمِلُوا بِهِ، وَانْتَهَوْا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ، وَتَرَكُوا فِيهِ طَاعَةَ الشَّيْطَانِ.

وأما قوله: «فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ»، فإنه يعني: فإذا هم مبصرون هُذِيَ اللَّهُ وَبَيَانَهُ وَطَاعَتَهُ فِيهِ، فَمُتَّهَوْنَ عَمَّا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا

يُقْصِرُونَ» ﴿٢٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإخوان الشياطين تمُدُّهم الشياطين في الغي. يعني بقوله: «يَمُدُّوهُمْ»، يَزِيدُونَهُمْ، ثُمَّ لَا يَنْقُصُونَ عَمَّا نَقَصَ عَنْهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ.

ولإنما هذا خبرٌ من الله عن فريقَي الإيمان والكفر، بأنَّ فريقَ الإيمان وأهل تقوى الله إذا استزَلَّهم الشيطانُ تذكروا عظمةَ الله وعقابه، فكفَّتْهُمْ رَهْبَتُهُ عَنْ مَعَاصِيهِ، وَرَدَّتْهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ مِمَّا كَانَ مِنْهُمْ زَلَّةٌ - وَأَنَّ فريقَ الكافرين يزيدهم الشيطانُ غِيًّا إِلَى غِيِّهِمْ إِذَا رَكَبُوا مَعْصِيَةً مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وَلَا يَحْجِزُهُمْ تَقْوَى اللَّهِ، وَلَا خَوْفُ الْمَعَادِ إِلَيْهِ عَنِ التَّمَادِي فِيهَا وَالزِّيَادَةِ مِنْهَا، فَهُوَ أَبَدًا فِي زِيَادَةِ مِنْ رُكُوبِ الْإِثْمِ، وَالشَّيْطَانُ يَزِيدُهُ أَبَدًا، لَا يُقْصِرُ الْإِنْسِي عَنْ شَيْءٍ مِنْ رُكُوبِ الْفَوَاحِشِ، وَلَا الشَّيْطَانُ مِنْ مَدَّةٍ مِنْهُ،

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا جَنَّبَيْتُمَا

يقول عَزَّ ذِكْرُهُ: وإذا لم تأتِ، يا محمدُ، هؤلاءِ المشركينَ بآيةٍ من الله قالوا لولا اجْتَبَيْتَهَا. يقول: قالوا: هَلَّا اخْتَرْتَهَا وَاصْطَفَيْتَهَا. من قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، [آل عمران: ١٧٩]، يعني: يختارُ ويصْطَفِي.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرَ مِنْ رَبِّكُمْ، وَهَذِي وَرَحْمَةُ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، للقائلينَ لَكَ إذا لم تأتِهم بآيةٍ: «هَلَّا أَحَدْتَهَا مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ!»: إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ لِي، ولا يجوزُ لي فِعْلُهُ، لأنَّ الله إنما أمرني باتِّباعِ ما يُوحَىٰ إليَّ من عنده فإنما أَتَّبِعُ ما يُوحَىٰ إليَّ من ربي، لأنِّي عَبدُهُ، وإلى أمرِهِ أَنتَهِي، وإياه أَطِيعُ. «هذا بصائرُ من رَبِّكُمْ»، يقول: هذا القرآنُ والوحي الذي أتَלוهُ عليكم. «بصائرُ من رَبِّكُمْ»، يقول: حُجِّجْ عليكم، وبيانُ لكم من رَبِّكُمْ.

وقوله: «وهدي»، يقول: وبيانُ يَهْدِي المؤمنينَ إلى الطريقِ المستقيمِ. «ورحمته»، رَحِمَ اللهُ به عبادَهُ المؤمنينَ، فأَنقَذَهُم به من الضلالةِ والهلكةِ. «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول: هو بصائرُ من الله وهدي ورحمةٌ لمن آمَنَ، يقول: لمن صَدَّقَ بالقرآنِ أَنَّهُ تَنْزِيلُ اللهِ وَوَحْيُهُ، وَعَمِلَ بما فيه، دُونَ مَنْ كَذَّبَ به وَجَحَّدَهُ وكَفَرَ به، بَلْ هو على الذين لا يؤمنون به عَمَىٰ وَخِزْيٌ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرَهُ للمؤمنينَ به، الْمُصَدِّقِينَ بكتابِهِ، الذين القرآنُ لَهُم هُدًى

ورحمة: «إذا قرىء عليكم، أيها المؤمنون، القرآن». «فاستمعوا له»، يقول: اصغوا له سمعكم، لتفقهوا آياته، وتعتبروا بمواعظه. «وانصتوا»، إليه لتعقلوه وتندبروه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه. «لعلكم ترحمون»، يقول: ليرحمكم ربكم بأعظكم بمواعظه، واعتباركم بعبره، واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه في آيه.

ثم اختلف أهل التأويل في الحال التي أمر الله بالاستماع لقارىء القرآن إذا قرأ والإنصات له.

فقال بعضهم: ذلك حال كون المصلي في الصلاة خلف إمام يأت به، وهو يسمع قراءة الإمام، عليه أن يستمع لقراءته. وقالوا: في ذلك أنزلت هذه الآية.

وقال آخرون: بل غني بهذه الآية، الأمر بالإنصات للإمام في الخطبة، إذا قرأ القرآن في خطبته.

وقال آخرون: عنى بذلك الإنصات في الصلاة، وفي الخطبة.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: امرؤ باستماع القرآن في الصلاة إذا قرأ الإمام، وكان من خلفه ممن يأت به يسمعه، وفي الخطبة.

وانما قلنا ذلك أولى بالصواب، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا قرأ الإمام فأنصتوا»^(١)، وإجماع الجميع على أن على من سمع خطبة الإمام ممن عليه الجمعة، الاستماع والإنصات لها، مع تنأيع الأخبار بالأمر بذلك عن رسول الله ﷺ، وأنه لا وقت يجب على أحد استماع القرآن، والإنصات لسمعه، من قارئه، إلا في هاتين الحالتين، على اختلاف في

(١) انظر طرق الحديث في البيهقي: ١٥٥/٢-١٥٦.

إحداهما، وهي حالة أن يكون خلف إمام مؤتم به. وقد صحَّ الخبر عن رسول الله ﷺ بما ذكرنا من قوله: «إذا قرأ الإمام فأنصتوا»، فالإنصات خلفه لقراءته واجب على مَنْ كان به مؤتماً سامعاً قراءته، بعموم ظاهر القرآن والخبر عن رسول الله ﷺ.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَأَذْكُرْكَ** فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا

أَوْ خِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

يقول تعالى ذكره: «وَأَذْكُرْ»، أيها المستمع المنصت للقرآن، إذا قرىء في صلاة أو خطبة^(١)، «وَبِكَ فِي نَفْسِكَ»، يقول: اتعظ بما في أي القرآن واعتبر به، وتذكر معادك إليه عند سماعك... «تَضَرُّعًا»، يقول: افعل ذلك تخشعاً لله وتواضعاً له. «وَخِيفَةً»، يقول: وخوفاً لله من أن يعاقبك على تقصير يكون منك في الاتعاض به والاعتبار، وغفلة عما بين الله فيه من حدوده. «ودون الجهر من القول»، يقول: ودعاء باللسان لله في خفاء لا جهار. يقول: لِيَكُنْ ذِكْرُ اللَّهِ عِنْدَ اسْتِمَاعِكَ الْقُرْآنَ فِي دَعَاءٍ إِنْ دَعَوْتَ غَيْرَ جَهَارٍ، وَلَكِنْ فِي خَفَاءٍ مِنَ الْقَوْلِ.

وأما قوله: «بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ»، فإنه يعني: بِالْبُكْرِ وَالْعِشْيَاءِ.

وأما قوله «وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ»، فإنه يقول: وَلَا تَكُنْ مِنَ اللَّاهِيْنَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ عَنْ عِظَائِهِ وَعِبَرِهِ وَمَا فِيهِ مِنْ عَجَائِهِ، وَلَكِنْ تَذَبَّرْ ذَلِكَ وَتَفَهَّمْهُ، وَأَشْعِرْهُ قَلْبَكَ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَخُضُوعٍ لَهُ، وَخَوْفٍ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ إِنْ أَنْتَ غَفَلْتَ عَنْ ذَلِكَ.

(١) اعترض العلامة ابن كثير على تفسير الطبري لهذه الآية بهذا المعنى، فذكر أن ذلك مُنافٍ للإنصات المأمور به، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغُدُوِّ وَالْآصَالِ، لئلا يكونوا من الغافلين. وهو أصوب من رأي الطبري.

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

يقول تعالى ذكره: لا تستكبر، أيها المستمع المنصت للقرآن، عن عبادة ربك، وأذكره إذا قرىء القرآن تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول، فإن الذين عند ربك من ملائكته، لا يستكبرون عن التواضع له والتخضع، وذلك هو «العبادة». «ويُسَبِّحُونَهُ»، يقول: ويُعْظَمُونَ رَبَّهُمْ بتواضعهم له وعبادتهم. «وله يَسْجُدُونَ»، يقول: ولله يُصَلُّونَ - وهو سُجُودُهُمْ - فَصَلُّوا أَنْتُمْ أَيْضاً لَهُ وَعْظَمُوهُ بِالْعِبَادَةِ، كما يفعلهُ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ.

المجلد الثالث

فهرس المحتويات

٣	تفسير سورة المائدة
٢١٥	تفسير سورة الأنعام
٣٩٧	تفسير سورة الأعراف
٥٤٩	الفهرس